



دوستويفسكي
الجريمة والعقاب

الجزء الثاني

ترجمة: سامي الدروني

الكتاب: الجريمة والعقاب (٢) (رواية)

المؤلف: دوستويفسكي

المترجم: سامي الدروبي

الطبعة الأولى: ٢٠١٠

الجزء الرابع

الفصل الأول

تساءل راسكولنيكوف مرة أخرى: «هل يمكن أن يكون هذا استمراً لحلمي؟» وأخذ يتفرّس في الزائر غير المتوقع، أخذ يتفرّس فيه محاذراً مرتاباً. ثم قال أخيراً، بصوت عالٍ، وقد استولت عليه حيرة شديدة:

— سفديجايروف! ولكن هذا مستحيل، مستحيل.

ولم يبد أن هذه الصيحة قد أثارت استغراب الزائر.

— جئت إليك لسبعين، أوهماً رغبتي في أن أتعرف إليك شخصياً، لأنني أسمع عنك مدحياً كثيراً منذ مدة طويلة. والثاني أنني أتجرأ فأأمل أن لا ترفض مساعدتي في أمر يتصل رأساً باختك آفدوتيا رومانوفنا. فإنني إذا لم اعتمد إلا على نفسي، ولم يوصي بي أحد، لا يكون إلى أمل كبير في أن ترضى آفدوتيا رومانوفنا بأن تستقبلني، لأنها تسيء الظن بي. أما إذا عاونتني أنت...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً:

— لا تعول على معاونتي...

— إنها لم تصلا إلا أمس، أليس كذلك؟

لم يجب راسكولنيكوف.

— وصلتا أمس. أعرف ذلك. وأنا نفسي لم أصل إلا أمس الأول. إليك ما أريد أن أقوله لك في هذا الصدد يا روديون رومانوفتش. إنني لا أرى داعياً إلى تبرئة نفسي، ولكن أرجو أن تأذن لي بإلقاء هذا السؤال: ما هو الذنب العظيم الذي اقترفته أنا، إذا نحن أردنا أن نحكم في الأمر حكماً سليماً مبراً من الغرض؟

ظل راسكولنيكوف يلزم الصمت.

– أليس ذنبي هو أنني لاحقت في بيتي فتاة لا تملك عن نفسها دفاعاً، وأنني «أسأت إليها بعرض دنيئة»؟ هذا هو ذنبي! أليس كذلك؟ (هأنت ذا ترى أنني أسبق غيري إلى وصف ذنبي)، ولكن أرجو أن تسلم معي بأنني أنا أيضاً إنسان، وأنه ما من إنسان^١، أقصد أنني أنا أيضاً يمكن أن أفتن وأن أهوى (وهذا ما يحدث طبعاً بدون إرادتنا). فمتي سلمت معي بهذا أمكن عندئذ تفسير كل شيء تفسيراً طبيعياً إلى أبعد الحدود. إن السؤال الوحيد الذي يجب طرحه هو السؤال التالي: أنا شيطان أم ضحية؟ فهذا لو كنت ضحية؟ لعلني حين عرضت على الفتاة التي أهبت هواي أن تسافر معي إلى أمريكا أو إلى سويسرا كنت أشعر نحوها بأسمى عواطف الاحترام، وأنني كنت فوق ذلك أظن أنني أحقق السعادة لنا كلينا! ما العقل إلا خادم الأهواء! وهكذا كنت أسيء إلى نفسي أكثر مما كنت أسيء إليها...

قاطعه راسكولنيكوف يقول باشمئاز:

– ليست هذه هي المسألة. فسواء أكنت مخطئاً أم كنت مصيباً، فأنت تثير الاشمئاز. لذلك لا أريد أن أعرف شيئاً عنك، بل أطردك، وما عليك إلا أن تنصرف!

انفجر سفدريجايلوف يقهقه على حين فجأة، ثم قال وهو يضحك ضحكا صريحاً:

– يظهر أن مخادعتك ليست بالأمر السهل. كنت أريد أن أعمد في معاملتك إلى الحيلة والمكر؛ أما وأنك وضعت إصبعك على النقطة الحساسة، فسوف...

– دعك من هذا الكلام! إنك لتمكر وتحتال حتى في هذه اللحظة!

^١ «وأنه ما من إنسان...»: وردت في النص باللاتينية *Nihil humanum* وهي إشارة إلى جملة تيرانس المشهورة: «أنا إنسان، فلا شيء مما هو إنساني غريب عنني».

فقال سفدريجايلوف مردداً وهو يقهقه:

– ماذا؟ ماذا؟ ماذا تقول؟ ولكن أليست هذه «حرباً مشروعة»؟ أليس هذا مكرراً «مسموحاً به»؟..
ل لكنك قطعت عليّ طريق الكلام مع ذلك. مهما يكن من أمر، فما كان لهذه المزعجات كلها أن توجد، لولا
حادث الحديقة. ان مارفا بتروفنا...

– مارفا بتروفنا! – قاطعه راسكولنيكوف بفظاظة. – يقال إنك أرسلتها إلى العالم الآخر...
هكذا قاطعه راسكولنيكوف بفظاظة.

فأجاب سفدريجايلوف قائلاً:

– أسمعت عن هذا أيضاً؟ كيف كان يمكن أن لا تسمع عنه على كل حال؟ أما سؤالك فإني لا أدرى
حقاً بم أجيبك عنه، رغم أن ضميري مرتاح كل الارتياح من هذه الناحية. ولا يذهبن بك الظن خاصة
إلى أن هناك أي أمر أخشاه. إن كل شيء قد جرى على نظام كامل وترتيب تام ووضوح مطلق: لقد أثبتت
الفحص الطبي أن الوفاة كانت بسكتة قلبية ناشئة عن الاستحمام بعد وجبة ثقيلة تجرعت الم توفاة أثناءها
ما يقرب من زجاجة خمر كاملة!.. ولم يمكن اكتشاف أي شيء آخر... لا، ليس هذا ما يقلقني. ولكنني
قد تسألت طوال الرحلة في القطار: ألم أساهم في هذه النازلة مع ذلك بعض المساهمة، بإحداث
اضطراب نفسي أو شيء من هذا القبيل؟ على أنني انتهيت إلى أن هذا أيضاً مستحيل.

أخذ راسكولنيكوف يضحك، وقال له:

– هناك ما يدعوك إلى القلق حقاً.

^٢ حرب مشروعة. (بالفرنسية في الأصل).

– ولكن لماذا تضحك؟ فكر قليلاً: إنني لم أضر بها بالسوط إلا ضربتين اثنين... ضربتين لم تخلقاً أثراً. لا تحسبني رجلاً مستخفاً مستهتراً، أرجوك! أنا أعرف أن سلوكك كان دنيئاً، أخ. ولكنني أعلم أيضاً أن دلائل «الاتهام» هذه لم تكن تسوء مارفا بتروفنا. كانت مارفا بتروفنا قد وجدت نفسها منذ ثلاثة أيام مضطرة إلى أن تقع في البيت. لقد انتهت قصة أختك تماماً ولم يكن قد بقي أي سبب يدعوها إلى الظهور في المدينة، بعد أن أغرت جميع الناس بقراءة تلك الرسالة (لا شك أنك سمعت عن قراءة تلك الرسالة أيضاً). وها هما ضربتا السوط تنزلان عليها وكأنهما من السماء. فكان أول همٌ لها أن تقرن الخيل بالعربة... لست في حاجة إلى أن ألفت نظرك إلى أن بعض النساء يشعرن بلذة قوية حين تلتحق بهن إهانة، مهما يكن غضبهن الظاهر منها. بل إن جميع الناس يعرفون هذا النوع من العواطف: فالنوع الإنساني يحب الإهانات كثيراً، هل لاحظت هذا؟ ولكن النساء يحببنها حباً خاصاً، حتى ليتمكن أن يُقال أنهن لا يمكن أن يعشن بغير إهانات أو إساءات.

خطر ببال راسكولنيكوف في لحظة من اللحظات أن ينهض وأن ينصرف ليختتم الحديث. ولكن نوعاً من الفضول بل ونوعاً من الحساب قد صدّاه عن ذلك للحظة، فسأل في ذهول:

– هل تحب الضرب كثيراً؟

فأجابه سفدريجايلوف بهدوء:

– لا، ليس كثيراً جداً. فأنا ومارفا بتروفنا، مثلاً، لم نكدر نتضارب قط. كنا نعيش دائماً في وفاق ووئام، وكانت راضية عنني في جميع الأحيان. ولم أعمد إلى استعمال السوط طوال السبعين السبع التي عشناها معاً، إلا مرتين اثنين (هذا إذا استثنينا مرة ثلاثة مشتبهه): فأما المرة الأولى فبعد زواجنا بشهرين، أي منذ وصولنا إلى الريف، وأما المرة الثانية والأخيرة فمنذ مدة قصيرة كما تعلم. وأنت تظن مع ذلك أنني

شيطان رجيم، أنتي رجل من دعاة الرجعية وأنصار العبودية!.. هيء هيء!.. بالمناسبة: هل تتذكر يا روديون رومانوفتش ذلك الرجل النبيل – لقد نسيتُ أنا اسمه! – الذي لُطخ بالوحل على مرأى من الناس، منذ بضع سنين، في عهد «النقد المفید»^٣، لأنه ضرب بالسوط امرأة ألمانية في قطار؟ هل تتذكر؟ أظن أن ذلك حدث في نفس السنة التي وقعت فيها الفاحشة التي تحدثت عنها مجلة «العصر»؛ (لا شك في أنك تتذكر المحاضرة العامة عن «ليالي مصر»، ألا تتذكرها؟ آه... العيون السوداء! أين أنت يا أيام شبابنا الذهبية؟) فإليك رأيي: أنا لم أؤيد طبعاً فعلة الرجل الذي ضرب المرأة الألمانية بالسوط، ولا مجال هنا للاستحسان حقاً... ولكنني لا أستطيع أيضاً أن أمتنع عن التصرير بأن المساء يصادف في بعض الأحيان «الألمانيات» يبلغن من قوة الاستفزاز أنه ما من «تقدمي»، فيما يخيل إليّ، يستطيع أن يسيطر على نفسه إزاءهن سيطرة كاملة وأن يكون مسؤولاً عن سلوكه معهن. إن أحداً لم يعالج المسألة عندئذ من هذه الزاوية. ومع ذلك فهذا هو الأسلوب الوحيد الذي يجب أن تعالج به هذه المسألة معالجة تتصرف بالإنصاف.

قال سفديجايروف هذه الكلمات، وعاد يضحك فجأة. واتضح لراسكولنيكوف أن الرجل ليس بالبسيط والساذج وأنه يبيت مشرقاً ثابتاً.

قال له راسكولنيكوف:

^٣ عهد «النقد المفید»: الإشارة هنا إلى مطلع السبعينيات من القرن ١٩، حين أخذت الجرائد تهاجم العادات الاجتماعية وتندد ببعض عيوب النظام السياسي، في جو يسوده شيء من الحرية. ففي شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ١٨٦١، نددت عدة صحف، ومنها جريدة «الزمان» التي كان يصدرها دوستويفسكي، بسيده اسمه كوزليانينوف ضرب بالسوط امرأة ألمانية في القطار.

^٤ «الفاحشة التي تحدثت عنها مجلة العصر»: في عام ١٨٦١ نددت المجلة الأسبوعية «العصر»، (في رسالة من مراسلها بمدينة برم)، بالتمثيلية الخلية التي قدمتها سيدة قرأت قصة بوشكين «ليال مصرية» التي يصف فيها غراميات كلويباتره. وقد انبرت مجلة أخرى ترد على مجلة العصر، وتسفه تدخلها هذا. وقد شارك دوستويفسكي في تلك المساجلات (في مجته «الزمان»)، متهكماً على الصحفيين الذين يأخذون مأخذ الجد أمراً تافهاً لا قيمة له.

– أغلب الظن أنك لم تكلم أحداً منذ عدة أيام، هه؟

– هذا صحيح تقريباً. ماذا؟ هل يدهشك أن تراني لين الطبع؟

– بل يدهشني أن أراك مسرفاً في لين الطبع.

– لأنني لم أستأ من فظاظة أسئلتك؟ أهذا هو السبب؟ ولكن علام أستاء؟

ثم أضاف سفديجايلوف يقول بسذاجة تشير الاستغراب:

– أنت سألتني، وأنا أجتك!

ثم تابع وقد لاح في وجهه التأمل:

– أنا لا أكاد أهتم بشيء، والله. وفي هذه اللحظة خاصة، لا يشغلني أي شاغل. لك أن تظن أنني أسعى إلى خطب ودك لا سيما وأن لي شأناً مع أختك، كما سبق أن أعلنت لك ذلك. ولكنني أقول لك بصرامة إنني أشعر بضجر شديد وسأم قوي، ولا سيما منذ ثلاثة أيام، حتى لقد أحسست من لقائك ببهجة... لا تزعل يا روديون رومانوفتش إذا أنا صارتتك بأنك تبدولي غريباً غرابة رهيبة. لك أن تزعم ما تشاء، ولكن فيك شيئاً ما، ولا سيما في هذه اللحظة، ليس في هذه اللحظة نفسها، بل الآن على وجه عام... هيا! سأكف عن الكلام، سأكف عن الكلام، لا تقطب حاجبيك هكذا... لست دباً إلى الحد الذي تظن...

نظر إليه راسكولنيكوف نظرة عابسة ثم قال:

– قد لا تكون دباً البتة؛ بل إنه ليبدو لي أنك تنتمي إلى مجتمع راقٍ جداً، أو أنك على الأقل تعرف عند الضرورة كيف تسلك سلوك رجل راقٍ.

أجاب سفدريجايلوف يقول بلهجة جافة، بل بلهجة فيها شيء من التعالي:

– لا يهمني رأي أحد، لذلك لا يقلقني أن أسلك سلوك رجل سافل. ولعل هذا هو التوب الذي يسهل ارتداوه أكثر من أي ثوب آخر في أجواننا ومناخنا... ولا سيما إذا كان لدى المرء ميل طبيعي إلى ذلك...
أضاف سفدريجايلوف هذه الجملة الأخيرة وقد أخذ يضحك من جديد.

قال راسكولنيكوف:

– سمعت أنك تعرف أناساً كثيرين هنا. فلستَ بمن يمكن أن يسمى رجلاً «بغير علاقات»، كما يقال،
فما مجئك إلى إذا لم يكن لك هدف محدد؟

استأنف سفدريجايلوف كلامه، فقال دون أن يحيط عن السؤال الرئيسي:

– صدقت. إنني أعرف أناساً كثيرين. وقد التقيت حتى الآن بعده أشخاص أثناء هذه الأيام الثلاثة التي قضيتها هنا، فتعرفت إليهم، وتعرفوا إليّ فيما يخيل إليّ. إنني أرتدى ثياباً حسنة، أليس كذلك؟ وأبدو رجلاً لا يعوزه شيء. أنت تعلم أن قوانين الإصلاح الزراعي لم تمسسنا بسوءٍ ولما كانت أملاكي غاباتٍ ومراعي في الدرجة الأولى، فالموارد مستمرة... ولكنني لن أذهب إلى... أولئك الناس. لقد كنت أضجر منهم حتى في الماضي... وأنا منذ الأيام الثلاثة التي أخذت أطوف فيها هنا، لم أعقد صلة بأحد... بهذه المدينة؟ كيف أمكن أن تنشأ مدينة بهذه المدينة؟ هلا شرحت لي هذا، من فضلك! هي مدينة موظفين وطلاب من جميع الأنواع! حقاً أن أشياء كثيرة قد فاتتني حين كنت أتسكع هنا منذ ثماني سنين. وقد أصبحت الآن لا أعوّل إلا على التشريح، شهد الله...

٠ «أنت تعلم أن قوانين الإصلاح الزراعي لم تمسسنا بسوء»: إن قانون الإصلاح الزراعي الذي صدر في ١٩ نيسان (أبريل) سنة ١٨٦١، لم يهب للأقنان الذين اعتنوا بالأراضي الصالحة للزراعة التي كانوا يزرعونها هم، أما الغابات والمراعي فقد ظلت ملكاً للسادة.

– أي تshireح؟

– أما هذه النوادي، وهذه المطاعم التي تسمى مطاعم دوسو^١، وهذه الحلقات... أما جميع مشاريع التقدم هذه... ففي وسعها أن تستغنى عني. – وتابع سفدريجايلوف كلامه دون أن يعبأ بالسؤال الذي أُلْقى عليه. – ثم أي لذة يمكن أن يجدها المرء في الغش؟

– هل كنت تغضّن أيضاً؟

– كيف لا أغش؟ كنا منذ ثمانين سنتين جماعة من أناس محترمين نحاول أن نقتل الوقت، وكنا – لاحظ هذا! – على جانب عظيم من رقي الآداب. وكان بيننا شعراء، ورؤساليون... إن الناس الذين هم على جانب عظيم من رقي الآداب هم على وجه العموم، عندنا، في مجتمعنا الروسي، أوغاد... لا شك أنك لاحظت ذلك، هه؟ ومنذ أقمت في الريف إنما عزفت عن هذا. غير أنني قد أوشكت، قبل ذلك الأول، أن أودع في السجن، لديون عليّ، وذلك بسبب يوناني حقير من نيسيجين^٢، وفي ذلك الوقت إنما ظهرت مارفا بتروفنا، فساومت، ثم فدتني بثلاثين ألف روبل (كان مجموع الديون التي عليّ سبعين ألف روبل). وتزوجنا زواجاً شرعياً. وسرعان ما أخذتني إلى عندها في الريف، كما يؤخذ كنز من الكنوز. كانت أكبر مني سناً بخمسة أعوام. وكانت تحبني كثيراً. ولم أغادر الريف سبع سنتين. هذا، ولا حظ أنها احتفظت طوال حياتها بالسند المالي الذي وقعته لاسم شخص آخر، من أجل أن تستخدمه صديق عند اللزوم،

^١ «مطاعم دوسو»: هو فندق ومطعم فرنسي كان له صيت ذائع حينذاك، وقد أقام فيه دوستويفسكي زمانه. والحديث عن «الحلقات» إشارة إلى مكان بجزيرة إيلاجين اسمه «الحلقة»، وهو محل ملاه ومتهاج وملاذات شعبية.

^٢ «يوناني حقير من نيسيجين»: في عام ١٧٧٩ نزح عدد كبير من يونان القرم في عهد كاتيرينا الثانية، إلى مدينة نيسيجين، وهي مدينة صغيرة من مدن أوكرانيا لا تبعد كثيراً عن مدينة كييف (عاصمة أوكرانيا حالياً). وقد أصبح كثير من هؤلاء اليونان تجاراً أغبياء.

بحيث تدمرني متى حاولت أن أتحرك من تحت النير. أوه! ما كانت لتتردد في أن تفعل ذلك! إن تناقضات
كثيرة تجتمع لدى النساء، أليس كذلك؟

— ولولا ذلك السند لكنت هربت، هه؟

— لا أعرف بماذا أجيبك. كان السند لا يضايقني كثيراً. لم أكن أشتتهي أن أذهب إلى أي مكان. ومارفا
بتروفنا قد اقترحت عليّ السفر إلى الخارج مرتين، حين لاحظت ضجري. ولكن علام السفر؟ كنت قد
سافرت إلى الخارج قبل ذلك، فلم أشعر هنالك بارتياح. ليس هذا هو الأمر تماماً... ولكن كان ثمة
شمس شرق، وكان ثمة خليج نابولي، وكان ثمة البحر... فكنت أنظر، فأشعر بحزن. والأنكى من هذا
أن المرء يجد هناك سبباً للحزن حقاً. لا، لا، إن البقاء في الوطن أفضل. هنا على الأقل يستطيع المرء أن
يتهم الآخرين بكل شيء، وأن يبرى بذلك نفسه. قد أحب أن أسافر الآن راضياً إلى القطب الشمالي، لأن
خمرني فسدت^٨، فأصبحت أكره أن أشرب، بينما الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أفعله هو أن أشرب...
لقد جربت هذا... بالمناسبة: يقال إن بيرج^٩ سيسافر يوم الأحد القادم من حديقة يوسبوف على منطاد،
وأنه يقبل أن يحمل ركاباً بأجر، هل هذا صحيح؟

— ماذا؟ تساور في منطاد؟

— أنا؟ لا... وإنما قلت هذا هكذا... — ججم يقول سفدر يجايروف، كما لو كان يفك في السؤال الملقي
فعلاً.

قال راسكولنيكوف يحذّث نفسه: «إلى أين يريد أن يصل من هذا كله؟»

^٨ خمرني فسدت «لأن خمرني فسدت»: بالفرنسية في الأصل، والمقصود بالعبارة أن الرجل أصبح لا يميل إلى الشراب.

^٩ «بيرج»: ألماني كان يعلم رقص الباليه ويعاطي الطيران بالمنطاد، وقد نظم في بطرسبورج نزهات طيران بالمنطاد.

وتابع سفدريجايلوف كلامه فقال حالمًا شارد الفكر:

— لا، كان السند لا يزعجني. فأنا الذي كنت لا أحب أن أترك الريف. ثم إن مارفا بتروفنا قد رددت إلى السند منذ سنة تقريبًا، بمناسبة عيد شفيعي، حتى لقد أضافت إليه مبلغًا محترمًا. كانت تملك ثروة، هه؟ قالت لي: «ها أنت ذا ترى مدى ثقتي بك يا آركادي إيفانوفتش». أؤكد لك أن هذا ما قالته لي. لا شك في أنك لا تصدق أن هذا ما قالته لي. اعترف بأنك لا تصدق! ولكن يجب أن تعلم أنني كنت قد أصبحت مالكاً محترمًا في القرية. وكنت معروفاً جدًا في المنطقة. وكانت أستحضر كتاباً أيضاً. شجعني مارفا بتروفنا على ذلك في أول الأمر، ولكنها خشيت بعدئذ أن تجهبني القراءة.

— يبدو أنك كنت قد سئمت كثيراً من مارفا بتروفنا، أليس كذلك؟

— أنا؟ ربما! هذا جائز جداً. قال لي بالمناسبة: هل تؤمن بعودة الأرواح؟

— أي أرواح؟

— الأرواح العائدة. ما هذا السؤال؟

— وأنت، هل تؤمن بذلك؟

— نعم ولا «إذا شئت». أقصد أنني لا أؤمن بها تماماً...

— هل رأيت أرواحاً عائدة؟

ألقى سفدريجايلوف على راسكولنيكوف نظرة غريبة. ثم قال له وقد انعطف فمه بابتسامة غامضة:

— إن مارفا بتروفنا لا يفوتها أن تزورني.

— كيف؟ تزورك؟

– نعم، زارتني حتى الآن ثلاث مرات. فأما المرة الأولى ففي يوم دفنتها نفسه، بعد العودة من المقبرة بساعة، عشية رحيلي إلى هنا. وأما المرة الثانية فأمس الأول، أثناء السفر، قبيل طلوع الصباح، في محطة مالايا فيشيرا^{١٠}. وأما المرة الثالثة، فمنذ ساعتين، في مسكنى، في الغرفة التي أقيم بها. كنت وحدي.

– وكنت... يقطاً؟

– يقطاً كل اليقظة... ولقد كنت يقطاً في المرات الثلاث جميعاً. تأقى، فتكلمني دقيقة، ثم تنصرف خارجة من الباب، دائمًا من الباب. حتى ليخيل إلى أنني أسمع خطواتها.

قال راسكولنيكوف فجأة:

– لماذا كنت أفتر أنه لا بد أن يكون قد حدث لك شيء من هذا القبيل؟!

ثم دُهش من أنه قال هذا الكلام. كان راسكولنيكوف منفعلاً افعلاً شديداً. سأله سفديريجايروف مذهولاً:

– ح.. قاً؟ كنت تقدر ذلك؟ حقاً؟ ألم أقل لك أن بيننا شيئاً مشتركاً؟

أجابه راسكولنيكوف بحماس وبلهجة قاطعة:

– لم تقل لي شيئاً من ذلك قط!

– ألم أقل لك ذلك؟

– لا!

^{١٠} «محطة مالايا-فيشيرا»: محطة تقع على خط موسكو – سان بطرسبرج، وتبعد عن العاصمة مسافة ١٥٠ كيلومتراً.

— غريب. خيّل إليّ أنني قلته لك. منذ قليل حين دخلت عليك، فرأيتك مضطجعاً مغمضاً عينيك متظاهراً بالنوم، قلت لنفسي فوراً: «هذا هو! هذا هو بعينه».

صاحب راسكولنيكوف يسأل:

— ماذا تقصد بقولك: «هذا هو بعينه»؟

— ماذا أقصد؟ بصراحة: لا أدرى! أجاب سفديجاييف متممّاً، مرتبكاً ارتباكاً صادقاً. وساد الصمت دقيقة. وكان كل من الرجلين ينظر في عيني الآخر باهتمام كبير.

هتف راسكولنيكوف يقول غاضباً:

— ذلك كله سخاف. وماذا تقول لك حين تزورك؟

— هي؟ تصور أنها تكلمني في أتفه السفاسف. والإنسان يبلغ من غرابة الطبع أن هذا بعينه هو ما يغضبني. حين زارتني في المرة الأولى، كنت متعباً كما تعلم: القداس، صلاة الجنائز، الموكب، المأدبة. وفي آخر الأمر كنت وحيداً في حجرة مكتبي، و كنت أدخن سيجاراً. ها هي ذي تدخل، فتقول لي: «أبسبب هذه المشاكل كلها إذاً إنما نسيت يا آركادي إيفانوفتش أن تبعي اليوم ساعة الجدار؟» و كنت أنا الذي أتولى تبعية ساعة الجدار تلك في كل أسبوع فعلاً، منذ سبع سنين، فإذا نسيت أن أفعل ذلك، ذكرتني به. وفي الغد، كنت في طريقي إلى هنا. ودخل القطار، عند الفجر، إلى محطة من المحطات. كنت محطماً من التعب. وكانت عيناي محتقتين من شدة النعاس، لأنني لم أكن قد نمت تقريباً طوال الليل. أمرت لنفسي بفنجان من القهوة. وهأنا ذا أرى مارفا بتروفنا تجلس إلى جانبي وفي يديها ورق لعب. قالت لي: «هل تحب، يا آركادي إيفانوفتش، أن تعرف ما يقوله ورق اللعب في أمر سفرك؟» كانت مارفا بتروفنا خبيرة جداً في فن التنبؤ بواسطة ورق اللعب. لن أغفر لنفسي ما حبست أنني لم أقبل اقتراحها. لقد هربت

مذعوراً. والحمد لله أن الجرس قدرن في تلك اللحظة مؤذناً بسير القطار. واليوم، بينما كنت جالساًأشعر بشغل في معدتي بعد غداء رديء جيء إلىّ به من المطعم، وفيما أنا أدخل سيجاراً دخلت علىّ مارفا بتروفنا على حين بعثة، مترفة بأجمل زينة، مرتدية ثوباً جديداً من حرير أخضر طويل الذيل جداً، وقالت لي: «يومك سعيد يا آركادي إيفانوفتش! هل ثوبك الجديد يوافق ذوقك؟ ما كان لأنيسكا^{١١} أن تستطيع صنع ثوب كهذا الثوب». (آنيسكا خياطة في القرية كانت في الماضي من الأفنان وقد تعلمت الخياطة بموسكو، فتاة حلوة جداً). وأخذت مارفا بتروفنا تتبعثر أمامي. أنعمت النظر في ثوبها، وتفرست فيها بانتباه، وجههاً لوجه، ثم قلت لها: «حقاً لا داعي يا مارفا بتروفنا، إلى أن تتكلفي نفسك عناء المجيء إلىّ لتحدثيني في مثل هذه التّرهات!» فقالت لي: «آه!.. رباه!.. هل صار حراماً علىّ حتى أن أزعجك؟» فقلت لها عندئذ لاغيظها: «أريد يا مارفا بتروفنا أن أتزوج مرة ثانية»، فقالت لي: «لم أتوقع منك غير ذلك يا آركادي إيفانوفتش. ولكن ليس من اللائق كثيراً أن تتزوج مرة ثانية بعد دفن زوجتك فوراً. وهبك اخترت اختياراً موفقاً، فإن الزواج لن يسعدكما لا أنت ولا هي، وستصيران مضunganة في أفواه الناس، هذا كل شيء!» قالت ذلك ثم خرجت حتى لكوني كنت أسمع حفيظ ذيل ثوبها. سخف، أليس كذلك؟

سؤال راسكولنيكوف:

– قل لي: أليست هذه أكاذيب تلفقها تلفيقاً؟

فأجابه سفديريجايروف شارد الفكر كأنه لم يلاحظ فظاظة السؤال:

– يندر أن أكذب.

– وقبل ذلك، هل رأيت أرواحاً عائدة؟

^{١١} «آنисكا»: تصغير تحقيري لاسم آنيسيا.

– أي ن... نعم، مرة واحدة في حياتي، منذ ست سنين. كان عندي خادم اسمه فيلكا^{۱۲}. فما أن تم دفنه حتى صحت أقول ذاهلاً: «يا فيلكا، هات غليوني!» فإذا هو يدخل، فيمضي قدماً إلى الخزانة التي كانت تُصفُّ فيها غلاييني. كنت جالساً فقلت لنفسي: «هو يفعل ذلك ليتقم مني». إن مشاجرة عنيفة كانت قد شبّت بيني وبينه قبل موته بقليل. قلت له: «كيف تجرو أن تمثل أمامي بكم مثقوبة عند الكوع؟ أخرج من هنا أيها الحقير!» فاستدار على عقبه، وخرج، ثم لم يرجع بعد ذلك قط! لم أقل عن هذا الأمر كلمة واحدة لمارفا بتروفنا. أردت في لحظة من اللحظات أن أقيم قداساً على روحه، ولكني ترددت بعد ذلك.

– هلم استشر طبياً!

– لست في حاجة إليك حتى أعلم أنني مريض، وأن أكن لا أعرف ما هو مرضي حقاً. وفي رأيي أن صحتي خير من صحتك خمس مرات. أنا لم أسألك هل تؤمن بظهور الأرواح العائدة وإنما سألتكم هل تؤمن أو لا تؤمن بوجود الأرواح العائدة.

صاح راسكولنيكوف يقول بنوع من الغضب:

– لا، لا يمكن أن أؤمن بوجودها في حال من الأحوال!

جمجم سفدريجايلوف يقول كمن يخاطب نفسه، وهو ينظر إلى جانب، مائل الرأس قليلاً:

– ماذا يقال لك عادة؟ يقال لك: «أنت مريض، وكل ما تراه إذاً ليس إلا نتيجة هذيانك». ولكن هذا يعوزه المنطق الدقيق الصارم. أنا أسلم بأن الرؤى لا تظهر إلا للمرضى، ولكن هذا يبرهن على أن الرؤى لا يمكن أن تظهر إلا للمرضى، دون أن يبرهن على أن الرؤى لا وجود لها في ذاتها.

^{۱۲} «فيلكا»: تصغير تحقيري لاسم فيليب.

قال راسكولنيكوف ملحاً مهتاجاً:

– لا وجود لها حتى!

فتابع سفدريجايروف كلامه قائلاً وهو يلفت عينيه نحو راسكولنيكوف ببطء:

– لا؟ أنت تعتقد بأن لا وجود لها؟ ولكن إذا فكرنا في الأمر على النحو التالي (ساعدني، من فضلك): «الأرواح العائدة أجزاء من عوالم أخرى هي بداية هذه العوالم إن صحة التعبير. والإنسان السليم المعافي ليس في حاجة بطبيعته إلى أن يراها، لأن الإنسان السليم المعافي يتمي إلى هذه الحياة الدنيا قبل كل شيء، وعليه إذاً أن يحيا هذه الحياة الأرضية وحدها، في سبيل النظام والانسجام. ولكن ما إن يمرض هذا الإنسان، ما إن يختل النظام الأرضي والطبيعي في جسمه حتى تتجلى على الفور إمكانية عالم آخر، وكلما ازداد مرضه ازدادت اتصالاته بذلك العالم الآخر، فإذا مات انتقل إلى ذلك العالم الآخر رأساً». إنني أفكر بذلك منذ زمان طويل. فإذا كنت تؤمن بالحياة الآخرة، كان في إمكانك أيضاً أن تؤمن بهذا الاستدلال الذي أجريه.

قال راسكولنيكوف:

– أنا لا أؤمن بالحياة الآخرة.

وظل سفدريجايروف حالماً شارد الفكر. ثم قال فجأة:

– هه!.. ماذا إذا لم يكن في الحياة الآخرة إلا عناكب أو أشياء من هذا القبيل؟!..

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «إنه مجنون!»

وتابع سفدريجايروف كلامه:

– نحن نتصور الأبدية دائماً على أنها فكرة لا نستطيع أن نفهمها، على أنها شيء ضخم، ضخم! ولكن لماذا تكون شيئاً ضخماً بالضرورة؟ تصور فجأة أنه ليس هناك، بدلاً من هذا كله، إلا حجرة صغيرة، إلا شيء يشبه حماماً في قرية، يملؤه الدخان وتنتشر العناكب في جميع أركانه، وتصور أن هذا هو الأبدية كلها. أنا مثلاً إنما تبدو لي الأبدية في هذه الصورة أحياناً.

صاحب راسكولنيكوف يقول متزعاً:

– هل يمكن، هل يمكن حقاً أن لا يكون في ذهنك تصور أبعث على العزاء وأقرب إلى الصدق؟

أجاب سفدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامة غامضة:

– أقرب إلى الصدق! ومن يدرى: لعله أكثر صدقًا؟ لو كان الأمر بيدي لصنعت الأمور على هذا النحو نفسه!..

حين سمع راسكولنيكوف هذا الجواب العجيب الشاذ شعر ببرد مفاجئ يسري في جسمه.

ورفع سفدريجايلوف رأسه، وحدق إليه بنظرة ثابتة، ثم انفجر ضاحكا، وهتف يقول:

– لا، لا، إن أمراً لنا لعجب حقاً! منذ نصف ساعة فقط، لم نكن قد التقينا بعد، وكنا نعد نفسينا عدوين. وبيننا، عدا ذلك، مسألة لم نخرجها إلى النور بعد، ومع هذا تركناها واسترسلنا في هذا النوع الغريب من القضايا. هل كذبت عليك حين قلت لك إننا ثمرتا أرض واحدة؟

قال راسكولنيكوف وقد ثارت أعصابه ثورة شديدة:

– من فضلك: قل ما تريده بغير إبطاء، واذكري السبب الذي دفعك إلى تشيريفي بهذه الزيارة... ذلك أني... مستعجل.. يجب أن أخرج...

– طيب، طيب... إن اختك آفدوتيا رومانوفنا ستتزوج السيد لوجين، السيد بيوتر بتروفتش لوجين،
الليس كذلك؟

– ألا يمكن أن تتحاشى كل سؤال يتعلق بأختي، وأن لا تذكر اسمها؟ إني لا أفهم كيف تجرو أن تذكر
اسمها بحضوري، إذا صح أنك أنت سفديجايلوف حقاً!

– ولكن كيف لا أذكر اسمها وقد جئت من أجل التحدث في أمرها؟

– طيب. تكلم. ولكن أسرع!

– أنا على يقين من أنك كونت رأياً في السيد لوجين (الذي يمت إلى بقربى مصاورة)، إذا كنت قد رأيته
ولو مدة نصف ساعة، أو كنت قد سمعت عنه بعض المعلومات الدقيقة. هذا رجل لا يصلح زوجاً
لآفدوتيا رومانوفنا. في رأيي أن آفدوتيا رومانوفنا إنما تضحي في هذا الأمر تضحيه كبيرة وطائشة في
سبيل... في سبيل أسرتها. لقد بدا لي، بعد كل ما سمعته عنك، أنك من جهتك، سيسرك كثيراً بأن لا يتم
هذا الزواج، شريطة أن لا يُساء إلى اختك. وأنا الآن، بعد أن عرفتك شخصياً، مقنع بهذا أكثر من
اقتناعي به في أي وقت مضى.

قال راسكولنيكوف:

– هذا كله سذاجة من جانبك... معدرة... أردت أن أقول إن هذا كله وقاحة من جانبك.

– هل تقصد بذلك أنني أدفع عن مصلحتي؟ لا تقلق يا روديون رومانوفتش! لو كنت أتكلم في سبيل
مصلحة، لما كنت صريحاً بهذه الصراحة، فما أنا غبي غباؤه كاملة على كل حال. بالنسبة: سأكشف لك
عن أمر سيكولوجي غريب! منذ قليل، حين كنت أبُرّ الحب الذي أحمله لآفدوتيا رومانوفنا قلت عن

نفسي إبني أنا صحيحة. ألا فاعلم أنني لا أشعر الآن بأي حب، لا أشعر الآن بأي حب البة، حتى أنني
أستغرب أنا نفسي كيف شعرت في الماضي فعلاً...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً:

– مصدر ذلك كله ما كنت فيه من فراغ، وما فطرت عليه من فسق وعهر...
– حقاً! أنا رجل عاطل داعر. ولكن أختك، من جهة أخرى، لها من المزايا والحسنات ما جعلني لا
أستطيع أنا نفسي أن أمتنع عن أن أتأثر بعض التأثير... ولكن ذلك كله لم يكن إلا لغواً وعبثاً... أنا أدرك
هذا الآن.

– وهل تدركه منذ مدة طويلة؟

– بدأت أدركه منذ بعض الوقت، ولكنني لم اقتنع به اقتناعاً مطلقاً إلا أمس الأول، تقريراً في نفس الدقيقة
التي وصلت فيها إلى بطرسبرج. وحتى في موسكو كنت ما أزال أتصور أنني آتٍ من أجل أن أخطب
آفدوتيا رومانوفنا وأن أفرض نفسي منافساً للسيد لوجين.

– اغفر لي مقاطعتك... ولكن أرجوك... رحماك.... ألا تستطيع أن توجز وأن تتقلل رأساً إلى الكلام
عن الغرض من زيارتك؟ إبني مستعجل... يجب أن أخرج.

– بكل سرور. حين وصلت إلى هنا عازماً على القيام... برحلة، أردت أولاً أن أخذ بعض الإجراءات
التحضيرية المطلوبة. لقد أبقيت أولادي عند خالتهم. وهم أغنياء لا حاجة بهم إلى. وأي أب أنا لهم على
كل حال؟ لم أحمل معه إلا المال الذي أهداه إلى مارفا بتروفنا منذ سنة. هذا يكفيوني. معذرة، إبني أصل
إلى الواقع مباشرة. إبني قبل سفري الذي قد يتم على كل حال، أريد أن أفرغ من السيد لوجين. ليس
يعني هذا إبني أكرهه كرهًا يبلغ هذا المبلغ من القوة، ولكنه هو السبب في الشجار الذي وقع بيني وبين

مارفا بتروفنا، حين علمت أنها دبرت أمر هذا الزواج. إنني أرغب الآن أن ألقى آفدوتيا رومانوفنا بواسطتك، وبحضورك إذا شئت، بغية أن أشرح لها أولاً أنه ما من خير يمكن أن تتوقعه من السيد لوجين، بل وإن هناك شرورة كبيرة يجب أن تتوقعها منه؛ وأن أطلب منها ثانياً، بعد التماس غفرانها عن المتاعب الأخيرة التي سببها لها، أن تأذن لي أن أقدم إليها عشرة آلاف روبل في سبيل أن أسهل لها القطيعة مع السيد لوجين، وهي قطيعة تستفيد آفدوتيا رومانوفنا منها إذا هي تصورت إمكانها.

صاحب راسكولنيكوف يقول وقد تجاوز ذهوله حنقه:

– ألا أنك لمجنون فعلاً، فعلاً! كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام؟

– كنت أعلم أنك ستطلق صيحات عالية وصرخات شديدة. ولكنني أحب أن أقول لك أولاً إنني على كوفي لا أملك ثراءً كبيراً، أستطيع التصرف في هذه العشرة آلاف روبل. بتعبير آخر: إن هذا المبلغ ليس بالمبلغ الذي لا غنى لي عنه، فإذا لم تقبله آفدوتيا رومانوفنا، فسأتفق معه إنفاقاً أشد غباء وحمقابة. هذه أولى. وأما الثانية فهي أن ضميري مرتاح كل الارتياح: إنني أقدم هذا المال دون أي حساب. صدق أو لا تصدق، ولكنكما، أنت وآفدوتيا رومانوفنا، ستدركان هذا فيما بعد. الحقيقة أنني سبب بعض المتاعب وبعض الإزعاجات فعلاً لأنك الصغيرة المحترمة، وإذا كنت أشعر بندرامة صادقة وأعاني من عذاب الضمير، فإنني أرغب من كل قلبي لا أن أكفر عن خطئتي، فأقدم لأنك تعيضاً مالياً، بل أن أكون بكل بساطة، نافعاً لها في أمر من الأمور على نحو من الأنجاء، لأنني على كل حال لست بالإنسان الذي لا يمتاز إلا باقتراف الشر. ولو كان في عرضي هذا جزء من مليون جزء من حساب، لما قدمته بمثل هذه الصراحة كلها. ثم إنني ما كان لي أن أقدم إليها عشرة آلاف روبل فحسب، بينما كنت أعرض عليها أكثر من ذلك منذ خمسة أسابيع. أضف إلى ذلك أن من الجائز جداً أن أتزوج إحدى الفتيات في وقت قريب كل القرب، وهذا ينفي عن كل شبهة في إضمار أي شر لأفدوتيا رومانوفنا. وأقول في الختام إن آفدوتيا

رومانيون، إذا هي تزوجت السيد لوجين، ستتغاضى هذا المبلغ نفسه ولكن من جيب آخر... لا تزعل يا روبيون رومانيون... بل احكم على الأمر بنفسك في هدوء وسکينة.

وكان سفديجاييف نفسه، وهو ينطق بهذه الكلمات، هادئاً كل المدوع، ساكناً كل السكينة.

قال راسكولنيكوف:

– أرجو أن تقف عند هذا الحد من الكلام، لأن ما قلته حتى الآن هو على كل حال زاخر بوقاحة لا تغفر.

– أبداً. من يسمعك يظن أن الإنسان لا يمكن أن يصنع بأخيه الإنسان إلا شرًا في هذا العالم الأرضي، وأنه لا يجوز أن يفعل له أي خير، وذلك كله باسم عادات سخيفة وآراء باطلة. ألا إن هذا المضحك حقاً. هل إذا مات مثلاً، فأورثت أختك الصغيرة في وصيتها هذا المبلغ نفسه، هل ترفض أختك قبوله حتى في هذه الحالة؟

– جائز جداً أن ترفضه.

– لا! ودعنا من هذا على كل حال. المهم أن عشرة آلاف روبل مبلغ جميل! ومهما يكن من أمر، فإنني أرجوك أن تطلع آفدوتيا رومانيون على هذا الحديث.

– لا! لن أطلعها عليها.

– في هذه الحالة سأكون مضطراً يا روبيون رومانيون أن أسعى بمنفسي إلى الحصول على موعد منها، وقد يزعجها هذا.

– وإذا أطلعتها على هذا الحديث، ألن تسعى بنفسك إلى الحصول على هذا الموعد؟

– لا أدرى بماذا أجييك. أني أود كثيراً أن أراها مرة.

– لا تعوّل على هذا!

– خسارة. على أنك لا تعرفني. أليس من الجائز أن تتوثق العلاقات بيننا؟

– أنت تظن حقاً أن العلاقات بيننا قد تتوثق؟

أجاب سفديجايروف وهو ينهض ويتناول قبعته:

– لم لا؟ ليس معنى هذا أني أحرص هذا الحرص كله على أن أزعجك هنا... حتى أني لم أكن أعوّل على أن... رغم أن هيئتكم قد أذهلتني كثيراً في هذا الصباح...

سؤال راسكولنيكوف في قلق:

– أين رأيتني في هذا الصباح؟

– رأيتكم بمحض مصادفة! ما يزال يخلي إلى أن فيك شيئاً قريباً مني كل القرب. ولكن لا تقلق، ما أنا بالرجل المزعج: لقد استطعت أن أتفاهم مع غشاشين؛ ولم أضجر الأمير سفرباي الذي يمت إلى بقربى بعيدة والذي هو سيد من كبار السادة؛ وتسنى لي أن أكتب في «الألبوم» مدام بريلوكوفا بضعة أسطر عن «مادونا» رافائيل^٣، وعشت سبع سنين متصلة غير منقطعة مع مارفا بتروفنا؛ وقضيت قبل ذلك ليالي بكمالها في عماره فيازمسكي^٤ بميدان «سوق العلف»؛ وقد أطير بالمنظاد مع بيرج...

^٣ من المعروف أن دوستويفسكي كان معجباً أشد الإعجاب بلوحة رافائيل «مادونا سيكستين» التي تأملها كثيراً بمدينة درسدن، وكان يحتفظ في حجرة مكتبه بصورة منسوبة منها.

^٤ «عماره فيازمسكي»: عماره كبيرة بمدينة سان بطرسبرج كانت فيما مضى ملكاً لأسرة الأمراء فيازمسكي. وهي في العهد الذي تجري فيه أحداث الرواية يسكنها أناس فقراء جداً، وتضم بيوتاً مشبوهة ومؤوى ليلياً.

— رائع. فاسمح لي الآن أن أسألك أنت تزمع القيام برحلتك قريباً؟

— أي رحلة؟

— عجيب! الرحلة التي حدثني عنها منذ قليل.

— رحلة؟ آه... نعم... رحلة... فعلاً... لقد حدثتك عن رحلة... ولكن هذه مسألة واسعة جداً... ليتك

تعرف عن أي شيء تسألني!

كذلك أضاف فجأة وهو يضحك ضحكة رنانة قصيرة.

ثم أردف:

— قد أنزوج بدلأً من القيام بتلك الرحلة: هناك خطيبة تُقترح عليّ.

— هنا؟

— نعم.

— متى اتسع وقتك لأن...

— أود كثيراً مع ذلك أن أرى أختك آفدوتيا رومانوفنا. إنني أسألك جاداً أن تؤدي لي هذه الخدمة. هيا... إلى اللقاء مرة أخرى. آه... نسيت... قل لأختلك اللطيفة يا روديون رومانوفتش أن مارفا بتروفنا قد أورثتها في وصيتها ثلاث آلاف روبل. هذه هي الحقيقة دقيقة. لقد اتخذت مارفا بتروفنا هذه الإجراءات قبل موتها بأسبوع، اتخذتها بحضورى. وفي وسع آفدوتيا رومانوفنا أن تقبض هذا المبلغ في غضون أسبوعين أو ثلاثة.

— تقول... هذه هي الحقيقة؟

– نعم هذه هي الحقيقة. أرجوك أن تبلغها إياها. هيا... إلى اللقاء مرة أخرى. هل تعلم أنني أسكن قريباً جداً منك؟

قال سفديجاييف ذلك واتجه نحو الباب؛ وفيها هو يجتاز العتبة، التقى برازوميixin.

الفصل الثاني

كانت الساعة تقارب الثامنة: أسرع الاثنان نحو عمارة باكالايف ليصلا قبل لوجين.

وسائل رازوميixin صاحبه منذ أصبحا في الشارع:

– قل لي: من ذلك الرجل؟

– هو سفديجايروف، ذلك الملاك الذي أهينت أختي في منزله حين كانت تعمل عنده مربية. وقد اضطررت أن تصرّف بسبب ملاحقاته الغرامية: طردها زوجته مارفا بتروفنا. ومارفا بتروفنا هذه قد اعتذرت لدونيا بعد ذلك ثم ماتت فجأة منذ مدة قصيرة؛ وعنها إنما كان يجري الحديث منذ قليل. لا أدرى لماذا، ولكنني خائف من هذا الرجل. لقد وصل إلى بطرسبرج بعد دفن زوجته فوراً. هو رجل غريب جداً، يخيل إلى أنه عازم أمره على تدبير مكيدة خبيثة. لكانه يعرف شيئاً ما... يجب أن نحمي دونيا منه، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك، هل تسمع؟

– نحميها منه؟ ولكن أي أذى يستطيع أن يلحقه هذا الرجل بأذدوكيا رومانوفنا؟ على كل حال، أشكر لك يا روديا أنك تقول لي هذا الكلام. لسوف نحميها. أين يسكن؟

– لا أدرى.

– لماذا لم تأسله؟ خسارة! لا بأس، سأعرف ذلك على كل حال.

سؤال راسكولنيكوف بعد فترة صمت:

– هل رأيته؟

– طبعاً. لاحظته، لاحظته جيداً.

وألح راسكولنيكوف سائلاً:

– هل رأيته رؤية واضحة، ميزة؟

– نعم، وأتذكره تذكراً واضحاً ميزة. لو رأيته بين ألف شخص لعرفته. إنني أملك ذاكرة الوجوه.

وصمتا من جديد.

ووجه راسكولنيكوف يقول:

– هم... ذلك أبني... ذلك أبني... هل تعلم؟ لو لا ذلك... لكان يمكن أن أظن... ما أزال أظن... إن ذلك لم يكن إلا أضغاث أحلام.

– عم تتكلم؟ لست أفهمك بوضوح.

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً وهو يلوي فمه بابتسمة:

– اسمع: لما كتمتقولون جميعاً إبني مجنون، فقد تصورت منذ قليل أنني قد أكون مجنوناً بالفعل، وأن ما رأيته لم يكن إلا شبحاً.

– ما هذا الذي تقوله؟

– من يدري؟ لعلني مجنون مع ذلك، ولعل كل ما جرى في الآونة الأخيرة إنما جرى في خيالي وحده!

– روديا! هل شوشا عقلك من جديد؟ ولكن ماذا قال لك هذا الرجل؟ لماذا جاء؟

لم يجب راسكولنيكوف. وفك رازوميixin لحظة. ثم بدأ يتكلّم فقال:

– طيب، اسمع تقريري: لقد جئت إليك، فوجدتكم نائماً. ثم تغدينا، ثم ذهبت إلى بورفيري. كان زاميوفون عنده. أردت أن أبدأ الحديث، ولكن ذلك لم يثمر. لم أستطع أن أتكلم كما كان ينبغي أن أتكلم، كأنهما لم يفهموا شيئاً؛ ولم يستطيعاً أن يفهموا شيئاً؛ ولكنهما لم يظهراً أي ارتباك. جذبت بورفيري إلى النافذة وأخذت أتكلم، ولكن هذا لم يثمر أيضاً لسبب ما. كنت انظر إلى جهة، وكان هو ينظر إلى جهة أخرى. وأخيراً وضع قبضة يدي تحت بوزه، وقلت له إنني سأحطم له بوزه على الطريقة العائلية. فلم يزد على أن نظر إلى. عندئذ بصقت على الأرض، وانصرفت. هذا كل شيء. ما أبغى هذا كله! أما زاميوفون فلم أبادله كلمة واحدة. ومع ذلك اعتقدت أنني أفسدت الأمر كله، إلى أن تراءت لي فجأة، وأنا أهبط السلم، فكرة وضعت بسلماً على قلبي. قلت لنفسي: لماذا نصلّع رأسينا، أنا وأنت؟ لو كان هناك خطر يتهدّدك، لو كان هناك شيء حقا، لما قلت كلمة واحدة. ولكنك لا ضلّع لك في هذا الأمر كله. ما شأنك أنت وهذا الأمر؟ أنت لا علاقة لك بهذا الأمر. فما عليك إذاً إلا أن تستخف بهم، أن تبصق عليهم. ولسوف ترى أننا نحن الذين سنضحك عليهم ونستهزئ بهم. لو كنت في مكانك لأخذت أضليلهم وأغّرّ بهم! ما أشد ما سيشعرون به من خجل وعار فيها بعد! أبصق على هذا الأمر كله! قد نستطيع في المستقبل أن ننصرهم أيضاً. ولكن فلنضحك إلى أن يحين ذلك الحين!

أجاب راسكولنيكوف قائلاً:

– طبعاً، طبعاً!

ولكنه قال بينه وبين نفسه: «ما عساك قائلاً في الغد؟»

شيء غريب: أن راسكولنيكوف لم يكن قد تساءل مرة واحدة حتى الآن «ما عسى يفكّر فيه رازوميixinين حين يعلم الحقيقة؟» فلما خطرت هذه الفكرة بباله الآن حدّق إلى صديقه بنظره ثابتة. أما ما رواه له رازوميixinين عن زيارته لبورفيري، فإنه لم يكدر يهتم به. إن أموراً كثيرة قد جرت بعد تلك الزيارة!..

وفيما كانا يعبران الدهليز التقى بلوجين. لقد وصل لوجين في الساعة الثامنة تماماً، ولكنه ظل يطوف مدة طويلة قبل أن يهتدي إلى الغرفة، وها هم أولاء الثلاثة يدخلون معاً، ولكن دون أن ينظر أحد منهم إلى أحد، ودون أن يحيي أحد منهم أحداً. دخل الشابان أولاً، وتوقف بيوتر بتروفتش في حجرة المدخل قليلاً من باب اللباقه، وخلع هنالك معطفه. وتقدّمت بولخيريا الكسندروفنا إلى لقائه عند عتبة الغرفة فوراً. وكانت دونيا أثناء ذلك الوقت تحبّي أخيها.

دخل بيوتر بتروفتش، وسلّم على السيدتين بلطف وودة، رغم أنه قد اصطنع مزيداً من الوقار والكبراء. على أنه كان يدوّن مرتبكأ بعض الارتباك، لم يسيطر على نفسه سيطرة تامة بعد. وأسرعت بولخيريا الكسندروفنا التي كانت تبدو مرتبكة هي أيضاً، أسرعت تجلّس الجمع كله حول المائدة المستديرة التي كان عليها سماور يغلي ماؤه. فكان مكاناً دونيا ولوجين متقابلين، وكان مكاناً رازوميixinين وراسكولنيكوف أمام بولخيريا الكسندروفنا، فأما رازوميixinين فإلى جانب لوجين، وأما راسكولنيكوف فإلى جانب أخيه.

خيّم الصمت ببرهة من الوقت. وأخرج بيوتر بتروفتش من جيّبه، بغير تعجل، منديلاً من قماش الباتيسته تفوح منه روائح عطر، وتمخط كما يمتحنّت رجل محترم، بل ورجل يحس أن كرامته قد أهينت بعض الشيء، فهو عازم لذلك على أن يطالب بإيضاحات. كان قد خطر بباله وهو في حجرة المدخل أن لا يخلع معطفه، وأن ينصرف فوراً ليعاقب السيدتين معاقبة قاسية، وليفهمهما الوضع كله. ولكنه لم يعزم أمره على إنفاذ هذه الفكرة التي خطرت بباله. ثم إن هذا الرجل يكره الأمور التي يعوزها اليقين الثابت،

وهنالك نقطة لا بد من إيضاحها: لئن خالفت هاتان السيدتان أوامرها صراحة، فلا بد أن هناك سبباً دعا إلى ذلك، فالأفضل أن يعرف هذا السبب بسرعة، وفي وسعه بعدئذ أن يعاقب عقاباً قاسياً ما دام يملك أن يعاقب.

قال يخاطب بولخيريا الكسندروفنا بلهجة رسمية:

– أرجو أن تكونا قد قمتا برحالة مرحة.

– نحمد الله يا بيوتر بتروفتش!

– يسرني أن أعرف هذا. ألم تتعب آفدوتيا رومانوفنا أيضاً؟

أجبت دونيا قائلة:

– أنا شابة وقوية فلا أتعب. أما ماما فقد تحملت مشقة كبيرة.

– ما العمل؟ إن طرقنا الوطنية تمتد مسافات كبيرة. إن «أمنا روسيا» كما يقال، واسعة كثيراً... أما أنا فأأنني، رغم رغبتي القوية، لم أستطع أن آتي إلى المحطة لاستقبالكم. آمل مع ذلك أن يكون كل شيء قد تم بدون مزعجات.

فأسرعت بولخيريا الكسندروفنا تقول بنبرة خاصة:

– لا يا بيوتر بتروفتش! لقد لقينا مزعجات كثيرة، وشعرنا بضيق شديد. ولو لا أن الله أرسل إلينا دمترى بروكوفتش بالأمس، إذن لضعننا.

ثم أضافت تعرّف لوجين بدمترى بروكوفتش:

– هذا دمترى بروكوفتش رازوميixin.

فدمدم لوجين يقول وهو يلقي على رازوميixin نظرة مواربة خالية من المودة:

– ولكن... سبق لي أن سُررت... أمس...

ثم قطب حاجبيه وصمت.

نستطيع أن نصف بيوتر بتروفتش على وجه العموم بقولنا إنه يتمي إلى تلك الفئة من الناس التي تبدو في المجتمع لطيفة ودودة، أو تبدو متطلعة إلى اللطف والمودة، ولكن ما إن يسوءها شيء حتى تفقد على الفور لباقتها، فإذا هي تشبه أكياساً من دقيق أكثر مما تشبه فرساناً مرحين منطلقيين يلاطفون الناس حولهم ويحيطون باعتبارهم.

وساد صمت شامل من جديد. فراسكولنيكوف مصر على السكوت إصراراً عنيداً، وآفدوتيا رومانوفنا لا تريد أن تتكلم قبل أن تحين اللحظة المناسبة، ورازوميixin ليس عنده ما يقوله. وهكذا شعرت بولخيريا الكسندروفنا بنذر الخطر. فلتجأ إلى آخر ما تملك من موارد، فبادرت تقول:

– ماتت مارفا بتروفنا، هل تعرف هذا؟

– أعرفه طبعاً. علمت به منذ أخذت تسرى الشائعة... وأزيدك علماً فأقول إن آركادي إيفانوفيتش سفدريجايلوف قد أسرع يجيء إلى بطرسبرج بعد دفن امرأته فوراً. هذه هي على كل حال الأخبار الدقيقة التي وصلتني.

قالت دونيا تسأل بصوت خائف قلق، وهي تبادر أمها نظرة سريعة:

– إلى بطرسبرج؟ إلى هنا؟

– نعم. ولا شك في أن له نيات يضمّرها، إذا نحن نظرنا إلى استعجاله السفر إلى الأحداث التي سبقت هذا السفر.

صاحت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

– رباه! هل من الممكن أن لا يدع دونيتشكا مرتاحه هنا أيضاً؟

– يخیل إليّ أنكما يجب أن لا تبالغا في القلق، لا أنت ولا آفدوتيا رومانوفنا، على شرط أن ترغبا أنتما طبعاً في أن تتحاشيا كل صلة به. أما أنا فما أزال يقظاً ساهراً، وأعمل على استطلاع محل سكناه.

وتابعت بولخيريا الكسندروفنا كلامها فقالت:

– آه يا بيوتر بتروفتش! إنك لا تعرف مدى ما أحدثه في نفسي من خوف ورعب! إنني لم أره في حياتي إلا مرتين، ولكنه بدا لي مريعاً، مريعاً! أنا واثقة بأنه هو سبب موت مارفا بتروفنا!

– يصعب القطع برأي فيما يتعلّق بهذه النقطة. أنا أملك معلومات دقيقة محدّدة. لست أنكر أنه قد عجل بجري الأمور بما أحدثه الإهانة فيها من أثر نفسي إن صح التعبير. أما عن سلوك الرجل وعن أخلاقه عامة فأنا أواافقك على رأيك كل الموافقة. لا أدرى هل أصبح الآن غنياً، ولا أدرى كم أورثته مارفا بتروفنا على وجه الدقة، ولكنني سأعرف هذا بعد مدة لن تطول. ومهما يكن من أمر، فمما لا شك فيه أنه، وقد أصبح يملك مالاً، سوف يستأنف فوراً، هنا بطرسبرج، طراز الحياة التي كان يعيشها في الماضي. هذا إنسان هو أكثر أشباهه انحلال خلق، وفساد طبع. وهناك أسباب قوية تدعوني إلى الاعتقاد بأن مارفا بتروفنا التي شاء سوء حظها أن تُختنق به وأن تحررها من ديونه منذ ثمانين سنين، قد خدمته في ميادين أخرى: بفضل جهودها وحدها، وبفضل تضحياتها إنما استطاعت أن تخنق في المهد قضية إجرامية وحشية فظيعة كان يمكن أن تؤدي به إلى سيبيريا. ذلك هو هذا الرجل إذا كنت تحرصين على معرفته!

صاحت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

– آه! ريا!

وكان راسكولنيكوف يصغي بانتباه.

سألته دونيا بلهجة قاسية رصينة:

– هل صحيح حقاً أن لديك معلومات دقيقة عن ذلك؟

– أنا إنما أكرر ما سمعته بنفسي من فم المرحومة مارفا بتروفنا مختوماً بخاتم السر. يحسن أن نلاحظ أن هذه القضية تظل من وجهة النظر القانونية غامضة غموضاً شديداً. في ذلك الوقت كانت تعيش هنا ويظهر أنها ما تزال تعيش إلى الآن – سيدة أجنبية اسمها ريسليخ، وهي مرابية صغيرة لها أعمال أخرى. ولقد كان السيد سفديجايروف على صلات حميمة سرية بهذه المرأة منذ زمن طويل. وكانت تعيش معها فتاة تمت إليها بقرابة بعيدة، فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها أو في الرابعة عشرة، كانت صماء خرساء، وكانت السيدة ريسليخ تحضنها كرهاً لا حدود له، وتلومها على كل لقمة خبز تأكلها، حتى لقد كانت تضر بها ضرباً لا رحمة فيه ولا شفقة. وفي ذات يوم وُجدت الفتاة مشنوقة في الطابق الذي يقع تحت سقف المنزل. وقد انتهى التحقيق إلى أن الفتاة ماتت متخردة، فطويت القضية بعد إتمام الإجراءات المعتادة. غير أن وشایة جاءت بعد ذلك تقول إن الطفلة قد اعتدى عليها السيد سفديجايروف اعتداءً مشيناً قاسياً. صحيح أن هذا كله ظل يكتنفه الغموض، فالوشایة قد صدرت عن ألمانية أخرى هي امرأة سيئة السمعة لا توحى بأية ثقة. ولم تتبع ذلك أية إجراءات: فبفضل جهود مارفا بتروفنا وبفضل ما لها بقي كل شيء في حدود الشائعة. غير أن هذه الشائعة كانت بليغة الدلالة. ولا شك أنك سمعت يا

آفدوتيا رومانوفنا، حين كنت عندهم، كلاماً عن قصة خادم اسمه فيليب مات منذ ست سنين على أثر تعذيب، في العهد الذي كانت فيه القناة ما تزال قائمة.

– بل لقد سمعت أن فيليب هذا مات متخرجاً.

– تماماً، ولكنه أُجبر على الانتحار، أو قولي دفع إليه، بتأثير الإزعاجات والاضطهادات التي كان يمارسها السيد سفدريجايلوف.

قالت دونيا بخشونة:

– لم أكن أعرف ذلك. ولكنني سمعت قصة غريبة جداً تروي أن فيليب هذا كان رجلاً مصاباً بمرض الوسواس، وأنه كان نوعاً من فيلسوف قابع في البيت. كان الناس يقولون عنه أن قراءاته هي التي ذهبت بعقله، وأنه انتحر هرباً من سخريات السيد سفدريجايلوف، لا من ضرباته. ومهما يكن من أمر فإن السيد سفدريجايلوف، كان طوال مدة إقامتي عندهم، يعامل الخدم بحضوره معاملة حسنة، حتى لقد كان هؤلاء يحبونه، رغم أنهم يتهمونه في الواقع بأنه كان السبب في موت فيليب.

قال لوجين وهو يلوي فمه بابتسمة ملتقبة المعنى:

– أرى يا آفدوتيا رومانوفنا أنك أصبحت تمثيلين فجأة إلى تبرئته. هذا رجل ماكر فعلاً، وهو إلى ذلك مغواً داعر. أليست مارفا بتروفنا، التي ماتت تلك المية الغربية، دليلاً محزناً على ذلك؟ أنا إنما أردت أن أساعدكما بنصائح، أنت وأمك، لأنني أتبأ بمحاولات جديدة سيقوم بها بلا شك. وأنا من جهتي على اقتناع جازم بأن هذا الرجل سيودع في السجن يوماً من الأيام بسبب ديون. أن مارفا بتروفنا التي كانت لا تفكراً إلا في أولادها لم يكن في نيتها حتى، أن تورثه مبلغاً ضخماً من ثروتها، وإذا أورثته شيئاً مع

ذلك، فإن هذا الميراث لا يمكن أن يكون إلا مبلغاً زهيداً «عارضًا»، وهذا المبلغ الزهيد لن يكفي صاحبه الذي عُرف بعادات خاصة إلا سنة واحدة في أكثر تقدير.

قالت دونيا:

— بيوتر بتروفتش، أرجوك، لا تتكلمن عن السيد سفدريجايلوف! إن الكلام عنه يؤلمني.

وقال راسكولنيكوف فجأة، خارجاً بذلك عن صمته أول مرة:

— جاء إلىّ منذ قليل.

فإذا بصيحات التعجب تتعالى في جميع الجهات، وإذا بجميع الوجوه تلتفت إليه. وانفعل حتى بيوتر بتروفتش.

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال:

— جاء إلىّ منذ ساعة ونصف، بينما كنت ما أزال نائماً. دخل، فأيقظني، وعرفني بنفسه. كان منطلقاً مرحًا، وكان يأمل جازماً أن تتعقد بيني وبينه صلات. وقد ألحّ خاصة على أن يلacak يا دونيا، وطلب مني أن أكون وسيطاً له في تهيئة هذا اللقاء. هناك عرض يريده أن يبسطه لك. وقد ذكر لي ما هو هذا العرض. ومن جهة أخرى أبلغني رسميًّا أن مارفا بتروفنا قد اتسع وقتها، قبل وفاتها بأسبوع، أن تورثك في وصيتها ثلاثة آلاف روبل، وهو مبلغ تستطيعين أن تقبضيه يا دونيا في أقرب فرصة.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول وهي ترسم إشارة الصليب:

— الحمد لله! صلي لها يا دونيا، صلي لها!

قال لوجين فجأة:

– هذا صحيح.

وقالت دونيا مستطلعة:

– هيء، وبعد ذلك؟

– بعد ذلك قال إنه هو نفسه ليس غنياً، وأن الثروة كلها قد آلت إلى أولاده الذين بقوا الآن عند خالتهم. ثم أضاف أنه قد نزل في مكان ما، غير بعيد عن بيتي، ولكنني لا أدرى أين يقع مسكنه على وجه الدقة، ولم أسأله...

سألت بولخيريا الكسندروفنا مرتاعة:

– ولكن ماذا يريد، ماذا يريد أن يعرض على دونيا؟ هل قال لك ماذا يريد أن يعرض عليها؟

– نعم، قال لي.

– فما الذي يريد أن يعرضه عليها؟

– سأذكر عرضه فيها بعد. قال راسكولنيكوف ذلك، ثم صمت وعاد يشرب الشاي.

فأخرج بيوتر بتروفتش ساعته ونظر فيها، ثم قال:

– إنني مضطرب إلى أن أترككم حتى، فهناك عمل ملح مستعجل يناديوني.

وأضاف يقول وهو يتحرك لينهض مُظهراً بعض الانزعاج:

– وبذلك لن أضايقكم.

فقالت دونيا:

— ابق يا بيوتر بتروفتش! ألم تكن تنوي أن تقضي السهرة معنا؟ ألم تكتب أيضاً أنك تريد أن تناقش ماماً؟

فقال بيوتر بتروفتش بوقار شديد:

— هذا صحيح يا آفدوتيا رومانوفنا.

وجلس، لكنه ظل مسكاً قبعته بيده، وتابع يقول:

— كنت أريد فعلاً أن أناقشك وأناقش أمك المحترمة في أمور خطيرة جدًا. ولكن كما أن أخاك لا يستطيع أن يشرح أمامي شيئاً عن عروض السيد سفديجايروف، كذلك لا أريد أنا ولا أستطيع أن أشرح شيئاً أمام... أشخاص آخرين... في أمور هي على درجة عظيمة جدًا من خطورة الشأن!.. ثم إن أحداً لم يكترث إطلاقاً برجائي الملح...

واكتسى وجه لوجين تعبيراً عن المرارة، وصمت في وقار ورصانة.

قالت دونيا:

— أنا وحدي السبب في عدم تحقيق رغبتك في أن لا يحضر أخي حديثنا. لقد كتبت تقول إن أخي أهانك، وأنا أرى أنه يجب إيضاح الأمور بأقصى سرعة، وأن عليكما أن تتصالحا. إذا كان روديا قد أهانك حقاً، فإنه يكون من واجبه أن يعتذر لك، وسوف يفعل ذلك...

وقد استرد بيوتر بتروفتش كبرباءه، فقال:

— يا آفدوتيا رومانوفنا، هناك إهانات لا يمكن أن ينساها المرء منها يبلغ من حسن الطوية وصدق الرغبة. أن لكل شيء حدوداً لا يمكن أن يتجاوزها أحد دون أن يعاقب عليها، ومتى تجاوزها كانت العودة إلى الوراء مستحيلة استحالة كاملة.

قاطعته دونيا تقول بشيء من نفاذ الصبر:

– ليس هذا تماماً ما كنت أكلمك فيه. أفهم جيداً أن مستقبلنا يتوقف الآن على نقطة واحدة: هل يمكن إيضاح هذا الأمر كله وتسويته بأقصى سرعة أم لا؟ إني أنبهك بصرامة، منذ البداية، إلى أنني لا أرى أي مخرج آخر، فإذا كنت تحرص على أي حرص فيجب أن تنتهي هذه القصة في هذا اليوم نفسه مهما يكلف الأمر. أعود فأكرر أن أخي سيعتذر لك إذا كان هو مخطئاً.

قال لوجين وقد ازداد اهتياجه شيئاً بعد شيء:

– يدهشني يا آفدوتيا رومانوفنا أن تطرحي المسألة هذا الطرح. إني على ما أكنه لك من اعتبار عظيم، ومن حب كبير إن صح التعبير، أستطيع أن لا أحب في الوقت ذاته فرداً من أفراد أسرتك. وإنني على تطلعى إلى أن أسعد بزواجه أستطيع في نفس الوقت أن لا أقبل تحمل واجبات لا تتفق مع...

قاطعته دونيا تقول مندفعه:

– مهلاً مهلاً! دعك من فرط الحساسية هذا يا بيوتر بتروفتش. ولتكن ذلك الرجل الذكي النبيل الذي رأيته فيك دائمًا والذى أحب أن أراه فيك. لقد وعدتك وعداً صريحاً، وأنا خطيبتك. فلتثق بي إذاً في هذه القضية، ولتكن على يقين من أنني أستطيع أن أقضي في الأمر محایدة غير متحيزة. إن وقوفي موقف الحكم يدهش أخي مثلما يدهشك. وحين دعوته اليوم، بعد تلقى رسالتك، إلى حضور لقائنا هذا حتماً، فإني لم أقل له شيئاً عما أنويه. ألا فافهم أنني سأكون مضطرة إلى أن أختار أحدكم وأترك الثاني إذا أنتما لم تتصالحا. إن المسألة مطروحة على هذا النحو، من جهتك ومن جهته على السواء. فلا أستطيع ولا ينبغي لي أن أخدع في أمر اختياري. أنت ترى أن عليّ أن أقطع صلتي بأخي، وهو يرى أن عليّ أن أقطع صلتي

بك. فأنا أريد وأستطيع أن أعرف في هذه اللحظة أهو أخ لي حقاً، وأستطيع أن أعرف أيضاً أنا عزيزة عليك حقاً، أستطيع أن أعرف هل أنت تحترمني، هل أنت زوج لي حقاً؟

قال لوجين منزعجاً:

– يا آفدوتيا رومانوفنا، إن أقوالك هذه زاخرة بالمعاني في نظري، بل في وسعي أن أقول إنها جارحة جداً إذا نحن نظرنا إلى الوضع الذي يشرفني أن أحتجله بالنسبة إليك. بغضّ النظر عن طريقتك الغريبة المثيرة هذه في الموازنة بيني أنا وبين... شاب مغرور، فأبني أرى من كلماتك أنك تصورين إمكان تراجعك عن الوعد الذي قطعته لي. فأنت تقولين «أنت أو هو»، مبرهنةً بذلك على ضعف شأنك عندك، وقلة قيمتي في نظرك. ألا فاعلمي أنني لا أستطيع أن أقبل هذا، نظراً للعلاقات التي بيننا، و... الالتزامات التي تربطنا.

صرخت دونيا وقد احمرّ وجهها من الغضب احمراراً شديداً:

– كيف تقول هذا الكلام؟ لقد وضعت مصلحتك في منزلة أثمن ما ملكت حتى الآن، وضعتها في منزلة كل ما كان حتى الآن حياني «كلها»، وهأنت ذا تشكوك فجأة من ضعف شأنك عندي وقلة قيمتك في نظري!..

ابتسם راسكولنيكوف ابتسامة حاقدة، وتحرك رازوميفين في مكانه معبراً عن اشمئزاز وغضب. ولكن بيوتر بتروفتش لم يشأ أن يدرك ذلك الاعتراض، حتى لقد كان يغدو أشدّ شراسة وأميل إلى المشاجرة عند كل كلمة جديدة، فكأنه يجد لذة في أن الأمور قد صارت إلى هذه الحال.

قال متغرياً:

– إن حب رفيق الحياة، إن حب الزوج يجب أن يتغلب على حب الآخر. ومهما يكن من أمر، فأنا لا أرضي
أن أوضع في ميزان واحد مع... وعلى كل حال، ورغم أنني قد أعلنت صراحةً منذ لحظة أنني لا أستطيع
ولا أريد أن أعرض، بحضور أخيك، جميع الموضوعات التي تشغلي باللي، فإني أحب أن أحاسب أمك
المحترمة على نقطة أساسية تجر حني كثيراً.

قال ذلك ثم التفت يخاطب بولخيريا الكسندروفنا:

– إن ابنك قد أهانني أمس بحضور السيد راسودكين^{١٠} (أو السيد... هذا اسمك، أليس كذلك؟
معدرة... لقد نسيت اسمك – كذلك قال لرازوميixin وهو يحييه تحية متلطفة –)، أقول إن ابنك قد
أهانني أمس بحضور هذا السيد مشوهاً فكرةً سبق أن عبرت لك عنها في حديث خاص جرى بيني
وبينك أثناء احتساء فنجان من القهوة، إذ قلت إنني أرى أن الأفضل من وجهة نظر الحياة العائلية أن
يتزوج الرجل فتاة فقيرة عرفت مصاعب الحياة وعانت قسوة المعيشة بدلاً من أن يتزوج فتاة ذاقت
مباهج اليسر والرخاء والدعة، لأن ذلك يكفل السعادة وأنفع من الناحية الأخلاقية. ولكن ابنك قد
تعمد أن يضيّم دلالة هذه الأقوال تضيّيحاً جعلها سخيفة، فاتهمني يأبشع التهم، ونسب إلى أسوأ
الأهداف والخطط، مستنداً في ذلك إلى رسالتك أنت فيما أظن. لسوف يسعدني كثيراً يا بولخيريا
الكسندروفنا أن تقنعني بأن الأمر لم يكن كذلك، فيحمل إلى هذا طمأنينة كبيرة وراحة عظيمة. اذكري
لي الكلمات التي عمدت إلى استعمالها لنقل أقوالي والتعبير عن آرائي في الرسالة التي بعثت بها إلى رواديون
رومانيقش!

قالت بولخيريا الكسندروفنا مجمجمة:

^{١٠} إن اسم رازوميixin مشتق من الكلمة «رازوم» الروسية ومعناها «العقل». وهنا يتظاهر لوجين بنسیان الاسم، ويحمل محله اسم راسودكين، المشتق من الكلمة راسودوك الروسية ومعناها «الذكاء».

– لا أتذكر. لقد نقلتها على نحو ما فهمتها أنا نفسي. لا أدرى كيف أعادها لك روديا... لعله بالغ قليلاً...

– ما كان ليستطيع أن يبالغ لولا ما أوحيت به إليه.

قالت بولخيريا الكسندروفنا في وقار:

– يا بيوتر بتروفتش، الدليل على أننا، أنا ودونيا، لم نؤول أقوالك تأويلاً سبيلاً جداً، هو وجودنا كلتينا هنا.

قالت دونيا مؤيدة محبدة:

– أحسنت يا ماما!

فقال لوجين مستاء:

– إذاً أنا المخطئ!

فبادرت بولخيريا الكسندروفنا تضييف قوتها متشجعة:

– اسمع يا بيوتر بتروفتش، إنك لا تربح تهم روديون، بينما كتبت أنت نفسك في حقه أشياء غير صحيحة.

– لا أذكر أني كتبت أي شيء غير صحيح.

قال راسكولنيكوف بلهمجة لاذعة، حتى دون أن يلتفت نحو لوجين:

– كتبت أنتي وهبْت بالأمس مالاً لا لأرملا الموظف الذي داسته الخيل – وهذه هي الحقيقة – بل لابنته (التي لم أكن قد رأيتها في الواقع قبل الأمس يوماً). كتبت ذلك لتوقع بيني وبين أهلي، ولتزرع في قلوبنا الشقاقي؛ ومن أجل تحقيق هذا الغرض أضفت غمزات دنيئة تقدح في سلوك الفتاة لا تعرفها. فهذا كله ليس فيه إلا نميمة وحقارة.

أخذ لوجين يرتجف من فرط الغيظ ارتجافاً شديداً وقال:

– معدرة أهيا السيد، لئن أفضت في الكلام، في رسالتي، عن أعمالك وصفاتك، فإنما فعلت ذلك تلبيةً لطلب أمك وأختك اللتين رجتاني أن أعلمها عن أحوالك وعن الأثر الذي تحدثه في نفسي. أما رسالتي فإنني أتحداك أن تجد فيها سطراً واحداً يشتمل على غير الصدق، أي بتعبير آخر أن تبرهن لي على أنك لم تبدد مالك، وأن تبرهن لي على أن تلك الأسرة، منها تكن فقيرة بائسة، ليس بين أفرادها أحد ساقط.

– أما أنا فأرى أنك رغم كل وقارك لا تساوي إصبع تلك الفتاة المسكينة التي ترميها بالحجر...

– معنى هذا أنك لن تتردد عن جمعها بأمرك وأختك؟

– فعلت هذا، إن كنت تحرص على أن تعلم ذلك. أجلستها إلى جانب أمي ودونيا في هذا اليوم نفسه.

صاحت بولخيريا الكسندر وفنا تنادي ابنها:

– روديا!

واحمرت دونيتشكا. وقطاب رازوميixin حاجبيه. وابتسم لوجين ابتسامة مسمومة فيها احتقار. وقال يخاطب دونيا:

– احكمي بنفسك يا آفدوتيا رومانوفنا: هل من سبيل إلى تفاهم؟ آمل أن تُحل هذه القضية الآن، وأن توضّح مرة واحدة إلى الأبد. أما أنا فإني أنسحب حتى لا أعكر عليكم صفو هذا الاجتماع العائلي اللطيف، وحتى تتناقلوا أسراركم بحرية.

قال ذلك وهو ينهض ويتناول قبعته. ثم واصل كلامه قائلاً:

– لكنني أسمح لنفسي وأنا أنصرف بأن ألغى نظركم إلى أنني آمل أن لا أجبر في المستقبل على تحمل مثل هذه اللقاءات بل قولوا على تحمل مثل هذه الفضائح. وإليك أنت خاصة يا بولخيريا الكسندروفنا المحترمة جداً إنما أتقدم بهذا الطلب، لا سيما وأن رسالتني قد بعثت بها إليك أنت، لا إلى أي شخص غيرك.

انزعجت بولخيريا الكسندروفنا وقالت:

– أنت تعد نفسك سيداً لنا يا بيوتر بتروفتش؟ لقد شرحت لك دونيا، مع ذلك، الأسباب التي جعلتنا لا نلبي رغبتك. لقد كانت نياتها حسنة. ثم إنك حين تكتب إلى إنما تكتب بلهجة من يلقي أوامر. فهل يجب أن تعد كل رغباتك أمراً من الأوامر واجب التنفيذ؟ ألا عكس هذا هو ما ينبغي أن يكون. فأنت، أنت الآن من يجب عليه أن يتلزم غاية الرقة واللطف في معاملتنا، لأننا محضنا ثقة كاملة فتركتنا كل شيء في سبيل أن نجع إلى هنا، حتى صرنا منذ الآن خاضعين لمشيئتك، واقعتين تحت سلطانك.

– ليس هذا صحيحاً كل الصحة يا بولخيريا الكسندروفنا، لا سيما وأنكم ستقبضون، كما أبلغتم ذلك منذ قليل، مبلغ ثلاثة آلاف روبل أورشتم إياها مارفا بتروفنا في وصيتها. يبدو لي أن هذا المبلغ قد جاء في أوانه، كما يدل على ذلك ما تصطنعينه من لهجة جديدة في مخاطبتي.

هذا ما أضافه لوجين بصوت حانق.

فقالت دونيا مهتاجة غاضبة:

– في وسع المرء حقاً، حين يسمع قولك هذا، أن يفترض أنك كنت تعول على عوزنا...

– على كل حال، لم يبق في إمكاني الآن أن أعول على هذا العوز؛ وأنا خاصة لا أريد أن أعرقل اطلاعكم على العروض السرية التي عرضها آركادي إيفانوفيتش سفدريجايلوف على أخيك، والتي أرى أن لها عندك شأناً كبيراً، حتى لقد تسرك كثيراً.

صاحت بولخيريا الكسندروفنا:

– آه! يا رب!

وأصبح رازوميixin لا يطيق البقاء جالساً على كرسيه.

سأل راسكولنيكوف أخته:

– ألا تشعرين الآن بالخجل يا أختي؟

فقالت دونيا:

– نعم، أشعر بالخجل.

ثم صرخت وقد اصفر وجهها من الغضب اصفراراً شديداً، صرخت تقول لبيوتر بتروفتش:

– بيوتر بتروفتش! اذهب من هنا!

لم يكن ييدو على بيوتر بتروفتش أنه كان يتوقع هذه الخاتمة. لقد أسرف في الاعتزاز بنفسه، وبقوته، وأسرف في الاعتماد على ضعف ضحيته. وهو حتى الآن لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه.

شحب وجهه، وتشنجات شفتها. ثم قال:

– إذا اجترتُ الآن هذا الباب يا آفدوتيا رومانوفنا، موَدعاً بكلمات كهذه الكلمات، فاعلمي أنني لن أرجع قط. يجب أن تفكري في هذا. وليس من عادي أن أنكل عن أقوالي.

صاحب دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها بوثبة واحدة:

– يا للوقاحة! ألا تعلم أنني لا أريد أن ترجع قط؟

– ماذا؟ أهكذا إذا؟

بهذا هتف لوجين الذي لا شك في أنه ظل حتى تلك اللحظة لا يتصور أن نهاية كهذه النهاية ممكنة، فإذا هو الآن يفقد كل سيطرته على نفسه، ويتابع كلامه قائلاً:

– هكذا إذا؟ ولكن هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أن في وسعي أن أحتاج؟

فدخلت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

– ما الذي يسمح لك بأن تقول لها هذا الكلام وأن تخاطبها بهذه اللهجة؟ ثم كيف يكون في وسعك أن تتحرج؟ أتظن أنني أرضي أن أزوج بنتي رجلاً مثلك؟ هيا اذهب! اتركنا إلى الأبد! ألا إننا نحن الذين أثمننا حين تورطنا في قضية غير شريفة؛ وأنا الآثمة أكثر من أي شخص آخر..

– ولكنك، يا بولخيريا الكسندروفنا، قد ربطتني بالوعد الذي قطعته لي، وتنكيلين عنه الآن. ثم... ثم... ثم إنني قد جررت إلى تكبد نفقات...

إن هذا الادعاء الذي يدعوه بيوتر بتروفتش يبلغ من المطابقة لطبعه والاتفاق مع خلقه أن راسكولنيكوف الذي كان قد شجب لونه شحوباً شديداً بسبب غضبه وبسبب الجهود التي كان يبذلها لکبح جماح نفسه، لم يطق عندئذ صبراً، فانفجر يضحك ضحكة صاحبة معربدة.

وخرجت بولخيريا الكسندروفنا عن طورها، فأخذت تصرخ سائلة:

– نفقات؟ أي نفقات؟ أتراك تقصد نفقات شحن حقيبتنا؟ ولكن موظف القطار قد شحنها لك بالمجان! ثم ما هذا الكلام الذي تقوله عن الارتباط؟ أحن الدين ربناك إذن؟ ألا فلتذكري يا بيوتر بتروفتش أنك أنت الذي ربطتنا، بل أنت الذي كبّلتنا تكبيلاً، كبّلت أيدينا وأرجلنا...

قالت آفدوتيا رومانوفنا لأمها متسلة:

– كفى، يا أماه، كفى! أرجوك!

والتفتت إلى بيوتر بتروفتش فقالت له:

– هلاً ذهبت، من فضلك، يا بيوتر بتروفتش!

قال بيوتر بتروفتش وقد فقد سيطرته على نفسه:

– أنا ذاهب، غير أن هناك كلمة أخيرة أحب أن أقوها: ييدو أن أمك نسيت نسياناً تاماً أني قررت أن أتخذك زوجة لي حين كانت سمعتك مضغةً في جميع الأفواه. وأحسب أني إذ خالفت رأي الناس ورددت إليك حسن السمعة كان في وسعى أن انتظر تعويضاً في أقل تقدير، بل وأن أطالب بمكافأة. آه... لقد كانت عيناي مغمضتين حتى هذه اللحظة! إني لأدرك الآن أنني قد تصرفت تصرفاً طائشاً حين لم أقم أى وزن للشائعات التي كانت تلوّكها الألسن عنك...

صرخ رازوميixin يقول وهو يشب عن كرسيه ويستعد لل العراق:

– إنه يريد أن أهشّ رأسه!

وقالت دونيا:

– أنت رجل دنيء سافل!

و هتف راسكولنيكوف يقول وهو يصد رازوميixin:

– لا كلمة، ولا حركة!

ثم اقترب من لوجين، وقال له تحت أنفه بصوت أحش لكنه واضح:

– هيّا أغرب من هنا! إياك أن تقول كلمة واحدة، وإلا ...

فتأمله بيوتر بتروفتش بضع لحظات شاحب الوجه منقبض القسمات من الكره، ثم استدار وخرج.

قلّما حمل قلب إنسان من الحقد على إنسان مثلما حمل قلب هذا الرجل من الحقد على راسكولنيكوف. لقد عدّه، هو وحده، مسؤولاً عن كل شيء.

ولكن يجب أن نذكر أنه منذ الآن، أثناء هبوطه السلم، كان ما يزال يتخيّل أنه لم يخسر القضية، وأن الأمور فيها يتعلق بالسيدين ما يزال يمكن تدبيرها.

الفصل الثالث

إن النقطة الأساسية هي أن بيوتر بتروفتش كان حتى آخر دقيقة لا يصدق أن الأمور ستنتهي بهذه النهاية. لقد تفاخر وتعاظم وتبجح إلى أبعد حدود التفاخر والتعاظم والتبجح، وكان لا يتصور حتى إمكانية أن تستطيع امرأتان بائستان الخروج على طاعته والتحرر من سلطانه. إن غروره وثقته بنفسه ورضاه عن ذاته وكبرياته، إن هذا كله قد ساهم كثيراً في ترسيخ ذلك الاقتناع لديه. هو رجل بدأ من الصفر، وتعود أن يعجب بنفسه إعجاباً شديداً، وأن يقدر ذكاءه وكفاءاته قدرأً عظيماً، حتى لقد كان في بعض الأحيان، حين يخلو إلى نفسه، يتأمل وجهه في المرأة مدة طويلة، فرحاً كل الفرح. على أن الشيء الذي كان يحبه في الدرجة الأولى، وينزله في المقام الأول من الاحترام، إنها هو المال الذي استطاع أن يجنيه بفضل عمله وبفضل وسائل أخرى أيضاً. ألم يكن هذا المال يتيح له أن يتعامل تعامل الند بالند مع أناس أعلى منه مقاماً وأرفع منزلة؟

وحين ذُكر دونيا، بمرارة، أنه قد قرر أن يتزوجها رغم الشائعات المؤسفة التي كانت تجري بين الناس في حقها، فإنما كان يتكلم صادقاً كل الصدق؛ حتى لقد كان يشعر بأعمق الاستياء من نكرانها هذا الجميل. على أنه حين خطب دونيا كان مقتناً كل الاقتناع بسخف جميع تلك الشائعات، التي حرصت مارفا بتروفنا نفسها على أن تدحضها أمام الملا، والتي أصبحت لا تتناقلها الألسن في المدينة الصغيرة منذ مدة طويلة، بعد أن أعاد الناس إلى دونيا اعتبارها، وأصبحوا يحبونها حباً شديداً. وما كان له على كل حال أن ينكر أنه كان عالماً بهذه الأشياء كلها حين الخطبة. ومع ذلك كان يحس أنه قد من على الفتاة بفضل عظيم حين ارتضى أن يرفعها إلى مستوىه، حتى لقد كان يعده هذا عملاً بطولياً من جانبه. وحين زار راسكولنيكوف كان يشعر أنه إنسان محسن، وكان يتوقع أن يقطف ثمرات عمله الخير، وأن يسمع من

راسكولنيكوف أجمل آيات الشكر وأعظم عبارات الثناء والمديح. لذلك كان بيوتر بتروفتش، أثناء هبوطه السلم، يشعر بأنه إنسان لم يفهم حق فهمه ولم يقدر حق قدره، وأنه أهين إهانة بالغة.

أما دونيا فقد أصبحت ضرورة لا غنى عنها لحياته. حتى لقد بات لا يستطيع أن يتصور إمكان العدول عنها. لقد حلم بالزواج منذ مدة طويلة، منذ بضع سنين، وكان حين يحلم بهذا الزواج يتمنى سكراراً، ويعده العدة ويجمع من أجله المال. كان يتخيّل، في قراره قلبه، فتاة فاضلة فقيرة (لا بد أن تكون فقيرة)، فتاة في ريعان الصبا ونضارة الشباب، على جانب عظيم من الحسن والجمال، تنتهي إلى أسرة كريمة، وتنعم ب التربية حسنة، ولكنها مروعة خائفة بسبب نوازل كثيرة ألمت بها، فلا بد أن تخضع له خصوصاً كاملاً، وأن تذعن لمشيئته إذعاناً تماماً، وأن تظل ترى فيه، طوال حياتها، الرجل الذي أحسن إليها وأنعم عليها، فتقديسه تقديساً، وتحضنه نفسها مخلصة، ولا يعجبها أحد سواه. ما أكثر المشاهد الجميلة والصورة اللذيدة التي تراها خياله حول هذا الموضوع المغرى الممتع، في اللحظات التي كانت تهدأ فيها نفسه قليلاً حين يخلد إلى الراحة من أعماله!وها قد أوشك هذا الحلم الذي هدده خياله طوال تلك السنين، ها قد أوشك أن يتحقق: إن جمال آفدوتيا رومانوفنا وحسن تربيتها قد أذهلاه، وإن وضعها السيء وحالتها اليائسة يخضانه إليها ويشدّانه إليها كثيراً؛ بل إن فيها شيئاً يفوق ما كان يأمله: إن الفتاة على جانب عظيم من الكبرياء والشتم، والنشاط والقوة، والعفة والفضيلة، وهي أوسع منه ثقاقة وأغزر علماً (كان هو يشعر بهذا)، وأن إنسانة كهذه الإنسانة هي التي ستحتفظ له طول حياتها بشعور الامتنان وعاطفة العرفان، وهي التي ستتحمّي أمامه من فرط احترامها له وتقديسها إليها، فليس عليه إلا أن يأمر حتى تطيع!.. وقد شاءت المصادفات بما يشبه العمد والقصد، أن يقرر صاحبنا، قبيل لقياها بقليل، وبعد تأجิلات كثيرة، أن يغير ميدان عمله وأن يقترب مجالاً أوسع، وأن يشق لنفسه طريقاً في ذلك المجتمع الراقي الذي طالما شدته إليه أحلامه. كان صاحبنا قد قرر أن يجرب حظه في بطرسبرج. وهو يعلم حق

العلم أن للنساء «دوراً عظيماً» في هذا المجال، وأن فيهن نفعاً كبيراً. أن الفتنة التي تشع من امرأة أخاذة فاضلة مثقفة يمكن أن تجّمل حياته، وأن تجتذب إليه مودة الناس، وأن تحيّطه بهالة من المهابة والسحر...

ولكنها هوذا كل شيء ينهار الآن دفعة واحدة! لقد نزلت عليه هذه القطيعة المفاجئة والكريهة نزول الصاعقة. هذه مهزلة فظيعة، هذا سخف رهيب! إنه لم يزد على أن «تبجّح» قليلاً، إن وقته لم يتسع لأن يقول كل ما في نفسه؛ لقد كان يمزح، لقد اندفع بعض الاندفاع... هذا كل شيء... فكيف يتّهي الأمر هذه النهاية الخطيرة؟!.. حتى لقد كان يجب دونيا، يحبها بطريقته الخاصة ويتسلط على روحها في أحلامه... لا، لا، يجب إصلاح كل شيء غداً، غداً... لا بد من معالجة الأمور، لا بد من مداواة الأمور، ولا بد خاصة من إحباط أعمال ذلك الغر الواقع الذي كان سبب البلاء كله.

وتذكّر رازوميixin وهو يشعر بالضيق والانزعاج أيضاً، لكنه لم يلبث أن أسرع يطمئن نفسه من هذه الناحية. قال يحدث نفسه ساخراً:

«لا ينقصني إلا هذا... لا ينقصني إلا أن أوازن بيني وبينه، أن أضع نفسي في مستواه!».

إن الشخص الذي كان لوجين يخشاه حقاً إنما هو سفديجايروف... الخلاصة: أن هوماماً كثيرة كانت تنتظره.

قالت دونيا وهي تعانق أمها وتقبلها:

– لا بل أنا المذنبة، أنا المذنبة! لقد استسلمت لإغراء ماله؛ ولكنني أقسم لك يا أخي أنني لم أكن أتخيله رجلاً دنيئاً إلى هذا الحد من الدناءة. ولو قد كشفت حقيقته من قبل لما استسلمت لإغراء أي شيء في هذا العالم! لا تتهمني يا أخي!

فتمتمت بولخيريا الكسندروفنا تقول دون شعور، كأنها لما تدرك ما جرى بعد:

— الله خلّصنا منه! إن الله خلّصنا منه!

وكانوا جميعاً مبهجين مغبظين، حتى لقد انطلقوا بعد خمس دقائق يضحكون. غير أن دونيا كان يشحب لونها من حين إلى حين، وكانت تقطب حاجبيها حين تتذكر ما عانته في هذه الآونة الأخيرة. ما كان لبولخيريا الكسندروفنا أن تعتقد في يوم من الأيام أنها يمكن أن تُسرّ لحادث كهذا الحادث. كانت في ذلك الصباح نفسه ما تزال تتصور أن القطيعة مع لوجين شقاء كبير ومصيبة عظيمة! أما رازوميixin فكان يشعر بسعادة قصوى. إنه لا يجرؤ بعد أن يظهر فرحته إظهاراً كاملاً، ولكنه كان يرتعش من قمة رأسه إلى أخص قدميه كمن انتابته حمى. لكان قلبه قد تخلص من عباءة ضخم وحمل ثقيل. سيكون في وسعه بعد اليوم أن يقف عليهما حياته، وأن يضع نفسه في خدمتها. وما أكثر ما يستطيع أن يفعله منذ الآن! على أن رازوميixin كان يطرد من ذهنه مشاريع المستقبل خائفاً من خياله.

راسكولنيكوف وحده ظل جالساً في مكانه متوجه الوجه تقريراً، حتى ليكاد يكون ذاهلاً شارد الفكر. إنه وهو الذي ألح أكثر منهم جميعاً على أن يُطرد لوجين، يبدو الآن أقلهم اهتماماً بها جرى. وقدّرت دونيا، رغم إرادتها، أنه ما يزال يؤاخذها ويحقد عليها، وكانت بولخيريا الكسندروفنا تتأمله خائفة وجلة. سألته دونيا وهي تقترب منه:

— ماذا قال لك سفدريجايلوف؟

وصاحت بولخيريا الكسندروفنا:

— آ... نعم... نعم... ماذا...

فرفع راسكولنيكوف رأسه، وقال:

– إنه يصر على أن يهدي إليك عشرة آلاف روبل، وقد أعرب عن رغبته في أن يراك مرة أخرى بحضورِي.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا:

– أن يراها؟ مستحيل!.. لا يمكن أن يتم هذا بحال من الأحوال! وكيف يجرؤ أن يقدم لها مالا؟!
عندئذ روى راسكولنيكوف (بغير قليل من الجفاف) ما جرى بينه وبين سفدريجايلوف من حديث،
مغفلاً ذكر ما قصّه عليه سفدريجايلوف من أن مارفا بتروفنا قد ظهرت له بعد موتها، وذلك حتى لا
يبتعد عن الموضوع، ولا شمئزازه من قول أي كلمة زائدة.

سألته دونيا:

– بماذا أجبته؟

– قلت له أولاً إنني لن أذكر لك كلمة واحدة عن طلبه. فأعلن لي عندئذ أنه سيُسعى بجميع الوسائل
إلى أن يحصل على موعد. وقد أكد لي أن العاطفة الجامحة التي كان يشعر بها نحوه لم تكن إلا هوى طارئاً،
وأنه أصبح الآن لا يشعر نحوه بأي عاطفة. كل ما يريد هو أن لا تتزوجي لوجين. على أن أقواله كلها
كانت غامضة مضطربة مبهمة.

– ما رأيك في هذا الرجل يا روديا؟ ما هو الانطباع الذي أحدثه في نفسك؟

– أُعترف بأنني لم أفهم حق الفهم. إنه يقدم عشرة آلاف روبل، ثم هو يزعم أنه ليس غنياً. يصرّح بأنه
سيسافر إلى مكان لا أدرى أين هو، ثم يبدو بعد عشر دقائق كأنه نسي ما قاله. وفجأة يذكر أيضاً أنه
سيتزوج، وأنهم قد وجدوا له خطيبة... أغلب الظن أنه يخفى خططاً معينة قد تكون سوداء. ولكن لا

حمل لأن نفترض أنه يبيت لك نيات سيئة، وإلا لما عمد إلى أسلوب يبلغ هذا المبلغ من الحماقة. ولقد تكلمت باسمك فرفضت ما عرضه من مال رفضاً قاطعاً باتاً بطبيعة الحال. منها يمكن من أمر، فقد بدا لي إنساناً غريباً الأطوار... حتى لقد رأيت فيه أعراض جنون. ولكن ربما أكون مخطئاً. على أن موت مارفا بتروفنا لا بد أن يكون قد خلّف في نفسه أثراً كبيراً.

– رحمة الله عليها! لسوف أظل أصلي لها دائماً، دائماً. ما الذي كان يمكن أن نصير إليه، أنا ودونيا، لو لا هذه الثلاثة آلاف روبل؟ رباه! لقد هبطت علينا هذه الأموال من السماء! آه يا روديا! في هذا الصباح كان كل ما بقي لنا من مال هو ثلاثة روبلات، ولم يكن قد بقي علينا إلا أن نرهن ساعة دونيا بأقصى سرعة، حتى لا نطلب مالاً من هذا الرجل قبل أن يخطر بباله أن يعرضه علينا من تلقاء نفسه.

بدا على دونيا أن عرض سفدريجايروف قد أدهشها وأذهلها. فبقيت واقفة، ساكنةً مفكرة.

قالت مدمدمة وهي ترتعش:

– إن في ذهنه أمراً رهيباً!

ولاحظ راسكولنيكوف هذا الرعب الشديد. فقال لدونيا:

– أظن أنه سيتاح لي أن ألقاه أكثر من مرة.

وهتف رازوميixin قائلاً بلهجة قوية:

– لا تخافوا، سوف نراقبه مراقبة دقيقة. سأراقبه أنا! لن يغيب عن بصرى. لقد أذن لي روديا بذلك. قال لي هو نفسه منذ قليل: «عليك أن تحمي دونيا». هل تأذنين لي بهذا أنت أيضاً يا آفدوتيا رومانوفنا؟

ابتسمت دونيا، ومدّت إلية يدها، ولكن وجهها حافظ على تعبيره عن الهم والقلق. وكانت بولخيريا الكسندروفنا تنظر إليها وجلة مرتابة. غير أن الأمل في الحصول على الثلاثة آلاف روبل كان قد هدّأ روعها وطمأن نفسها.

وبعد ربع ساعة كانوا قد انهمكوا في محادثة حامية. وحتى راسكولنيكوف، الذي لزم الصمت، كان يصغي بعض الوقت بانتباه. كان رازوميixin يتكلّم في إسهاب وحرارة كأنه يلقي خطاباً:

— لماذا، لماذا تسافران؟ ما عساكم تعملان في مدّيتكم الصغيرة الكريهة تلك؟ أتّم هنا قد اجتمع شملّكم، وكل واحد منكم يحتاج إلى الآخر، يحتاج إليه أشد الاحتياج، ابقيا بعض الوقت على الأقل. أما أنا فاقبلوني صديقاً، أقبلوني شريكاً. وأني لا أؤكّد لكم أننا سننشئ مشروعاً ممتازاً. اسمعوا: سأعرض عليكم مشروعي بأدق تفاصيله. لقد وافتنى هذه الفكرة منذ الصباح، قبل أن يحدث شيء مما حدث الآن... إليكم الموضوع: إن لي عاماً (سأعرّفكم به، هو شيخ لطيف جداً محترم جداً)... وهذا العم يملك رأس مال قدره ألف روبل، ويعيش من راتب تقاعدي يفي بحاجاته. وهو ما برح منذ سنتين يلح علىّ أن أقرّض منه هذا المبلغ بفائدة قدرها ستة في المائة. إنني أدرك حيلته: فكل ما يريده هو أن يساعدني. في العام الماضي لم أكن محتاجاً إلى هذا المبلغ، أما في السنة الحالية فإنني لا انتظر إلا وصول عمي لأطّلبه منه. فإذا أضفتكم ألف روبل من عندكم كان معنا ما يكفيانا لبدء المشروع، فتكون شركاء. فما هو ذلك المشروع؟

هنا طفق رازوميixin يشرح مشروعاً، فأفاض في الكلام على أن جميع أصحاب المكتبات ودور النشر عندنا أناس يجهلون مهنتهم، وأن الوضع العام لهذا السبب مؤسف جداً، وأكد أن المنشورات الجيدة تباع بسهولة، وأنها ربما درّت أرباحاً طائلة. كان رازوميixin يحلم أن يصبح ناشراً، منذ أن بدأ يعمل لحساب غيره منذ سنتين بفضل معرفته لثلاث لغات أجنبية (رغم أنه أعلن لراسكولنيكوف قبل ستة

أيام أنه «Schwach»^{١٦} «ضعيف» في الألمانية، والحق أنه لم يزعم له ذلك إلا ليشجعه على أن يقبل ترجمة نصف ما كان هو بصدق ترجمته، وعلى أن يأخذ الثلاثة روبلات سلفةً: لقد كذب، ولم ينطل كذبه على راسكولنيكوف).

وابع رازوميixin كلامه قائلاً بحرارة وحماسة:

– فلماذا، نعم لماذا ندع الفرصة تفلت منا مع أننا نملك لها أحسن وسيلة للنجاح، أعني رأس المال؟ صحيح أنه سيكون علينا أن نعمل كثيراً، ولكننا سوف نعمل، تعملين أنت يا آفدوتيا رومانوفنا ويعمل رواديون وأعمل أنا. إن نشر بعض الكتب يدرُّ أرباحاً طيبة، وما سيكون مصدر قوتنا، هو أننا سنحسن اختيار الكتب التي يجب أن تُترجم. سوف نترجم، ونشر، ونتابع في الوقت نفسه دراستنا. إني أستطيع أن أكون الآن نافعاً، لأنني حصلت على خبرة واسعة. لقد سلخت ستين كاملتين في العمل مع الناشرين، فأصبحت أعرف شؤون النشر معرفة تامة. صدقوني إذا قلت لكم إن الأمر أيسر مما تظلون. فلماذا، لماذا لا نتلهز الفرصة التي تعرض لنا؟ إني أعرف كتابين أو ثلاثة كتب لم أحدث عنها أحداً قط، ويكتفي أن أعرض فكرة نشرها حتى أجني من ذلك مائة روبل عن كل كتاب؛ بل هنالك كتاب آخر لا أبيع فكرة ترجمته حتى بخمسين روبل! ولا يمكن أن يتردد هؤلاء الناشرون الحمقى أي تردد إذا أنا ذكرت لهم أسماء تلك الكتب! أما الجانب المادي من المشروع، أعني الطباعة والورق والبيع وما إلى ذلك، فإنكم تستطيعون أن تعتمدوا عليّ فيه كل الاعتماد. إني أعرف هذه الأمور معرفة عميقة. وسوف نبدأ بداية متواضعة، ولكننا سنوسّع المشروع في المستقبل. ومهما يكن من أمر فسوف نجني ما يسدّ حاجاتنا ويكتفي نفقاتنا.

^{١٦} «ضعيف»: وردت الكلمة بالألمانية في الأصل Schwach ويجب أن يشار هنا إلى أن مشروع رازوميixin الذي يدور عليه الكلام في هذه المحادثة يعبر عن المتابعين التي لقيها دوستريفسكي نفسه من الناشرين، وعن الحلم الذي كان يحمله دائمًا وهو أن يتولى نشر مؤلفاته بنفسه.

كانت عينا دونيا تستطuan. قالت:

– إن ما تقوله يعجبني كثيراً يا ديميتري بروكوفتش!

وتدخلت بولخيريا الكسندروفنا فقالت:

– أنا لا أفهم في هذه الأمور شيئاً بطبيعة الحال. قد يكون هذا كله حسناً جداً، الله أعلم... ولكن... من جهة أخرى... طبعاً... حين يشرع المرء في شيء ما، فإنه يسير قليلاً في المجهول!.. على كل حال سيكون علينا حتماً، إذا نحن قررنا المشاركة في المشروع، أن نمكث هنا ولو بعض الوقت. ونظرت إلى راسكولنيكوف.

سألته دونيا:

– ما رأيك أنت يا أخي؟

فأجاب راسكولنيكوف:

–رأيي أن فكرته ممتازة. ولكن لا ينبغي لنا، بعد، أن نفكّر في إنشاء دار نشر كبيرة. يجب علينا أن نكتفي بأن ننشر في البداية خمسة أو ستة كتب مضمونة النجاح. أنا نفسي أعرف كتاباً سباع حتماً. أما عن كفاءة رازوميخين، فيجب أن تكونوا مطمئنين. لسوف يعرف كيف يكفل لمشروعه النجاح. على كل حال، سيتسع وقتنا للكلام في هذا الموضوع مرة أخرى...

صاح رازوميخين يقول:

– مرحى! والآن اسمعوا: توجد هنا، في هذا المنزل نفسه، شقة صغيرة يؤجرها أصحابها الذي أجّروكم هذه الغرفة. إنها شقة مستقلة لا تتصل بباقي الغرف. هي مفروشة. وليس أجراها باهظاً. فيها ثلاثة

حجرات. خذوها مؤقتاً. سأمضي أرهن ساعتك غداً، فأجيئكم بالمال، ثم يُدبر كل شيء. الأمر الأساسي هو أن تستطعوا أن تعيشوا كلتاكم هنا، ومعكم روديا... ولكن إلى أين أنت ذاهب يا روديا؟

سألت بولخيريا الكسندروفنا ابنها مرتاعةً:

– كيف يا روديا؟ أنت ذاهب؟

وصاح رازوميixin يسأله مستنكرًا:

– أفي مثل هذه اللحظة تذهب؟

وكان دونيا تنظر إلى أخيها بدهشة تمازجها ريبة. كان راسكولنيكوف مسحًا قبعته يتهيأ للخروج. وقال

بلهجة غريبة:

– لكانكم حقاً ستدفنونني، أو لكانكم تودعونني إلى الأبد على الأقل.

وكان يبتسم، لكن ابتسامته لا تشبه الابتسام في شيء. وأضاف يقول:

– ومن يدري على كل حال؟ لعلنا نلتقي الآن آخر لقاء فعلاً!

كان راسكولنيكوف قد تصوّر هذه الفكرة بينه وبين نفسه، فإذا هي تخرج من فمه من تلقاء ذاتها على غير

إرادة منه.

صاحت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

– ماذا أصابك يا روديا؟

وسألت دونيا أخيها بلهجة غريبة:

– إلى أين أنت ذاهب يا روديا؟

فأجاب متهرباً كأنه غير واثق مما يريد أن يقوله:

– نعم، لا بد أن أذهب...

غير أن قراراً وحشياً ضارياً كان يقرأ في وجهه الشاحب. وتتابع كلامه:

– أقصد... حين جئت إلى هنا... كنت أريد أن أقول لك يا أماه، ولنك أنت أيضاً يا دونيا، أن من الأفضل لنا أن نفترق بعض الوقت. أنا أحى بأنني مريض، أنا لست هادئ البال، سأرجع في المستقبل، حين... حين يصبح ذلك في الإمكان. لن أنساكم، وسأظل أحبكم... دعوني، دعوني وحيداً! ذلك ما كنت قد قررته. وقد قررته واعياً كل الوعي، مدركاً كل الإدراك!.. أريد أن أكون وحيداً مهما يحدث لي، سواء أهلكت أم لم أهلك! انسوني نسياناً تماماً، لكم أفضل... لا تسألوا عنني، لا تستطعوا أخباري. سوف أجيء من تلقاء نفسي متى وجب أن أجيء... أو سوف أدعوكم إلى. ولعل كل شيء سيعث بعثاً جديداً حينذاك. أما الآن فاعدولوا عن رؤيتي وتنازلوا عن لقائي إذا كتتم تحبونني، وإلا شعرت نحوكم بكره وبغضن. إنني أحس بهذا... وداعاً!

هتفت بولخيريا الكسندروفنا: رباء! يا رب!

كانت الأم والأخت مرتاعتين ارتياعاً لا سبيل إلى مغالبته. وكذلك كان رازوميixin.

قالت الأم المسكينة تتوسل إلى ابنها:

– روديا، روديا! فلتتصالح يا روديا! فلنعد كما كنا!

استدار راسكولنيكوف ببطء، واتجه نحو الباب، فأدركته دونيا، وهمست تقول له مشتعلة العينين استياء واستنكاراً:

– أخي، ماذا تفعل بأمنا!

فالقى عليها نظرة ثقيلة. وتمت يقول بصوت خافت كأنه لا يعي ما أراد أن يقول وعيًا تاماً:

– ما هذا بشيء، سأرجع، سوف أزوركم...

وخرج.

هتفت دونيا تقول:

– إنسان خالي من الإحساس! أناي فظيع!

– بل هو مجنون، لا خالٍ من الإحساس! لقد فقد عقله، كيف لا ترين هذا؟ أنت الخالية من الإحساس...

كذلك دمم رازوميixin هامساً في أذن الفتاة بعاطفة قوية وهو يضغط يدها ضغطاً عنيفاً. ثم هاتف يقول لبوخيريا الكسندروفنا التي أصبحت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة: سأرجع حالاً!

وأسرع يخرج من الغرفة. كان راسكولنيكوف يتظره في آخر الدهلizer. وقال له:

– كنت أعرف أنك ستنهي إلى لتلحق بي. عد إليهما، وابق معهما. وكن عندهما غداً... ودائماً... قد أرجع إذا استطعت... وداعاً!

وابتعد دون أن يمد إليه يده مصافحاً.

غمغم رازوميixin يقول مرتبكأً أشد الارتكاك، حائراً أبلغ الحيرة:

– ولكن إلى أين تذهب! ماذا بك؟ ما الذي أصابك؟

فتوقف راسكولنيكوف مرة أخرى.

– أقول لك مرة أخيرة إلى الأبد: لا تسألني عن شيء، فليس عندي ما أجييك به... ولا تأتِ إلى! قد أرجع أنا إلى هنا... اتركني... أما هما... فلا تتركهما... هل تفهم؟

كان الظلام يسود الدهليز. وكان الشابان قريين من مصباح. لبنا قرابة دقيقة ينظر كل منهما إلى صاحبه صامتا. سوف يتذكر راسكولنيكوف هذه الدقيقة طوال حياته. إن النظرة الحارة الثابتة التي تصدر عن عيني راسكولنيكوف كان يبدو أنها تزداد عنفاً وقوة في كل لحظة، وكانت تنفذ إلى أعماق نفس رازوميixin، وتغوص في قراره وجданه. ارتعش رازوميixin فجأة. كان شيئاً غريباً قد مرّ بينهما..

كأن فكرة تتسلل خفية، تندس خلسة، ولكنها فظيعة، رهيبة، جهنمية، سرعان ما فهمها هذا وذاك!..
اصفر وجه رازوميixin اصفرار الموت!

قال راسكولنيكوف فجأة وقد تقلص وجهه وتقبض تقبضاً ألياً:

– هل فهمت الآن؟

ثم أضاف:

– ارجع إلى هناك. عد إليهما.

قال ذلك ثم استدار بحركة عنيفة، ومضى...

لن أصف ما جرى في ذلك المساء عند بولخيريا الكسندروفنا. لن أصف كيف رجع رازوميixin إلى المرأةين، كيف هدأ روعهما، كيف أكد لهما أن من الواجب أن يترك روDya للراحة بعد المرض، وكيف حلف لهما أن روDya سيرجع لا محالة، وأنه سيأتي يزورهما، بل وأنه سيجيء إليهما كل يوم، وإنما يجب أن لا يزعج الآن لأنه في حالة عصبية شديدة، وأنه، هو رازوميixin، سيمضي إليه، ليسهرا عليه، ويعتنى به، ويحيئه بطبيب حاذق، بأحسن طبيب في المدينة، بل بعدد من الأطباء يفحصونه في آن واحد. الخلاصة أن رازوميixin قد أصبح للمرأةين، منذ ذلك المساء، ابنًا وأخًا.

الفصل الرابع

اتجه راسكولنيكوف رأساً نحو المنزل الذي تسكن فيه صونيا قرب القناة. هو منزل من طابقين، قديم مطلٍّ بلون أخضر.

استطاع أن يعثر على الباب وأن يحصل منه على معلومات موجزة غير واضحة أتاحت له مع ذلك أن يصل إلى مسكن الخياط كابرناوموف. لمح في ركن من الفناء مدخل سلّم ضيق مظلم، فصعد أخيراً إلى الطابق الأول، ودخل الرواق الذي يدور حوله. وفيما هو يطوف في الظلام متسائلاً أين عسى يكون باب كابرناوموف، فُتح على حين فجأة باب يقع على مسافة ثلاثة خطوات منه، فتشبث بهذا الباب على غير إرادة منه.

– مَنْ هنا؟ – سأله صوت امرأة مضطرب.

فأجاب راسكولنيكوف:

– هذا... هذا أنا... جئت لأراك!

واجتاز الباب إلى حجرة المدخل الصغيرة. كان في الحجرة كرسي خاسف وُضعت عليه شمعة صغيرة في شمعدان متعلق من نحاس.

هتفت صونيا تقول بصوت ضعيف:

– أهذا أنت؟ رياه!

ووقفت في مكانها كالمتسمرة.

– من أين الدخول إلى غرفتك؟ من هنا؟

ألقى راسكولنيكوف عليها هذا السؤال، ثم مضى ينتقل إلى الغرفة محاولاً أن لا ينظر إلى صونيا.

وتبعته صونيا بالشمعة بعد دقيقة، فوضعتها في مكانها، ووقفت أمامه شديدة القلق والرعب لهذه الزيارة التي لم تكن متوقعة. إن الاضطراب الذي اجتاح نفسها واستولى عليها كان اضطراباً لا يمكن وصفه. واحمر وجهها الشاحب فجأة، حتى لقد صعدت إلى عينيها دموع. كانت تشعر بخجل وخزي وسعادة في آن واحد...

تحول راسكولنيكوف عنها بسرعة، وجلس على كرسي موضوع قرب المائدة. لقد تسنى له بنظرة واحدة أن يفتح الغرفة كلها.

هي غرفة واسعة سعة كافية، لكن سقفها واطئ جداً. إنها الغرفة الوحيدة التي أجرّها كابرناوموف. وهي تتصل بمسكنه بباب في الجدار الأيسر. وعلى الجهة اليمنى، يوجد في الجدار باب آخر، يظل مغلقاً بالملتح دائماً، ويفضي إلى شقة أخرى. إن الغرفة تشبه أن تكون سقية، لها شكل مضلع رباعي غير منتظم، فمنظرها لهذا السبب يؤذى البصر. إن حائطاً ذا نوافذ ثلاث تطل على القناة، يقطعها قطعاً موارباً، فإحدى الزوايا، وهي زاوية حادة جداً، تغور في آخر الغرفة، فلا يستطيع المرء أن يميز هنالك شيئاً في ضوء الشمعة الضئيل الضعيف. أما الزاوية الأخرى فهي منفرجة انفراجاً كبيراً. ولا يكاد يوجد في الغرفة أثاث. هناك سرير في الركن الأيمن، وإلى جانب السرير كرسي أقرب إلى الباب. وعلى طول الحائط نفسه، قبالة الباب المؤدي إلى الشقة الثانية، توجد مائدة من خشب أبيض، يغطيها غطاء رخيص أزرق، وبقربها كرسيان من قش. وفي حذاء الحائط المقابل، على مقربة من الزاوية الحادة، تقع منضدة صغيرة غير مدهونة، وكأنها تائهة في الفضاء. ذلك كل ما تضمه الغرفة. أما ورق الجدران فأصفر مهترئ مدخّن مسود في الأركان. لا بد أن جو الغرفة يكون رطباً جداً وحانقاً في الشتاء. إن الفقر يخطف البصر، حتى أن السرير لم يكن له ستارة.

كانت صونيا تنظر صامتةً إلى زائرها الذي كان يتفحص الغرفة بانتباه يبلغ من الشدة وبهدوء يبلغ من القوة أنها أخذت ترتعد رعباً آخر الأمر، كأنها واقفة أمام قاض سيتوقف عليه مصيرها كله...

قال لها دون أن يرفع عينيه:

– إنني أصل في ساعة متأخرة جداً... أليست هي الحادية عشرة؟

فدمدمت صونيا تقول:

– نعم.

ثم أسرعت تضييف، كأن ذلك خروج لها من المأزق:

– نعم نعم، هي الحادية عشرة... منذ قليل دقت ساعة أصحاب البيت. سمعتها بنفسي... هي الحادية عشرة فعلاً..

قال راسكولنيكوف متوجه الوجه:

– أجيء إليك الآن آخر مرة. مع أن هذه هي المرة الأولى التي أزورك فيها. وقد لا أراك بعد اليوم قط.

سأله:

– أنت... مسافر؟

– لا أدرى... سيتقرر كل شيء غداً.

– إذًا لن تذهب غداً إلى عند كاترينا إيفانوفنا؟

وكان صوت صونيا يختلجم.

– لا أدرى... كل شيء رهن بالغد... بصبح الغد. ثم إن المسألة ليست هذه: لقد جئت لأقول لك
إذاً...

ورفع إليها نظرة حالمه، فأدرك فجأة أنه جالس، على حين أنها ما تزال واقفة أمامه.

قال لها بصوت تبدل على حين فجأة، فأصبح فيه رقة وعدوبه ومودة:

– لماذا تبدين واقفة؟ اجلسي.

فجلست. وظل يتأملها قرابة دقيقة، ظل يتأملها بمحبة، بعاطفة، بما يشبه أن يكون شفقة. ثم قال لها:

– ما أشد نحولك! ما هذه اليد؟ إنها لتكاد تكون من هزالتها شفافة! أصابعك أصابع ميت...

فأجابته قائلة:

– هكذا كنت دائماً.

– حتى حين كنت تقيمين مع أهلك؟

– نعم.

– نعم نعم... هذا طبيعي...

كذلك قال بلهجة متقطعة. إن تعبير وجهه ونبرة صوته قد تبلا من جديد فجأة. ونظر مرة أخرى
حواليه.

– أمن أسرة كابر ناؤ موف استأجرت هذا؟

– نعم.

– هل يقطنون وراء هذا الباب؟

– نعم... لهم غرفة كهذه.

– هل يعيشون جميعاً في غرفة واحدة؟

– نعم، في غرفة واحدة.

قال راسكولنيكوف متوجه الهيئة:

– لو كنت أعيش في مثل هذه الغرفة لشعرت في الليل بخوف.

فأجابت صونيا، وكأنها لم تشب إلى رشدتها بعد، ولا جمعت شتات أفكارها:

– أصحاب البيت لطاف جداً. وجميع الأثاث، جميع الأثاث وكل شيء لهم هم. إنهم طيبون جداً، وكثيراً ما يأتي أولادهم إلى عندي.

– هم ثائرون، أليس كذلك؟

– نعم... وهو يثنى ويعرج. وامرأته أيضاً. بل قل إنها لا تثنى. ولكن كأن بعض الكلمات لا تريد أن تخرج من فمها. إنها طيبة جداً. كان هو قنناً. ولهم أولاد. الابن البكر وحده يثنى... أما الآخرون فهم علilون فحسب... لكنهم لا يثنون.

ثم أضافت تسأله مدهوشه بعض الدهشة:

– كيف عرفت أنت هذا؟

– أبوك قصّ علىّ كل شيء. قال لي كل شيء عنك... وحكي لي أيضاً كيف خرجت في الساعة السادسة من الصباح لتعودي بعد الساعة الثامنة، وكيف ركعت كاترينا ايفانوفنا أمام سريرك.

اضطربت صونيا. ثم دمدمت تقول متربدة:

–رأيته اليوم رؤية واضحة مميزة.

– من؟

– أبي. كنت سائرة في الشارع، غير بعيد عن هنا، عند الناصية، في نحو الساعة العاشرة، فتراءى لي أنه يسير أمامي. لكانه هو حقاً. حتى لقد خطر بيالي أن أسرع إلى كاترينا ايفانوفنا...

– كنت تتجولين؟

فقالت صونيا بصوت متقطع، وقد اضطربت من جديد، وخفضت عينيها:

–نعم.

– هل كانت كاترينا ايفانوفنا تسيء معاملتك حتى لتکاد تضر بك حين كنت تعيشين معهم؟

صاحت صونيا تقول وهي تنظر إلى راسكولنيكوف نظرة فيها ما يشبه الذعر:

– لا، لا، ما هذا الذي تقوله؟

– أنت تحيينها إذاً؟

– هي؟ أظن...

كذلك قالت صونيا بلهجة شاكية، وصوت بطيء، ضامّة يديها بحركة تنم على الألم. وواصلت كلامها
تقول:

– ليتك... ليتك تعرفها! إنها كالطفلة تماماً. عقلها مضطرب اضطراباً تماماً... لقد قاست في حياتها آلاماً
كثيرة... ومع ذلك، ما أذكاهَا! ما أكرمها! إنها طيبة جداً! أنت لا تعرف، أنت لا تستطيع أن تعرف!
آه..

قالت صونيا هذه الكلمات بحزن شديد. كان الألم يهصر قلبها، فكانت تلوى يديها من فرط الكمد،
واحمرّ خداها من جديد، حتى صارا بلون الأرجوان. كان العذاب يُقرأ في عينيها. واضح أن وترّا حساساً
جداً قد مُسّ الآن في نفسها، وأنها ترحب رغبة قوية في أن تُعبر عن شيء، في أن تتكلّم، في أن تدافع عن
كاترينا ايفانوفنا. أن نوعاً من شفقة حارقة لا ينطفئ أوارها يرسم الآن على قسمات وجهها.

وتابعت كلامها تقول:

– تضربني؟ هي تضربني؟ ما هذا الكلام الذي تقوله؟ وهبها ضربتني! أي ضير في ذلك؟ إنك لا تعرف
شيئاً، لا تعرف شيئاً بالبّة! هذه إنسانة تعيسة شقية بائسة... وهي مريضة... إنها تنشد العدالة... تسعى
إلى العدالة... هي طاهرة نقية. ومن شدة اقتناعها بأن العدالة لا بد أن توجد في كل شيء، إنما تطلب
العدالة في كل شيء. قد يعذبونها تعذيباً شديداً ثم هي لا تقرف أي ظلم يجافي العدالة. إنها لا تفهم أن
لا يسود العدل حياة البشر، وهي لذلك تغضب كما يغضب طفل، كما يغضّ طفل! هي امرأة عادلة،
عادلة...
.

– وما الذي ستصريرين عليه؟ – سأله راسكولنيكوف.

قال لها:

– سيفون على ذراعيك. صحيح أنك كنت قبل الآن تحملين كل شيء على ذراعيك، وأن أباك كان يحبك
إليك أنت ليطلب مالاً. ولكن ما الذي سيحدث الآن؟

قالت صونيا بحزن:

– لا أدرى.

– هل يقون هناك؟

– لا أدرى. إن أجر المسكن لم يدفع، ويظهر أن صاحبة البيت قد أرادت اليوم أن تطردهم؛ فأعلنت
كاترينا ايفانوفنا أنها لن تكث دقيقة واحدة.

– لماذا تتصرف بتكبر هكذا؟ أعليك تعتمد؟

– لا تتكلم هكذا، لا..

ثم استأنفت تقول وقد اضطربت من جديد، أو قل اهتاجت من جديد، كما يفعل طائر من طيور الكناري
أو غيره من الطيور:

– نحن نشارك في كل شيء، أنا وهي...

ثم أضافت تسأله وقد ازدادت حماسة وحرارة:

– ماذا ت يريد لها أن تكون؟ ماذا؟ آه... ما أكثر ما ذرفت من دموع، ما أكثر ما ذرفت من دموع في هذا
اليوم! إن عقلها مضطرب، ألم تلاحظ أنت هذا إذن؟ نعم، عقلها مضطرب، عقلها مختل: تارة تقلق
كطفلة صغيرة من أجل أن يكون كل شيء على ما يرام غداً، من أجل أن يكون على المائدة مقبلات...
ومن أجل أن تضم المأدبة كل ما ينبغي أن تضمها من أطعمة؛ وتارة تلوى يديها كمداً وحسرة، وتتصق

دماً، وتذرف دموعاً، وتدق رأسها بالحائط من فرط اليأس. ثم ما تلبث أن تتعزي من جديد، واضعةً أملها فيك، قائلة إنك الآن سندها، وأنها ستفترض مالاً من أحد الناس، لتعود بي إلى مسقط رأسنا، فتنشئ هناك مدرسة لبناء الأسر النبيلة أكون أنا مشرفة عليها، ونبداً عندي حياة جديدة كل الجدة. وهي في هذه الحالة تأخذ تقبلي وتضمني إلى صدرها وتواسيني وتعزيني. آه، ما أقوى إيمانها بأحلامها هذه، ما أقوى إيمانها بهذه الأحلام! هل يمكننا أن نعارضها؟ مستحيل!.. اليوم قضت النهار كله في مسح الأرض وغسل الملابس وترقيع الثياب. ورغم ضعفها الشديد صعدت إلى غرفتها ببطش، فما إن وصلت حتى كانت أنفاسها قد تقطعت، وحتى خارت قواها فلم تملك إلا أن تتهاوى على سريرها مهدودة. وفي هذا الصباح ذهبنا كلتنا إلى السوق من أجل أن نشتري أحذية لبوليتشكا ولينيا^{١٧}، لأن أحذيتها قد تزقت تزقاً تماماً، ولكن لم يكفنا ما كان معنا من مال، رغم جميع حساباتنا، لم يكفنا المال، لأنها اختارت أحذية جميلة لطيفة، فهي صاحبة ذوق كما تعلم، فما كان منها إلا أن أجهشت بكى، هنالك، في وسط الدكان، أمام الباعة. لقد بكت لأن ما معنا من مال لم يكن كافياً. حقاً كان منظرها يثير أعمق الألم...

قال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مرة:

– يفهم المرء بعد هذا أن تعيشي هذه الحياة التي تعيشينها...

فهتفت صونيا تقول:

– ولكن هي، هي، ألا ترثي لحاماً؟ ألا تشفق عليها؟ أنا أعلم أنك وهبت لها آخر قرش تملكه، مع أنك لم تكن قد رأيت شيئاً بعد. فماذا لو كنت قد رأيت كل شيء؟ آه! يارب! كم من مرة، كم من مرة أبكيتها.

^{١٧} «... وفي هذا الصباح ذهبنا كلتنا إلى السوق من أجل أن نشتري أحذية لبوليتشكا ولينيا...»: حتى الآن كان دوستويفسكي يسمى أولاد مارميلاروف: بوليتشكا وليدوتشكا وكوليا. أما هنا وفيما بعد فقد ظهرت الصبية لينيا بدلاً من ليدوتشكا ومثل هذه الأخطاء نصادفها في روايات دوستويفسكي الأخرى.

في الأسبوع الماضي، مثلاً... ألا أني لأشعر بالخزي والعار! لقد أبكيتها حتى قبل موت أبي ب أسبوع! نعم، كنت قاسية، قاسية! كم من مرة تصرفت هذا التصرف! آه... ما أشد ما أشعر به اليوم من ألم حين أتذكر هذا!

كانت صونيا تلوى يديها حسرة وهي تتكلم، من فرط ما كانت تحس به من ألم.

قال لها راسكولنيكوف:

– أنت القاسية إِذَا؟

– نعم أنا القاسية، أنا...

وعادت تتبع كلامها وهي تبكي، فقالت:

– جئت أزورهم في ذلك اليوم، فقال لي المرحوم: «اقرئي لي يا صونيا، فإني أحس صداعاً في رأسي... اقرئي لي هذا الكتاب». هو كتاب أعاره إيه آندريله سيميونوفتش ليزياتنيكوف الذي يسكن في هذا المنزل ويقتنى كتاباً عجيبة! قلت له: «آن لي أن أذهب»، ولم أشأ أن أقرأ له، لأنني قد أتيت إلى عندهم خاصةً من أجل أن أُري كاترينا ايفانوفنا ياقات صغيرة: كانت اليزافيتا السمسارة قد جاءتني بياقات وأكمام جميلة جداً، جديدة كل الجدة، تزيّنها رسوم حلوة، مع أنها بخسة الشمن، وقد أُعجبت كاترينا ايفانوفنا بها كثيراً، فجربتها على نفسها ونظرت في المرأة فوجدها جميلة، جميلة جداً. فقالت لي: «صونيا، أهديها إلىّ، أرجوك». نعم هذا ما قالته لي: «أرجوك»، لأنها هامت بها هياماً جنونياً. ولكن ما عساها تصنع بها؟ ما حاجتها إليها، وأين ترديها؟ المهم أنها أخذت بها، هكذا، لأنها تذكرها بالعهود الجميلة الماضية! إن كاترينا ايفانوفنا تنظر في المرأة، فتعجب بنفسها، وليس عندها ثوب تلبسه، ليس عندها ثوب واحد، ليس عندها شيء البتة، منذ سنين عده! وهي لا يمكن أن تطلب من أحد شيئاً في يوم من الأيام،

لأنها شديدة الإباء والكبراء، وتوثر على ذلك أن تعطي ما بقي عندها. ومع ذلك طلبت مني أن أعطيها تلك الياقات الصغيرة. لأنها وجدتها جميلة جداً. ولم أساً أنا أن أحرم نفسي منها، فقلت لها: «فيم تنفعك هذه الياقات يا كاترينا ايفانوفنا؟» نعم، ذلك ما قلته لها. آه... ما كان ينبغي أن أقول هذا الكلام بحال من الأحوال! ألقت عليّ عندئذ نظرة ينفطر لها القلب... عبر وجهها عن حزن فظيع... لأنني رفضت أن أعطيها الياقات... وشعرت أنها بآلم شديد من رؤيتها على تلك الحال... ليست الياقات هي التي أحزنتها، وإنما أحزنها رفضي أنا... لقد رأيت ذلك واضحاً كل الوضوح. آه... ليتني أستطيع أن أرجع إلى الوراء، وأن أسترد كل ما أفلت من لساني! آه... إنني... ولكن ماذا؟ لا بد أن هذا كله لا يعنيك شيء!

سألها راسكولنيكوف:

– أأنت عرفت اليزافيتا السمسارة؟

فأجابته مدهوшаً بعض الدهشة:

قال راسكولنيكوف بعد صمت، دون أن يجيب عن سؤال صونيا:

– كاترينا ايفانوفنا في آخر درجات مرض السل، وستموت قريباً...

– لا، لا، لا تقل هذا الكلام.

قالت صونيا ذلك، وتناولت يديه على غير شعور منها، كأنها تتوسل إليه أن يمنع هذا الأمر.

قال راسكولنيكوف:

– ولكن الأفضل أن تموت!

فأخذت صونيا تردد مروعة تائهة العقل زائفة النظرات:

– لا، ليس هذا أفضل، ليس هذا أفضل...

– والأولاد، ما أنت صانعة لهم إلا في بيتك. وأنت لا تستطعين ضمّهم إليك؟

– آه... لا أدرى...

بذلك هفت صونيا يائسة وهي تمسك رأسها بيديها. كان واضحاً أن هذه الفكرة قد وافتها غير مرّة،

وأن راسكولنيكوف لم يزد على أن أيقظها.

وعاد يلتج في السؤال بغير رحمة فيقول:

– وماذا إذا مرضت أنت فنقلت إلى المستشفى قبل موت كاترينا ايفانوفنا؟ ما الذي سيحدث عندئذ؟

– آه... ما هذا الذي تقوله؟ لا، لا... ذلك مستحيل.

وتقبّض وجه صونيا على رعب فظيع وذعر رهيب.

وتتابع راسكولنيكوف إلقاء أسئلته وهو يبتسم ابتسامة لا رحمة فيها:

– مستحيل؟ كيف؟ لا شيء يكفل لك أن لا تمرضي. فما الذي سيحدث لهم حين تمرضين؟ سيصيرون

في الشارع، وستمضي هي تسعل وتستجدي وتدق رأسها بالحائط كما تفعل اليوم بينما الأولاد يبكون.

ثم تتهاوى، فتُنقل إلى قسم الشرطة، ثم إلى المستشفى، فتموت. أما الأولاد...

– لا، لا، لن يأذن الله بهذا.

ذلك ما أفلت من لسان صونيا بعد لحظة بصوت ختلق. كانت قد استمعت لكلامه صامتة تنظر إليه مروّعة، ضامة يديها في ضراعة خرساء كأن كل شيء متوقف عليه.

نهض راسكولنيكوف وأخذ يذرع الغرفة جيئه وذهاباً. وانقضت دقيقة. كانت صونيا واقفة، متهدلة الذراعين، خافضة الرأس، تعاني ألمًا شديداً وعداً رهيباً.

سألهما وهو يتوقف أمامها فجأة:

– وما من وسيلة لادخار أي مال للأيام السود، أليس كذلك؟

فدمدمت تجبيه:

– طبعاً... لا...

ثم أضاف ساخراً:

– ولكن هل حاولت؟

– حاولت.

– ولم تفلح المحاولة؟ طبعاً لم تفلح! لا داعي إلى السؤال...

وعاد يسير في الغرفة. وانقضت دقيقة أخرى. قال:

– أظن أنك تحصلين على النقود، لكن ليس كل يوم؟

واضطربت صونيا أكثر من السابق، وتصرّج وجهها مرة أخرى، وهي تهمس بجهد مؤلم: – لا.

قال على حين غرة:

– وسيكون مصير بوليشكا كمصيرك حتماً.

فهتفت صونيا تقول بصوت قوي، طائش، كأنها طعنت بخنجر:

– لا، لا، هذا مستحيل. إن الله، إن الله لن يسمح بمثل هذا السقوط!

– دعك من هذا الكلام! إنه يسمح بمثله وأكثر.

فرددت صونيا تقول خارجة عن طورها:

– لا، لا، إن الله سيحميها!

أجاب راسكولنيكوف بفرح خبيث:

– ولكن قد لا يكون هناك إله! ثم ضحك ونظر إليها.

عندئذ تشوّه وجه صونيا تشوها فظيعاً، وسرت في قسماتها رعدة من تشنج. وألقت على راسكولنيكوف نظرة زاخرة بعتب قوي ولوم شديد، وأرادت أن تقول شيئاً، ولكن لم توافها كلمة واحدة، وفجأة انفجرت تنسج نشيجاً مراً، نشيجاً مراً جداً، وهي تغطي وجهها بيديها.

قال راسكولنيكوف بعد صمت:

– تقولين إن كاترينا ايفانوفنا قد فقدت عقلها، ولكنني أرى أنك أنت نفسك قد فقدت عقلك.

وانقضت خمس دقائق. كان راسكولنيكوف يذرع الغرفة طولاً وعرضًا، دون أن يتكلم، ودون أن ينظر إليها. واقترب منها أخيراً. كانت عيناه تستطعان. أمسك كتفيها بيديه. وأنعم النظر إلى وجهها الغارق في الدموع. كانت نظرته جافة، ملتهبة، حادة. وكانت شفتها تختلجان احتلاجاً قوياً جداً... وانحنى فجأة

بحركة سريعة، فسجد أمامها، وقبل قدميها. تراجعت صونيا مروعة كأنها ترى مجنوناً. والحق أن هيئته كانت هيئه مجنون.

تمتمت تقول شاحبة الوجه، منقبضة الصدر انقباضاً أليماً:

— ماذا تفعل؟ ما هذا الذي تفعله؟ أمامي أنا، تسجد؟

نهض، وقال لها بلهجة وحشية:

— أنا لا أسجد أمامك أنت... بل أمام معاناة البشرية كلها..

ثم ابتعد نحو النافذة. وأضاف يقول بعد لحظة وهو يعود إلى قربها:

— اسمعي: لقد قلتُ منذ قليل لرجل كان يهينك إنه لا يساوي طرف إصبعك... وأنني قد شرّفت أختي حين أتحت لها اليوم أن تجلس إلى جانبك.

هتفت صونيا تقول مرتابة:

— آه... ما هذا الذي قلت؟ هل قلته أمامها؟ جلوسها إلى جانبي يشرفها؟ ولكنني... ولكنني أعيش في العار! إنني خاطئة، خاطئة! آه... ما هذا الذي قلت؟

— أنا لم أقل ذلك مفكراً في العار والخطيئة، وإنما قلته مفكراً في عذابك العظيم...

ثم أضاف يقول في حماسة:

— أما إنك خاطئة فهذا صحيح. وخطيئتك الكبرى هي أنك ضحيت بنفسك وأهلكت نفسك وختت نفسك سدى. نعم، إنه لأمر فظيع، إنه لأمر فظيع أن تعيش كما تعيشين، في الوحل الذي تكرهين، عالمةً أنت نفسك أنك بهذا لا تساعدين أحداً، ولا تستطعين أن تنقذني أحداً (يكفي المرأة أن يفتح عينيه).

ثم قال خارجاً عن طوره:

– ولكن قولي لي أخيراً: كيف يمكن أن يجتمع في نفسك مثل هذا العار ومثل هذه الحطة مع أ Nigel العواطف وأقدس المشاعر؟ ألا أنه ليكون أقرب إلى العدل كثيراً، وأقرب إلى العقل كثيراً، أن تلقي بنفسك في الماء منكسة الرأس وان تنتهي من هذا الوضع مرة واحدة إلى الأبد!..

سألته صونيا بصوت ضعيف، وهي ترفع نحوه نظرتها الأليمة:

– وما عسى يصيرون إليه، هم، إذا أنا فعلت ذلك؟

غير أن هذه الفكرة لم يبدُ أنها أدهشتها. وألقى عليها Rasputinikov نظرة غريبة غامضة.

لقدقرأ Rasputinikov في نظرة الفتاة كل شيء. إن تلك الفكرة كانت تراودها إذاً. لعلها من يأسها قد فكرت تفكيراً جاداً، مرات كثيرة، في إمكان وضع حد لحياتها آخر الأمر، وبلغت من جدّ التفكير في هذا أن النصيحة التي أسدتها إليها Rasputinikov لم تشر في نفسها أي دهشة تقريباً. حتى أنها لم تلاحظ قسوة الكلمات التي قالها لها (لقد فاتها طبعاً معناها الحقيقي، ولم تدرك الزاوية التي كان Rasputinikov ينظر منها إلى موضع العار، وقد لاحظ هو ذلك). ولكن Rasputinikov أدرك إدراكاً تماماً مدى ما كانت تقاسيه من عذاب بسبب وضعها الشائن، وأدرك إدراكاً تماماً أنها تعاني هذا العذاب منذ مدة طويلة.

وتساءل Rasputinikov: «ما الذي يمكن أن يمنعها حتى الآن من إنفاذ عزمها على إنهاء حياتها؟». وعنده فقط إنما أدرك حقاً قيمة هؤلاء اليتامى في نظر صونيا، وقيمة هذه المسكينة Catherine Ilyinovna المصدورة، شبه المجنونة، التي تدق رأسها بالحيطان.

ولكن هذا لم يمنعه أن يدرك إدراكاً واضحاً كذلك أن صونيا، بحكم طبعها وبحكم تربيتها، لا يمكنها مع ذلك أن تستمر على أن تحيى هذه الحياة؛ حتى أنه ليحيره ويدهشه أن يرى صونيا تبقى في هذا الوضع

طوال هذه المدة دون أن تُجذن هي أيضاً بعد أن لم تسعنها شجاعتها فتتتحر غرقاً في الماء. صحيح أنه كان يفهم أن وضع صونيا ليس إلا حادثة طارئة في المجتمع، حادثة طارئة لكنها ليست وحيدة وأسفاه! ليست وحيدة البتة، ولا هي استثنائية! غير أن كون هذه الحادثة طارئة، بالإضافة إلى ما بقي للفتاة من تربيتها الماضية، وبالإضافة إلى ماضيها كله، كان خليقاً بأن يقتلها منذ الخطوات الأولى التي قطعتها على هذا الطريق الدني الذي سلكته. فما الذي كان يقيها على هذا الطريق إذاً؟ ليس هو حب الدعارة قطعاً، فإن هذا العار كله (ذلك أمر يراه المرء واضحاً) لم يزد على أن مسّها مسأً آلياً بحكم طبيعة الأشياء، أما قلبها فلم تتسلل إليه قطرة واحدة من رذيلة. إن راسكولنيكوف يرى هذا كله، لقد كانت صونيا واقفة أمامه على حقيقتها...

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «هناك ثلاثة طرق تفتح أمامها: أن تلقي بنفسها في القناة، أن تصير إلى ملجاً لل مجانيين... أن تندفع في الدعارة التي تخجل العقل وتجمد القلب». إن هذه الفكرة الأخيرة هي التي ينفر منها راسكولنيكوف أكثر مما ينفر من الفكرتين الأوليين، ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح شكاكاً رياباً منذ الآن، وهو إلى ذلك شاب، وهو إلى ذلك ذو فكر مجرد، والفكر مجرد قاسي، لذلك لم يستطع راسكولنيكوف أن يتمتنع عن الاعتقاد بأن هذا الافتراض الثالث، أعني افتراض الدعارة هو أقرب الافتراضات إلى الصدق...

ولم يلبث أن هتف يتساءل بينه وبين نفسه: «ولكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ هل يمكن أن تغوص نفس ما تزال طاهرة نقية، هل يمكن أن تغوص في هذا المستنقع التن واعيةً شاعرة؟ هل بدأ هذا الغوص في المستنقع القدر فعلاً؟ هل من الجائز أنها استطاعت أن تحتمل حياة كهذه الحياة حتى الآن لأن الرذيلة لا تبدو لها كريهة حقيرة إلى هذا الحد؟ «فلما وصل راسكولنيكوف في تساؤله إلى هنا، هتف يقول كما فعلت صونيا منذ قليل: لا، لا، إن الشيء الذي صدّها عن إغراق نفسها في القناة حتى الآن إنما

هو فكرة الخطيئة، وكذلك هم، أولئك... ولئن لم تجتنّ حتى الآن... ولكن من ذا الذي يزعم أنها لم تجتنّ حتى الآن؟ أصحيح أنها ما تزال تملك عقلها؟ هل يمكن أن يتكلّم أحد كما تتكلّم هي، وأن يفكّر كما تفكّر، إذا كان ما يزال سليم العقل؟ هل يستطيع المرء أن يبقى أمام الهوة على هذا النحو، أن يبقى هذا البقاء أمام المستنقع النتن الذي أخذ يغوص فيه، وان يحرك يده في الوقت نفسه بإشارة تنم على العجز، وأن يسدّ أذنيه كلما حدث عن الخطر؟ أليس معجزةً من المعجزات أنها تنتظر؟ نعم، لا شك في ذلك.

ولكن أليست هذه علامات جنون؟»

وتلبيث راسكولنيكوف على هذه الفكرة في إصرار وعناد. إن حلاً كهذا يرضيه أكثر من أي حل آخر.

وأخذ يتفحص الفتاة بانتباه شديد.

سألهَا:

— إذن أنت تصليين لله كثيراً يا صونيا؟

لم تجنب صونيا، وكان واقفاً أمامها يتّظر جوابها.

ودمدمت صونيا تقول مسرعة بقوة عنيفة، وهي تلقي عليه نظرة مختلسة، نظرة سطعات على حين غرة:

— ما الذي يمكن أن أصيّر إليه إن لم أؤمّن بالله؟

وتناولت يده، وضغطتها بيدها ضغطاً قوياً.

قال يحدث نفسه: «نعم، تلك هي الحقيقة».

وسألهَا ليجبرها على الكلام:

— وماذا يفعل الله من أجلك؟

فلبشت صونيا صامتة مدة طويلة، كأنها لا تستطيع أن تجib. وكان الانفعال يهز صدرها الضعيف.

وهتفت تقول له أخيراً وهي تنظر إليه بقسوة وغضب:

– اسكت، لا تسألني عن شيء بعد الآن. أنت لا تستحق أن..

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه مردداً في عناد وإصرار: «تلك هي الحقيقة، تلك هي الحقيقة».

ودمدمت صونيا تقول بسرعة وهي تخفض عينيها من جديد:

– الله يفعل كل شيء!

وبعاطفة جديدة كل الجدة، بعاطفة غريبة تشبه أن تكون مريضاً، كان راسكولنيكوف يتفرس في هذا الوجه الصغير، النحيل، الشاحب، غير المتسق، المتكسر الزوايا، ويتفرس في هاتين العينين الزرقاءتين الرقيقتين العذبيتين الحلوتين اللتين تستطيان مع ذلك أن تسطعاً بلهيب قوي وأن تعبراً عن عاطفة تبلغ هذا المبلغ كله من القسوة والقوة والعنف؛ ويتفرس في هذا الجسم الضاوي الهزيل الذي ما يزال يرتجف استياءً وغضباً... فكان كل شيء يبدو له غريباً مزيداً من الغرابة شيئاً بعد شيء، حتى ليكاد يكون مستحيلاً. وكان يردد لنفسه: «هذه مخلوقة ضعيفة، إنها ضعيفة العقل».

وكان على المنضدة كتاب لاحظه راسكولنيكوف عدة مرات حين مروره أمام المنضدة. فها هو ذا يتناول الكتاب الآن وينظر فيه. أنه الإنجيل باللغة الروسية: كتاب مجلد، عتيق مهترئ.

صاح يسأل صونيا من آخر الغرفة:

– من أين هذا الكتاب؟

وكان ما تزال واقفة في مكانها نفسه على بعد ثلاث خطوات من المائدة.

فأجابته صونيا على مضض دون أن تنظر إليه:

— جيء إليّ به.

— من جاءك به؟

— اليزافيتا. كنت قد طلبتها منها.

قال راسكولنيكوف بينه وبين نفسه: «الليزافيتا! ما أغرب هذا!! إن كل شيء هنا يبدو له غريباً عجياً أكثر فأكثر، من لحظة إلى أخرى. وقرب الكتاب من الشمعة وأخذ يتفحصه.

وسأله فجأة:

— أين يجيء ذكر لعاذر؟

فطلت صونيا مطرقة إلى الأرض بعناد ولم تجده. وكانت واقفة غير بعيد من المائدة وقفه مواربة.

— أين الحديث عن قيام لعاذر؟^{١٨} أرينيه يا صونيا.

فالقت عليه نظرة مواربة. ودمدمت تقول له بقسوة من دون أن تقترب منه:

— لست تبحث عنه في موضعه. إنه في الإنجيل الرابع.

قال لها:

— ابحثي عنه واقرئيه لي يا صونيا.

^{١٨} «أين الحديث عن قيام لعاذر؟»: يجب أن نذكر أن قاضي التحقيق كان قد سأله راسكولنيكوف هل هو يؤمّن بقيام لعاذر؟.

ثم جلس، ووضع كوعيه على المائدة، وأسند رأسه إلى يده، ناظراً إليها، متوجهm الهيبة، متهدئاً للإصغاء، قائلًا لنفسه: «بعد ثلاثة أسابيع، سأكون في الفرسخ السابع^{١٠}، فيما أظن، اللهم إلا أن يحدث لي ما هو شر من ذلك».

دنت صونيا من المائدة متربدة، بعد أن استمعت لطلب راسكولنيكوف في شاك وريب. وتناولت الكتاب مع ذلك.

سألته وهي تنظر إليه من فوق المائدة بطرف عينها:

– ألم تقرأه إذاً من قبل؟

وكان صوتها يزداد قسوة شيئاً بعد شيء. أجابها راسكولنيكوف:

– قرأته منذ زمن طويل... في أيام الدراسة.

– وفي الكنيسة، ألم تسمعه؟

– لا أذهب إلى الكنيسة. هل تذهبين أنت كثيراً إلى الكنيسة؟

تمتت صونيا تقول:

– لا... لا.

فابتسم راسكولنيكوف.

– فهمت. وأغلب الظن أنك لن تحضرني دفن أبيك في الغد أيضاً، أليس كذلك؟

^{١٠} «الفرسخ السابع»: كان يوجد على مسافة سبعة فراسخ من سان بطرسبرج، مستشفى للمجانين؛ فكان يطلق اسم «الفرسخ السابع» على ذلك المستشفى.

– بل سأحضر... لقد ذهبت إلى الكنيسة في الأسبوع الماضي أيضاً. وأقمت قداساً.

– من؟

– لاليزافيتا. لقد قُتلت بفأس.

توترت أعصاب راسكولنيكوف مزيداً من التوتر. وأخذ يشعر بدوار.

– هل كنت صديقة لاليزافيتا؟

– نعم... كانت اليزافيتا امرأة صالحة... وكانت تحيء إلى... نادراً... لم يكن في وسعها أن تزورني أكثر من ذلك. وكنا نقرأ معاً... وكنا نتحدث... سترى الله^{٢٠}...

ترجمت هاتان الكلمتان المستمدتان من الكتب ترجماً غريباً في نفس راسكولنيكوف. وقال لنفسه: «وهذه معلومات جديدة! أحاديث سرية بين اليزافيتا وصونيا... بين مخلوقتين كلتاهم ضعيفة العقل؛ هنا يصبح المرء نفسه ضعيف العقل... بالعدوى!»

وهتف يقول لها بإلحاح وحنق:

– اقرئي!

ولكن صونيا ما تزال متربدة. كان قلبها يخفق خفقاناً شديداً. لكتها لا تجرؤ أن تقرأ له. وكان هو ينظر إليها معذباً، قائلاً لنفسه: «يا للمجنونة المسكينة!».

تمتمت تقول له بصوت خافت، كأنها مقطوعة الأنفاس:

^{٢٠} «سترى الله»: إشارة إلى الآية الواردية في إنجيل متى: «طوبى للأطهار، لأنهم سيرون الله» (الإصحاح الخامس، ٨).

– ما حاجتك إلى ذلك وأنت لا تؤمن؟

فأجابها يقول مصرًا:

– بل أقرئي! أريد أن تقرئي! أما كنت تقرئين لاليزافيتا؟..

فتحت صونيا الكتاب، ووجدت السطور المطلوبة. كانت يداها ترتجفان، وكان صوتها مختنقاً. حاولت مرتين أن تبدأ القراءة، ولكنها لم تفلح في نطق الكلمة الأولى. ثم قرأت أخيراً:

«وكان إنسان مريضاً، وهو لعاذر، من بيت عنيا...»^{٢١}.

ولكن صوتها اخليج وتكسر من الكلمة الثالثة، كما يتحطم وترمشود. لقد انقطع تنفسها. وكان قلبها يدق دقاً عنيفاً جداً.

أدرك راسكولنيكوف بعض الإدراك لماذا لم تعزم صونيا أمرها على أن تقرأ له، فكان كلما ازداد إدراكاً لهذا، ازداد إلحاحاً في طلب القراءة بفظاظة وغضب. كان يرى رؤية واضحة لماذا يشق عليها ويحزن في نفسها أن تكشف عنها يخصها «هي»، وأن تبوح به. أدرك أن هذه العواطف هي «سرّها» فعلاً، سرها الحقيقي والقديم، منذ زمن، ربما منذ مراهقتها، منذ الوقت الذي كانت تعيش فيه مع أسرتها بين أب شقي وزوجة أب جعلها الحزن مجنونة، قرب أطفال جياع، في بيئة لا ترتفع فيها إلا صرخات مسورة وملامات متصلة لا تنقطع. ولكنه كان يعلم في الوقت نفسه – هو واثق من هذا – أنها على تأثيرها الشديد وخوفها القوي تحس رغم حزنها وخشيتها برغبة جارفة مؤلمة في أن تقرأ، وفي أن تقرأ له «هو»، من أجل

^{٢١} (إنجيل يوحنا، الإصلاح الحادي عشر).

أن يسمع، ومن أجل أن يسمع «الآن» خاصة، «مَهْمَا يَحْدُث بَعْد ذَلِك». كان راسكولنيكوف يقرأ هذه الرغبة في عيني الفتاة، وكان يدركها من اهتمامها.

تحاملت صونيا على نفسها، وبذلت جهداً كبيراً، فكبحت التشنج الذي ألم بحلقها فقطع صوتها منذ بداية الآية الأولى، وتابعت قراءة الإصلاح الحادي عشر من إنجيل يوحنا، ووصلت إلى الآية التاسعة عشرة: «وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودَ قَدْ جَاءُوا إِلَيْهَا مُرْثَى وَمَرِيمٌ لِيَعْزُزُوهُمَا عَنْ أَخِيهِمَا. فَلَمَّا سَمِعَتْ مُرْثَى أَنْ يَسْوِعَ آتِ لَاقِتِهِ. وَأَمَّا مَرِيمٌ فَاسْتَمْرَتْ جَالِسَةً فِي الْبَيْتِ. فَقَالَتْ مُرْثَى لِيَسْوِعَ: يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتَ هُنَا لَمْ يَمْتَ أَخِي. لَكَنِّي أَلْآنَ أَيْضًا أَعْلَمُ أَنْ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ يَعْطِيْكَ اللَّهُ إِيَّاهُ».

هنا توقفت صونيا عن القراءة مرة أخرى، وهي تشعر بالخجل من أن صوتها يختلج وأنه سيتكرّر من جديد... ثم تابعت القراءة:

«قَالَ لَهَا يَسْوِعَ: سَيَقُومُ أَخْوَكَ. قَالَتْ لَهُ مُرْثَى: أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ، فِي يَوْمِ الْآخِرِ. قَالَ لَهَا يَسْوِعَ: أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي فَسَيَحْيِي وَلَوْ مَاتَ. وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَّا أَبَدًا».

— أَتَؤْمِنُ بِهَذَا؟

استردت صونيا أنفاسها بجهد عنيف وألم شديد، وأخذت تقرأ بصوت واضح ولهجة قوية كأنها تعرف بإيمانها هي نفسها على رؤوس الأشهاد:

«قَالَتْ لَهُ: نَعَمْ يَا سَيِّدُ. قَدْ آمَنْتُ أَنْكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، الْآتِيُّ إِلَى الْعَالَمِ».

وأوشكت صونيا أن تتوقف عن القراءة، ولكنها رفعت عينيها «إليه» بحركة قوية، فسرعان ما ثابت إلى نفسها، واستمرت تقرأ. كان راسكولنيكوف يصغى إلى القراءة ساكناً جاماً، دون أن يلتفت، واسعاً كوعيه على المائدة، ناظراً إلى جانب. وبلغت صونيا الآية الثانية والثلاثين:

«فلما أتت مريم إلى حيث كان يسوع ورأته، خرّت عند رجليه قائلة: يا سيد، لو كنت هنا لم يمُت أخي. فلما رأها يسوع تبكي واليهود الذين جاءوا معها ي يكون انزعج بالروح واضطراب. وقال: أين وضعتموه؟ قالوا له: يا سيد، تعال وانظر. بكى يسوع. فقال اليهود: انظروا كيف كان يحبه. وقال بعض منهم: ألم يكن يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت؟»

كان راسكولنيكوف قد التفت نحوها وأخذ ينظر إليها منفعلاً مضطرباً. نعم، صدق ظنه! لقد كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً وتعاني من حمى حقيقة. لقد توقع ذلك. وكانت تقترب من الآيات التي تروي المعجزة العظيمة الكبرى، فكان شعور بالانتصار العظيم يحتاج نفسها. إن صوتها يرن رنين معدن. إن الفرح والظفر يترجعان في نفسها ويشدان أزرها. واحتللت الأسطر أمام عينيها، واضطراب بصرها، لكنها كانت تعرف ما تقرؤه على ظهر القلب. إنها حين قرأت الآية الأخيرة: «ألم يكن يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت؟»، قد خفضت صوتها، معبرة بحمسة ملتهبة عن شك واستياء أولئك اليهود العميين الذين لا يؤمنون والذين سيركعون بعد قليل كمن نزلت عليهم صاعقة، وسيجهشون باكين، وسيؤمنون. قالت لنفسها: وهو، هو أيضاً، الأعمى، الذي لا يؤمن، هو أيضاً سيسمع، وهو أيضاً سيؤمن، نعم، نعم سيؤمن، سيؤمن فوراً، حالاً. فكان هذا التوقع يجعلها ترتعش فرحاً. وتابعت قراءتها:

«فانزعج يسوع أيضاً في نفسه وجاء إلى القبر. وكان القبر مغارة وقد وضع عليه حجر. قال يسوع: ارفعوا الحجر. قالت له مرثا أخت الميت: يا سيد، قد أنت لأنه هنا منذ أربعة أيام».

أبرزت صونيا في قراءتها الكلمة «أربعة». وتابعت تقرأ:

«قال لها يسوع: ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله. فرفعوا الحجر، ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الأب، أشكرك لأنك سمعت لي. وأنا علمت أنك تسمع لي في كل حين. ولكن لأجل هذا الجموع الواقف قلت هذا، ليؤمنوا أنك أرسلتني. ولما قال يسوع هذا صرخ بصوت عظيم: لعاذر هلم خارجا. فخرج الميت...»

قرأت صونيا هذه الكلمات الأخيرة بصوت قوي ظافر، وكانت ترتجف وترتعش كأنها ترى المشهد بعينيها.

«... ويداه ورجاله مربوطة بأقملة وجهه ملفوف بمنديل. فقال لهم يسوع: حلوه ودعوه يذهب».

«فكثيرون من اليهود الذي جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع أمنوا به».

لم تمض صونيا في القراءة إلى أبعد من هذا. لقد عجزت عن ذلك. فطوت الكتاب ونهضت بحركة قوية نشيطة، ودمدمت تقول بصوت قاس متقطع:

– هذا كل ما يُروى عن قيام لعاذر.

وتحممت في مكانها مشيحةً وجهها، كأنها تستحي أن ترفع عينيها نحو راسكولنيكوف، وكانت ما تزال ترتجف من الحمى.

كان عقب الشمعة التي ذابت في الشمعدان المتعطف منذ مدة، يلقي ضياء ضعيفاً على القاتل والمومس وقد ضمّتها بطريقة غريبة قراءة «الكتاب الخالد» في هذه الغرفة البائسة.

وانقضت خمس دقائق أو تزيد.

ونهض راسكولنيكوف، واقترب من صونيا، وقال لها فجأة بصوت قوي وقد اكفر وجهه:

— إنما جئت لأحدثك في أمر عينه.

فنظرت إليه صونيا صامتة. وكان وجهه يفصح عن عزيمة وحشية.

قال:

— تركت اليوم أهلي: أمي وأختي. فلن أذهب إليهما بعد الآن. لقد قطعت صلتي بهما قطيعة تامة.

فسألته صونيا مصعوقة:

— لماذا؟

إن اللقاء الذي تم بينها وبين أم راسكولنيكوف وأخته منذ قليل قد ترك في نفسها أثراً قوياً جداً، رغم

أنها لم تستطع أن تحدد. فلما سمعت نبأ هذه القطيعة شعرت بما يوشك أن يكون رعباً وذرعاً.

أضاف راسكولنيكوف يقول:

— لم يبق لي سواك. هلمي نسافر معاً. لقد جئت إليك. نحن ملعونان كلانا، فلنن SAFER معاً!

وكانت عيناه تسطعان. قالت صونيا لنفسها هي أيضاً: «إن هيئته تدل على أنه مجنون».

وسأله مرتابةً:

— نسافر إلى أين؟

وترواجعت متقدمة على غير إرادة منها.

قال لها:

– أَنِّي لِي أَنْ أَعْرِفْ ! كُلُّ مَا أَعْرِفْهُ أَنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي سَنْقُطُعُهُ وَاحِدًا . أَنَا وَاثِقٌ بِهَذَا ، وَلَا أَعْرِفْ شَيْئًا سَوَاهُ .
وَأَنَّ هَدْفَنَا وَاحِدٌ أَيْضًا .

كانت تنظر إليه ولا تفهم. كل ما كانت تدركه هو أنه إنسان شقي شقاء رهيباً، شقي إلى غير نهاية.

وأضاف راسكولنيكوف يقول:

– مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ يُسْتَطِعُ أَنْ يَفْهَمَ مَا تَقُولُ لِي . أَمَا أَنَا فَقَدْ فَهَمْتُكَ . أَنَا فِي حَاجَةٍ إِلَيْكَ . وَهَذَا السَّبَبُ إِنَّمَا
جَئْتُكَ .

تمتت صونيا قائلة:

– لَسْتُ أَفْهَمْ ...

– سَتَفْهَمِينَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . أَلَمْ تَفْعَلِي مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ أَنَا ؟ أَنْتَ أَيْضًا خَرَقْتَ الْقَانُونَ ، أَنْتَ أَيْضًا ... أَنْتَ
أَيْضًا دَمَرْتَ حَيَاةً ... هِيَ حَيَاتُكَ أَنْتَ ... وَلَكِنَّ مَا الْفَرْقُ ؟ كَانَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَعِيشِي بِرُوحِكَ وَعَقْلِكَ .
وَلَسَوْفَ يَتَهَيِّبُكَ الْمَطَافُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَى قَرْبِ سُوقِ الْعَلْفِ ... وَلَكِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَيِ أَنْ تَحْتَمِلِي ذَلِكَ ،
فَإِنْ بَقِيتَ وَحِيدًا فَسُوفَ تَفْقَدِينَ عَقْلَكَ مُثِيلًا . إِنَّكَ مِنْذَ الْآنِ أَشْبَهُ بِمَجْنُونَةِ فَلِمَذَا لَا نَسَافِرُ إِذْنَ مَعًا ،
لَمَذَا لَا نَتَبَعُ طَرِيقًا وَاحِدًا ؟ فَلَنْسَافِرْ !

تمتت صونيا تقول وقد هزتها كلمات راسكولنيكوف هزاً غريباً قوياً:

– لَمَذَا ، لَمَذَا تَقُولُ هَذَا الْكَلَامِ ...

– لَمَذَا ؟ لَأَنَّ بَقَائِي عَلَى هَذِهِ الْحَالِ أَصْبَحَ مُسْتَحِيلًا . هَذَا هُوَ السَّبَبُ . لَا بُدَّ لِلْمَرْءِ أَخْرَى الْأَمْرِ أَنْ يَقْفِ
وَجْهًا لَوْجَهِ أَمَامِ مَتَاعِبِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا بِجَرَأَةٍ وَجَدَّ ، بَدْلًا مِنْ أَنْ يَبْكِي ، بَدْلًا مِنْ أَنْ يَصْرُحْ قَائِلًا كَطَفَلٍ

صغير: «الله لن يسمح بهذا». قولي لي: ما الذي سيحدث إذا اقتادوك غداً إلى المستشفى؟ إن الأخرى قد فقدت عقلها، وهي مصابة بداء السل، وستموت قريباً. والأولاد؟ هل يمكن أن لا تضيع بوليشكا هي أيضاً؟ ألم تري هنا، في نواصي الشوارع، أطفالاً أرسلتهم أمهاهاتهم في طلب الصدقات؟ لقد عرفت أنا أين تعيش هذه الأمهات، وفي أي ظروف يعشن. إن الأطفال لا يمكن أن يبقوا في أمثال تلك الأماكن أطفالاً. في أمثال تلك الأماكن يصبح الطفل الذي عمره سبع سنين، داعراً أو لصاً. والأطفال مع ذلك هم صورة المسيح، «لهم ملکوت الرب»^{٢٢}؛ لقد أمر الرب باحترامهم وحبهم. هم إنسانية المستقبل...

رددت صونيا تقول وهي تلوي يديها أملأ وتجهش باكية بكاء هستيرياً:

– ما العمل إذاً؟ ما العمل؟

– ما العمل؟ نحطّم مرة واحدة كل ما يجب تحطيمه، ولا شيء غير ذلك. نتحمل العذاب! ماذا؟ ألا تفهمين؟ سوف تفهمين في المستقبل! الحرية والسيطرة، السيطرة خاصة! السيطرة على جميع المخلوقات المترجفة، على كل هؤلاء النمل... ذلك هو الهدف! تذكري هذا! تلك هي وصيتي لك. لعل هذا آخر مرة أكلمك فيها. إذا لم أجيء غداً، فستعلمين كل شيء بنفسك، فاذكري حينئذ كلماتي. قد تفهمين معناها في يوم من الأيام، بعد سنة، ولكن إذا جئت غداً، فسأقول لك من الذي قتل اليزافيتا. وداعاً!

ارتعشت صونيا ذعراً. وسألته وهي ترمي بنظرة متوجحة:

– أنت تعرف حقاً... من الذي قتلها؟

^{٢٢} إنجيل مرقص (الإصحاح العاشر، ١٤).

– أعرف ذلك، وسأقوله لك... لك وحدك! لقد وقع اختياري عليك. لن أجئ إليك لأنستغرك، وإنما لأحدثك ببساطة. لقد اخترتكم، منذ مدة طويلة لأحدثكم، اخترتكم منذ اللحظة التي كلامني فيها أبوكم عنك، وكانت اليزافيتا ما تزال حية... وداعاً! لا تناوليني يدك! إلى الغد!

وخرج. كانت صونيا تنظر إليه وكأنها تنظر إلى مجنون، ولكنها كانت هي نفسها أشبه بمجونة، وكانت تشعر بذلك. وكانت تحس بدور.

تساءلت: «رباه! كيف يعرف من الذي قتل اليزافيتا؟ ما معنى هذه الأقوال؟ فظيع، فظيع!..» ولكن في الوقت نفسه لم تخطر لها فكرة أن... لم يخطر ببالها هذا في لحظة من اللحظات، لم يخطر ببالها في أية لحظة من اللحظات! وقالت تحدث نفسها: «لا بد أنه شقي، لا بد أنه شقي شقاء رهيباً! ترك أمه وأخته. لماذا؟ ماذا جرى؟ ما نياته؟ ماذا قال لي؟ لقد لشم قدمي وقال لي... قال لي... (نعم...) قال لي ذلك بوضوح... قال لي إنه أصبح لا يستطيع أن يحيا بدني... آه.. رباه!..

قضت صونيا الليل كله في حمى وهذيان. فتارة تنهض بوثبة واحدة فتأخذ تبكي وتلوى يديها أملأ، وتارة تهوي إلى نوم محموم فترى في الحلم بوليتشك وكاثرين ايفانوفنا وإليزافيتا وقراءة الإنجيل... وتراه هو... هو... بوجهه الشاحب، وعينيه المتقدتين، يلشم قدميها، وييكي... آه... يارب!..

وراء الباب، وراء ذلك الباب نفسه الذي يفصل غرفة صونيا عن شقة جرترود كارلوفنا ريسليخ، كانت توجد غرفة وسيطة، خالية منذ مدة طويلة، هي جزء من شقة السيدة ريسليخ، وكانت السيدة ريسليخ تريد أن تؤجرها، كما تدل على ذلك اللافتة الموضوعة على باب مدخل العماره، والأوراق الصغيرة الملصقة على زجاج النوافذ التي تطل على القناة. وقد اعتادت صونيا أن تعد هذه الغرفة خالية غير مسكونة. غير أن السيد سفدريجايلوف كان قد التصق طوال هذا الوقت كله بالباب في هذه الغرفة

الخالية، فأصغى إلى كل الحديث الذي جرى بين صونيا وراسكولنيكوف، حتى إذا خرج راسكولنيكوف لبئث هو لحظة يفكر، ثم رجع سائراً على رؤوس الأصابع إلى غرفته المتصلة بهذه الغرفة الخالية، فتناول كرسيا وجاء يضعه برفق وهدوء على الباب المؤدي إلى غرفة صونيا. لقد شاقه الحديث الذي جرى بين الفتاة وبين راسكولنيكوف كثيراً، ورأى أنه جدير بأن يُسمع وأن يحفظ؛ وبلغ من شدة إعجابه بهذا الحديث ورضاه عنه وابتهاجه به حدّ أنه حمل الكرسي وجاء يضعه على الباب حتى لا يضطر في المرة القادمة التي قد يكون الغد موعدها - من يدري؟ - أن يزعج نفسه بالبقاء واقفاً طوال ساعة كاملة. هكذا سيتاح له أن يجلس جلسة مريحة، فتكون متعته من جميع النواحي كاملة.

الفصل الخامس

في اليوم التالي، في الساعة الحادية عشرة تماماً، حين وصل لا راسكولنيكوف إلى قسم الشرطة، ودخل على مكاتب مفوض التحقيقات^{٢٠}، وطلب مقابلة بورفيري بتروفتش، أدهشه أنه طلب إليه أن يتظر. لقد انقضت عشر دقائق على الأقل قبل أن يُستدعى، وكان يتمنى أن يُستقبل فوراً، وأنهم لا بد أن ينقضوا عليه حالاً.

ظل واقفاً في وسط قاعة الانتظار، بينما كان يذهب ويجيء من حوله أناس لا ييدو عليهم أنهم يكترون به أي اكتراث. وفي الغرفة المجاورة التي يدل مظهرها على أنها غرفة مكتب، كان يجلس عدد من الكتبة عاكفون على الكتابة، وكان واضحاً أن أحداً منهم لا يعرف من راسكولنيكوف هذا وما الذي يعمله هناك.

وكان راسكولنيكوف يُجill على ما حوله نظرة قلقة فيها ارتياح، متسائلاً: ثُرى ألا يوجد هنا، على مقربة منه، شخص سري ما، جاسوس ما، مكلف بمراقبته، وبمنعه من الخروج إذا هو أراد أن يخرج؟ ولكن لا... لم يكن ثمة شيء من هذا القبيل. لم يكن ثمة إلا مستخدمون صغار، غارقون في أعماقهم الصغيرة، وأشخاص آخرون، لكن هؤلاء الأشخاص جميعاً كانوا هم أيضاً لا يهتمون به، ويدعون له أن ينتقل حراً على ما يشاء له هواء.وها هي ذي فكرة تنبت في ذهنه وتترسخ ترسخاً ما ينفك يزداد عمقاً: لو كان ذلك الشخص اللغز الذي لقيه بالأمس، لو كان ذلك الشبح الذي ظهر له من تحت الأرض، لو كان يعلم كل شيء، لو كان قد رأى كل شيء، أفكان يُترك له، هو راسكولنيكوف، أن يتظر هذا الانتظار هادئاً؟ أفك كانوا يصبرون عليه حتى الساعة الحادية عشرة، حتى الساعة التي ارتوى فيها أن يجيء من تلقاء

^{٢٠} كان مفوض التحقيق جزءاً من الشرطة، فلما صدرت قوانين الإصلاح القضائي في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر ١٨٦٤)، حل محلهم قضاة التحقيق التابعون لوزارة العدل.

نفسه ليديلي بـإفادته؟ إذن لم يـشـ به ذلك الرجل بعد... أو أنه هو أيضاً لا يعرف شيئاً معيناً (وـكيفـ كان يمكنـ أن يـرىـ أيـ شيءـ علىـ كلـ حالـ؟). وإذاً لم يكنـ كلـ ماـ حـدـثـ لهـ بالـأـمـسـ،ـ هوـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ،ـ إلاـ سـرـابـاـ،ـ إلاـ رـؤـياـ ضـخـمـهاـ خـيـالـهـ المـهـاجـ المـرـيـضـ.ـ إنـ هـذـاـ الـاـكـتـشـافـ كانـ قدـ فـرـضـ نفسـهـ عـلـىـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ مـنـذـ أـمـسـ،ـ فـيـ لـحـظـةـ هيـ مـنـ أـعـنـفـ لـحـظـاتـ شـعـورـهـ بـالـخـطـرـ وـمـنـ أـقـوـىـ لـحـظـاتـ إـحـسـاسـهـ بـالـيـأسـ.

وفيـاـ كانـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ يـفـكـرـ فـيـ هـذـاـ كـلـهـ مـرـةـ أـخـرـىـ،ـ وـفـيـاـ كانـ يـتـهـيـأـ لـكـفـاحـ جـدـيدـ،ـ شـعـرـ فـجـأـةـ بـارـتـاعـشـ،ـ فـغـلـتـ نـفـسـهـ غـلـيـانـاـ شـدـيـداـ إـذـ تـصـورـ أـنـهـ إـنـمـاـ يـرـتـعـشـ خـوـفـاـ،ـ لـأـنـهـ سـيـقـفـ أـمـامـ بـورـفـيرـيـ بـتـرـوـفـتـشـ الـكـرـيـهـ.ـ إـنـ أـفـطـعـ شـيـءـ هـوـ أـنـ يـلـقـىـ هـذـاـ الرـجـلـ مـنـ جـدـيدـ.ـ أـنـهـ يـكـرـهـ كـرـهـاـ لـاـ حدـودـ لـهـ،ـ كـرـهـاـ لـيـسـ لـهـ نـهـاـيـهـ.ـ وـكـانـ يـخـشـىـ أـنـ يـؤـدـيـ بـهـ هـذـاـ الـكـرـهـ،ـ عـلـىـ نـحـوـ مـنـ الـأـنـحـاءـ،ـ إـلـىـ أـنـ يـفـضـحـ نـفـسـهـ.ـ وـبـلـغـ غـضـبـهـ مـنـ الـقـوـةـ أـنـ أـوـقـفـ اـرـتـاعـشـهـ فـورـاـ.ـ وـأـعـدـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ نـفـسـهـ لـأـنـ يـدـخـلـ عـلـىـ الرـجـلـ هـادـئـاـ كـلـ الـمـدـوـءـ،ـ وـحـلـفـ لـيـقـيـنـ صـامـتاـ إـلـىـ أـبـعـدـ حـدـودـ الصـمـتـ،ـ يـفـتـحـ عـيـنـيـهـ وـأـذـنـيـهـ وـيـسـيـطـرـ فـيـ هـذـهـ مـرـةـ،ـ عـلـىـ الـأـقـلـ،ـ عـلـىـ مـزـاجـهـ الـمـهـاجـ المـرـيـضـ،ـ مـهـماـ يـحـدـثـ مـنـ أـمـرـ...

وفيـ اللـحـظـةـ الـتـيـ اـتـخـذـ فـيـهاـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ هـذـاـ الـقـرـارـ،ـ دـعـيـ إـلـىـ الدـخـولـ عـلـىـ بـورـفـيرـيـ بـتـرـوـفـتـشـ.ـ كـانـ بـورـفـيرـيـ بـتـرـوـفـتـشـ عـنـدـئـذـ وـحـيدـاـ فـيـ غـرـفـتـهـ.ـ إـنـهـ حـجـرـةـ لـاـ هـيـ بـالـكـبـيرـةـ وـلـاـ هـيـ بـالـصـغـيرـةـ،ـ تـضـمـ مـكـتـبـاـ كـبـيرـاـ مـوـضـوـعـاـ أـمـامـ دـيـوـانـ مـغـطـىـ بـقـمـاشـ مـشـمـعـ،ـ وـتـضـمـ مـنـضـدـةـ،ـ وـخـرـازـةـ فـيـ رـكـنـ مـنـ الـأـرـكـانـ،ـ وـعـدـةـ كـرـاسـيـ مـنـ خـشـبـ أـصـفـرـ تـقـسـرـ طـلـاؤـهـ؛ـ وـهـذـاـ كـلـهـ مـنـ أـثـاثـ إـلـادـارـةـ.ـ وـفـيـ الجـدـارـ الـذـيـ يـقـعـ فـيـ آخـرـ الـغـرـفـةـ،ـ أـوـ قـلـ فـيـ الـحـاجـزـ الـذـيـ يـقـعـ فـيـ آخـرـ الـغـرـفـةـ،ـ يـوـجـدـ بـابـ مـغـلـقـ:ـ فـلـاـ بـدـ إـذـاـ أـنـ وـرـاءـ هـذـاـ الـحـاجـزـ حـجـرـاتـ أـخـرـىـ.

فما أن دخل راسكولنيكوف حتى أغلق بورفيري بتروفتش ذلك الباب الذي كان قد دخل منه، وبقي
الرجلان وحيدين.

استقبل مفوض الشرطة زائره طلق المحسا متودداً متحبباً في ظاهر الأمر، ولم يستطع راسكولنيكوف إلا
بعد عدة دقائق أن يدرك من بعض العلامات أن بورفيري بتروفتش مرتبك بعض الارتباك، فكأنه أزعج
أثناء قيامه بمهمة سرية.

بدأ بورفيري بتروفتش يتكلم وهو يمد إلى راسكولنيكوف يديه قائلاً:
— آ... عزيزي... هاؤنت ذا إذاؤ... في نواحينا... تفضل... اجلس يا عزيزي! ولكن لعلك لا تحب أن
أخاطبك بقولي يا عزيزي، tout court «فقط»^{٤٤} هكذا!... لا تحسب هذا نوعاً من رفع الكلفة وعدم
التحرّج، أرجوك... ولكن لماذا لا تجلس؟ اجلس هنا، على الديوان...

جلس راسكولنيكوف دون أن يحول عنه عينيه.

وقال يحدّث نفسه مرتاتاً: «في نواحينا... اعتذارات عن رفع الكلفة وعدم التحرّج... هذا التعبير
الفرنسي... tout Court «فقط»... صحيح أنه مدّ إلى يديه، لكنه لم ينأولي لا هذه ولا تلك منها، بل
سحّبها في الوقت المناسب...».

كان كل من الرجلين يرقب صاحبه ويرصدّه، ولكن ما أن تلتقي نظراتهما حتى يحولها بسرعة كومض
البرق.

قال راسكولنيكوف:

^{٤٤} بلا تكليف. (بالفرنسية في الأصل).

– جئتك بالعرضة الصغيرة... في موضوع الساعة... إليك هي. أهكذا يجب أن تحرر أم عليّ أن أعيد كتابتها؟

– ماذا؟ أي عرضة؟ آ... نعم، نعم، اطمئن، هذا هو المطلوب تماماً.

كذلك قال بورفيري بترورفتش بسرعة لأن أمراً ما كان يستحثه، ثم تناول الورقة وألقى عليها نظرة خاطفة. وواصل كلامه بذلك التعجل نفسه فقال مؤكداً:

– ذلك هو المطلوب تماماً. لا يجب أكثر من هذا...

ووضع الورقة على مكتبه. ثم بعد دقيقة، بينما كان يتكلم في أمر آخر، تناول الورقة من جديد ووضعها على منضدة الكتابة.

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال:

– قلت لي بالأمس، فيها يخيل إلى... أنك تود... أن تستجوبني... رسميًّا... عن علاقتي... بالمرأة القتيل...

وأسرع راسكولنيكوف يقول لنفسه مؤنباً: «عجب... لماذا أضفت جملة «يخيل إلى» هذه؟»

ثم ومضت في ذهنه على الفور فكرة جديدة كومض البرق: «ولكن لماذا أقلق هذا القلق كله من قولي يخيل إلى؟»

وشعر فجأة بأن هذا الاتصال وحده ببورفيري بترورفتش، وهذه الكلمات وهذه النظارات المتبادلة وحدها كانت كافية لأن تحدث في نفسه ارتياباً فظيعاً... وأن هذا كله خطير، خطير خطراً رهيباً، وأعصابه تتواتر، واضطرب به يزداد ازدياداً شديداً. قال لنفسه مقرعاً: «غلط، غلط، سأوضح أمري من جديد».

جمجم بورفيري بتروفتش يقول:

– نعم، نعم، أطمئن... ليس الأمر بمستعجل... ليس الأمر بمستعجل البة...

وكان بورفيري بتروفتش يقول هذا الكلام وهو يدور حول المكتب طولاً وعراضاً، ولكن دون ما هدف فيما يبدو، كأنه لا يعرف ما الذي كان يجذبه نحو النافذة، ثم يجذبه نحو مكتبه، ثم يجذبه نحو النافذة فالمكتب من جديد. وكان، وهو يسير، يتحاشى نظرة راسكولنيكوف الريّابة ولكن كان في بعض الأحيان يتوقف فجأة، فيحذّق إلى محدّثه وجهاً لوجه. أنه لمشهد غريب، مشهد هذا الرجل القصير السمين، المدور ككرة، الذي كان كأنه يتذرّج من هنا وهناك، ثم يعود يثب على الفور من جميع الجدران، وجميع الأركان.

– أمامنا متسع من الوقت، أمامنا متسع من الوقت... هل تدخّن؟ هل تملك ما... إليك سيجارة (قال ذلك وهو يمد سيجارة إلى ضيفه)... إنني أستقبلك هنا، ولكن شقتي هناك، وراء هذا الحاجز. أنا أسكن على نفقة الدولة، ولكنني أسكن مؤقتاً في خارج الدائرة كما تعلم... نعم، ذلك أن هناك إصلاحات صغيرة وجب إجراؤها هنا، وقد أوشكت الآن أن تنتهي. شيء عظيم أن يسكن المرء على نفقة الدولة، هه؟ شيء عظيم جداً. ما رأيك؟ هه؟

أجابه راسكولنيكوف وهو يلقي عليه نظرة تشبه أن تكون ساخرة:

– نعم، شيء عظيم جداً!

فردّد بورفيري بتروفتش هذه العبارة وكأنه أصبح يفكّر فجأة في شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف:

– شيء عظيم جداً، شيء عظيم جداً...

وأضاف بما يشبه أن يكون صراخاً، وهو يحدّق إلى راسكولنيكوف متوقفاً أمامه:

– نعم، شيء عظيم جداً.

إن هذه الطريقة الحمقاء السخيفية في ترداد هذه العبارة (إن السكن نفقة الدولة شيء عظيم جداً) تناقض ما كان قاضي التحقيق يرمي به راسكولنيكوف من نظرة جادة، متأملة، ملغزة. ولكن ذلك لم يزد على أن فاقم غضب راسكولنيكوف، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فإذا هو يتحدى تحدياً فيه غير قليل من الطيش، فيسأل بورفيري بتروفتش فجأة، وهو يلقى عليه نظرة تكاد تكون وقحة، حتى لكانه يجد في وقاحتة هذه لذة ومتعة:

– هل تعلم أن هناك، فيما يقال، قاعدة قضائية، أسلوباً قضائياً يمكن أن يستخدمه جميع قضاة التحقيق، هو أن يتحدث أحدهم أولاً في أمور تافهه سخيفه أو حتى في أمور هامة لكنها غريبة عن الاستجواب كل الغرابة، وذلك من أجل أن يطمئن الشخص الذي يستجوبه، أو قل من أجل أن يسْهِيه، من أجل أن ينوم انتباهه، ثم إذا هو يهوي على رأسه فجأة بالسؤال الحاسم الخطير الرهيب؟ أليس هذا صحيحاً؟ يظهر أن هذا الأسلوب قد طبق حتى الآن تطبيقاً دقيقاً، وروعي مراعاة تامة، أليس كذلك؟

– إذاً أنت تظن... إذاً، أني إنما حدثتك عن المساكن التي تقدمها الدولة على نفقتها، من أجل أن... هه؟

قال بورفيري بتروفتش ذلك، وغضّن جفنيه وطرفَ عينيه وبان في وجهه تعبير عن مرح ومكر، وأخت تجاعيد جبينه الدقيقة، وتضيّقت عيناه الصغيرتان، وتمددت أخيراً قسماته، فحقّ إلى عيني راسكولنيكوف وانفجر يضحك ضاحكاً عصبياً طويلاً يهز جسمه كله. وأراد راسكولنيكوف أن يحمل نفسه على مجاراته في الضحك، فهمّ أن يضحك هو أيضاً، ولكن بورفيري بتروفتش حين رأى راسكولنيكوف يوشك أن يشاركه ضحكة، انتابته نوبة مسحورة من ضحك بلغ من القوة أن وجهه احمرّ أحمراراً شديداً، فتغلب

اشمئزاز راسكولنيكوف عندئذ على تعقله، فأمسك عن الضحك، وقطب حاجبيه، ونظر إلى بورفيري بتروفتش طويلاً، نظرة كارهة حاقدة، وظل لا يحول عنه بصره أثناء ضحكة المفتعل الطويل بلا نهاية، كأنها عن قصد وعمد. والحق أن الرجلين كليهما لم يلتزمما جانب الحكمه والتبصر والتعقل: فأما بورفيري فكان كمن يسخر من زائره صراحة، وأما راسكولنيكوف فقد استقبل ذلك الضحك بكره شديد، وهو كره لم يظهر على القاضي أنه ضاق به أو انزعج منه على كل حال. وذلك أمر لفت انتباه راسكولنيكوف: لقد أدرك راسكولنيكوف أن بورفيري لم يكن مرتبكاً أي ارتباك منذ قليل، بل بالعكس إنه هو، الذي وقع في الفخ، وأن هناك أمراً يجهله ولا شك، أمراً مدبر منذ زمن بعيد سينكشف بعد لحظة وسينصب على رأسه.

لذلك انتقل إلى الجد قُدُّماً، فنهض متناولاً قبعته، وبدأ يتكلم فقال بلهجة جازمة غير أن فيها اهتماماً قوياً:

– يا بورفيري بتروفتش، لقد أعربت أمس عن رغبتك في أن تراني من أجل أن تستجوبني (أبرز راسكولنيكوف الكلمة «تستجوبني» هذه)، وهأنا ذا قد جئت، فإن كنت في حاجة إلى أن تعرف شيئاً ما، فاستجوبني، وإلا فاسمح لي أن أنصرف. ليس في وقتي متسع. هناك أمور تناديني... يجب عليّ أن أحضر دفن ذلك الموظف الذي داسته الخيل أمس... وأضاف يقول: وقد سمعت أنت عن الحادثة التي وقعت له...

ولكنه سرعان ما ندم على أنه أضاف هذه الجملة فازداد من ذلك غضبه، وتابع كلامه فقال:

– لقد تعبت من هذا كله، تعبت، هل تفهم؟ تعبت منذ زمن طويلاً... ولعل ذلك أحد الأسباب التي جعلتني مريضاً...

وشعر مرة أخرى بأن الجملة التي أضافها عن مرضه ليست في محلها أيضًا، فتابع يقول رافعًا صوته:

– الخلاصة... استجوبني من فضلك... أو دعني أنصرف فوراً. ولكن إذا استجوبتني فيجب أن يتم الاستجواب وفقاً للأصول المطلوبة والقواعد المتبعة، وبغير ذلك لا أسمح لك به. لذلك أودّ عك الآن فليس علينا أن نجلس هنا وحدنا.

صات بورفيرى بتروفتش يقول مغيرةً لهجته ووضعه على حين فجأة، منقطعاً عن الضحك دفعة واحدة:

– عجيب! ماذا جرى لك؟

ثم أردف يقول:

– اطمئن، أرجوك...

وكاد يذهب ويحيى مهموم البال. وفجأة طلب إلى راسكولنيكوف أن يجلس، وقال له:

– لدينا متسع من الوقت، متسع من الوقت، وهذا كله لا قيمة له البتة. بالعكس: أنا مسرور جداً من أنك جئت إلينا أخيراً! إنني أستقبلك كما يُستقبل ضيف. أما عن ذلك الضحك اللعين، فاعذرني يا عزيزي روذيون رومانوفتش... هذا هو اسمك، أليس كذلك؟ روذيون رومانوفتش... إن ملاحظتك المرهفة قد أثارت في نفسي مرحًا شديداً... حقاً أنه ليتفق لي أحياناً أن أتواثب ككرة من المطاط بسبب الضحك طوال نصف ساعة. أنني سريع إلى الضحك. حتى أنني أخشى أن أصاب بنوبة قلبية، وأنا بدين. ولكن لماذا لا تجلس؟ هلا جلست! أرجوك أن تجلس يا عزيزي، وإنما اعتقدت أنك زعلان!

كان راسكولنيكوف صامتاً يصغى ويلاحظ، وما يزال مقطب الحاجبين من الغضب. وقد جلس، لكنه ظل مسكاً قبعته بيده.

وتابع بورفيري بتروفتتش كلامه وهو ما يزال يتجلو في الغرفة، ويتحاشى نظرة ضيفه، فقال:

– سأذكر لك شيئاً يا عزيزي روبيون رومانوفتش، لأعطيك فكرة عن طبيعتي. أنا رجل ما أزال عازباً كما ترى، فأنا إذاً لا أعاشر الناس ولا أختلف إلى المجتمع كثيراً، وأنا إذاً رجل غامض، مجهول. وأنا عدا ذلك إنسان مكتمل التكوين، متعظّم الجسم، متاخر الإحساس، و... و... هل لاحظت يا روبيون رومانوفتش أنه عندنا، أقصد عندنا في روسيا، ولا سيما في أوساطنا البطرسبرجية، ما أن يلتقي شخصان ذكيان لا يعرف أحدهما الآخر بعد معرفة جيدة، ولكنهما بالمناسبة يحترمان بعضهما البعض احتراماً تاماً مثلنا نحن، أنا وأنت، إن صح التعبير حتى نرى هذين الشخصين عاجزين طوال نصف ساعة عن العثور على كلمة واحدة يقوها أحدهما للآخر؟ أن كلاً منها ينظر إلى صاحبه ككلبين من خرف، وأن كلاً منها يجلس قبالة الآخر ويخشى صاحبه ويخاف منه. أن لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه، السيدات مثلاً... أو أفراد المجتمع الراقي... أفراد الطبقة العليا... نعم، أن لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه مثلنا... يكونون دائمًا مرتباً صمودتين... أعني منهم أولئك الذين يفكرون. فما سبب هذا يا عزيزي؟ هل الاهتمامات الاجتماعية هي التي تعوزنا، أم نحن شرفاء جداً فلا يريد أحدنا أن يخدع صاحبه؟ لا أدرى... فما رأيك أنت؟ ولكن هلاً تركت قبعتك! لكانك تريد أن تصرف فوراً. هذا مؤسف. أما أنا فمسرور حقاً...

^{٢٠} ذلك واجب لا مفرّ منه. (بالفرنسية في الأصل). المغرب

ترك راسكولنيكوف قبعته، ولكنه ظل صامتاً متجمهم الوجه يصغي بجد ورصانة إلى ثرثرات بورفيري بتروفتش المفككة، متسائلاً بينه وبين نفسه: «أ يريد حقاً أن ينوم انتباهي بهذا السيل المتدق من اللغو التافه السخيف؟»

وواصل بورفيري بتروفتش كلامه يقول

– لست أقدم لك قهوة، فليس هذا بالمكان المناسب. ولكن لماذا لا تحب أن تجالس صديقاً طيباً مدة خمس دقائق... لتسليه قليلاً... هذا عدا واجبات الوظيفة كما تعلم... وأرجوك خاصة يا عزيزي أن لا تزعل إذا رأيتني على هذه الحال أسير في الغرفة طولاً وعرضًا... معذرة يا عزيزي... أني أخشى كثيراً أن أزعلك... ولكن لا بد لي من شيء من الرياضة... أني جالس دائمًا... ويسريني كثيراً أن يتاح لي الآن أن أمشي قليلاً خلال خمس دقائق... هي البواسير يا عزيزي... وأنا أريد دائمًا أن أعالجها بالتمارين الرياضية... يقال إن رجالاً من مستشاري الدولة، رجالاً من كبار موظفي الدولة^{٦٦}، يقفزون على الحبل كل يوم على نظام مطرد، ويجدون في ذلك لذة. نعم، ها هو معنى العلم في أيامنا... أما التراماتي هنا، أما هذه الاستجوابات وهذه الشكليات كلها التي جئت على ذكرها، فعليك أن تعلم حقاً يا عزيزي روذيون رومانوفتش أن هذه الاستجوابات كثيراً ما تثير القاضي أكثر مما تثير المتهم... كما ألمحت أنت إلى ذلك بكثير من رهافة الملاحظة ونفاذ البصيرة (لم يكن راسكولنيكوف قد ألمح إلى شيء من هذا البتة). نعم، إن الماء ليربك، ليربك حقاً، وتحتلط عليه الأمور. وهذا يتكرر هو نفسه دائمًا، يتكرر مراراً وتكراراً، على وتيرة واحدة، كقرع الطبل... نغمة واحدة... على أننا موعدون الآن بإصلاحات، فستتغير أسماؤنا^{٦٧} على الأقل. هي هي هي!... أما عن أساليبنا القضائية – على حد تعبيرك الظريف الفكه – فأنا

^{٦٦} «يقال إن رجالاً من مستشاري الدولة...»: مستشار الدولة رتبة مدنية في روسيا القديمة من الدرجة الخامسة وتعادل رتبة العقيد العسكرية...

^{٦٧} «فستتغير أسماؤنا على الأقل»: إشارة إلى قوانين الإصلاح القضائي المرتقب، وهذا يحدد لأحداث الرواية تاريخاً هو تموز (يوليو) ١٨٦٤.

أوافقك على رأيك كل الموافقة. قل لي من فضلك: أي متهم لا يعرف، ولو كان أحجى فلا حرج، أن المحقق إنما يبدأ بمحاولة تنويمه (على حد تعبيرك المناسب الموفق)، بأن يلقى عليه أسئلة لا تمت إلى الموضوع بصلة، ثم يهوي على رأسه بالموضوع كأنه يهوي عليه بفأس... هي هي على رأسه بالذات... بتعبيرك الموفق أيضاً... هي هي!.. إذن لقد ظنت فعلاً أنني حين حدثتك عن مسألة السكن على نفقة الدولة إنما كنت أريد... هي هي! يا لك من مازح! لا، لن أستمر في ثرثري، إذن... آ... بالنسبة... أن كلمة تستدعي كلمة أخرى، وأن فكرة تستحضر فكرة ثانية... لقد أشرت، منذ قليل، إلى أصول الاستجواب وقواعده، كما تذكر... أشرت إلى الشكل الذي يجب التقييد به في الاستجواب. ولكن قل لي: ما هو الشكل؟ أن الشكل، في كثير من الأحيان، لا يكون له أي معنى. ورب الحديث ودي أنفع كثيراً من استجواب يتقييد فيه المحقق بالشكل، ويلتزم فيه القواعد والأصول. طبعاً... أما الشكل فلا مفر منه في أية حال، وفي وسعتك أن تطمئن من هذه الناحية. ولكن اسمح لي بالسؤال ما هو الشكل في حقيقة الأمر؟ ليس ينبغي للشكل أن يعرقل عمل قاضي التحقيق في كل لحظة. أن مهنة قاضي التحقيق فن حر إن صح التعبير... أو هي شيء من هذا القبيل... هي هي هي!..

توقف بورفيري بترورفتشر ليسترد أنفاسه. كان يتكلم متداخلاً كالسيل، فتارةً يقذف عبارات جوفاء لا معنى لها دون كلل أو ملل، وتارةً يدس كلمة صغيرة غامضة وغريبة، ليعود بعد ذلك فوراً إلى هذره التافه ولغوه السخيف. وكان كمن يركض في الغرفة ركضاً، هازاً ساقيه القصيرتين السميكتين مزيداً من الهز، واضعاً يده اليمنى وراء ظهره، وهو يحني رأسه محركاً باستمرار يده اليسرى بإشارات تتناقض مع أقواله تناقضاً غريباً.

ولاحظ راسكولنيكوف فجأة أنه قد توقف أثناء جريه السريع مرتين أو ثلاثة أمام الباب، وبدا عليه أنه يصيخ بسمعه لحظة. تسأله راسكولنيكوف «أهو ينتظر شيئاً؟»

واستأنف بورفيري بترؤفتش كلامه فقال مرحًا وهو يلقي نظرة ساذجة إلى درجة عجيبة، أرعشت الشاب وجعلته يتحفز فورًا:

— الواقع أنك على حق تماماً حين تسخر من إجراءاتنا القضائية بمثل هذه الطريقة الظرفية... هي هي... إن أساليبنا—بعضها لا كلها طبعاً—تؤهم بأنها مستوحاة من سيكولوجيا عميقة، مع أنها في حقيقة الأمر مضحكة تماماً، بل هي في كثير من الأحيان عقيمة، ولا سيما عند التقييد بالشكل تقيداً دقيقاً. ولكن... فلنعد إلى مسألة الشكل هذه نفسها: لنفرض أنني مكلف بالتحقيق في قضية، وأنني أعرف أو قد أعتقد أنني أعرف أن الجاني هو فلان أو فلان... أنت تتهيأ لهنة القضاء يا روديون رومانوفتش، أليس كذلك؟

— نعم، كنت أدرس القانون.

— طيب، هذا إذاً مثال صغير يمكن أن يفيدك في المستقبل، إن صحة التعبير. آ... لا يذهبن بك الظن إلى أنني أريد أن ألقنك دروساً أنت الذي تكتب مثل هذه المقالات الجدية عن الإجرام. لا، أبداً، فإنما أجرب على أن أضرب لك هذا المثال من حيث هو واقعة. لنفرض أنني ظنت أن فلاناً أو فلاناً من الناس هو الجاني. فعلام أطلق فلاناً أو فلاناً قبل اللحظة المناسبة، حتى ولو ملكت أدلة عليه؟ صحيح أنني قد أضطر أن أعتقل فلاناً بأقصى سرعة، ولكن فلاناً الآخر الذي ليس له ذلك الطبع نفسه، قد أتركه يتتجول في المدينة، هه؟ أحسب أنك لا تفهمعني تماماً، لذلك سأعرض لك الأمر بمزيد من الوضوح. لنفرض أنني قبضت عليه قبل الأوان، أفلست أمنعه بذلك نوعاً من عون نفسي؟ هي هي أيسحوك هذا الكلام؟ (أن راسكولنيكوف لم يخطر بباله قط أن يضحك). كان جالساً، كازاً شفتيه، لا يحول عن عينيه بورفيري بترؤفتش نظرته المتقدة الملتهبة). هذا هو الأمر رغم ذلك، ولا سيما مع بعض الأفراد. نعم نعم، الأفراد متنوعون تنوعاً كبيراً، ولا بد من تنوع الأسلوب بتنوع هؤلاء الأفراد. قد تقول لي أن هناك أدلة... طيب: لتسليّم بأن هناك أدلة! ولكن الأدلة يا عزيزي تكون في أكثر الأحيان ذات حدين، وأنا

قاضي تحقيق، فعندي إذاً نواحي ضعف، أعترف لك بذلك. أنا أتمنى أن يكون دليلي قاطعاً صارماً كاستدلال رياضي، كبرهان رياضي. أنا في حاجة إلى برهان بديهي كقولك أن اثنين واثنين أربعة، أو إلى شيء يشبه أن يكون برهاناً رياضياً في وضوحي وجلاه. فإذا اعتقلت الشخص قبل الأوان، فإنني منها يكن اقتناعي قوياً بأنه هو الجاني، أحرم نفسي بذلك من الوسائل التي ستحمله على الكشف عن نفسه كشفاً أتم. لماذا؟ لأنني أكون قد ألزمته بوضع معين إن صح التعبير، أي أكون قد حددته فطمأنته من الناحية النفسية فيفلت مني ويدخل في قواعته، لعلمه بأنه اعتقل وانتهى الأمر. يقال إن الناس الأذكياء في سيفاستوبول، بعد معركة ألماراس^{٢٨} رأساً، قد خافوا كثيراً في أول الأمر من أن يهاجمهم العدو فوراً وأن يستولى على سيفاستوبول في الحال. فلما رأوا أن العدو قد أثر القيام بحصار على الأصول، فبدأ يحفر الخندق الأول، سرروا سروراً عظيماً واطمأنوا اطمئناناً كبيراً. فبذلك يطول الأمر شهرين أو أكثر، لأن الانتهاء من حصار على الأصول لا بد له من وقت. ما بالك تضحك أيضاً؟ أما تزال لا تصدقني؟ أنت على حق، من وجهة نظرك، على حق...! هذه حالات خاصة، وأنا أوافقك كل الموافقة. أن الحالة التي أعرضها لك الآن حالة خاصة تماماً. ولكن يجب علينا يا عزيزي روديون رومانوفتش أن نعلم حق العلم أن الحالة العامة التي تلائمها جميع الأصول القضائية وجميع الأنظمة، والتي على أساسها تُحسب هذه الأنظمة وُسجّل في الكتب، لا وجود لها على الإطلاق، وذلك لسبب بسيط هو أن كل فعل، ولنفرض أنه جريمة، سرعان ما يتحول إلى حالة خاصة، بل إلى حالة خاصة جداً لا تشبه في شيء أي فعل آخر. وفي بعض الأحيان تعرض حالات غريبة مضحكة في نوعها. ففي تلك الحالات أدع الشخص وحيداً، لا أزعجه، لا أعتقله، ولكنه إذا علم أنني في كل ساعة، بل في كل دقيقة، أعرف كل شيء، وأنني أراقبه ولا تغمض عيني عنه؛ إذا أصبح فريسة ارتياح مستمر وخوف متصل، فيميناً ليأخذنه عندئذ دوار،

^{٢٨} «بعد معركة ألماراس»: هي معركة ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٨٥٤ التي خسرها الجيش الروسي فانكفا إلى سيفاستوبول أثناء حملة القرم.

وليأتيَنَّ من تلقاء نفسه. وقد يحدث أيضاً أن ينساق إلى اقتراف شيء لا يقل وضوحاً عن كون اثنين واثنين أربعة، شيء يمكن أن يوصف بأنه ذو طابع رياضي. وتلك هي المتعة واللذة في الأمر. يمكن أن يحدث هذا لفلاح بسيط، ويمكن أن يحدث لرجل من أشباهنا، لرجل ذكي عصري مثقف. ذلك أنه أمر هام جداً يا عزيزي أن نعرف الاتجاه الذي تطور فيه شخص من الأشخاص. ثم إن هناك الأعصاب، الأعصاب، أتراك نسيت الأعصاب؟ الأعصاب هي الضعفية الآن، هي المريضة، هي المستشار. وما قولك في الاهتياج؟ أن اهتياجاً كثيراً قد تجمع وتراكم في الناس! وأؤكد لك أن هذا بعينه مصدر للمعلومات لا ينضب! فهل يضرني إذاً أن أترك الجاني يتتجول في المدينة حرّاً طليقاً؟ ألا فليستمر على التجول. إنني لا أعارض على هذا أي اعتراض. فأنا أعلم، منها يحدث، أنه «فريستي العزيزة» وأنه لن يفلت مني! إلى أين عساه يهرب؟ إلى الخارج؟ قد يهرب بولندي إلى الخارج، أما هو فلن يهرب، لا سيما وأنه تحت بصرى وسمعي، وأنني اتخذت الاحتياطات الالزمة. أتراه يفر إلى آخر البلاد؟ ولكن في آخر البلاد لا يعيش إلا فلاانون، لا يعيش إلا روس حقيقيون، أما هو الذي تثقف ثقافة حديثة، فإنه يؤثر السجن على أن يجاور أجانب كفلاهينا... هي هي... على أن هذا كله أمازيح على الهاشم. ما الهرب؟ أمر شكلي صرف. ليس هذا هو الشيء الأساسي. فالرجل لن يهرب، لا لأنه لن يعرف إلى أين يذهب فحسب، بل هو لن يهرب لأسباب سيكولوجية أيضاً... هي هي... تعبير موفق جداً، هه؟ لا، أنه لن يهرب، وذلك بفعل قانون طبيعي، حتى ولو عرف إلى أين يذهب! أما رأيت فراشة تحوم حول شمعة؟ ألا أنه سيدور حول دوران الفراشة حول الشمعة. ستأخذ تثقل عليه الحرية، وسيأخذ يفك، وسيرتبك؛ سيقع في شباك ينسجها هو نفسه، سيخلق لنفسه خوفاً رهيباً. بل أنه سيهبي لي مهزلة رياضية يدعها هو، مهزلة من نوع «اثنين زائد اثنين يساوي أربعة»، شريطة أن أدع له فرصة بطبعية الحال.

وسيظل، بغير انقطاع، يحوم حولي على دوائر ما تنفك تضيق، ثم إذا هو يسقط في فمي دفعة واحدة، فأبلغه، وما ألل هذا! هي هي، ما رأيك؟

لم يجب راسكولنيكوف. ظل جالساً، شاحب الوجه، جامداً، ما ينفك يحدّق إلى وجه بورفيري بتروفتش بانتباه ثابت.

حدّث نفسه يقول متجمداً من الرعب: «هذا درس رائع... ليست الحكاية اليوم حكاية الهرة تبعث بالفأرة كما كانت بالأمس. لا، ليست قوته هي ما يريد اليوم أن يظهره لي في غير طائل، أو أن يوحى إلى به... هو أذكى من أن يفعل ذلك. إن له الآن هدفاً آخر، فما هو هذا الهدف؟ دعك يا صاحبي، غباءً ما تفعل، سخافات... أنت تحاول أن تخيفني... أنت تكر وتحتال... ليس لديك أي دليل. ورجل الأمس لا وجود له. أنت تحاول أن تربكني وأن تشوشيني وأن تثير أعصابي سلفاً حتى تهوي عليّ بالضربة المفاجئة متى انهدت قواي... ولكن خاب فألك، ولسوف تطيش ضربتك فما تصيب هدفاً، نعم، سوف تطيش ضربتك... ولكن ما باله يوحى إليّ بما يجب أن أعمله! إلى هذا الحد، ليس الأمر طبيعياً!.. أهو يعوّل على أعصابي المريضة؟ لا، لا يا صاحبي، لقد أخطأ ظنك، وعميّ بصرك... ومهما تكن قد أعددت من شيء... طيب، سترى ماذا ما أعددت!..»

واستجتمع راسكولنيكوف قواه كلها، يستعد لمواجهة نازلة رهيبة مجهرولة. ودّ في بعض اللحظات لو ينقض على بورفيري بتروفتش فيخنقه في الحال. أنه منذ دخوله قد خشي أن يشعر بمثل هذا الغضب. وهو يشعر الآن بأن فمه جاف، وبأن قلبه يخفق خفاناً شديداً، وبأن الزبد يتقاطر على شفتيه. ومع ذلك قرر أن يصمت، وأن لا يقول كلمة واحدة قبل أن يحين الحين. أدرك أن هذه هي الخطة المثلثة في ظرف كظرفه، فهو بذلك يتتجنب فضح نفسه بكلامه، وهو بذلك أيضاً يثير أعصاب محدّثه بصمته، فلعل محدّثه هو الذي سيفضح نفسه ويكشف عن نياته إذ يتكلم. ذلك ما كان يأمله راسكولنيكوف على الأقل.

استأنف بورفيرى كلامه بمزيد من المرح، حتى لقد كان ينتفق تلذذاً، فقال وهو ما يزال يدور في الغرفة:

– لا، أنت لا تصدقني. أرى أنك لا تصدقني. تظن أنني أمطرك بأمازيع صغيرة تافهة. وأنك لعلى حق طبعاً. فإن الله نفسه قد وهب لي مظهراً جسمياً لا يمكن أن يثير لدى الآخرين إلا خواطر مضحكة. أنا روبيون رومانوفتش: يجب عليك أن تغدر الشيخ الذي يكلمك. أنت شاب، أنت في زهرة العمر إن صحّ التعبير، وأنت لذلك تقدر الذكاء الإنساني أكثر من أي شيء آخر، كسائر الشباب. أن حدة الفكر وحجج العقل المجردة تفتنك. أنت على وجه العموم تشبه «المجلس الحربي الأعلى»^{٢٩} الذي كان بالنمسا في الماضي، هذا إذا صدق حكمي في الشؤون العسكرية: أن أعضاء هذا المجلس هم الذين سحقوا نابوليون وأسروه، في خططهم التي وضعوها على الورق. نعم، إنهم في مكاتبهم، قد هيؤوا كل شيء، ورتباوا كل شيء، بدقة كاملة، ونظام رائع. ذلك ما فعلوه على الورق. أما في الواقع فإن قائدتهم الجنرال ماك هو الذي استسلم مع جيشه كله^{٣٠}... هي هي... أني أرى، يا عزيزي روبيون رومانوفتش أنك تسخر مني، لأنني أنا المدني المحضر أضرب أمثلة مستمدة من التاريخ الحربي. ولكن ما حيلتي؟ هذه نقطة الضعف فيّ، أني أحب فن الحرب، وأبلغ من حبه أني أقرأ جميع ما يتصل بالحرب من قريب أو بعيد. لا شك أنني أخطأت في اختيار مهنتي في هذه الحياة. كان عليّ أن أعمل في الجيش. هذا حق. لو عملت في الجيش، فلعلني لا أصبح قائداً عظيماً مثل نابوليون، ولكنني أصبح «ميجر» ناجحاً... هي هي

^{٢٩} مهرج – بالفرنسية في الأصل.

^{٣٠} إشارة إلى بداية حملة ١٨٠٥ حين أفسد نابوليون خطط «المجلس الحربي الأعلى» (هوفكريسيجرات) بالنمسا، وأسر في أول الجنرال النمساوي ماك هو وجيشه. أن تلك الأحداث قد وصفها تولستوي في روايته الكبرى «الحرب والسلام» (الجزء الأول) الذي بدأ نشره في مجلة «الرسول الروسي» (كانون الثاني وشباط – يناير وفبراير) عندما نشر الأجزاء الأولى من رواية الجريمة والعقارب هذه.

^{٣١} «أما في الواقع فإن قائدتهم الجنرال ماك هو الذي استسلم»: الفيلدمارشال كارل ماك (١٧٥٢ – ١٨٢٨) عسكري نمساوي حاصرته القوات الفرنسية قرب قلعة أول النمساوية حتى استسلم أسيراً نابوليون.

هي... الخلاصة... ما دمت الآن بسييل أن أقول لك الحقيقة عن هذه الحالة الخاصة، فإن الواقع والطبيعة، يا سيدي العزيز، هما من الأمور الهامة جداً وفي بعض الأحيان فإنها يدحضان أكثر الحسابات حكمة! نعم، صدّق شيئاً مثلي. أني أتكلم جاداً لا هازلاً يا روديون رومانوفتش (حين قال بورفيري بتروفتش هذا الكلام، فإنه وهو الذي لا يكاد يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره، قد غدا أشبه بشيخ فعلاً؛ حتى أن صوته تغير، وظهره تحدب). ثم أني رجل صريح. ألسـت رجلاً صريحاً؟ ما رأيك؟ أظن أن هذا واضح. أعتقد أني صريح أكثر من اللازم: أنا أقول لك هذا كله مجاناً، لا أطلب جزاء ولا شكوراً، هي هي... فلأكمل كلامي: أن يكون المرء ذكياً فتلك ميزة لامعة في رأيي. أن الفكر زينة الطبيعة إن صح التعبير، وهو عزاء الحياة. وما أكثر ما يستطيع الرجل الذكي أن يعمد إليه من حيل. فكيف تريد لقاضي تحقيق مسكين أن لا يتوه وأن لا يضل في شباب هذه الحيل، ولا سيما إذا كان خياله نفسه يضلله لأنه إنسان كسائر البشر، أليس كذلك؟ ولكن الطبيعة نفسها تهـب إلى نجدة قاضي التحقيق المسكين، فتخرجه من الارتباك وتنقذه من المأزق. وذلك هو البلاء، وذلك هو ما ينسـاه شبابنا «الذكي» الذي «يتخطـى جميع الحواجز» (على حد التعبير الذي استعملته أنت بالأمس في كثير من الرهافة والمكر). قد يعمد صاحبـنا إلى الكذب – أنا أتكلم طبعاً عن شخص من الأشخاص دون تعـين، عـر حالة خاصة عن incognito «رجل مجهول»^{٣٣} – وقد يكذب كذلك فيـه غـاية البراعة والمـكر. وقد يظن عندـئذ أنه سيـتـصرـ، أنه سيـقطـفـ ثـمـراتـ مـكـرهـ، ولكنـ هـاـ هوـ ذـاـ يـغـمـيـ عـلـيـهـ فـجـأـةـ فـيـ اللـحظـةـ الـحـرـجةـ الـخـطـرـةـ! لـنـسـلـمـ بـأـنـ عـلـيـنـاـ أنـ نـحـسـبـ حـسـابـ مـرـضـهـ. فـكـثـيرـاـ ماـ يـشـعـرـ المرـءـ بـاخـتـنـاقـ حـينـ يـوـجـدـ فـيـ غـرـفـةـ فـاسـدـ الـهـوـاءـ. وـلـكـنـ صـاحـبـناـ يـكـونـ معـ ذـلـكـ قـدـ قـدـمـ إـلـيـنـاـ قـرـيـنـةـ مـنـ الـقـرـائـنـ. صـحـيـحـ أـنـ ذـرـ الرـمـادـ فـيـ الـعـيـونـ بـكـثـيرـ مـنـ الـحـذـقـ وـالـبـرـاعـةـ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـحـسـبـ حـسـابـ الطـبـيـعـةـ إـلـىـ درـجـةـ كـافـيـةـ. وـذـلـكـ هـوـ الـفـخـ! وـفـيـ مـرـةـ أـخـرـ يـنـسـاقـ مـعـ

^{٣٣} رجل مجهول. (باللاتينية في الأصل).

ذكاءه المتقد، فياخذ يبعث بالشخص الذي يشتبه فيه؛ فُيُشحب لونه عمداً كأنها ليتسلل، ولكن شحوبه لا يخلو عندئذ من عنصر طبيعي فكأنه شحوب حقيقي، غير أنه شحوب زائد، وهذه قرينة أخرى يقدمها. وله استطاع أن يخدع محدثه في تلك اللحظة، فإن محدثه، إن لم يكن غبياً، لا بد أن يرجع عن خطئه في الليل. نعم، هكذا تجري الأمور في كل خطوة. ثم أنه يبادر هو نفسه إلى السبق، فياخذ يتدخل في أمور لا يسأله أحد عنها، ويشترر دون انقطاع فيما كان يحسن به أن يسكت عنه وأن لا يتكلم عليه، ويسترسل في تلميحات وإلماعات. نعم... يجيء من تلقاء نفسه وياخذ يطرح أسئلة: «لماذا لم يُعقل حتى الآن؟» ألح. هي هي... وهذا يمكن أن يقع حتى لأذكي رجل، يمكن أن يقع لعالم نفسي، يمكن أن يقع لأديب. أن الطبيعة مرآة، أن الطبيعة أصفى مرآة، فيكتفي المرء أن ينظر فيها. نعم، هذا هو الأمر. ولكن ما بالك تصفر اصفراً شديداً يا روديون رومانوفتش؟ هل ينقصك هواء؟ أفتح النافذة؟

هتف راسكولنيكوف يقول:

– لا، لا تزعج نفسك! – ثم انفجر يضحك وهو يكرر قوله:

– أرجوك، لا تزعج نفسك!

وقف بورفيري أمامه، وانتظر قليلاً، ثم انطلق يضحك هو نفسه ضحكاً مجلجاً. فنهض راسكولنيكوف قاطعاً ضحكة المستيري فجأة، وقال بصوت قوي متميز، رغم أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه المصطكتين:

– يا بورفيري بتروفتش، إنني أرى أخيراً بوضوح أنك تشتتبه في وتنسب إلى مقتل هذه العجوز وأختها اليزافيتا. وأني لا أعترف لك من جهتي بأنني قد سئمت هذا الأمر وضقت به منذ مدة طويلة. فإن كنت

تعتقد أن من واجبك أن تلتحقني ملائحة قانونية فلاحقني، وإن كنت تعتقد أن من واجبك أن تعقلني فاعقلني، ولكنني لا أسمح لأحد أبداً بأن يضحك عليّ وأن يعذبني هذا التعذيب.

وأخذت شفاته ترتجفان، وسطعت عيناه غضباً، ودوى صوته دوياً قوياً بعد أن كان حتى ذلك الحين مكظوماً. قال يصرخ بكل قواه، وهو يضرب المكتب بقبضته يده:

– لا، لن أسمح بهذا أبداً، هل تسمع يا بورفيري بتروفتش؟ لن أسمح بهذا أبداً!

فصاح بورفيري بتروفتش يقول مرتاب الهيئة:

– آه.. يا رب!.. ماذا هنالك؟ عزيزي روديون رومانوفتش، صديقي، ماذا أصابك؟

فصرخ راسكولنيكوف يردد مرة أخرى قوله:

– لن أسمح بهذا أبداً!

فدمدم بورفيري بتروفتش يقول بارتياع ويقاد يلتصق وجهه بوجه راسكولنيكوف:

– طيب، طيب، أخفض صوتك! وإلا قد يسمعون فيجيئون، فما عسى نقول لهم إذا جاءوا؟ هلا فكرت في هذا!

فكان راسكولنيكوف يردد بطريقة آلية وقد أخذ يهمس هو أيضاً:

– لن أسمح بهذا أبداً، لن أسمح بهذا أبداً!

فاستدار بورفيري وهرع إلى النافذة يفتحها بسرعة شديدة، قائلاً:

– ليدخل شيء من هواء. وأنت تحسن صنعاً يا عزيزي إذا شربت قليلاً من الماء، فهذه نوبة..

وأسرع نحو الباب يريد أن يطلب الماء، غير أن إبريقاً ملآن كان يوجد هناك، في محله، في ركن من أركان الغرفة، فدمدم يقول وهو يركض نحو الإبريق:

– اشرب يا صديقي العزيز، فعسى أن يحسن إليك شرب قليل من الماء..

دُهش راسكولنيكوف أشد الدهشة من هذا الذعر بل ومن هذا العطف اللذين أظهرهما له بورفيري بتروفتش، والذين كانا طبيعين إلى درجة أنه سكت ووقف فاغر الفم يلاحظ صاحبه باستطلاع شديد. لكنه رفض الماء.

قال بورفيري بتروفتش:

– روديون رومانوفتش، عزيزي! لسوف تفقد صوابك إن أنت أصررت هذا الإصرار، أؤكد لك... خذ... اشرب... اشرب ولو جرعة واحدة.

واستطاع أن يحمله على تناول الكأس. وأوشك راسكولنيكوف أن يحمل الكأس إلى شفتيه بطريقة آلية، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه فجأة، فعاد يضع الكأس على المائدة باشمئاز.

قال بورفيري بتروفتش وهو يظهر كثيراً من الملاطفة والمراعاة، ولكنه ما يزال محتفظاً بالقلق والاضطراب:

– نعم، هذه نوبة حقاً!.. هانت ذا قد عدت إلى مرضك القديم. رياه! هل يمكن أن لا يداري المرض نفسه إلى هذا الحد؟ لقد جاءني دمترى بروكوفتش أيضاً، أمس... أنا أواقى... أواقى على أن لي طبعاً سيئاً... أتكلم... وأتكلم... وهذه هي التائج التي تستخرجها أنت من كلامي! رياه! نعم، جاءني أمس، مساء، بعدك، وتعشينا، وتكلمنا، وتكلمنا، فلم أفعل إلا أن أرفع ذراعي إلى السماء! بالمناسبة يخطر بيالي الآن هذا السؤال: أترأك أنت أرسلته؟ ولكن اجلس يا عزيزي! هلا جلست! اجلس، ناشدتك الله!..

أجاب راسكولنيكوف بلهجة قاطعة:

— لا، لم أرسله أنا... ولكنني علمت أنه جاء إليك، وكنت أعرف سبب مجئه أيضًا...

— كنت تعرف سبب مجئه؟

— نعم، كنت أعرف سبب مجئه، فهذا تستنتج من ذلك؟

— يا عزيزي روبيون رومانوفتش، هل تظن أنني أجهل أي عمل من أعمالك؟ أنني أعرف كل شيء، إنني مطلع على كل شيء! أنا أعرف مثلاً أنك ذهبت تستأجر تلك الشقة عند هبوط الليل، وأنك شددت حبل الجرس، وأنك ألقيت أسئلة عن الدم، وأنك حيرت العمال والبوابين. أنني أفهم حق الفهم الحالة النفسية التي كنت عليها... ولكنني أؤكد لك أنك بهذه الطريقة ستفقد عقلك حتى، أحلف لك!... سوف يستولي عليك الجنون. فالغضب الذي أثارته فيك الإساءات، إساءات القدر أولاً وإساءات رجال الشرطة بعد ذلك، هذا الغضب، منها يكن غضباً نبيلاً، يغلي غلياناً شديداً في نفسك، وأنت لذلك تندفع إلى هنا وهناك، لتجبر الناس، إن صح التعبير، على أن يصغوا إليك، ولتحملهم على الانتهاء من هذه المسألة دفعة واحدة إلى الأبد. نعم، لأنك قد ضقت بجميع هذه السخافات، وسئمت جميع هذه الشبهات. أليس هذا صحيحاً؟ ألم أدرك حالتك النفسية؟.. ولكنني أقول لك: أنك بهذه الطريقة لن تفقد عقلك أنت وحدك، وإنما ستجعل صديقنا رازوميغين يفقد عقله أيضاً. أنه أطيب كثيراً من أن يُقْحَمَ في مثل هذه الأمور، وأنت تعلم ذلك حق العلم. إنك أنت مريض، أما هو فإنسان طيب، وسيلتصدق مرضك به... سأقصُّ عليك هذا حين تهدأ يا عزيزي... ولكن ما بالك لا تجلس؟ اجلس يا عزيزي، ناشدتك الله! أرجوك، استرح، إن وجهك منقلب... هلا جلست!..

جلس راسكولنيكوف. لقد انقطع ارتجافه، ولكن جسمه كله كان يحترق من الحمى. وكان يصغي إلى بورفيري بتروفتش الذي يتحرك حوله بكثير من المودة والصداقة، كان يصغي إليه بدهشة ذاهلة وانتباه شديد، لكنه كان لا يصدق كلمة واحدة مما كان يقوله قاضي التحقيق، رغم أنه كان يميل ميلاً غريباً إلى التصديق. إن الأقوال المفاجئة، غير المتوقعة، التي قالها بورفيري عن الشقة قد صعقته صعقاً، «كيف؟ أ هو يعرف حتى حكاية الشقة هذه؟ ويتحدث عنها هو نفسه؟»

تابع بورفيري كلامه فقال بسرعة:

– نعم، في حولياتنا القضائية مررت حالة تشبه هذه الحالة تقريراً، حالة سيكولوجية مرضية، كالحالة الراهنة. اتهم رجل نفسه بارتكاب جريمة قتل. يا لها من قصة! لقد اخترع عالماً بكماله من الأوهام، وقدّم وقائع، ووصف ظروفًا... شابك بعضها بعض! لماذا؟ لأنه، على غير إرادة منه إطلاقاً، كان مسؤولاً بعض المسؤولية عن جريمة القتل تلك – بعض المسؤولية فقط – فلما عرف أنه قد أمدّ الفاعلين بسبب دفعهم إلى ارتكاب جريمة القتل، استولى عليه قلق شديد وخوف رهيب، وأخذ يرتكب حماقات، وأخذت تتراءى له أخيلة وأوهام، واختلطت في عقله الأمور، واستطاع أن يقنع نفسه بأنه هو القاتل. ولكن محكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً^{٢٥}، فبرئ المسكين، وجعل تحت الوصاية. شكرأً لمحكمة النقض! آ... آ... طبعاً يا عزيزي... من الممكن جداً أن يصاب المرء بحمى حارة حين تكون أعصابه جانحة إلى الاهتياج لهذا الجنوح، وحين يذهب في الليل يشد أجراساً بل ويسأل عن آثار دماء... إن هذه السيكولوجيا قد تعلمتها من الممارسة العملية. حتى لقد يحدث لإنسان في مثل هذه الحالات أن يرحب في إلقاء نفسه من النافذة أو من برج ناقوس. هذا إحساس له إغراء شديد. هو المرض يا روديون

^{٢٥} «ولكن محكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً»: راجع المجلد الأول، الحاشية رقم ٢٥

رومانوفتش، هو المرض؛ أنت قد أسرفت في إهمال معالجة مرضك! كان عليك أن تستشير طبيباً خبيراً، لا صاحبك السمين البسيط ذاك! هو الهديان يا صاحبي! كل شيء مردُّه عندك إلى الهديان!

أخذت الغرفة كلها تدور أمام عيني راسكولنيكوف، لحظة.

«هل يمكن أن يظل يكذب حتى الآن؟ مستحيل، مستحيل!» ومضت في ذهنه هذه الفكرة، وهو يطردها عنه لأنه كان يحس مدى ما تدفعه إليه من حنق مسحور، وكان يحس أيضاً أن هذا الغضب يمكن أن يفقده عقله.

صاحب يقول وهو يرکّز جميع قوى عقله من أجل أن ينفذ إلى لعبة بورفيري:

– أنا لم أكن أهذى! كنت أمليك نفسي تماماً، أمليك نفسي تماماً، هل تسمع؟
– نعم، أسمع وأفهم. أمس أيضاً قلت أنك لم تكن تهذى، حتى لقد ألححت على هذه النقطة. كل ما يمكن أن تقوله، أنا أفهمه. هيء هيء!.. ولكن أصفع إلى قليلاً يا عزيزي الشهم، يا عزيزي الطيب روبيون رومانوفتش. هبنا سلمنا بهذا... لو كنت أنت الجاني حقاً، لو كنت أنت الجاني فعلاً، أو لو كان لك أي شأن في هذه القضية المسؤومة، أكنت تلح هذا الإلحاح على أنك لم تكن تهذى، وعلى أنك فعلت ما فعلت واعياً كل الوعي؟ أهذا ممكن؟ أسألك: هل هذا ممكن؟ فيرأيي أنك كنت ستعمد عندئذ إلى تقىض ذلك تماماً! لو كنت تشعر بأنك الجاني، أهذا يكون الأفضل عندئذ أن تلح، خلافاً لذلك، على أنك إنما فعلت ما فعلت وأنت في حالة هذيان؟ أليس كذلك؟

شعر راسكولنيكوف في هذا السؤال بشيء من المكر. وارتدى إلى الوراء مستندًا إلى ظهر الأريكة حينما مال بورفيري بتروفتش نحوه صامتاً، فأخذ راسكولنيكوف يحدق إليه مدهوشًا متحيرًا.

واستأنف بورفيري بتروفتش كلامه فقال:

– كلمة أخرى عن السيد رازوميغين، أقصد عن مسألة كونه أتى إلى من تلقاء نفسه أو بتحريض منك. لقد كان من الأفضل لك أن تقول إنه جاء من تلقاء نفسه وأن تنكر أن يكون قد جاء بتحريض منك، ومع ذلك أراك تلح على أن تذكر أنه جاء إلى بتحريض منك.

لم يكن راسكولنيكوف قد ألح على هذا في وقت من الأوقات. وشعر بقشعريرة تسري في ظهره. ثم قال بصوت ضعيف بطيء وقد تقبضت شفاته على ابتسامة أليمة:

– إن ما تقوله كذب!

ثم أضاف يقول شاعرًا هو نفسه بأنه أصبح لا يزن كلماته كما يجب أن يزنها: – أنت تريد أن تبين لي من جديد أنك ترى مكري رؤية واضحة، وأنك تعرف كل أجوبتي سلفاً. أنت تحاول أن تخيفني، أو أنت تسخر مني لا أكثر.

وفيما كان يقول له هذا الكلام، ظل يحدق إليه، ثم إذا بعداوة لا حدود لها تسطع في عينيه، فهتف يقول: – أنت لا تقول شيئاً غير الكذب! أنك تعلم حق العلم أن خير خطة يتبعها مجرم هو أن يذكر بعض الحقائق في حدود الإمكان، وأن لا يخفي ما لا حاجة إلى إخفائه. أنا لا أصدقك!

قال بورفيري ضاحكاً ساخراً:

– ما أحذقك! إن المرء لا يعرف حقاً من أي طرف يمسك. هذه إذاً فكرة ثابتة عندك! أنت إذن لا تصدقني؟ ولكنني أؤكد لك أنك تصدقني، وأنك صدقتني حتى الآن بعض التصديق، وسأفعل ما يجعلك تصدقني تصدقني كاملاً، لأنني أحس نحوك بعاطفة صادقة حقاً، ولأنني أتمنى لك الخير مخلصاً. أخذت شفتك راسكولنيكوف ترتجفان.

وتابع بورفيري بترفتش كلامه يقول وهو يمسك ذراع راسكولنيكوف إمساكاً رقيقاً، بمودة وصداقة، فوق الكوع قليلاً:

– نعم، أتمنى لك الخير، ثق بهذا... وأقول لك مرةً أخرى إن عليك أن تعتنى بصحتك. من أجلك إنما جاءت أسرتك، فـكـر في هذا ولا تنسه! يجب عليك أن تهدئ روع أهلك، وأن تظهر لهم عاطفة ومحبة، ولكنك لا تزيد الآن على أن تروعـهم...

– ما شأنك أنت وهذا؟ ثم من أين علمت ذلك؟ وفيـم يهمكـ ويعـنيكـ؟ أنت إذن تراقبـنيـ، وتحرصـ علىـ أنـ أـعـرفـ هـذـاـ!

– اسمع يا عزيزي، أنا إنما حصلت على هذه المعلومات كلها منك أنت، منك أنت! أـلـستـ تـلـاحـظـ أـنـكـ منـ شـدـةـ ثـوـرـةـ أـعـصـابـكـ أـوـلـ منـ يـقـصـ كـلـ شـيـءـ، عـلـيـ وـعـلـىـ الـآـخـرـينـ؟ـ وـلـقـدـ عـرـفـتـ أـيـضـاـ،ـ فـيـ مـسـاءـ أـمـسـ،ـ تـفـاصـيـلـ شـائـقـةـ جـداـ،ـ مـنـ السـيـدـ رـازـوـمـيـخـيـنـ،ـ دـمـتـرـيـ بـرـوـكـوـفـتـشـ رـازـوـمـيـخـيـنـ.ـ لـقـدـ قـاطـعـتـنـيـ الآـنـ،ـ وـلـكـنـيـ أـقـولـ لـكـ أـنـكـ رـغـمـ رـهـافـةـ فـكـرـكـ قـدـ أـفـقـدـكـ شـكـ وـحـذـرـكـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ إـدـرـاكـ الـأـشـيـاءـ إـدـرـاكـاـ سـلـيـاـ.ـ اـنـظـرـ مـثـلـاـ فـيـ مـسـأـلـةـ الـجـرـسـ تـلـكـ التـيـ أـتـيـنـاـ عـلـىـ ذـكـرـهـ مـنـذـ قـلـيلـ،ـ وـالـتـيـ هـيـ وـاقـعـةـ هـامـةـ جـداـ،ـ ثـمـيـنـةـ جـداـ،ـ (ـهـيـ كـذـلـكـ بـلـ جـداـ):ـ طـيـبـ،ـ لـقـدـ أـطـلـعـتـكـ بـنـفـسـيـ عـلـىـ هـذـهـ الـوـاقـعـةـ،ـ أـفـلـاـ تـسـتـخـرـجـ أـنـتـ مـنـ هـذـاـ شـيـئـاـ؟ـ هـلـ كـنـتـ أـفـعـلـ ذـلـكـ لـوـ كـنـتـ أـرـتـابـ فـيـكـ أـيـ اـرـتـيـابـ؟ـ بـالـعـكـسـ،ـ فـلـوـ كـنـتـ أـرـتـابـ فـيـكـ حـقاـ،ـ لـكـانـ عـلـيـ أـنـ أـنـوـمـ مـخـاـفـكـ،ـ وـأـنـ لـاـ أـدـعـكـ تـرـىـ أـنـيـ عـلـىـ عـلـمـ بـهـذـهـ الـوـاقـعـةـ،ـ وـأـنـ أـوـجـجـكـ فـيـ اـتـجـاهـ آـخـرـ تـمـاـمـاـ ثـمـ أـهـوـيـ عـلـيـكـ بـهـاـ فـجـأـةـ كـأـنـاـ ضـرـبـةـ فـأـسـ (ـعـلـىـ حـدـ تـعـبـيرـكـ).ـ لـوـ كـنـتـ أـرـتـابـ فـيـكـ أـقـلـ اـرـتـيـابـ لـأـخـذـتـ أـلـقـيـ عـلـيـكـ أـسـئـلـةـ كـهـذـهـ الـأـسـئـلـةـ:ـ (ـقـلـ لـيـ أـيـهـاـ السـيـدـ:ـ مـاـ الـذـيـ ذـهـبـ بـكـ إـلـىـ شـقـةـ الـمـجـنـيـ عـلـيـهـاـ،ـ فـيـ السـاعـةـ الـعـاـشـرـ مـنـ الـمـسـاءـ،ـ بـلـ فـيـ السـاعـةـ الـخـادـيـةـ عـشـرـةـ تـقـرـيـباـ؟ـ لـمـاـ شـدـدـتـ حـبـلـ الـجـرـسـ؟ـ وـلـمـاـ أـلـقـيـتـ أـسـئـلـةـ عـنـ الدـمـ؟ـ لـمـاـ حـاـوـلـتـ بـعـدـ ذـلـكـ أـنـ تـحـيـرـ الـبـوـابـيـنـ،ـ وـأـرـدـتـ أـنـ تـقادـ إـلـىـ قـسـمـ الـشـرـطـةـ؟ـ)ـ كـانـ يـنـبـغـيـ لـيـ

وفقاً للأصول المتبعة، أن أنتزع منك إفادة، ثم أن أفتئش متردداً، وربما أن أعتقلك. ولكنني فعلت خلاف ذلك تماماً. وإنْ فَأَنَا لَا أَشْتَبِهُ فِيهِ أَيِّ اشْتَبَاهٍ. حَقًاً لَقَدْ فَقَدْتَ الْقَدْرَةَ عَلَى إِدْرَاكِ الْأَشْيَاءِ إِدْرَاكًاً سَلِيلًاً، فَأَنْتَ لَا تَرَى شَيْئًا... أَكْرَرُ لَكَ هَذَا!!..

ارتجمف راسكولنيكوف من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، وبلغ من قوة الارتجاف أن بورفيري بتروفتش قد اضطر أن يلاحظ ذلك.

وصاح راسكولنيكوف يقول بمزيد من القوة:

– أنت لا تقول شيئاً غير الكذب! لست أفهم نياتك، ولكنك تكذب، تكذب. منذ قليل لم تكن تكلمني بهذا المعنى. لا يمكن أن يخطئني ظني. أنت تكذب!

استأنف بورفيري بتروفتش كلامه فقال متحمساً، على احتفاظه بهيئة المرح والسخرية، دون أن يبدو عليه أي اكتئاب بما قد يكون رأي راسكولنيكوف فيه:

– أنا أكذب؟ أنا أكذب؟ عجيب كلامك! كيف تصرفت أنا معك منذ قليل، أنا قاضي التحقيق؟ لقد أوحيت إليك أنا نفسي بالوسائل التي تستطيع أن تدافع بها عن نفسك؟ لقد عرضت عليك أنا نفسي تلك السيكولوجيا كلها: «المرض، الهذيان، قسوة الإهانات، الكآبة، رجال الشرطة...»، الخ الخ. هي هي هي! ومع ذلك أسارع فأقول لك أن جميع حجج الدفاع السيكولوجية هذه، وجميع أساليب التملص هذه، وجميع هذه الأعذار والتعليلات والمراءات ليست قوية متينة، حتى أنها ذات حدود. فإذا أنت تعللت «بالمرض والهذيان» وإذا أنت قلت «إنك قد راودتك هلوسات، وأنك أصبحت لا تتذكر شيئاً»، فإن كلامك هذا كله يكون صحيحاً، ولكن المرء يستطيع أن يسألك عندئذ: لماذا تراودك هذه الأحلام

وهذه الاهلوسات وحدها دون غيرها؟ ذلك أن من الممكن أن تكون أحلاسك واهلوساتك غير هذه تماماً،

الليس كذلك؟ ما رأيك؟ هيء هيء هيء!

رشقه راسكولنيكوف بنظرة فيها كبراء واحتقار. ثم قال بصوت قوي وهو ينهض فيقصد بورفيري

قليلأً:

ـ باختصار يا بورفيري بتروفتش: أريد أن أعرف أنت تدعني مبرأً من كل شبهة أم لا؟ تكلم يا بورفيري

بتروفتش، تكلم كلاماً واضحاً، بسرعة، حالاً!

هتف بورفيري بتروفتش يقول بمرح وسخرية ودون أي ارتباك:

ـ حقاً إنك متعب!.. ما حاجتك إلى أن تعرف هذا، إلى أن تعرف هذا كله. مع أن أحداً لم يبدأ حتى في

أن يقلق راحتك أي إللاق؟ يال لك من طفل! وتقول كالطفل: «أريد أن ألعب بالنار!» فلماذا، لماذا تعذب

نفسك هذا التعذيب كله؟ هلا شرحت لي الأسباب التي تدفعك إلى أن تلتفت نظرنا إليك؟ ما هي هذه

الأسباب؟ هه؟

صاحب راسكولنيكوف حانقاً:

ـ أكرر لك أنني أصبحت لا أطيق أن أحتمل...

ـ أن تحتمل ماذا؟ عدم اليقين؟ـ كذلك قاطعه بورفيري.

فصرخ راسكولنيكوف قائلاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده من جديد:

ـ كفى سخرية! لا أستطيع؟ هل تفهم؟ أقول لك: لا أريد! لا أستطيع ولا أريد!.. هل تسمع؟ هل

تسمع؟...

– اخفض صوتك، اخفض صوتك، وإلا سمعوك! إنني أنبهك إلى هذا جاداً. حذار! لست أمزح!

كذلك قال بورفيري متممًا، ولكن تعبير وجهه قد اختلف الآن عما كان عليه منذ قليل، حين كان أشبه بتعبير وجه امرأة مروعة. بالعكس: هو الآن يلقي أوامر. أنه قاسي الهيئة، مقطب الحاجبين، فكأنه عدل دفعة واحدة عن جميع الأسرار وجميع الالاماعات الملتبسة. ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة.

اضطرب راسكولنيكوف، وأوشك أن يندفع في نوبة غضب جديدة، ولكن الشيء الغريب أنه خضع في هذه المرة أيضًا للأمر الذي صدر إليه، فخفض صوته.

وهمس يقول من جديد:

– لن أرضي بأن أُعذب هذا التعذيب..

لقد أدرك، وهو يشعر بألم يمازجه كره، أنه لا يستطيع إلا أن يخضع لهذا الأمر القاطع. ولكنه ازداد من ذلك غضباً وحنقاً. وأضاف يقول هامساً:

– اعتقلني! فتش بيتي! ولكن اتبع الأصول والقواعد بدلاً من أن تعبث بي هذا العبث!.. ليس من حرقك أن...

فقط اعده بورفيري قائلاً وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرة نفسها، مع تظاهره بالسرور من التمتع ببرؤية راسكولنيكوف:

– لا تقلق بشأن الشكل والقواعد يا عزيزي! أنا إنما دعوتك بغير كلفة، دعوتك كما يدعو صديق صديقه.

– لا أريد صداقتك، لا أريدها، أنا أبصق عليها، هل تسمع؟ انظر: هأنا ذا أتناول قبعتي وأنصرف. فما عساك تقول الآن إذا كان في نيتك أن تعتقلني؟

وتناول راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب.

فقال بورفيري مقهقهاً وهو يمسك ذراعه من جديد، فوق الكوع قليلاً، ويوقفه قرب الباب:

– ولكن ألا ت يريد أن أطلع عليك بمفاجأة صغيرة؟

كان مرح بورفيري يزداد ازدياداً واضحاً، وكان مزاجه يظهر ظهوراً أقوى، فانتهى ذلك إلى إخراج راسكولنيكوف عن طوره. فقال وهو يتجمد في مكانه فجأة، وينظر إلى بورفيري مذعوراً:

– أي مفاجأة صغيرة؟ ماذا تعني؟

– المفاجأة الصغيرة قابعة هناك، وراء هذا الباب، هي هي هي! حتى لقد أفلتت عليها بالمفتاح، مخافة أن تهرب. – قال بورفيري ذلك وهو يومئ بيده إلى الباب المغلق في الحاجز، الباب المفضي إلى شقتة.

فقال راسكولنيكوف وهو يقترب من الباب ويريد أن يفتحه:

– ماذا؟ أين؟ ..

ولكن الباب كان مقفلًا بالمفتاح فعلاً.

قال بورفيري:

– الباب مقفل، إليك المفتاح!

وناوله مفتاحاً أخرجه من جيبيه.

زار راسكولنيكوف يقول وقد أصبح لا يسيطر على نفسه:

– أنت تكذب! أنت لا تفعل غير أن تكذب! أنت تكذب إليها المهرج اللعين! – زعق راسكولنيكوف وهجم على بورفيري، فتراجع بورفيري نحو الباب، ولكن دون أن يظهر عليه أي رعب.

– أفهم كل شيء، كل شيء! – صرخ راسكولنيكوف وهو يقبل مهرولاً على بورفيري – أنت تكذب وتعبث بي لأفصح نفسي...

– ولكن يا عزيزي روديون رومانوفتش، لست تستطيع أن تفصح نفسك أكثر مما تفصح نفسك بهذا. لقد خرجت عن طورك. لا تصرخ، وإلا استدعيت رجال!

– أنت تكذب! لن يحدث شيء! استدعي رجالك! لقد كنت تعلم أنني مريض، فأردت أن تهيج أعصابي وترهقني إرهاقاً يدفعني إلى أن أفصح نفسي! تلك كانت غايتها. لا... لا بد لك من وقائع! أريد وقائع! لقد فهمت الآن كل شيء. أنت لا تملك وقائع، أنت لا تملك إلا افتراضات تافهة سخيفة حقيرة، هي افتراضات زاميتوف! كنت تعرف طبيعي، فأردت أن تخرجني عن طوري لتفقدني بعد ذلك صوابي بقاوسنة ونواب^٢... ألمست تنتظركم... هم؟ ماذا تنتظركم؟ أين هم؟ أئتي بهم!

– أي نواب تعني يا عزيزي؟ ما هذا الكلام العجيب؟ يا لأفكارك هذه ما أغربها! ليس في وسعي، من باب «التقيد بالشكل ومراعاة الأصول»، على حد تعبيرك، ليس في وسعي أن... إنك تجهل أصول الإجراءات القانونية يا عزيزي! ولكنك ستري... سوف نتقيد بالشكل ونراعي الأصول.

بهذا جمجم بورفيري، وكان أثناء ذلك يصيخ بسمعه صوب الباب.

^٢ «بقاوسنة ونواب»: من الأنظمة المتبعة في بداية تحقيق قضائي أن يؤتى بقسيس يخلف المتهم أمامه اليمين؛ ويؤتى أيضاً بنايب من نواب طبقته الاجتماعية ليعرف بهويته.

وفعلا، سمعت في تلك اللحظة ضجة في الغرفة المجاورة.

هتف راسكولنيكوف يقول:

ـ آ... ها هم أولاء يجيئون! لقد استدعيتهم، لقد كنت تنتظرون، لقد كنت تعول عليهم... طيب...

أئت بهم جميعا إلى هنا... أئت بالنواب، وبالشهود، وبجميع من تشاء... أئت بهم! أنا مستعد، مستعد!

غير أن حادثاً غريباً قد وقع حينذاك، حادثاً يبلغ من البعد عن التوقع والتبؤ به في سياق الأمور أنه لا

راسكولنيكوف ولا بورفيري بتروفتش كان يمكن أن يتصور خاتمة كهذه الخاتمة.

الفصل السادس

إلكم كيف تصور راسكولنيكوف المشهد حين تذكره في المستقبل:

إن الضجة التي سمعت من وراء الباب قد ازدادت بسرعة شديدة، ثم شق الباب قليلاً. فصاح بورفيري بتروفتش يسأل غاضباً:

— ماذا هنالك؟ ألم أنبهكم مع ذلك؟

فلم يحصل على جواب، ولكن كان واضحاً أن أشخاصاً كثيرين كانوا يقفون وراء الباب يحاولون، أن يصدّوا أحد الناس عن اقتحامه.

فسؤال بورفيري بترورفتش متوجساً:

— ماذا هنالك؟

فأجابه أحد الأصوات قائلاً:

— جيء بالمعقول نيكولا ي.

فصرخ بورفيري قائلاً وهو يهرب نحو الباب:

— لا داعي إلى ذلك! اذهبوا! يمكن الانتظار! من الذي جاء به إلى هنا؟ ما هذه الفوضى؟

فبدأ ذلك الصوت نفسه يتكلم فقال:

— ولكنه...

غير أن الرجل لم يلبث أن انقطع عن الكلام فجأة.

إن صراعاً حقيقياً قد نشب في ثانيتين، وبدا أن أحداً من الناس كان يُصدّ بالقوة عن الدخول، ثم إذا برجل شاحب الوجه جداً يقتتحم غرفة بورفيري بتروفتش.

إن مظهر هذا الرجل كان في أول الأمر غريباً كل الغرابة. كان شاخقاً بصره إلى أمام، ولكن لا يبدو عليه أنه يرى أحداً. وفي عينيه يسطع عزم وحشى، ولكن شحوباً كشحوب الموتى يغشى وجهه في الوقت نفسه، كأنه قد اقتيد إلى المقصلة. وشفتاه بيضاوان بياضاً تماماً، وهمما تختلجان قليلاً.

هو رجل ما يزال شاباً، يرتدي ثياب عامة الناس، متوسط الطول، نحيل الجسم، قد قُصّ شعره على صورة صحن، وقسماً ووجهه دقيقة قاسية.

وكان الرجل الذي دفعه نيكولاي عنه فجأة أول من وثب راكضاً إلى الغرفة وراءه واستطاع أن يمسكه من كتفه - كان هو حارساً، لكن نيكولاي شد ذراعه وأفلت من بين يدي الحارس مرة ثانية.

وكان يحتشد على الباب مستطعون كثiron، وكان بعضهم يحاول أن يدخل.

ان هذا المشهد الذي وصفناه الآن لم يدم إلا دقيقة واحدة.

قال بورفيري بتروفتش مدمداً من بين أسنانه، متزوجاً أشد الانزعاج، خارجاً عن طوره:

- اذهب! لم يحن الحين بعد! انتظر حتى أستدعيك! لماذا أسرعتم في المجيء به هذا الإسراع كله؟

ولكن نيكولاي جثا على ركبتيه. فهتف بورفيري بتروفتش يقول مذهولاً:

- ماذا دهاك؟

فقال نيكولاي فجأة، بصوت مختنق لكنه قوي:

- أنا الجاني! هذه جريمتي! أنا القاتل!

فخيم صمت مطبق خلال عشر ثوان، حتى لكان جميع الحضور قد جدوا. وحتى الحارس سقطت يداه، وتراجع نحو الباب تراجعاً آلياً، ولبث هناك ساكناً لا يتحرك.

وهتف بورفيري بترؤفتش يسأل نيكولاي بعد أن خرج من ذهوله القصير:

ـ ماذا هنالك؟

فكمر نيكولاي بعد صمت قصير:

ـ أنا... القاتل!

ـ كيف... أنت؟ كيف؟ من ذا قتلت؟

وارتبك بورفيري بترؤفتش، كما يبدو، ارتباكاً تماماً. وصمت نيكولاي ببرهة قصيرة.

ـ اليونا إيفانوفنا وأختها إليزافيتا إيفانوفنا. قتلتهما بفأس...

وأضاف يقول فجأة:

ـ كنت قد فقدت عقلي...

وصمت مرةً أخرى، وكان ما يزال راكعاً.

بدت علام التفكير على بورفيري بترؤفتش بضع لحظات، ولكنه استرد نشاطه وحماسته فجأة، فأومأ للحضور بحركة من يده أن يخرجوا. فأسرعوا يطعون أمره؛ وأغلق الباب من جديد. وبعد ذلك، نظر بورفيري بترؤفتش إلى راسكولنيكوف الذي كان واقفاً في ركن من الغرفة يتأمل نيكولاي زائعاً الهيبة. واتجه إليه وهمّ أن يكلمه، ولكنه أمسك فجأة، وتفرس فيه، ثم أسرع ينقل بصره إلى نيكولاي، ثم إلى راسكولنيكوف، ثم إلى نيكولاي مرةً أخرى.

لا يدرى المرء ما هو ذلك الغضب الذى استبد ببورفيرى بتروفتش على حين فجأة، فإذا هو يهجم على
نيقولاى فيقول له بلهجة تشبه أن يكون فيها كره:

— لماذا تجيء تقول لي منذ الآن أنك كنت قد فقدت عقلك؟ أنا لم أسألك بعد أكنت قد فقدت عقلك أم
لا! قل: أأنت الذي قتلت؟

قال نيكولاى:

— نعم، أنا الذي قتلت. أصرّح بذلك.

— هيه... وبهذا قتلت؟

— بفأس كنت قد حملتها.

— ألا أنك لم تعجل حقاً! وحدك؟

لم يفهم نيكولاى السؤال.

— هل قتلتهم وحدك؟

— نعم. لكن ميتكا بريء. لم يشارك في الجريمة أية مشاركة.

— لا تعجل هذا التعجل كله في الكلام عن ميتكا! هيه... ولكن كيف فعلت... كيف فعلت لتنزل
السلام؟ لقد رأكما البوابون كليكما.

أجاب نيكولاى متوجلاً، كأنه يريد أن يفرغ من الأمر بأقصى سرعة:

— إنما ركضت عندئذ... مع ميتكا... دفعاً للشبهات...

هتف بورفيري بتروفتش يقول بحقه:

– هذا هو الأمر؛ إذن هذا هو الأمر!

وججم يقول بينه وبين نفسه:

– إنه يكرر ما لُقِّنَ من كلام.

وإذا به يلمح راسكولنيكوف فجأة من جديد. أغلب الظن أنه قد بلغ من شدة اهتمامه بنيقولاي أنه كان قد نسي وجود راسكولنيكوف لحظة من الزمان. وها هو ذا قد تذكره الآن فجأة، حتى لقد تحرّر...

قال لراسكولنيكوف وهو يرتمي نحوه:

– روديون رومانوفتش، عزيزي، معذرة. ليس في إمكانك أن تبقى هنا، أرجوك... حقاً لم يبق لك هنا شأن... وأنا نفسي... هل ترى هذه المفاجأة؟!.. أرجوك...

قال له ذلك وهو يتناول ذراعه، ويشير له إلى الباب.

طبيعي أن راسكولنيكوف لم يكن قد أدرك بعد ماذا جرى، ولكنه قد استرد ثقته. فقال يخاطب بورفيري بتروفتش:

– لكأنك لم تكن تتوقع هذا.

فأجابه بورفيري:

– ولا كنت تتوقعه أنت يا عزيزي؛ انظر كيف ترتجف يدك!

– وأنت أيضاً ترتجف يا بورفيري بتروفتش!

– نعم، أنا أيضاً أرتجف... لأنني لم أكن أتوقع هذا.

وكانا قد وصلا إلى الباب. وكان بورفيري يتذكر خروج راسكولنيكوف نافذ الصبر.

قال راسكولنيكوف فجأة:

– وأين المفاجأة الصغيرة؟ لماذا لم تطلعني عليها؟

قال بورفيري بترؤفتش مقهقهاً:

– إنه يتكلم ويتكلم وما تزال أسنانه تصطك! هي! إنك لا تخلو من سخرية. هيا، إلى اللقاء!

– أحسب أن من الأفضل أن تقول: الوداع!

فغمغم بورفيري بترؤفتش يقول متقبض الشفتين كأنه يبتسم:

– كل شيء مرهون ببارادة الله، كل شيء مرهون ببارادة الله وحده.

لاحظ راسكولنيكوف وهو يجتاز المكاتب أن أنظاراً كثيرة كانت تحدّق إليه. وفي حجرة المدخل أتيح له أن يرى في وسط الجمهور بوابي تلك العمارة اللذين اقترح عليهما في ذلك المساء أن يقتاداه إلى قسم الشرطة. كانا واقفين، وكأنهما يتظاران شيئاً ما. لكنه ما إن صار على السلم حتى سمع وراءه صوت بورفيري بترؤفتش من جديد. فلما التفت رآه قد أدركه وهو يلهث هاثا قوياً.

– كلمة، كلمة لا أكثر يا روديون رومانوفتش. فيما يتعلق بكل ما حدث ستجري الأمور على مشيئة الله، ولكن ما يزال على، من باب التقيد بالشكل ومراعاة الأصول، أن ألقي عليك بعض الأسئلة. لهذا سألتقي مرة أخرى، أليس كذلك؟

قال بورفيري بترؤفتش ذلك ووقف أمامه مبتسمًا. ثم أردد يقول مرة أخرى:

– أليس كذلك؟

في وسع المرء أن يفترض أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما، ولكن من الواضح أنه لم يستطع ذلك.

كان راسكولنيكوف قد اطمأن اطمئناناً تاماً، وأصبح يشعر برغبة قوية في التفاخر:

– وأنت أيضاً، يا بورفيري بتروفتش، لا تواخذني على ما بدر مني منذ قليل. لقد اندفعت بعض الاندفاع...

فعاد بورفيري بتروفتش يقول بلهجة يكاد يكون فيها فرح:

– لا قيمة لهذا... لا قيمة لهذا... أنا أيضاً سيء الطبع... أعترف بذلك، أعترف بذلك. ولكننا سنتقى من جديد، إن شاء الله. سنتقى أكثر من مرة.

قال راسكولنيكوف:

– وستعارف تعارفاً نهائياً. أليس كذلك؟

فقال بورفيري بتروفتش مؤيداً:

– نعم، سنتعارف تعارفاً نهائياً.

قال ذلك وهو ينظر إلى راسكولنيكوف في جد ورصانة، رغم أنه يغمز بعينه. وأضاف يسأله:

– أنت ذاذهب الآن إلى عشاء عيد ميلاد؟

– بل إلى عشاء جنازة.

– نعم نعم، عشاء جنازة! راع صحتك... الصحة أهم شيء، هه؟

أجابه راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلالم:

– لا أدرى حقاً يا بورفيري بتروفتش ما الذي يجب أن أتمناه لك.

ولكنه التفت فجأة، فأضاف يقول وهو يقابل بورفيري وجهه:

– أردت أن أتمني لك نجاحاً أكثر. ولكن ما أسف وظيفتك!

وكان بورفيري يهم أن ينصرف، ولكنه ما أن سمع هذا الكلام حتى سأله ناصباً أذنيه:

– وظيفتي سخيفة؟ لماذا؟

– لا شك في أنك عذبت هذا المسكين نيكولاي عذاباً شديداً، عذاباً سيكولوجياً... على طريقتك... إلى

أن اعترف. لا شك في أنك ظللت تحقنه ليلاً نهاراً بقولك: «أنت القاتل، أنت القاتل». والآن وقد اعترف

ستمضي تحقنه بنغمة أخرى قائلاً له: «أنت تكذب. لست أنت القاتل. لا يمكن أن تكون أنت القاتل.

لقد دفعت إلى التظاهر بأنك أنت القاتل، ولكن...» فكيف لا تكون وظيفتك سخيفة والحالة هذه؟

– هيء هيء!.. إذن لقد لاحظت منذ قليل ما قلته أنا لنيكولاي من أنه «يردد ما لقى»؟

– كيف لا ألاحظ ذلك؟!

– ها... أnek لخاضر الذهن حقاً! إنك تلاحظ كل شيء! إن لك فكراً فكهاً حاداً! لقد عرفت كيف

تضرب على وتر السخرية. هيء.. يقال إن جوجول كان، بين سائر الكتاب، هو الذي يملك هذه الموهبة

إلى أقصى درجةٍ، أليس كذلك؟

– نعم، جوجول.

^{٢٠} «يقال إن غوغول... هو الذي كان يملك هذه الموهبة»: نيكولاي غوغول (١٨٥٢ - ١٨٠٩) - الكاتب الروسي العظيم مؤلف عدد من الأعمال المجانية الساخرة.

– صحيح. هو جوجول. إلى اللقاء!

عاد راسكولنيكوف إلى بيته رأساًً و كان قد بلغ من شدة الإرهاق والإعياء أنه ما كاد يصل حتى ارتفى على ديوانه. فمكث عليه ربع ساعة لا لشيء إلا ل يستريح ويستجمع شتات أفكاره. لم يحاول حتى أن يعلل سلوك نيكولاي. كان مذهولاً مشدوهاً. كان يرى في اعتراف نيكولاي شيئاً يثير الدهشة و يبعث على الاستغراب. شيئاً لا يستطيع على كل حال أن يدرك معناه الآن وأن ينفذ إلى كنهه. ولكن النتائج لم تلبث أن تبدت له واضحة جلية: أن كذب هذا الاعتراف لا بد أن يظهر ولا بد أن يعودوا إليه و يتثبتوا به من جديد. على أنه سيقى حراً إلى أن يجين ذلك الحين. فينبغي له حتىًّا أن يقوم بشيء ما ليضمن سلامته، لأن الخطر متربص به فلا يمكن تفاديه!

لا يمكن تفاديه؟ إلى أي حد؟ وأخذ الموقف يتضح. فحين تذكر راسكولنيكوف، على وجه الإجمال، المشهد الذي جرى بينه وبين بورفيري، لم يستطع أن لا يرتجف خوفاً. صحيح أنه لا يعرف أهداف بورفيري بعد، ولا يستطيع أن يدرك جميع حساباته. ولكنه قد اكتشف جزءاً من لعبته، وما من أحد يستطيع كما يستطيع راسكولنيكوف أن يفهم مدى الخطر المتربص به من اللعبة التي حاولها بورفيري. لقد أوشك راسكولنيكوف أن يفضح نفسه فضحاً تاماًً بـأن يقدم لبورفيري وقائع ثابتة. كان بورفيري يعرف ما يتصرف به راسكولنيكوف من اندفاع مرضي، وقد نفذ إلى حقيقة طبعه منذ أول نظرة، فكان يسير بخطى واثقة مطمئنة، وإن يكن قد أسرف التعلج بعض الإسراف. صحيح أن راسكولنيكوف قد تورط في كلامه مع بورفيري، ولكنه لما يقدّم له وقائع ثابتة. فليس هناك حتى الآن إلا ظنون وتخمينات. ولكن هل كان يرى الموقف على حقيقته؟ ألم يكن خطئاً البتة؟ ما هي النتيجة المعينة المحددة التي كان بورفيري يسعى إليها اليوم؟ هل كان قد دبر شيئاًً لهذا اليوم نفسه؟ ما عسى يكون هذا الشيء

على وجه الدقة؟ أكان يتوقع شيئاً ما؟ كيف كانا سيفترقان منذ قليل لو لا أن نزلت، بفضل نيكولاي، تلك النازلة التي لم تكن في الحسبان؟

كان بورفيري قد كشف كل لعبته تقريباً. صحيح أنه قد أسرف في التعجل بعض الإسراف، ولكنه قد كشف لعبته على كل حال. ولو كان يملك معلومات أخرى (أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في أقل تقدير) لما قصر في إظهارها والاستناد إليها. ثم ما هي تلك المفاجأة، التي ألمع إليها؟ أكانت هذه مزاجة؟ وهل لهذه المزاجة من معنى أم هي ليست بذات معنى؟ هل في باطنها شيء يشبه أن يكون قرينة قاطعة أو واقعة ثابتة؟ هل يرتبط هذا ب الرجل الأمس؟ وأين اختفى ذلك الرجل؟ أين هو اليوم؟ ذلك أنه إذا صدق أن بورفيري يملك شيئاً إثباتياً، فلا يمكن أن لا يكون هذا الشيء ذات علاقه ب الرجل الأمس.

ظل راسكولنيكوف جالساً على سريره، مائلاً إلى الأمام، واضعاً كوعيه على ركبتيه، دافناً وجهه في يديه. وما يزال ارتعاش عصبي يهز جسمه كله. ونهض أخيراً، فتناول قبعته، ولبث يحمل خلال لحظة، ثم اتجه نحو الباب.

إن نوعاً من إحساس تنبؤي كان يقول له إنه في هذا اليوم على الأقل يستطيع أن يعد نفسه في أمان. وشعر فجأة بشيء من فرح: أراد أن يذهب إلى كاترينا ايفانوفنا بأقصى سرعة. كان قد فات أوان حضور الدفن طبعاً، ولكنه يستطيع أن يصل إلى المأدبة في حينها، فيرى هنالك صونيا فوراً.

توقف، وفك، وظهرت على شفتيه ابتسامة مريضة. وقال يردد بينه وبين نفسه:

ـ اليوم! اليوم! في هذا اليوم نفسه! لا بدّ!..

وفي اللحظة التي هم فيها أن يفتح الباب، فتح الباب من تلقاء نفسه فجأة. ارتعش راسكولنيكوف، وتراجع إلى الوراء بوثبة. كان الباب ينفتح ببطء ورفق. وظهر شكل إنساني، هو شكل الرجل الذي خرج بالأمس من تحت الأرض.

وقف الرجل على العتبة، ونظر إلى راسكولنيكوف صامتاً، ثم تقدم في الغرفة خطوة. هو اليوم كما كان بالأمس: نفس الهيئة واللباس، لكن وجهه ونظرته تغيراً شديداً: كانت عيناه حزيتين وها هو ذا يزفر زفراً كبيرة بعد لحظة قصيرة. ليس يعوزه إلا أن يسند خده على راحة يده، وأن يميل برأسه إلى جانب حتى يشبه امرأة عجوزاً كل الشبه.

سؤاله راسكولنيكوف كالمحنون:

— ماذا تريد؟

فلزم الرجل الصمت لحظة أخرى، ثم انحنى أمامه فجأة حتى كاد يلامس الأرض، بل لقد لمس الأرض بيده اليمنى على كل حال.

صاح راسكولنيكوف يسأل:

— ماذا تفعل؟

فقال الرجل بصوت خافت:

— أنا مذنب!

— ما ذنبك؟

— إنني راودتني أفكار شريرة خبيثة!

ونظر كل منها إلى الآخر. وتتابع الرجل كلامه فقال:

— كنت منزعجاً. فلما جئت أنت في ذلك اليوم، ولعلك كنت عندئذ في حالة سكر، فطلبت من البوابين أن يقتادوك إلى قسم الشرطة، وألقيت أسئلة عن الدم، آلمني أن أرى أنهم لم يكترووا بالأمر، وعدوك سكران لا أكثر، وبلغت من شدة الألم أنني أرققت فلم أستطع إلى النوم سبيلاً. وإذا حفظت عنوانك، فقد جئت مساء أمس أسألك...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً وقد بدأ يفهم ويدرك:

— من الذي جاء؟

— أنا، أنا الذي أسألك إليك.

— أنت إذاً من تلك العمارة؟

— نعم، ولقد كنت عند الباب الكبير مع الآخرين، ألا تتذكر؟ لي هنالك دكان صغيرة، منذ زمن طويل.

أنا أعمل في إصلاح الفراء، وأقوم بعملي في بيتي. والأمر الذي آلمني خاصةً...

تذكر راسكولنيكوف تذكرةً واضحاً، على حين فجأة، كل المشهد الذي جرى تحت الباب الكبير. فقال لنفسه: حقاً كان هنالك، عدا البوابين، أشخاص عدة بينهم نساء. وتذكر أيضاً أن صوتاً من الأصوات قد اقترب اقتياده إلى قسم الشرطة. أنه لم ير وجه الرجل الذي تكلم حينذاك؛ ولو قد رأه لما كان في وسعه أن يتعرفه على كل حال. ولكن راسكولنيكوف يتذكر أنه التفت نحو الرجل وأجابه.

هذا هو إذاً تفسير ليلة الأمس تلك المروعة! وأفطع ما في الأمر أنه كاد يضيع نفسه فعلاً بسبب حادثة تافهة إلى هذا الحد من التفاهة. إن هذا الرجل لا يستطيع إذاً أن يروي شيئاً آخر غير ذهابه إلى الشقة

وسؤاله عن الدم. معنى هذا أن بورفيري أيضاً لا يملك أية دليل قاطع، لا يملك أية واقعة ثابتة، عدا ذلك المذيان، عدا تلك السيكولوجيا ذات الحدين. هو لا يتصور إذاً واقعة أخرى (ولا يجب عليه أن يتصور، لا يجب عليه، لا يجب عليه).. ما الذي كان يمكن أن يصنعوه به إذا؟ كيف كان يمكن أن يربكوه وأن يورّطوه في الاعتراف ولو اعتقلوه؟ وينتج عن هذا إذاً أن حادثة ذهابه إلى الشقة لم يعلم بها بورفيري بتروفتش إلا منذ قليل، وكان قبل ذلك يجهلها.

هتف راسكولنيكوف يسأل الرجل فجأة وقد ومضت في ذهنه فكرة مباغته:

– أنت بنفسك قلت اليوم لبورفيري... أنت ذهبت إلى هناك؟

– بورفيري؟ أى بورفيري؟

– نعم، قاضي التحقيق.

– صحيح. قلت له ذلك. فلأن البوابين لم يذهبوا إليه في ذلك اليوم، ذهبت إليه أنا.

– اليوم؟

– قبل أن تصل بدقة واحدة. وقد سمعت كل شيء، كل شيء، سمعت كيف كان يعذبك.

– أين؟ كيف؟ متى؟

– منذ قليل، هناك، عنده، وراء الحاجز. بقية هناك طوال الوقت.

– كيف؟ أنت «المفاجأة الصغيرة» إذاً؟ ولكن كيف تم هذا؟ قل!

بدأ الرجل يتكلم فقال:

– حين رأيت البوابين لا يريدون أن يطعنوني، ويرفضون أن يذهبوا إلى قسم الشرطة بحججة أن الوقت متاخر، وأن قاضي التحقيق سيؤاخذهم على أنهم لم يجيئوا إليه بسرعة أكبر، تضايقـت كثيراً، وأرقت طوال الليل، وأخذت أسأل الناس، وحصلت على معلوماتي. فلما حصلت عليها، ذهبت إلى قسم الشرطة في هذا الصباح. في المرة الأولى لم يكن القاضي هناك، فرجعت بعد ساعة، فلم أستقبل. وفي المرة الثالثة قبلوني. رويـت للقاضي الأشيـاء كما وقـعت، فأخذ يركـض في الغرفة وهو يلطم صدره بقبضة يـده، ويـقول: «ماذا تـفعلـون مـعي يا عـصـابـة من قـطـاعـ الـطـرـق؟ لو قد عـرـفـتـ هـذـا لأـرـسـلـ جـنـوـدـاً يـجيـئـونـيـ بـهـ!». وبعد ذلك خـرـجـ رـاكـضاً، وـنـادـىـ أحـدـاً، فأـخـذـ يـكـلـمـهـ فيـ رـكـنـ. ثـمـ عـادـ نـحـويـ، وأـخـذـ يـلـقـيـ عـلـيـ أـسـئـلـةـ وـيـشـتـمـنـيـ. لـامـنـيـ كـثـيرـاًـ. وـقـصـصـتـ أـنـاـ عـلـيـهـ كـلـ شـيـءـ، وـذـكـرـتـ لـهـ أـيـضاًـ أـنـكـ بـالـأـمـسـ لـمـ تـجـرـؤـ أـنـ تـجـيـبـنـيـ، وـقـلـتـ لـهـ إـنـكـ لـمـ تـعـرـفـنـيـ. عـنـدـئـذـ عـادـ يـجـرـيـ فيـ الغـرـفـةـ وـيـلـطـمـ صـدـرـهـ. كـانـ يـرـكـضـ رـاكـضاًـ، وـهـوـ غـاضـبـ.. يـرـكـضـ... وـيـرـكـضـ... وـمـنـذـ ذـكـرـ لـهـ أـنـكـ أـتـيـتـ، قـالـ لـيـ: «أـسـرـعـ، اـخـبـئـ وـرـاءـ الـحـاجـزـ، وـابـقـ هـنـالـكـ بـدـوـنـ حـرـاكـ، مـهـمـاـ تـسـمـعـ». وـحـلـ إـلـيـ بـنـفـسـهـ كـرـسـيـاًـ، وـأـغـلـقـ عـلـيـ الـبـابـ قـائـلاًـ: «قـدـ اـسـتـدـعـيـكـ». وـلـكـنـ حـينـ جـيـءـ بـنـيـقـوـلـايـ، صـرـفـنـيـ بـعـدـ أـنـ صـرـفـكـ فـورـاًـ. وـقـالـ لـيـ: «سـأـسـتـدـعـيـكـ مـرـةـ أـخـرـىـ لـأـسـتـجـوـبـكـ»ـ.

– وهـلـ اـسـتـجـوـبـ نـيـقـوـلـايـ أـمـاـمـكـ؟

– صـرـفـنـيـ بـعـدـ أـنـ صـرـفـكـ فـورـاًـ، وـأـخـذـ يـسـتـجـوـبـ نـيـقـوـلـايـ.

توقفـ الرـجـلـ عـنـ الـكـلـامـ، وـانـحـنـىـ مـرـةـ أـخـرـىـ، وـلـامـسـ إـحـدـىـ أـصـابـعـهـ الـأـرـضـ مـرـةـ أـخـرـىـ، وـقـالـ:

– أـغـفـرـ لـيـ وـشـايـتـيـ وـالـإـسـاءـةـ التـيـ أـلـحـقـتـهـاـ بـكـ.

فـأـجـابـهـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ:

– اللـهـ يـغـفـرـ لـكـ!

وبعد أن نطق راسكولنيكوف بذلك الكلام انحنى الرجل له مرة ثالثة، ولكنه لم ينحني في هذه المرة حتى الأرض، بل حتى الحزام فقط، ثم استدار على عقبيه ببطء وخرج من الغرفة.

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «كل شيء ذو حدين، كل شيء هو الآن ذو حدين». ثم غادر الغرفة هو أيضاً، وقد أصبح واثقاً بنفسه أكثر من أي وقت مضى.

قال وهو يهبط السلالم ويبتسم ابتسامة ساخرة: «الآن ستتابع الصراع». وكانت الابتسامة الساخرة موجهة ضد نفسه في هذه المرة: كان يتذكر عندئذ «جبنه»، بكره واحتقار.

الجزء الخامس

الفصل الأول

غداة اليوم المشؤوم الذي جرت فيه المناقشة الحادة بين بيوتر بتروفتش وبين دونيا وبولخيريا الكسندروفنا، استيقظ بيوتر بتروفتش من نومه وثاب إلى صوابه، فأدرك ممتعضاً أكبر الامتعاض، أنه مضططر أن يقبل، قبوله لواقع راهن حاسم، الأمر الذي كان يبدو له بالأمس حادثة تشبه أن تكون خيالية مستحيلة رغم حدوثها فعلاً. إن الأفعى السوداء، أفعى الأنانية الجريحة المهانة، قد ظلت بعض قلبه طوال الليل. فما أن نهض عن فراشه حتى أسرع ينظر إلى وجهه في المرأة. لقد كان يخشى أن يكون قد أصيب أثناء نومه بازدياد في إفراز الصفراء الصغيرة. غير أن كل خطر من هذه الناحية كان، حتى الآن على الأقل، قد تم تفاديه. فلما تأمل في المرأة وجهه النبيل الأبيض المتعجن قليلاً منذ بعض الوقت، عزّاه وواساه أن يتصور أنه لا بد وأجد في مكان ما خطيبة في بيت قد يكون مناسباً أكثر من الناحية الأخلاقية. ولكنه لم يلبث أن رجع عن وهمه، فبصدق بقصة قوية من شدة غضبه، فأثار ذلك ابتسامة خرساء لكنها ساخرة في شفتي صديقه الشاب أندريله سيميونوفتش ليزرياتينيكوف الذي يسكن معه. ولم تغب هذه الابتسامة عن نظر بيوتر بتروفتش الذي أسرع يحقد عليه بسببها مزيداً من الحقد بعد أن وقعت بينهما في الآونة الأخيرة أمور كثيرة أخذها عليه وسجلها له. وتضاعف غضبه وحنته حين قدر فجأة أنه ما كان ينبغي له أن يطلع أندريله سيميونوفتش على نتائج المقابلة.. هذه خطيبة ثانية يرتكبها منذ الأمس بشدة الاندفاع، وفورة الغضب، وتسريع البوح ...

وشاءت المصادفات طوال ذلك الصباح، كأنما عن عمد، أن تنصب عليه المزعجات تلو المزعجات، فحتى في مجلس الشيوخ كان يتظره إخفاق في القضية التي كان يعالجها وقد أحنته خاصة مالك الشقة التي استأجرها بيوتر بتروفتش استعداداً لزواجه المرتقب، وأصلحها على نفقته هو. فمالك الشقة هذا، وهو رجل من رجال الحرف أصاب بعض الغنى، وأصلحه ألماني، قد رفض رفضاً قاطعاً أن يفسخ بندأً

واحداً من بنود عقد الإيجار، وأصرّ على أن يدفع له بيوتر بتروفتش كامل الغرامة المنصوص عليها في العقد عند فسخ العقد، رغم أن بيوتر بتروفتش كان سيسلمه الشقة بعد أن جددت تجديداً شبه تام. وهذا نفسه حدث في متجر الأثاث، إذ إن صاحب المتجر لم يشأ إطلاقاً أن يرد إليه روبلً واحداً من المبلغ الذي دفعه له عربوناً على شراء الأثاث، رغم أن قطعة واحدة من قطع الأثاث لم تكن قد وصلت الشقة بعد. قال بيوتر بتروفتش لنفسه صارفاً بأسنانه: «هل أتزوج يا ترى، خصيصاً من أجل أثاث؟». وفي الوقت نفسه ومضت في ذهنه فكرة يائسة من جديد، فتساءل: «أمن الممكن حقاً أن يكون كل شيء قد ضاع، أن يكون كل شيء قد ضاع ضياعاً حاسماً؟ ألا أستطيع مع ذلك أن أقوم بمحاولة جديدة؟» وتراءت له صورة دونيتشكا الفاتنة الأخاذة، فتمزق قلبه حسراً ولوعدة من جديد، وعاني عذاباً أليماً خلال دقيقة، فلو كانت الرغبة وحدها في قتل راسكولنيكوف كافية لقتله، لرغم ذلك الرغبة على الفور.

وقال لنفسه وهو يعود إلى ليزياتينيكوف كاسف البال مكتئب النفس حزيناً: «من أخطائي أيضاً أنني لم أعطهم مالاً! شيطان يأخذني! ما بالي تصرفت باليهودي بخيل؟ ولم يكن هذا مع ذلك عن بخل وشح، وإنما أنا أرددت أن أبقيهم في حالة الحاجة والعنوز، حتى أجعلهم يعدونني منقذاً ومحلاصاً... آه... لو أنني أعطيتهم خلال هذه المدة... ألفاً وخمسمائة روبل مثلاً، لإعداد جهاز العرس... لو أنني قدمت هدايا صغيرة، لو أنني قدمت أنواعاً من تلك العلب الصغيرة واللوازم الضرورية والمجوهرات والأقمشة وسائل تلك الأشياء التافهة التي يجدها الماء في متجر كنوب أو في المتجر الإنجليزي^{٣٣} بأثمان بخسفة، لو أنني فعلت ذلك لجرت الأمور مجرى أوضح، ولقامت المسألة على أساس أقوى وأوطد. ما كان لدونيا عندئذ أن تفسخ الخطوبة بمثل ذلك الاستخفاف. ذلك شأن هذا النوع من الناس: يعتقدون أنهم مضطرون حتىًّا عند فسخ الخطوبة إلى ردّ الهدايا والمال جميعاً. فلو كنت قد قدمت إليهم هدايا وما

^{٣٣} «متجر كنوب أو المتجر الإنجليزي»: متجران شهيران في قلب سان بطرسبرج تابع فيماهما أدوات الترف الراقية.

لعز عليهم ولشق عليهم أن يرددوا... ثم إن ضميرها كان سيعذبها إذا هي فكرت في فسخ الخطوبة: كانت ستقول لنفسها: كيف؟ أطرب على حين فجأة رجلا كان كريماً لطيفاً في جميع الأوقات؟ هم... لقد ارتكبت خطأ فاحشاً». ثم أسرع بيوتر بتروفتش ينعت نفسه بأنه غبي - بينه وبين نفسه طبعاً - وهو يصرف بأسنانه من جديد.

فلما وصل إلى هذه النتيجة عاد إلى بيته وقد ازداد الشر والحنق في نفسه أضعاف ما كان عليه عند خروجه منه. وقد لفتت انتباذه الاستعدادات التي كانت قائمة في غرفة كاترينا إيفانوفنا للأدب الجنائز. كان قد سمع عن هذه المأدبة منذ الأمس كلاماً غامضاً، حتى لقد كان يخيل إليه أنه يتذكر أنه هو نفسه دُعى إلى هذه المأدبة، ولكنه لاستغراقه في همومه الخاصة لم يتتبه إلى أي شيء عدتها. وأسرع يستطيع مدام ليفكسل التي كانت أثناء غياب كاترينا إيفانوفنا في المقبرة منهماكة حول المائدة، وكانت تهم أن تنهض، فعرف أن المأدبة ستكون فخمة وأن جميع المستأجرين مدعوون إليها، حتى أولئك الذين لم يعرفوا المتوفى، بل وحتى أندرية سيميونوفتش ليبيزياتنيكوف، رغم اشتجاره حديثاً مع كاترينا إيفانوفنا، وأنه هو نفسه، بيوتر بتروفتش، ليس مدعاً فحسب، بل هو إلى ذلك يُتظر حضوره بفارق صبر، لأنه بين سائر المستأجرين أعلاهم شأناً وأعظمهم قدرًا. وقد دُعيت أيضاً آماليَا إيفانوفنا بكثير من الاحترام والاحتفال، رغم ما وقع بينها وبين كاترينا إيفانوفنا في الماضي من حوادث طارئة مؤسفة، وهي الآن لهذا السبب سيدة المنزل وربة البيت، ولا يخلو ذلك من أن يحدث لها لذة ومسرة. وهي فوق هذا كله، رغم ارتدائها ثياب الحداد، تبخرت بثوب من حرير، جديد أنيق رشيق، مزدان بزخارف كثيرة، وتبدو فخورة به متباهية معززة.

هذه الواقع والمعلومات كلها أوحىت إلى بيوتر بتروفتش بفكرة ما، فلما دخل غرفته أو قل غرفة آندريه سيميونوفتش ليزياتنيكوف كان مشغول البال بتلك الفكرة، ذاهلاً بها عما عداها. ذلك أنه قد عرف أن راسكولنيكوف أحد المدعىين.

لسبب من الأسباب قضى آندريه سيميونوفتش ذلك الصباح كله في غرفته. وكانت قد قامت بين هذا السيد وبين بيوتر بتروفتش علاقات غريبة لكنها طبيعية على كل حال: كان بيوتر بتروفتش يحتقر ليزياتنيكوف ويكرهه أشد الكره، تقريراً منذ اليوم الذي أقام فيه عنده؛ ومع ذلك كان يبدو عليه في الوقت نفسه أنه يخشاه بعض الخشية. لقد نزل عند آندريه سيميونوفتش منذ وصوله إلى بطرسبرج، لا بسبب البخل الشديد فحسب – رغم أن هذا هو الدافع الرئيسي في حقيقة الأمر – بل بسبب آخر أيضاً. أنه، وهو في الريف، قد سمع عن رببه اليتيم آندريه سيميونوفتش، سمع أنه شاب تقدمي متتطور، بل إنه يلعب دوراً هاماً لدى بعض الفئات الغريبة التي أصبحت أشبه بالأساطير. فتأثير بيوتر بتروفتش بهذه الصورة التي قامت في ذهنه عن صاحبه. إن هذه الفئات القوية، العالمة بكل شيء، التي تحترق جميع الناس، وتفضح جميع الناس، كانت توحى إليه منذ مدة طويلة بربة خاصة هي رهبة غامضة على كل حال. لا شك أنه لإنقاذه بالأقاليم لم يستطع أن يكون لنفسه فكرة دقيقة (حتى ولا تقريرية) عن شيء من هذا النوع. كل ما هنالك أنه سمع، كسائر الناس، أنه يوجد، في بطرسبرج خاصة، أناس يسمون تقدميين أو عدمين أو مصلحين^{٣٧}، الخ، ولكنه كان، ككثير من الناس، يضخم دلالة هذه الألفاظ ومعناها، حتى ليشوّهها تشوّهياً عجياً. وهو منذ بضع سنين إنما يخشى التشهير أكثر مما يخشى أي شيء آخر. نعم، ذلك هو الأساس الرئيسي الذي تقوم عليه مخاوفه المتصلة المتزايدة، ولا سيما حين يحلم بنقل مركز نشاطه

^{٣٧} «يسمون تقدميين أو عدمين أو مصلحين»: كانت هذه الأسماء الثلاثة تطلق على التيار الراديكالي السائد بين الشبيبة في ذلك الأوان. ومن المعروف أن مصطلح «العدمي» إنما أوجده تورجنيف وكان قد استعمله في روايته «الآباء والأبناء».

وأعماله إلى بطرسبرج. بهذا المعنى نستطيع أن نقول أنه كان مروّعاً حقاً كما يُروّع الأطفال الصغار في بعض الأحيان. إنه قبل هذه الآونة ببعض سنين، قد شهد في الريف، وكان ما يزال في بداية مزاولته مهنته، حالة رجلين من أصحاب التأثير والنفوذ أصحابهما تلك التشهيرات فنالت منها بقسوة شديدة، وقد دافع هو عن ذينك الرجلين فكانا يحميانه ويرعيانه بعد ذلك. فأما إحدى القضيتين فقد انتهت بالرجل الذي ناله التشهير إلى الفضيحة والجرصة، وأما القضية الثانية فكانت لصاحبها مصدر كثير من المتابعة والنكد. ذلك هو السبب الذي جعل بيوتر بتروفتش يحرص منذ وصوله إلى بطرسبرج على أن يوضح لنفسه الأشياء، وأن يفهم الأحوال، وأن لا تفوته المبادرة إذا اقتضى الأمر ذلك، في سبيل أن ينال الحظوة لدى «أجيالنا الشابة». وكان يعوّل في هذا على آندريه سيميونوفتش. وعلى هذا النحو إنما استطاع، مثلاً، حين التقى براسكولنيكوف، أن يقول بعض عبارات منمقة جاهزة مستمدة من غيره..

وهو لم يلبث، بطبيعة الحال، أن اكتشف في آندريه سيميونوفتش شخصاً عادياً تافهاً غرّاً إلى أبعد الحدود. ولكن ذلك لم يغير رأيه، ولبث قلقاً غير مطمئن. إنه على وجه الإجمال لا شأن له بهذه الأفكار والتعاليم والاعتقادات كلها (التي كان آندريه سيميونوفتش يقرّ بها أذنيه، ويصدّع بها رأسه)، وإنما كانت له غاية معينة وهدف محدّد: كان يريد أن يعرف، بأقصى سرعة، ماذا حدث هنا وكيف؟ هل هؤلاء الناس أقوياء لهم حول وطول، وسلطان ونفوذ؟ هل عليه هو أن يخشي شيئاً ما؟ أتراه يوشى به إذا هو شرع في هذا الأمر أو ذاك؟ وإذا وشي به، فما هي، على وجه التحديد، النقاط التي ستكون الآن محل الوشایة وموضع التنديد والتشهير؟ بل أكثر من ذلك: ألا يستطيع المرء، إذا هم كانوا أقوىاء ذوي سلطان، أن يتسلل إليهم بطريقة أو بأخرى وأن يغشهم ويضللهم؟ أهذا ضروري حقاً أم لا؟ أليس في وسع المرء، بواسطتهم، أن يهیئ لنفسه نجاحاً في عمله وتقديماً في مهنته مثلاً؟ بإيجاز: كانت مئات من الأسئلة تلقي نفسها عليه.

وكان آندريه سيميونوفتش هذا، وهو مستخدم في مكان ما بمثابة موظف، كان رجلاً هزيلًا بائسًاً عليلًا؛ وهو قصير القامة، أشقر شقرة غريبة، له على جانبي خديه سالفان يبدو مزهوًا بهما زهواً شديداً. وهو فوق ذلك يشكو من أوجاع في عينيه دائماً على وجه التقريب. وإذا كان طبعه رخواً فإن أحاديثه تدل على غرور يبلغ في بعض الأحيان حد الغطرسة الواقحة، وذلك يتنافى مع شكله الهزيل تنافياً مضحكاً. على أنه كان عند آماليا إيفانوفنا يُعدّ من أحسن المستأجرين، لأنه كان لا يشرب، ويدفع أجر غرفته في موعده على نظام مطرد لا يختلف. غير أن آندريه سيميونوفتش كان رغم جميع هذه المزايا رجلاً غبياً في حقيقة الأمر. إن العاطفة الهاوجاء هي التي ربطته بالأراء التقديمية و«أجيالنا الصاعدة». وهو واحد من تلك الفئة الكبيرة المتعددة الأنواع من الأغبياء والفاشلين الذين لا يفوتهم أبداً أن يتعلقوا على الفور بالأفكار التي يعرفون أنها رائجة رواج «الموضة»، والذين يفسدون ويشوّهون لتوهم كل ما يستعملونه هم أنفسهم، ولو كان تعلقهم به صادقاً ملحاً في بعض الأحيان.

ثم أن ليزياتينيكوف، رغم أنه مسامٍ إلى أبعد حدود المسملة، قد أخذ من جهته يضيق ذرعاً بصاحب بيوتر بتروفتش الذي كان في الماضي ولي أمره والوصي عليه، حتى أصبح لا يطيق احتمال مساكته في غرفته. ونشأ بين الرجلين كلّيهما نفوذ متبادل من تلقاء نفسه. لقد أخذ آندريه سيميونوفتش يلاحظ، رغم غبائه، أن بيوتر بتروفتش يسخر منه ويضحك عليه ويحتقره، وأنه «ليس في حقيقته ما يحب أن يبدو». وكان آندريه سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فورييه وداروين^{٣٨}، ولكن بيوتر بتروفتش أصبح يخلو له، ولا سيما في الأيام الأخيرة، أن يصغي إلى كلامه ساخراً مستهزئاً، حتى لقد أصبح يمضي في ذلك إلى حد إهانته. وإنما نشأ عن ذلك أن بيوتر بتروفتش قد اكتشف بغرizته أن ليزياتينيكوف ليس

^{٣٨} «وكان آندريه سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فورييه وداروين»: شارل فورييه (١٧٧٢ – ١٨٣٧) اشتراكي طبّابي فرنسي كبير رسم في مؤلفاته صورة مجتمع المستقبل. وشارل داروين (١٨٠٩ – ١٨٨٢) عالم إنجليزي كبير، صاحب نظرية نشوء وارتقاء العالم العضوي.

رجالاً غبياً فحسب، بل إنه أيضاً متبرج ليس له أية علاقات هامة حتى في بيته، وأنه لم يسمع ببعض الأفكار إلا على نحو غير مباشر، وأنه فوق ذلك كله ليس على شيء من المقدرة في مجال الدعاية، لأنه يضطرب في الكلام ويرتكب في الحديث، فأنى له أن يشهر بأحد أو شيء! وفي هذه المناسبة يجب أن نشير عابرين إلى أن بيوتر بتروفتش كان خلال تلك الأيام العشرة (ولا سيما في البداية) قد استقبل، برضى وارتياح، الأمadiح التي كان يكيلها له آندريه سيميونوفتش، حتى ولو كانت غريبة جداً، أو قل على الأقل أنه لم يكن يرفضها أو يعترض عليها. كان يصمت مثلاً حين ينسب إليه آندريه سيميونوفتش أنه ينوي أن يعاون قريباً، بل قريباً جداً، في إنشاء كومونة جديدة في مكان ما بشارع ميشانسكايا^{٣٩} أو حين ينسب إليه أنه ينوي أن لا يمنع دونيا من أن تتخذ لها عشيقاً ولو شاء لها هوها أن تفعل ذلك منذ الشهر الأول بعد الزواج؛ أو حين ينسب إليه أنه لن يعمد الأولاد الذي سيولدون له، الخ. كان بيوتر بتروفتش، على عادته، لا ينكر المزايا التي تُنسب إليه، حتى لقد كان يسمح بأن تکال له أمadiح من ذلك النوع، فإلى هذا الحد كان يجب أن يُمدح.

إن بيوتر بتروفتش الذي بدّل هذا الصباح عدداً من السندات لبعض الأسباب، جالسُ الآن إلى المنصة يراجع عدّ حزم الأوراق المالية. وهذا آندريه سيميونوفتش الذي لم يكُد يملك مالاً في يوم من الأيام يتجلو في الغرفة ويُتَظَاهِر بأنه ينظر إلى حزم الأوراق المالية بغير اكتِراث، بل وباحتقار. ولكن بيوتر بتروفتش لم يكن يستطيع أن يصدق أن آندريه سيميونوفتش ينظر إلى هذه الحزم بغير اكتِراث حقاً. وكان آندريه سيميونوفتش من جهته يتصور بكثير من المراة أن بيوتر بتروفتش ربما كانت تدور في رأسه تلك

^{٣٩} «في إنشاء كومونة جديدة في مكان ما بشارع ميشانسكايا»: في فترة الستينيات في القرن الماضي أنشأ شباب بطرسبرج الديمغرافي عدداً من الكومونات. وكانت إحداها تقع في شارع ميشانسكايا الأوسط، أي في الحي الذي كان يعيش فيه دوستويفسكي أثناء كتاب الرواية. وقد عكست آراء ليزياتينيكوف عن الكومونة موقف دوستويفسكي السلبي منها.

الفكرة، وربما كان يجد فيها لذة، وربما كان يريد أيضاً، بعرض هذه الأوراق المالية، أن يسخر من صديقه الشاب، وأن يذكره على هذا النحو بكل تفاهته، وبكل الفرق بينهما وبكل المسافة التي تفصلهما.

وقد وجده في ذلك اليوم أكثر حدة، وأقل انتباهاً منه في أي وقت مضى، رغم أنه هو آندريه سيميونوفتش قد اندفع يشرح نظريته المفضلة في ضرورة إقامة «كومونة» جديدة من نوع خاص. إن الملاحظات القصيرة التي كان يرسلها بيوتر بتروفتش مع اشغاله بتنقيل الكرات على أسلالها في جهاز العدّ، كانت تتسم بسخرية واضحة وتتصف بقلة الكياسة. ولكن آندريه سيميونوفتش، هذا الداعية من دعاء «الأفكار الإنسانية»، كان ينسب اعتقاده مزاج بيوتر بتروفتش إلى الأثر الذي أحدث في نفسه فسخ الخطبة؛ وكان يحترق شوقاً إلى التعرض لهذا الموضوع بأقصى سرعة، لأنه يريد أن يدلي في هذا الصدد ببعض الآراء التقديمة التي قد تواسي صديقه المحترم، والتي «لا بد» أن تكون نافعة في تطوره الم قبل. قاطع بيوتر بتروفتش صاحبه في أهمّ موضوع من حديثه سائلاً على حين فجأة:

– ما مأدبة الجنازة هذه التي تُهيأ عند تلك... الأرملة؟

فأجابه آندريه سيميونوفتش باستغراب قائلاً:

– كأنك لا تعلم! لقد حدثتك عن أمر هذه المأدبة أمس، حتى لقد شرحت لك آرائي في هذا النوع من الاحتفالات. ثم إنني قد سمعت أنها دعتك أنت أيضاً، وقد كلامتها أنت نفسك بالأمس...

– ما كنت أتوقع أن تبدي هذه الغبية في سبيل حفلة عشاء، كل المال الذي أخذته من ذلك الغبي الآخر... اقصد راسكولنيكوف! لقد دُهشت منذ قليل حين مررت بمسكنها. استعدادات عظيمة! حتى الخمر لا ينقص هذه المأدبة!

وتابع بيوتر بتروفتش كلامه يريد أن يحرّك الحديث إلى غاية لا يعرف المرء ما هي:

– دُعي أشخاص كثيرون... الشيطان وحده يعلم..

ثم أضاف يسأل فجأة وهو يرفع رأسه:

– ماذا؟ تقول إبني مدعو أيضاً؟ متى دعيت؟ أذكر إبني دعيت! على إبني لن أحضر. ما عسانى فاعلاً هناك؟ كل ما في الأمر إبني قلت لها بالأمس، عابراً، أن في وسعها أن تحصل، لأنها أرملة موظف معوزة، على معونة يساوي مقدارها مرتبتات سنة. أتراها دعتني لهذا السبب وحده؟ هيء هيء!..

قال ليزياتينيكوف:

– أنا أيضاً لا أنوي أن أحضر.

– آمل ذلك. فقد ضربتها ضرباً مبرحاً بيديك، فمن الطبيعي جداً أن يعذبك ضميرك إذا أنت فكرت في الذهاب إلى عندها.

سؤال ليزياتينيكوف بقوة وحرارة وقد احمر وجهه:

– من ذا ضربت ضرباً مبرحاً؟ عمن تتكلم؟

– عن كاترينا إيفانوفنا طبعاً. لقد ضربت كاترينا إيفانوفنا منذ شهر، أو هذا ما سمعته أمس على الأقل. انظروا إلى رجال المبادئ والعقائد هؤلاء! هذه طريقتهم في حل قضية المرأة! هيء هيء! وكأنما خففت هذه الكلمات عن بيوتر بتروفتش، فعاد ينهمك في حساباته.

وصاح ليزياتينيكوف يقول بلهجة حانقة مغناطة، وكان لا يطيق أن يذكره أحد بتلك القصة:

– ما هذه إلا حماقات ونهايم. ما هكذا جرت الأمور، وإنما جرت الأمور على نحو آخر تماماً! لم يطلعوك على الواقع كما حدث. هذه أقاويل، هذه أقاويل لا أكثر! أنا إنما دافعت عن نفسي فحسب! فهي التي

هجمت عليّ مكثرة عن أنيابها منشبةً مخالبها، فما زالت بي حتى نتفت لي سالفاً بكماله! أحسب أن من حق كل إنسان أن يدافع عن نفسه. ثم إنني لا أسمح لأي مخلوق أن يعمد في معاملتي إلى العنف، وذلك إيماناً مني بمبدأ لا أحيد عنه، لأن العنف استبداد. فماذا كان يجب عليّ أن أفعل؟ أبقي أمامها مبوسط الذراعين؟ كل ما فعلته هو أنني دفعتها عنـي.

كان لوجين ما يزال يقهقه بوحشية:

ـ هـ هـ هـ!

ـ أنت تسعى إلى مشاجري، لأنك معتكر المزاج. وهذه حماقات لا شأن لها بقضية المرأة إطلاقاً، إطلاقاً. لقد فهمت الأمر مقلوباً. إنني لأعتقد أنه متى اعترف المرء بأن النساء مساويات للرجال في كل شيء، حتى في باب القوة (كما يؤكد هذا منذ الآن)، فقد وجب الإبقاء على المساواة في هذه الحالة أيضاً. طبعاً... أنا قلت لنفسي بعد ذلك أن أمثال هذه المسائل ينبغي أن لا تُطرح أصلاً، لأن المنازعات ما ينبغي أن توجد، حتى أنها ستكون في مجتمع المستقبل أموراً لا يمكن تصورها، وأنه شيء غريب، تبعاً لذلك، أن ننشد المساواة في مشاجرة. أنا لست غبياً إلى الحد الذي... رغم أن المشاجرات ما تزال قائمة طبعاً بانتظار ذلك... أعني أن المشاجرات ستزول في المستقبل، لكنها ما تزال إلى اليوم موجودة... هوه! أن المرء ليربك حين يكلمك، وتخلط عليه الأمور... مهما يكن من أمر فليس هذا هو السبب في أنني لن أحضر العشاء. وإنما أنا أمتنع عن حضوره تقيداً بالبدأ، حتى لا أشارك في هذه العادة السخيفـة من العادات الاجتماعية، أعني مأدبة الجنازة. نعم، ذلك هو السبب. على أنني قد أحضر المأدبة، ولو لأضحك منها، وأستهزئ بها... من المؤسف أنه لن يكون هنالك قس، وإلا لما فوتت على نفسي فرصة الحضور.

^{١١} هنا وفيها بعد يتهكم دوستويفسكي بلسان ليزياتينيكوف على عدد من الأفكار (مساواة المرأة بالرجل، تحرير المرأة، حرية الأحساس... الخ) والتي نادى بها نيكولاي تشيرنيشيفسكي في رواية «ما العمل»؟

– أي أنك كنت ستجلس إلى مائدة الناس لتتصدق بعد ذلك في الأطباق، ولتصدق أيضاً في قلوب أولئك الذين دعوك؟ أليس كذلك؟

– ليس الأمر أمر بصاق بل أمر احتجاج. أنا إن فعلت ذلك فإنما أفعله لتحقيق أهداف مفيدة. ففي وسعي بهذا أن أنفع التقدم وأن أنفع الدعاية نفعاً غير مباشر. أن على كل إنسان أن يساهم في تنمية الدعاية، وكلما فعل ذلك على نحو قاطع كان هذا أجدى. أن في إمكاني أن أبذر الفكرة، أن ألقى البذرة. ومن هذه البذرة ستخرج حقيقة. فيم أسيء إليهم إذا أنا فعلت ذلك؟ قد يشعرون في أول الأمر طبعاً بأن إساءة لحقتهم، ولكنهم سيرون بعد ذلك هم أنفسهم أنني كنت نافعاً لهم. انظر إلى قضية المرأة تيربيساً عندنا (المرأة التي تنتهي الآن إلى الكومونة)... لقد تركت أهلها... واستسلمت لرجل، فأخذوا عليها أنها كتبت إلى أبيها قائلة إنها أصبحت لا ت يريد أن تعيش في الأوهام الاجتماعية، وأنها تؤثر الزواج الحر. لقد قال الناس عندئذ إن تصرفها إزاء أبيها كان فيه كثير من الغلظة، وأنها كانت تستطيع أن تراعيها وتداريها، وكانت تستطيع على الأقل أن تستعمل في رسالتها أسلوباً أرق. أما أنا فأرى أن هذه الكلام كله سخيف، وأن على المرأة أن لا يستعمل أسلوب الرقة أبداً. بالعكس: لا بد من الاحتجاج... وانظر إلى المرأة فارنتس: لقد عاشت مع زوجها سبع سنين، ثم تركته وتركت ولديها؛ وفي الرسالة التي بعثت بها إليه لم تتحرج من شرح رأيها بوضوح تام، فقالت: «أدركت أنني لن أستطيع أن أكون سعيدة معك. ولن أغفر لك، ما حييت، أنك أخفيت عنّي أن هناك تنظيماً آخر للمجتمع على أساس الكومونة. لقد عرفت ذلك حديثاً من رجل عظيم استسلمت له وسأنشئ معه كومونة. أقول لك هذا بصرامة، لأنني أعتقد أنه ليس من الأمانة ولا من الشرف في شيء أن أكذب عليك وأن أخدعك. دبر أمورك على النحو الذي يرضيك، ولا تأمل أن تراني عائدة إليك... إنك متخلّف مسرف في التخلف. أتمنى لك أن تكون سعيداً». هكذا إنما ينبغي أن تكتب أمثال هذه الرسائل!

– أليست تيربيفنا هذه هي تلك التي قلت لي إنها الآن في زواجهما الحر الثالث؟

– لا، بل هي في زواجهما الحر الثاني إذا نحن أحسنا النظر في الأمور. وهبها في زواجهما الحر الرابع عشر أو الخامس عشر، فأي ضير في هذا؟ لئن أسفت يوماً على موت أبي فإنما أسفت على ذلك في هذا اليوم. حتى لقد اتفق لي مراراً أن قلت لنفسي: لو كان أبواي حين عرفت كيف أحتاج إليهما! نعم، لو كانا حين لفعت ذلك عامداً، فأظهرتهما على آرائي، وأدهشتهما أياً إدهاش! حقاً أتمنى لو أراهما حين... حقاً أنه ليؤسفني أنهم ماتا!

قاطعه بيتر بتروفتش قائلاً:

– لتستطيع أن تدهشهما؟ ههـ!.. طيب... افعل ما يحلو لك... ولكن قل لي: أنت تعرف بنت المتوفى طبعاً، تلك الفتاة الصغيرة النحيلة، فهل صحيح ما يقال عنها؟

– ما قيمة هذا؟ فيرأيي، أعني في قناعتي الشخصية أن وضعها هو الوضع الطبيعي للمرأة. لم لا؟ أقصد لا شك أن وضعها هذا ليس في المجتمع الحالي وضعاً طبيعياً، لأنه ناشئ عن اضطرار وإكراه، أما في المجتمع المقابل، فسيكون وضعها طبيعياً تماماً، لأنه سينشأ عن اختيار حر. ثم إن هذه الفتاة من حقها، الآن أيضاً، أن تعيش كما تعيش. أنها تتألم، وجسدها هو رأس مالها إن صح التعبير، ففي وسعها أن تتصرف فيه على النحو الذي تشاء. صحيح أن رؤوس الأموال هذه لن يبقى لها في المجتمع المستقبل علة وجود، ولكن دور البغي سيت忤ذ دلالة أخرى، وسيتم تنظيمه تنظيماً عقلياً. ولنرجع الآن إلى شخص صونيا سيميونوفنا: أني أرى أن سلوكها هو في هذه الأزمنة احتجاج قوي مجسداً على نظام المجتمع؛ وأنا لهذا السبب أحترمها احتراماً عميقاً، بل أكثر من ذلك أتمنى أGBT لرؤيتها على هذه الحال.

^{٤١} يجب أن نميز. (بالفرنسية في الأصل).

– لكنني سمعت أنك شخصياً قد طرحتها من هذا البيت.

اعتَرَتْ ليزياتنيكوف حالة غضب شديد عنيف، وزأر يقول:

– هذه أيضاً نائم! إن الأمور لم تجر على هذا النحو، لم تجر على هذا النحو قط! حقاً إنها لم تجر على هذا النحو! إن كاترينا إيفانوفنا هي التي اخترعت كل شيء، لأنها لم تفهم شيئاً. أنا لم أحاول في يوم من الأيام أن أحظى بصونيا سيميونوفنا: كنت أكتفي بتشخيصها بعيداً عن كل مصلحة، بريئاً من كل غاية؛ كنت أحاوّل أن أنمّي فيها روح الاحتجاج. لم أكن في حاجة إلا إلى احتجاجها وحده. ثم إن صونيا سيميونوفنا نفسها قد أدركت حق الإدراك أنها أصبحت لا تستطيع أن تقيم هنا في مسكن مفروش.

– هل كنت تدعوها إلى الاشتراك في الكومونة؟

– أنت لا تجيد إلا السخرية، ولكنك تخطئ هنا خطأ فادحاً... أسمح لي أن أقول لك ذلك!.. إنك لا تفهم من أمر الكومونة شيئاً. في الكومونة، لا وجود لهذا الدور. وإنما نظمت الكومونة من أجل أن لا يكون لهذا الدور وجود. في الكومونة سيتغير هذا الدور تغييراً تاماً، فما هو غبي هنا سيصبح ذكياً هنالك، وما ييدو هنا في الظروف الحالية مخالفاً للطبيعة سيصبح هنالك طبيعياً. كل شيء مرهون بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان. كل شيء تحدده البيئة، والإنسان في ذاته لا شأن له. أما صونيا سيميونوفنا فإن علاقتي بها ما تزال طيبة حتى الآن، وهذا دليل على أنها لم تعددني في يوم من الأيام عدواً أو مسيئاً. نعم، إنني أحاوّل الآن أن أجذبها إلى الكومونة، ولكن لأسباب أخرى تماماً. لماذا تضحك؟ إننا نريد أن ننشئ كومونة خاصة بنا، ولكننا نريد أن ننشئ هذه الكومونة على أساس أوسع من الأساس السابقة. لقد مضينا في اعتقاداتنا إلى مدى أبعد^{٤٢}، وأنكرنا أشياء أكثر، فلو خرج دوبوليوروف من قبره لتشاجر معه حتى،

^{٤٢} «لقد مضينا في اعتقاداتنا إلى مدى أبعد..»: أن ليزياتنيكوف يعرض هنا آراء بيساريف (١٨٤٠-١٨٦٨) المتطرفة المولغة في الراديكالية؛ وهو لهذا يهاجم الناقد دوبوليوروف (١٨٣٦-١٨٦١) الذي كان كذلك راديكالياً جداً، وبهاجم الناقد الكبير بيلنسكي (١٨١١-١٨٤٨).

ثق بذلك! أما بيلنسكي فلو خرج من قبره لأبدته إبادة! وأنا الآن مستمر في تنشئة صونيا سيميونوفنا.
إن لها طبيعة طيبة حسنة، حسنة جداً!

ـ هيا! إنك تستفيد من هذه الطبيعة الطيبة الحسنة! هيء هيء!..

ـ أنا؟ لا، لا! بالعكس...

ـ بالعكس؟ أنت تقول هذا الكلام؟

ـ في وسعك مع ذلك أن تصدقني. ما هي الأسباب التي يمكن أن تدفعني إلى إخفاء الحقيقة عنك؟ هلاً
أجبتني من فضلك؟ نعم، هناك ظاهرة غريبة، بل غريبة بالنسبة إلى أيضاً: لأنها معي متحرجة، وجلة،
بل وخجلة!

ـ وأنت أثناء ذلك مستمر في تنشئتها! هيء!.. تبرهن لها على أن أنواع الحياة هذه كلها ما هي إلا غباوات
وبلاهات!..

ـ لا، لا!.. آه... ما أغلفظ وما أغبى تأويلك هذا لكلمة «التنشئة»، اعذرني! ألا إنك إذاً لا تفهم شيئاً
على الإطلاق! آه... يا رب!.. ما أشد تخلفك حتى الآن!.. نحن ننشد حرية المرأة، وأنت ليس في رأسك
إلا... إذا تركنا جانباً مسألة العفة بوجه عام، وهي شيء لا جدوى منه في ذاته، بل هي شيء سخيف
أيضاً، فإنني أقبل تحفظها معي كل القبول: فما دامت هذه إرادتها فمن حقها أن... طبعاً، إذا قالت لي في
ذات يوم: «أنا أريدك»، فسأعد ذلك حظاً سعيداً، لأن هذه الفتاة تعجبني كثيراً. أما الآن، الآن على
الأقل، فربما كان لا يوجد أحد يعاملها بمثل ما أعاملها أنا به من لطف ومداراة ومراعاة. إنني انتظر
وأأمل، هذا كل شيء.

ـ الأفضل أن تقدم إليها هدية صغيرة. أراهن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالك، أليس كذلك؟

– أنت لا تفهم شيئاً، سبق أن قلت لك ذلك! صحيح أنها موسم، ولكن المسألة ليست هنا، ليست هنا البة! أنت تحقرها، لا أكثر ولا أقل. إنك بالاستناد إلى واقعة مخلة بالشرف في رأيك، تأبى على كائن إنساني أن ينظر إليها نظرة فيها روح إنسانية. ألا إنك تجهل حتى طبيعتها! إن هناك شيئاً واحداً آسف له، أنها منذ زمن قد انقطعت عن القراءة انقطاعاً تاماً، وأصبحت لا تستعير مني أي كتاب. كانت قبل ذلك تستعير مني كتاباً. وما يبعث على الأسف أيضاً أنها رغم كل ما تملكه من طاقة كبيرة، ورغم كل ما تتصف به من عزم على الاحتجاج لقد سبق أن برهنت على ذلك مرة على أنه لا يجد فيها قدر كاف من الاستقلال، قدر كافٍ من... من الرفض، قدر كافٍ من التأهّب للتحرر نهائياً من رواسبها الاجتماعية... وسخافاتها. ومع ذلك فهي تفهم بعض المسائل فهماً رائعاً. لقد أدركت أكمل الإدراك مسألة تقبيل اليد، مثلاً. لقد أدركت أحسن الإدراك أن الرجل حين يقبل يد المرأة إنما يعدها أدنى منه منزلة وأقل قدرًا. لقد ناقشنا هذه المسألة عندنا، وناقشتها معها. وقد أصبتت إلى بانتباه شديد أيضاً حين كلمتها عن النقابات العمالية في فرنسا. وأنا الآن بسبيل أن أشرح لها مسألة حرية دخول الغرف على نحو ما سُتُّطرح هذه المسألة في المستقبل.

– ما هذه المسألة أيضاً؟

– لقد أثيرت في الآونة الأخيرة هذه المسألة: هل من حق عضو الكومونة، رجلاً كان أو امرأة، أن يدخل غرفة عضو آخر، رجلاً كان أو امرأة، في أية ساعة من الساعات... وقد تقرر أن له هذا الحق.

– غريب! ماذا لو كان العضو، الرجل أو المرأة، مشغولاً في تلك الساعة بتلبية حاجة طبيعية؟ هي هي!...

غضب آندريه سيميونوفتش، وصاحب يقول:

– آه... هانت ذا تعود إلى هذه المسألة! إن الأمر الهام في نظرك إنما هو هذه «ال حاجات» اللعينة! ألا إنني لأحد على نفسي لأنني تكلمت أمامك عن هذه الحاجات اللعينة! شيطان يأخذك! هذه عثرتك وعثرة جميع أشباهك. وأنكى ما في الأمر أنهم يلقون بهذا على رأسك قبل أن يعرفوا ما هي المسألة. كأن ذلك من حقهم! وكأن في ذلك ما يدعوا إلى الفخر والاعتزاز! آ... لقد سبق أن قلت غير مرة إن هذه المسألة ما ينبغي أن تُعرض أمام أغرار مبتدئين إلا بعد أن يتم اكتسابهم وضمهم إلى المذهب. بتعبير آخر: ما ينبغي أن يعالج هذه المسألة إلا إنسان تطور تطوراً كافياً وتحقق له تنشئة مناسبة. ثم قل لي: ما الذي تراه في المراحيس من شيء مخجل إلى هذا الحد محترق إلى هذه الدرجة؟ إنني مستعد لأن أنظر ما تشاء من مراحيس. وصدقني إذا قلت لك إن هذا لا ينطوي على أي تضحيه من جهتي. ذلك عمل كغيره من الأعمال، بل أنه لأكبر كثيراً من عمل رجل مثل رافائيل أو بوشكين، لسبب بسيط هو أنه أكثر نفعاً.^٣

– وأكثر نبلاً، أكثر نبلاً، هي هى!..

– ما معنى كلمة «النبل» هذه؟ إنني لا أفهم أمثال هذه التعبيرات حين يكون الأمر أمر وصف نشاط إنساني. «أكثر نبلاً! أكثر سماحةً»! هذه ترهة، هذه سخافة، هذه رواسب اجتماعية بالية أرفضها وأحتقرها. الشيء النبيل هو الشيء النافع للإنسانية. ذلك هو الشيء النبيل حقاً. أنا لا أفهم إلا كلمة واحدة، وهذه الكلمة هي النافع. أضحك ما شاء لك هو وآك أن تضحك، فذلك هو اعتقادي!

ضحك بيوتر بتروفتش ضحكاً شديداً. لقد انتهى من حساباته وأخذ يرتب ماله. ولكنه أبقى جزءاً من هذا المال على المائدة، لا يدرى أحد لماذا.

^٣ «بل إنه لأكبر كثيراً من عمل رجل مثل رافائيل أو بوشكين»: إن ليزياتينيكوف يبالغ في آراء بيسارف وتلميذه زايتسيف اللذين كانا يدافعان عن مذهب المفعة، ويناديان بأن حذاء من الحذائين أتفع للمجتمع من شكسبير أو بوشكين.

إن «مسألة المراحيض هذه» كانت، رغم تفاهتها، سبباً لمشاجرات عدّة بين بيوتر بتروفتش وصديقه الشاب. والغباء في الأمر أن آندريله سيميونوفتش كان يغضّب فعلاً، أما لوجين فما كان يرى في هذا إلا فرصة للتسليمة والاسترخاء. وكان في تلك اللحظة خاصة يشتّهي أن يُعيّظ ليزياتنيكوف.

– بسبب إخفاقك مساء أمس إنما أنت معتكر المزاج إلى هذا الحد اليوم.

بهذا الكلام أفلت أخيراً لسان ليزياتنيكوف الذي كان رغم كل «استقلاله» ورغم كل روح «الاحتجاج» لديه، لا يجرؤ في العادة أن يعارض بيوتر بتروفتش معارضته صريحة، وكان على وجه العموم يلتزم في معاملته ما ألف أن يلتزم في معاملته منذ شبابه من كياسة وأدب واحترام.

وقد قاطعه بيوتر بتروفتش قائلاً بتعالٍ وامتعاض:

– قل لي: هل تستطيع أو هل أنت على قدر كاف من حسن الصلة وعمق المودة مع الفتاة المذكورة بحيث يمكنك أن ترجوها أن تأتي إلى هنا، إلى هذه الغرفة، حالاً؟ أظن أنهم لا بد أن يكونوا قد عادوا الآن جمِيعاً من المقبرة. لقد سمعت وقع أقدام، و... أودُّ لو أرى هذه الفتاة.

سأله ليزياتنيكوف مدهوشًا:

– ولكن لماذا؟

فأجابه:

– هكذا... يجب أن أكلّمها. أني سأرحل بين يوم ويوم، وأحب أن أنقل إليها... في وسعك أن تحضر حديثنا على كل حال، بل ذلك أفضل، وإنما فقد تخيّل ما لا يعلمه إلا الله!..

– لن أتخيل شيئاً أبتهة... وإنما أنا ألقى سؤالي هكذا... فإذا كنت في حاجة إلى أن تراها فلا أسهل من إحضارها. أنا ذاهب لأجيئك بها. وثق أنني لن أزعجك.

وعاد ليزياتنيكوف مع صونيا فعلاً بعد خمس دقائق. دخلت صونيا مدهوشة أشدّ الدهشة، خجلة وجلة إلى أقصى حد، على عادتها. إنها خجلة وجلة دائمةً في مثل هذه الأحوال. كانت منذ طفولتها تخشى التعرف إلى أناس جدد، وتخاف من الوجوه الجديدة، وقد تفاقم هذا الميل عندها مزيداً من التفاقم الآن.

استقبلها بيوتر بتروفتش استقبلاً «لطيفاً مهذباً»، ولكنه أضاف إلى هذا الاستقبال، والحق يقال، نوعاً من المرح والألفة يليقان، في رأيه، برجل يبلغ ما يبلغه هو من جد ووقار واحترام، حين يعامل مخلوقة شابة إلى هذا الحد، شائقه إلى هذه الدرجة، بمعنى من المعاني.

وأسرع بيوتر بتروفتش «يطمئن» صونيا، ويجلسها أمام المائدة قبالتها. جلست صونيا وألقت نظرة حولها – على ليزياتنيكوف، وعلى المال الموضوع على المائدة، ثم على بيوتر بتروفتش فجأة من جديد. ومنذ تلك اللحظة لم تحول بصرها عنه، كأن شيئاً ما كان يشدّها إليه.

اتجه ليزياتنيكوف نحو الباب، فنهض بيوتر بتروفتش، وأوقفه عند الباب وهو يدعو صونيا بإشارة من يده إلى أن تبقى جالسة. وقال يسأل صاحبه همساً:

– هل راسكولنيكوف ذاك هناك؟ هل جاء؟

فأجابه ليزياتنيكوف:

– راسكولنيكوف؟ نعم، هو هناك. وماذا يعني ذلك؟ نعم، هو هناك. وصل منذ قليل، رأيته. ما الأمر؟

– إذًا، أطلب منك ملحاً أن تبقى معنا، أن لا تتركني في خلوة مع هذه... الفتاة. هذه قضية لا قيمة لها، ولا يعلم إلا الله ما عسى يُستخرج منها إذًا... لا أريد أن يمضي راسكولنيكوف يتقول هناك... هل تفهم إلى ماذا أشير؟

أجاب ليزياتينيكوف وقد أدرك الأمر:

– أفهم، أفهم. نعم، أنت على حق. في قناعتي الشخصية إنك تضخّم الأخطار تضخّمًا كبيرًا... ولكنك مع ذلك على حق. طيب. سأبقى. سأمكث هنا، قرب النافذة، حتى لا أضايقك... في رأيي أنك على حق...

عاد بيوتر بتروفتش نحو الأريكة، وجلس قبالة صونيا، ونظر إليها بانتباه، ثم لم يلبث أن اصطنع هيئة فيها كثير من الوقار والجد حتى لتكاد تكون نظرة قاسية، وهو يقول لها بينه وبين نفسه «لا تخطرن بالكل الخواطر يا جميلة!»

اضطربت صونيا وفقدت كل سيطرة لها على نفسها. وببدأ بيوتر بتروفتش كلامه فقال بلهجة فيها كثير من الجد، ولكنها لهجة متوددة في الوقت نفسه:

– أرجوك أولاً أن تذكرمي يا صونيا سيميونوفنا، فتعتذرني عني لأملك المحترمة... أليست كاترينا ايفانوفنا بمثابة الأم لك؟ أليس هذا صحيحاً؟

كان يبدو على بيوتر بتروفتش أنه يضمّر أحسن نيات الصداقة.

فأسرعت صونيا تحيييه مروعة:

– نعم، حقاً، هي لي بمثابة الأم.

– فاعتذر لها عن أنني لا أستطيع، بسبب ظروف مستقلة عن إرادتي، أن أجيء عندكم فاكـل... أقصد أن أشارك في مأدبة الجنازة، رغم الدعوة اللطيفة التي وجهتها إلى.

– سأقول لها هذا، فوراً...

قالت صونيا ذلك ونهضت مسرعة.

فقال بيوتر بتروفتش وهو يمنعها من القيام، ويبيسم لسذاجة الفتاة وتجهلها للمواضيع الاجتماعية.

– ليس هذا كل شيء بعد. أنك لتجهيليني إذن، يا صونيا سيميونوفنا العزيزة، إذا كنت تتصورين أنني لسبب يبلغ هذا المبلغ من التفاهة ولا يتعلـق إلا بي أنا، يمكن أن أسمح لنفسي بأن أزعـج شخصاً مثلـك. إنـ لي هـدـفاً آخرـ تمامـاً.

عادت صونيا تجلس بسرعة شديدة. وأخذـت الأوراق المالية وأنواع العملـة الـباقيـة على المـائـدة تـراـقصـتـ أمام عـيـنـيـهاـ منـ جـديـدـ، فـسـرـعـانـ ماـ أـشـاحـتـ وـجـهـهاـ عـنـهاـ بـقـوـةـ، وـنـظـرـتـ إـلـىـ بـيـوـتـرـ بـتـرـوـفـتـشـ. لـقـدـ لـاحـ لهاـ فـجـأـةـ أـنـهـ عـارـ رـهـيـبـ عـلـيـهـاـ أـنـ تـنـظـرـ إـلـىـ مـالـ لـيـسـ مـاـهـاـ، لـاـ سـيـمـاـ وـهـيـ مـاـهـيـ. تـوـقـفـ بـصـرـهـاـ فـيـ أـوـلـ الـأـمـرـ عـلـىـ الـمـوـنـوـكـلـ ذـيـ الإـطـارـ الـذـهـبـيـ، الـذـيـ كـانـ بـيـوـتـرـ بـتـرـوـفـتـشـ يـمـسـكـهـ بـيـدـهـ الـيـسـرىـ، وـعـلـىـ الـخـاتـمـ الـجـمـيلـ جـدـاـ، الـضـيـخـمـ جـدـاـ، الـمـزـدـانـ بـحـجـرـ أـصـفـرـ، السـاطـعـ فـيـ الإـصـبـعـ الـوـسـطـىـ مـنـ تـلـكـ الـيـدـ نـفـسـهـ. وـلـكـنـهـاـ حـوـلـتـ بـصـرـهـاـ فـجـأـةـ، وـإـذـ لـمـ تـعـرـفـ إـلـىـ أـيـنـ تـوـجـهـ عـيـنـيـهاـ، حـدـقـتـ بـهـاـ إـلـىـ عـيـنـيـ بـيـوـتـرـ بـتـرـوـفـتـشـ لـاـ تـحـركـهـاـ يـمـنـةـ وـلـاـ يـسـرـةـ.

وبـعـدـ فـتـرـةـ مـنـ صـمـتـ تـابـعـ بـيـوـتـرـ بـتـرـوـفـتـشـ كـلـامـهـ بـلـهـجـةـ فـيـهـاـ مـزـيدـ مـنـ الـجـدـ أـيـضاـ:

– أـتـيـحـتـ لـيـ أـمـسـ فـرـصـةـ تـبـادـلـ بـضـعـ كـلـمـاتـ مـعـ الـمـسـكـيـنـةـ كـاتـرـيـنـاـ اـيـفـانـوـفـاـ؛ فـأـدـرـكـتـ مـنـ تـلـكـ الـكـلـمـاتـ الـقـلـيلـةـ وـحـدـهـاـ أـنـهـ تـعـيـشـ فـيـ حـالـةـ مـنـافـيـةـ لـلـطـبـيـعـةـ، إـنـ صـحـ التـعبـيرـ.

فقالت صونيا مؤيدة:

– نعم... في حالة منافية للطبيعة.

– أو في حالة مرضية إذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح.

– نعم، إذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح... نعم... هي مريضة.

– هذه هي المسألة... وقد هزتني مشاعر إنسانية ومشاعر عطف إن صح التعبير، فوددت لو أفعها في شيء ما، لأنني أتبناً بال المصير الشقي البائس الذي ستؤول إليه لا محالة. يخيل إليّ أن الأسرة التعيسة كلها قد أصبحت تعتمد عليك وحدك.

سألته صونيا فجأة وهي تنهض:

– اسمح لي أن أسألك... هل صحيح أنك كلمتها أمس عن إمكان الحصول على معاش تقاعدي؟.. لقد قالت لي أمس أنك مستعد لأن تتولى القيام بالمساعي الالزمة من أجل أن تحصل لها على هذا المعاش. فهل هذا صحيح؟

– غير صحيح البة، بل هو أيضاً سخيف. كل ما فعلته هو أنني أشرت إلى جواز الحصول على نجدة مؤقتة يمكن أن تُدفع للأرملة موظف مات أثناء الخدمة – وهذا لا يتحقق طبعاً إلا إذا كان هنالك أنسان يرعون هذه الأرملة ويخموها – ولكنني أعتقد أن أباك لم يستوف عدد السنين المطلوبة في الوظيفة، حتى أنه في الآونة الأخيرة لم ي العمل إطلاقاً. ومعنى ذلك، باختصار، أن الأمل الصغير الذي كان يمكن أن يراودنا يضعف في هذه الأحوال مزيداً من الضعف، لأن حق أبيك في التعويض في مثل هذه الأحوال لا وجود له... بالعكس... فما أغرب أن تفكّر أبك منذ الآن في معاش!.. هى هى! يا للسيدة

المتعلقة!..

– نعم... هي... معاش... لأنها سريعة التصديق... وطيبة... وهي لأنها طيبة، تظن أن... وتصدق... ثم إن فكرها قد خلق هكذا. نعم... معذرة..

كذلك قالت صونيا مشوّشة وهي تنهض من جديد لتنصرف.

قال بيوتر بتروفتش:

– اسمحي لي!... إنك لم تسمعي بعد كل شيء.

فجمجمت صونيا تقول:

– نعم، لم أسمع بعد كل شيء.

وعادت صونيا تجلس مرة ثالثة وقد بلغت ذروة الارتباك والاضطراب.

وتابع بيوتر بتروفتش كلامه فقال:

– إنني، وقد رأيت الحالة التي هي فيها مع ولدين بائسين، رغبت، كما سبق أن قلت لك ذلك، في أن أكون نافعاً لها بمقدار ما تتيحه لي وسائل، نعم، بمقدار ما تتيحه لي وسائل، لا أكثر من ذلك. فمن الممكن مثلاً أن ننظم اكتتاب تبرعات، أو حتى أن ننظم سحب يانصيب، أو أي شيء آخر من هذا القبيل... كما يحدث هذا في حالة بهذه الحالة بين الأقارب أو حتى بين أجانب يريدون أن يهبوا إلى مساعدة أناس نزلت بهم مصائب الدهر. فعن هذا المشروع إنما أردت أن أحديثك. أنه مشروع ممكن التحقيق.

تمتت صونيا تقول محدقةً إلى بيوتر بتروفتش في عناد وإصرار:

– نعم، ذلك شيء حسن جداً... جزاك الله خيراً...

—الأمر ممكن، ولكن... سنتكلم عن ذلك فيما بعد... بل يمكننا أن نبدأ منذ اليوم. على كل حال سنلتقي في هذا المساء، وستتفق. سترسي الأسس، كما يقال. تعالى إلى هنا في نحو الساعة السابعة... وسيحضر آندريه سيميونوفتش حديثنا فيها آمل... غير أن هناك أمراً يجب أن نبرزه إبرازاً خاصاً منذ الآن. ومن أجل هذا الأمر يا صونيا سيميونوفنا إنما أبحث النفسي أن أزعجك باستدعائك إلى هنا. في رأيي أن المال الذي سنجمعه يجب أن لا نضعه بين يدي كاترينا إيفانوفنا نفسها، حتى أن في ذلك خطراً. ومأدبة هذا المساء دليل واضح على ذلك: إن كاترينا إيفانوفنا وهي لا تملك لقمة تضعها تحت ضرسها غداً، ولا تملك حذاءين تتعلما فتقى نفسها السير حافية، لا تحجم اليوم عن شراء خمرة الروم الجامايكي بل والنبيذ المادي... والقهوة، إذا لم يخطئ ظني. لقد رأيت هذا كله عابراً. وغداً يقع كل شيء على عاتقك أنت، ويكون عليك أن تقدمي لهم حتى خبزهم اليومي، وذلك أمر لا يعقل! لهذا أرى أن ينظم اكتتاب التبرعات بحيث لا تتمكن الأرملة المسكينة من أن ترى حتى لون المال إن صحت التعبير، وبحيث لا يطلع على الأمر أحد غيرك أنت. ألسنت على حق؟

— لا أدرى!.. في هذا اليوم وحده إنما هي... ذلك لا يحدث إلا مرة واحدة في الحياة... إنها شديدة الرغبة في أن تكرم ذكرى الراحل... وهي ذكية جدا. على كل حال، افعل ما تراه مناسبا... وسأكون... وسيكونون جميعاً... وسيجزيكم الله عن ذلك خير الجزاء..

لم تكمل صونيا جملتها، وأجهشت باكية.

قال بیو تر بتروفتش:

– فكري جيداً في ما قلته لك. والآن أرجو بانتظار ذلك أن تقبلني عن أمك هذا المبلغ، بمقدار ما تتيحه لي وسائلي مشاركة مني في اكتتاب التبرعات. وأني لآمل خاصة أن لا يُذكر اسمي في هذه المناسبة. يؤسفني أن أعبائي الكثيرة لا تسمح لي بالطبع بأكثر من هذا المبلغ...

قال بيوتر بتروفتش ذلك ومدّ إلى صونيا ورقة مالية بعشرة روبلات عُني بطيها طيًّا دقيقاً. فتناولت صونيا الورقة المالية محمرة الوجه خجلاً، ثم نهضت بوثبة واحدة، ودمدمت ببعض الكلمات، واستأذنت بالانصراف مسرعة إسراهاً شديداً. فشيعها بيوتر بتروفتش حتى الباب بأبهة وجلال. وخرجت آخر الأمر من الغرفة متوجلة عصبية مرهقة، وعادت إلى كاترينا إيفانوفنا وهي على حال من الاضطراب الشديد.

طوال المدة التي استغرقها هذا المشهد كان آندريه سيميونوفتش، الذي لم يشاً أن يقطع عليهما الحديث، كان يبقى ساكناً قرب النافذة تارة، أو يسير في الغرفة تارة أخرى. فلما خرجت صونيا اقترب من بيوتر بتروفتش فجأة، ومدّ إليه يده يصافحه برصانة ووقار، قائلاً له:

– لقد سمعت كل شيء ورأيت كل شيء (ألح آندريه سيميونوفتش على كلمة «رأيت» هذه إلحاحاً خاصاً). هذا عمل نبيل، أقصد هذا عمل إنساني! لقد أردت أن تتحاشى كل تعبير عن الشكر والامتنان، لاحظت أنا ذلك. صحيح أنني من ناحية المبدأ أعارض كل إحسان أو بُرّ، لأن الإحسان أو البر لا يستأصل الشر استئصالاً قاطعاً، بل يبيّنه ويعزّيه بمزيد من التغذية، ولكنني لا أملك مع ذلك إلا أن أعترف بأنني تأملت عملك بشيء من الرضى والمسرّة واللذة. نعم، نعم، أعجبني عملك.

جمجم بيوتر بتروفتش يقول متأنراً بعض التأثر، متأنلاً ليزياتينيكوف في شيء من الحذر والريب: – هذه كلها أمور تافهة!

— لا، ليست أموراً تافهة! إن رجلاً جُرح جرحاً حاداً كما جُرحت أنت بإساءة الأمس، ثم هو قادر في
الوقت نفسه على أن يفكر في شقاء الآخرين وبؤسهم، إن رجلاً كهذا الرجل — رغم أنه بتصرفه على هذا
النحو يرتكب خطأً من الناحية الاجتماعية — جدير بالتقدير وخلقـ بالاحترام. الحق أني لم أكن أتوقع
هذا منك يا بيوتر بتروفتش، لا سيما وأن آراءك... آه... ما أشد الحرج الذي ما تزال تسببه لك هذه
الآراء! ما أشد تأثرك مثلاً بقضية الأمس تلك! (بهذا هتف آندرـ يـه سـيمـيـونـوـفـتـشـ السـاذـجـ، وقد شـعـرـ نحوـ
بيـوتـرـ بـتـرـوـفـتـشـ بـمـوـدـةـ وـمحـبـةـ عـلـىـ حـيـنـ فـجـأـةـ) وـلـكـ مـاـذـاـ، لـمـاـ حـرـصـتـ هـذـاـ حـرـصـ كـلـهـ عـلـىـ ذـلـكـ الزـوـاجـ
الـشـرـعـيـ، يا بيـوتـرـ بـتـرـوـفـتـشـ، النـبـيلـ جـداـ، الـلـطـيفـ جـداـ، مـاـ حـاجـتـكـ إـلـىـ هـذـهـ الشـرـعـيـةـ فـيـ الزـوـاجـ؟ أـضـرـبـنـيـ
إـنـ شـئـتـ، وـلـكـنـيـ أـشـعـرـ بـسـعـادـةـ حـيـنـ أـتـذـكـرـ أـنـ هـذـاـ الزـوـاجـ لـمـ يـتـمـ، وـأـنـكـ حـرـ، وـأـنـكـ لـمـ تـمـ بـعـدـ موـتـاـ تـاماـ
بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـإـنـسـانـيـةـ. نـعـمـ، أـشـعـرـ بـسـعـادـةـ حـيـنـ أـتـذـكـرـ ذـلـكـ. هـأـنـتـ ذـاـ تـرـىـ أـنـيـ أـصـارـ حـكـ بـهـاـ فـيـ قـلـبـيـ.

أجاب لوجين من أجل أن يقول شيئاً ما:

– إذا كنت أحرص على الزواج، فلأنني لا أريد أن ينبت لي قرنان، وأن أربى أولاد الآخرين، كما يحدث في الزواج الحر الذي تدعوه إليه.

جفل آندرية سيميونوفتش كحصان المعركة الذي سمع صوت البوق، وسأل صاحبه متهمسا:

– الأولاد؟ قلت الأولاد؟ إنني أسلم بأن الأولاد يشرون مشكلة اجتماعية هامة جداً، ولكن مسألة الأولاد ستحل بطريقة أخرى تماماً. إن بعضهم يمضي إلى حد إنكار الأولاد إنكاراً تماماً، كما ينكر كل إشارة إلى الأسرة على كل حال. وستتحدث عن مشكلة الأولاد فيما بعد. أما الآن فلنقف على مسألة القرنين هذه، لأنني أحبها جباراً خاصاً. لا فاعلم أن هذا التعبير السريع المستمد من لغة الفرسان، المستعار من كلام رجال مثل بوشيكن، سوف ينبعذ من معاجم المستقبل نبذاً تماماً. ما هذه القرون التي تتحدثون

عنها؟ هه! كم أنت مخطئ! لماذا تتحدثون عن قرون؟ نعم، هناك قرون. ولكن الزواج الحر هو الذي لن تكون فيه قرون؟ ليست القرون إلا نتيجة طبيعية للزواج الشرعي. إنها تعديل له إن صح التعبير. إنها الاحتجاج عليه. وبهذا المعنى يمكن أن نصفها بأنها ليس فيها حتى شيء من مذلة. فلو اضطررت يوماً أن أتزوج زواجاً شرعياً وهذا افتراض مستحيل لكان يسرني ويسعدني أن ينبع لي قرناً من تلك القرون الملعونة التي تتحدثون عنها. سوف أقول عندئذ لزوجتي: «يا صديقتي، أنا حتى هذه اللحظة لم أزد على أن أحبيبتك، أما الآن فأني أضيف إلى الحب احتراماً لأنك عرفت كيف ترفعين احتجاجاً». أتصفح؟ أنت تصفح لأنك لا تملك من القوة ما يمكنك من التحرر من الرواسب الاجتماعية. أنا أفهم أن يمتنع الزوج من خيانة زوجته في الزواج الشرعي، ولكن هذا بعينه إنما هو التسليحة البائسة لواقعه هي أيضاً بائسة، بالنسبة إلى الطرفين كليهما. أما حين يحمل الرجل قرنيين صراحةً، كما هي الحال في الزواج الحر، فإن القرنيين ينعدم عندئذ وجودهما إن صح التعبير، ويصبح من غير الممكن تصورهما، ويفقدان حتى اسم القرنيين؛ بل إن في وسعي أن أقول إن امرأتك تبرهن لك بذلك على مدى احترامها لك، لأنها حكمت عليك بأنك لا تستطيع أن تحول بينها وبين سعادتها، وبأنك متتطور متقدم إلى الحد الذي يمنعك من الانتقام منها بسبب أنها اتخذت لها خليلاً جديداً. يميناً أنه ليخطر بيالي أحياناً أنني إذا تزوجت زواجاً حرًا أو زواجاً شرعياً، سيان فلربما أجيء لمرأة بعشيق متى تأخرت عن اتخاذ عشيق من تلقاء نفسها. ولا أقولنّ لها عندئذ: «يا صديقتي، أنا أحبك، ولكنني أريد بالإضافة إلى ذلك أن تتحترميني. إنني أحقر على هذا. إليك عشيقاً!». ألمست على حق؟ ألمست على حق؟

كان بيوتر بتروفتش يصغي إليه ضاحكاً، ولكن دون أن يبدي كثيراً من الاهتمام، حتى أنه لم يتبه إلى الكلام إلا قليلاً، لأنه كان يفكر في شيء آخر تماماً، وقد لاحظ ليزياتينيكوف ذلك آخر الأمر.

لقد كان بيوتر بتروفتش يعاني اضطراباً شديداً، فكان يفرك يديه ويعمن في التفكير.

ذلك كله تذكره آندريه سيميونوفتش فيما بعد، وفهمه ...

الفصل الثاني

يصعب علينا أن نحدّد، على وجه الدقة، الأسباب التي أنبتت في دماغ كاترينا ايفانوفنا المختل فكرة مأدبة الجنازة هذه. لا بد أنها أنفقت على هذه المأدبة قرابة عشرة روبلات من العشرين روبلًا التي أخذتها من راسكولنيكوف لإنفاقها على احتفالات دفن مارميلادوف. لعل كاترينا ايفانوفنا كانت تعتبر نفسها مضطورة إلى تكرييم ذكرى الراحل تكرييمًا «لائقًا»، حتى يعلم جميع المستأجرين، ولا سيما آماليا ايفانوفنا، أن الراحل لم يكن أدنى قيمة منهم، بل ربما كان أعلى كثيراً، وأنه ما من أحد منهم يحق له بعد اليوم أن «يُدلّ بنفسه» حين يفكّر فيه. ولعلها كانت تقاد «لزهو الفقراء» الخاص بهم الذي يدفع كثيراً من البؤساء بمناسبة بعض الاحتفالات التي لا يستطيعون التملص منها بسبب عاداتنا المتأصلة، إلى أن يذلوا آخر ما يملكون من قوى وآخر ما يملكون من مال، حتى لا يكونوا «دون الآخرين» و حتى لا «يحكم عليهم» أولئك الآخرون. ومن الجائز جداً كذلك أن تكون كاترينا ايفانوفنا في ذلك الظرف بعينه، أي في اللحظة التي بدا فيها أن الجميع هجروها، قد أرادت أن تبرهن لجميع أولئك «المعوزين الحقراء» الذين هم المستأجرين، أنها امرأة تعرف كيف تعيش وكيف تستقبل، وأنها نشأت لتحيا طرازاً من الحياة مختلفاً عن هذا الطراز كل الاختلاف، وأنها تربت في «منزل نبيل، بل ومنزل أرستقراطي، منزل كولونيل»، وأنها إذاً لم تُخلق لتتولى بنفسها كنس الأرض وغسل أسمال الأولاد في الليل. إن اندفاعات الزهو والصلف والغرور هذه تستبد أحياناً بأشد الناس فقرأً، وتستبد بآناس بؤساء، ولا يندر أن نرى هذه الامتدادات تستحيل في بعض اللحظات إلى حاجات حقيقة، حاجات ماسة قوية. ثم إن كاترينا ايفانوفنا ليست من تلك النساء اللواتي يُجندلن بسهولة: فقد كان من الممكن أن تسحقها الظروف الرهيبة، غير أن لا شيء يمكن أن يجهز على عزيمتها وأن يهدم إرادتها. ثم إن صونيا كانت على حق حين قالت إن دماغ أمها قد أخذ يختل قليلاً قليلاً. الواقع أن الأمر لم يتضح بعد، ولكن لا شك أن كاترينا ايفانوفنا قد تحملت من

المحن منذ بعض الوقت، ولا سيما في السنة الأخيرة، ما لا بد أن يكون له أثر في عقلها. ثم إن مرض السل يهبي المصاب به لاضطراب الملوك العقلية متى بلغ مرحلة معينة.

لم تكن الخمور كثيرة جداً ولا متنوعة جداً، ولم يكن هناك خمرة ماديرية، فتلك مبالغة. ومع ذلك كان ثمة خمرة: نبيذ وفودكا وروم وربورتو. وكان هذا كله من أنواع رديئة طبعاً، ولكن مقاديره كانت كافية. وقد هيأوا، بالإضافة إلى حلوي الأرز التقليدية، ثلاثة أصناف أو أربعة من الطعام (منها فطائر) أعدّت في مطبخ آماليا إيفانوفنا. وحضر سماوران لمن يريدون أن يشربوا الشاي أو يحتسوا «البنش» بعد الوجبة.

إن كاترينا إيفانوفنا هي التي تولت بنفسها شراء الأشياء، يساعدها في ذلك أحد المستأجرين وهو بولندي رث مسكين لا يعلم إلا الله لماذا يسكن عند السيدة ليفسكل. إن هذا البولندي لا يكف عن السعي هنا وهناك ماداً لسانه (كأنه كان يحاول أن يلفت الانتباه خاصةً إلى هذا الأمر)؛ وهو في كل لحظة، بأي مناسبة وبغير مناسبة، ينحف إلى كاترينا إيفانوفنا، بل يثبت ركضاً إلى السوق المشهورة باحثاً عنها، وينعدق عليها لقب «السيدة الليوتنانة» بغير حساب، إلى أن ضاقت به ونفذ صبرها عليه، مع أنها كانت قد أعلنت في أول الأمر أنها لو لا هذا الرجل «الخدوم الكريم» لضاعت. لقد كان من طبع كاترينا إيفانوفنا أن تضفي أجمل الألوان على أول شخص تلقاء، وأن تغرقه بالمدح إلى أن يشعر بحرج وخجل، وأن تنسب إليه مزايا لا وجود لها في الواقع ولكنها تعتقد هي بوجودها صادقة غير مرائية ثم إذا بأوهامها تتبدد، وإذا هي تخاشه وتغلوظ له القول، وإذا هي آخر الأمر تطرد ذلك الشخص نفسه الذي كانت تقدسه تقديساً منذ ساعات قليلة. إن لها طبعاً ميلاً إلى التسامح، ولكنها بسبب أنواع المصائب وصنوف الإخفاق التي تلاحت عليها أخذت تطالب في كثير من الحدة والمرارة أن يعيش جميع الناس حياة هدوء وفرح، وأن لا يجرؤ أحد أن يعيش على غير هذا النحو؛ فإذا حدث أيسر نشاز أو أقل فشل خرجت عن طورها في الحال. فهي بعد أن تكون قد هدّدت نفسها بأقوى الآمال وأجمل الأماني وأسطع الأخيلة وأبهى

الأوهام تأخذ، في لحظة واحدة، تلعن الأقدار وتشتم الدهر، وترغى وتزبد، وتعصف وترعد، وتخرب كل ما يقع تحت يدها، وتضرب برأسها الجدران.

وقد اكتسبت آماليا ايفانوفنا، هي أيضاً، على حين فجأة، قيمة عظيمة وشأنًا كبيراً في نظر كاترينا ايفانوفنا، لا يدرى أحد لماذا... فأصبحت كاترينا تقدر آماليا قدرًا عظيمًا وتحترمها احترامًا هائلاً... ولكن لعل مرد ذلك إلى المأدبة التي تريدها كاترينا أن تقييمها، وإلى أن آماليا قد عرضت من تلقاء نفسها أن تشارك في إعداد هذه المأدبة: لقد تعهدت بنصب المائدة، وتقديم المفرش، وتأمين الصحون، الخ، وتعهدت بإعداد الطعام في مطبخها. حتى إن كاترينا ايفانوفنا نفسها، حين ذهبت إلى المقبرة، قد خولتها كل السلطات، وفوضتها في كل أمر؛ والحق أن كل شيء قد أُعد على أحسن وجه، وهىئت المائدة تهيئه لا مأخذ عليها. صحيح أن الصحون والشوكات والسكاكين والكؤوس الكبيرة والصغيرة، والفناجين، كانت غير متجانسة، من مصادر شتى وأنواع متباعدة، لأنها استعيرت من مستأجرين مختلفين، ولكن كل شيء كان في الساعة المحددة قد وُضع في مكانه، حتى إن آماليا ايفانوفنا التي كانت تشعر بأنها قاتلت بواجبها ونهضت ب مهمتها على خير وجه، والتي كانت تتحلى بشوتها الأسود وتضع على راسها قبعة تزيينها أشرطة صغيرة جديدة، قد أخذت تستقبل المدعين، عند عودتهم من المقبرة، بشيء من الافتخار والاعتزاز. وهذا الاعتزاز، رغم أنه مشروع، قد ساء كاترينا ايفانوفنا، لا يدرى المرء لماذا! فكانت كاترينا تقول لنفسها: «لأننا لم نكن لنستطيع أن نعد المائدة بدون آماليا ايفانوفنا!». وكذلك ساءتها القبعة ذات الأشرطة الجديدة. فكانت تقول لنفسها: «تُرى ألم تباهى هذه الألمانية بأنها مالكة البيت، وبأنها تفضلت وتنازلت فساعدت سكان بيتها المساكين من باب البر والإحسان؟ إن المائدة، في منزل والد كاترينا ايفانوفنا الذي كان عقیداً وكاد يكون محافظاً، كانت تُعد أحياناً لأربعين ضيفاً، وما كان لامرأة مثل آماليا ايفانوفنا أو قولوا آماليا لودفيجوفنا أن تُقبل هنالك في المطبخ!..» واشتد أزر كاترينا ايفانوفنا

بهذه الحاطرة، وقررتُ في دخيلة نفسها، أنه لا بد من تفتير همة آماليا ايفانوفنا بعد المأدبة رأساً وبلا تردد أو إمهال، ووضعها في مكانها الحقيقي لأنها تباهى وتتبخر أكثر من اللازم، أما الآن فاكتفت مؤقتاً بأن تظهر لآماليا ايفانوفنا شيئاً من الفتور والبرود. وهناك ظرف مزعج آخر ساهم بعض المساهمة في إحناق كاترينا ايفانوفنا: وهو أن المستأجرين الذين دعوا إلى الجنازة لم يكيد يشترك أحد منهم في الموكب، عدا البولندي الذي شيع جثمان المتوفى إلى المقبرة. أما المأدبة أو قل وجة الطعام الخفيفة فإن الفقراء والتابهين وحدهم هم الذين حضروا، حتى إن بعضهم قد جاء إليها بثياب هي خرق رثة وأسمال بالية: أي أن الاحتفال لم يكن فيه على وجه الإجمال شيء من أبهة. لكن المتقدمين في السن وأهل الجد والوقار من المستأجرين قد تعاهدوا فيما بينهم على أن يمتنعوا عن الحضور. من ذلك مثلاً أن بيوتر بتروفتش لوجين، وهو الذي يمكن أن يقال إنه أعلاهم قدرأً وأرفعهم شأنأً، لم يحضر المأدبة، مع أن كاترينا ايفانوفنا قد أعلنت جهاراً منذ العشية للجميع (لاماليا ايفانوفنا وبوليتشكا وصونيا والبولندي) أن بيوتر بتروفتش رجل من أ nobel الناس وأكرمهم، وأنه ذو صلات عالية، وأنه غني جداً، وأنه كان صديقاً لزوجها الأول، وأنه قد سبق أن استُقبل في منزل أبيها، وأنه لذلك قد وعد ببذل جميع المساعي من أجل أن تحصل على معاش تقاعدي كبير.

يجب أن نذكر هنا أن كاترينا ايفانوفنا إذا اتفق لها أن أطرت شيئاً من الأشياء، كعلاقات عالية أو ثروة طائلة، فإنها تفعل ذلك دائماً مبرأة من المصلحة مُنْزَهة عن المنفعة، لا يدفعها إلى ذلك أي حساب شخصي، وإنما هي تفعله بنوع من كرم فياض وحماسة دافقة، لا ترجو إلا لذة مدح أحد الناس وإضفاء قيمة كبيرة عليه.

وكما امتنع لوجين عن حضور المأدبة، امتنع كذلك عن حضورها - ربما من باب «الاقتداء به» - ذلك الوغد المسؤول ليبزياتينيكوف. «ماذا يظن نفسه؟ نحن ما دعوناه إلا شفقة عليه وبراً به، ولأنه يسكن في

نفس الغرفة التي يسكن فيها بيوتر بتروفتش الذي هو من معارفه، فكان من المخرج لنا أن لا ندعوه...».

وهناك سيدة وابتها (والابنة متقدمة قليلاً في السن) لم تلبي الدعوة أيضاً. إن هاتين المرأةين، رغم أنهما لا تسكنان عند آماليا ايفانوفنا إلا منذ أسبوعين، قد شكتا عدة مرات من الضجة والصرخات الآتية من غرفة أسرة مارميلادوف، ولا سيما حين كان المتأوف يعود إلى البيت سكران، وهذا أمر قد وصل إلى مسامع كاترينا ايفانوفنا طبعاً عن طريق آماليا ايفانوفنا، وذلك حين هددتها هذه، أثناء تşاجرها معها، بأنها ستطرد هما من البيت هي وأسرتها، صارخة بأعلى صوتها أنهم «يزعجون جيراناً نباء لا يرقون هم إلى مستوى نعاهم». ولقد قررت كاترينا ايفانوفنا، عامة، أن تدع هاتين المرأةين اللتين «لا ترقى هي إلى مستوى نعاهما!»، وكانت تحرص على دعوتها حرصاً خاصاً لأنها كانت إذا اتفق أن التقت بإحدى هاتين المرأةين تراها تشيح عنها وجهها باحتراف. قالت كاترينا ايفانوفنا لنفسها: «بهذا تعرفان أننا نمضي بالنبل إلى حد نسيان الإساءات والإهانات، وسيكون في وسعهما بهذه المناسبة نفسها أن تدركا أن كاترينا ايفانوفنا لم تألف أبداً أن تعيش في ظروف كهذه الظروف». وكانت تنوى أن تشرح لها هذه الحقيقة على المائدة، وأن تحدثهما كذلك عن منصب «المحافظ» الذي كان يحتله المرحوم أبوها، وربما استطاعت كذلك أن تُسمعهما بطريقة غير مباشرة أنه لا داعي لأن تشيحا بوجههما حين تلقيانهما، وأن هذه الحركة حركة غبية.

وقد غاب عن المأدبة أيضاً رجل ضخم الجسم يقولون إنه مقدم (وهو في حقيقته نقيب حال على التقاعد)؛ ولكن علم أنه «طريح الفراش» من فرط السكر منذ الليلة البارحة.

الخلاصة أنه لم يحضر المأدبة إلا هؤلاء: البولندي؛ وموظف هزيل قميء وعلى وجهه بثور، يرتدي فراكاً وسخاً وينشر رائحة كريهة؛ ورجل آخر عجوز قصير أصم يكاد يكون أعمى، كان في الماضي يشغل وظيفة في إدارة البريد لا يدرى أحد ما هي، وهناك مجھول يدفع عنه أجرة غرفته عند آماليا ايفانوفنا منذ

مدة طويلة لا يدرى أحد لماذا؛ وقد جاء إلى المأدبة ملازم متلازد سكران لم يكن في حقيقة أمره إلا موظفاً في إدارة التموين، وهو ينفجر ضاحكاً ضحى سفيهاً في كل لحظة، ولا يرتدى صديرة «فتصوروا قلة الحياة وفرط الواقحة، يا للعار»! وقد جاء آخر فجلس إلى المائدة رأساً حتى دون أن يحيى كاترينا ايفانوفنا، وجاءت في النهاية «شخصية» أخرى تلبس روب المنزل لأنها لا تملك غيره رداءً. ولكن ذلك قد بلغ من الخروج عن حدود اللياقة أنه أمكن إخراج الرجل بجهود متضادرة قامت بها آماليا ايفانوفنا والبولندي. ثم إن البولندي قد اصطحب رجلين بولنديين آخرين لا يذكر أحد أنهم سكنا عند آماليا ايفانوفنا في يوم من الأيام، ولا لقيهما أحد في هذا المنزل يوماً على الأقل.

ذلك كله أزعج كاترينا ايفانوفنا ازعاجاً شديداً فتساءلت تقول: «أمن أجل هؤلاء إذن قمنا بهذه الاستعدادات كلها؟»؟

ومن أجل أن يتسع المكان كانوا قد اضطروا إلى العدول عن إجلال الأولاد إلى المائدة، التي كانت تكاد تشغل وحدها كل الغرفة. لذلك أقيمت لهم مائدة خاصة في ركن بآخر الغرفة على صندوق، وأجلس الولدان الأصغران على دكة، وعُهد إلى بوليتشكا، بصفتها الكبرى، أن تراقبهما وأن تطعمهما وأن تخطهما، «كما يفعل بأولاد أسر راقية».

الخلاصة أن كاترينا ايفانوفنا قد اضطررت، راضية أو كارهة، أن تستقبل جميع هؤلاء الناس، فاستقبلتهن بمزيد من الوقار والرصانة، بل وبشيء من التعالي والعجرفة، حتى لقد ألت على بعضهم نظرة فيها قسوة خاصة، ثم دعتهن أن يجلسوا إلى المائدة وقد ظهرت في هيئتها معاني الاحتقار والازدراء. وقد اعتقدت، لسبب أو لأنـر، أن آماليا ايفانوفنا هي المسؤولة عن غياب المدعـون المرموقـين، فـكـانت تـخـاطـبـهاـ بـلـهـجـةـ بـلـغـتـ منـ الـوـقـاحـةـ أـنـ آـمـالـيـاـ اـيـفـانـوـفـنـاـ سـرـعـانـ ماـ لـاحـظـتـ ذـلـكـ، فـاستـاءـتـ أـشـدـ الـاستـيـاءـ، وـأـضـمـرـتـ أـكـبـرـ الـضـعـنـ. إـنـ بـدـاـيـةـ كـهـذـهـ الـبـدـاـيـةـ لـاـ تـبـشـرـ بـخـيرـ.

وجلس الجميع أخيراً إلى المائدة.

كان راسكولنيكوف قد وصل في لحظة العودة من المقبرة تقرباً. فسعدت كاترينا ايفانوفنا أقصى السعادة، أولاً لأنه بين سائر المدعين «الرجل المثقف الوحيد» الذي «سيحتل بعد سنتين، كما يعرف الجميع، كرسيّ أستاذ جامعتنا»؛ وثانياً لأنه ما إن وصل حتى بادر يعتذر لها بكثير من الاحترام عن أنه لم يستطع أن يشارك في الجنازة رغم رغبته الشديدة وحرصه الكبير.

ومنذ تلك اللحظة لم تتركه كاترينا ايفانوفنا؛ فقد أجلسه إلى يسارها (وكان آماليا ايفانوفنا قد جلست إلى اليمين)، ورغم مشاغلها المتصلة من حيث هي ربة البيت، ورغم السعال الرهيب الذي كان يقطع كلامها وينقصها في كل لحظة، والذي كان يبدو أنه تفاقم مزيداً من التفاقم منذ يومين، فإنها لم تقطع عن التحدث إلى راسكولنيكوف، وعن أن تفضي إليه همسا بكل ما كان يعتلي في قلبها، ولا سيما باستيائتها الشديد من إخفاق المأدبة. على أن ضحكاً مجلجاً كان يعقب ذلك الاستياء في كثير من الأحيان، ضحكاً لا تستطيع أن تكظمه، وهو ضحك على المدعين وعلى صاحبة البيت خاصة.

ـ ذلك كله إنما سببه هذه البومة! (كانت كاترينا ايفانوفنا تقول ذلك وتومئ لراسكولنيكوف بحركة من رأسها إلى صاحبة البيت آماليا ايفانوفنا). انظر إليها! أنها تحملق بعينيها؛ هي تعلم أنها نتكلّم عنها، ولكنها لا تستطيع أن تفهم، أن عينيها تخرجان من رأسها! هؤ... هؤ!.. بومة حقاً! ها ها ها! هي هي هي! وما الذي تريد أن تبرهن لنا عليه بقمعتها هذه؟ هي هي هي! هل لاحظت أنها تريد أن تظهرني أمام الملاً جميعاً بمظهر محميتها، وأن تبيّن أنها إنما تشرّفني إذ تحضر هذا العشاء؟ لقد طلبت منها، لاعتقادي بأنها إنسانة لائقة، أن تدعو أناساً محترمين، وأن تدعو خاصة أولئك الذين عرفوا زوجي الراحل. فانظر بمن جاءتنني: لقد جاءتنني بمهرجين وصعاليك قدرين؛ انظر إلى ذاك الرجل الذي على وجهه بثور! حقاً أنه مخاط يمشي على قدمين لا أكثر! وما قولك بهؤلاء البولنديين الحقراء؟ ها ها ها! هي هي هي! ما من

أحد سبق أن رأهم هنا، لا ولا رأيتم أنا، في يوم من الأيام! فلماذا إذن جاؤوا؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا جاؤوا؟ ما أعظم وقارهم في جلوسهم واحداً إلى جانب واحد! ما أظرفهم! هيه، يا «بان»! – كذلك نادت أحدهم فجأة ناطقة باللغة البولندية – هل أخذت فطائر؟ خذ مزيداً، واشرب بيرة، اشرب بيرة! واشرب فودكا! ألا تريد أن تشرب فودكا؟ – انظر إليه، لقد نهض بوشة واحدة، وها هو ذا ينحني انحناء شديداً... انظر... انظر! مساكين... لا بد أنهم جائعون جداً! لا بأس! فليأكلوا! هم لا يحذثون ضجة على الأقل.. ولكن.. ولكن... لا أكتمك أني أخشى أن يأخذوا ملاعق الفضة وهي لصاحبة البيت. يا آماليا ايفانوفنا (كذلك نادت صاحبة البيت فجأة بصوت عالي تقريراً)... إنني أنبهك منذ الآن إلى أنني غير مسؤولة إذا هم سرقوا ملاعقك!

وسررت كاترينا ايفانوفنا من قولتها هذه، فأخذت تضحك ضحكاً جنونياً، ثم عادت تومئ برأسها إلى صاحبة البيت قائلة لراسكولنيكوف:

– إنها لم تفهم! في هذه المرة أيضاً لم تفهم! ما تزال فاغرة الفم، محمّلة العينين، جوّالة الطرف! انظر إليها، انظر! هي بومة حقاً، بومة... قلت لك إنها بومة... ولكن بأشرطة جديدة! ها ها ها!..

وهنا استحال ضحكتها إلى سعال لا يطاق، استمر خمس دقائق. تلطخ منديلها بالدم، وظهر العرق على جبينها كحبات اللؤلؤ؛ أرت راسكولنيكوف بقعة الدم في صمت، وما أن استردت أنفاسها حتى دمدمت تقول له وقد تخضبت وجنتها بحمرة قانية وبلغت أقصى الاضطراب.

– انظر مثلاً: لقد عهدت إليها بمهمة دقيقة جداً هي أن تدعوا تلك السيدة وابنته. هل تعرف من أعني؟ فكان عليها في مثل هذه الحالة أن تصرف بكثير من الكياسة والفن والاحذق، ولكنها لم تحسن التصرف، فإذا بتلك الحمقاء المتغطرسة، إذا بتلك المخلوقة القروية... ذلك أنها ليست في الواقع إلا أرملة رائدة

جاءت إلى هنا تسعى إلى الحصول على معاش تقاعدي، فهي تنتظر في حجرات الدخول متنقلة متسكعة هنا وهناك، متبرجة مثقلة الوجه بالمساحيق والكحل والأصباغ رغم أنها في الخمسين من عمرها (هذا معروف)... إذا بتلك المخلوقة لا تتنازل أن تجبيء، بل ولا ترسل كلمة اعتذار، كما يليق بالمرء أن يفعل في مثل هذه الأحوال إذا كان على شيء من الأدب والتهذيب! وبيوتر بتروفتش، أني لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يجيء هو أيضاً! ولكن أين صونيا؟ أين ذهبت؟ آ... ها هي ذي أخيراً! أين كنت يا صونيا؟ غريب منك أن تكوني قليلة التقييد بالمواعيد حتى في يوم جنازة أبيك. أفسح لها مكاناً إلى جانبك يا روديون رومانوفتش. هذا مكانك يا صونيتشكا! اغر في لك طعاماً! خذي سمكاً، فهذا أحسن الطعام. سنجيئك بفطائر فوراً. والأولاد، هل غرف لهم طعام؟ هل أصبتهم من كل شيء يا بوليتشكا؟ هء هء هء طيب، عظيم! كوني هادئة عاقلة يا لينيا! وأنت يا كوليا لا تهزر ساقيك هكذا! ابق جالساً كما يجب أن يجلس ولد من أسرة محترمة. ماذا تقولين يا صونيتشكا؟

أسرعت صونيا تنقل اعتذارات بيوتر بتروفتش، محاولة أن تتكلم بصوت قوي حتى يسمع جميع الضيوف كلامها، ومستعملة أرقى التعبير، حتى تلك التي كان يصطنع استعمالها بيوتر بتروفتش، بعد أن تجمّلها مزيداً من التجميل أيضاً. وأضافت إلى ذلك قولها إن بيوتر بتروفتش قد رجاهما أن تبلغ أنها أنه سيعجّيء متى أتيحت له الفرصة ليتحدث في الأعمال على انفراد، ولি�تفق على الإجراءات الواجب اتخاذها في المستقبل، ألغ، ألغ...

كانت صونيا تعلم أن هذا قد يهدّئ كاترينا ايفانوفنا، ويدغدغ غرورها، ويرضي كبرياتها خاصة. وجلست إلى جانب راسكولنيكوف بعد أن حيّته بسرعة، ونظرت إليه نظرة مستطلعة. على أنها طوال ما بقي من وقت كان يلوح عليها أنها تحاشرى أن تنظر إليه وأن تكلمه. كانت تبدو ذاهلة، رغم أنها لم تحول عينيها عن كاترينا ايفانوفنا وأنها كانت تحاول أن تتنبأ برغباتها. ولم تكن صونيا ولا كاترينا ايفانوفنا

تلبسان ثياب الحداد، لأنها لا تملك أنها، كانت صونيا ترتدي ثوباً بنياً قاتماً، وكانت كاترينا ايفانوفنا ترتدي ثوباً كستنائيًّا ذي خطوط داكنة، وهو الثوب الوحيد الذي تملكه.

وقد أحدثت اعتذارات بيوتر بتروفتش أحسن الأثر. وبعد أن أصغت كاترينا ايفانوفنا إلى كلام صونيا برصانة ووقار، سألت عن صحة بيوتر بتروفتش بلهجة فيها تلك الرصانة نفسها وذلك الوقار نفسه. ثم لم تبطئ، فأسرعت «توشوش» راسكولنيكوف قائلة بصوت قوي إن رجلاً يبلغ من جلال القدر ما يبلغه بيوتر بتروفتش لا يليق أن يقع بين أفراد قطيع كهذا «القطيع العجيب من الناس»، مهما يكن إخلاصه للأسرة، ومهما تكن روابط الصداقة التي كانت تربطه بالمرحوم أبيها.

ثم أضافت تقول بصوت يكاد يكون عالياً:

— من أجل ذلك تراني، يا روديون رومانوفتش، أشكرك لك شكرًا خاصاً أنك لم تحقر دعوتي ولم ترفض حضور مأدبي رغم هذه البيئة وهذا الجو. وإنني لأعتقد على كل حال أن صداقتك القوية للمرحوم زوجي هي التي حملتك وحدها على أن تفي بالوعد.

وهنا شملت المدعوين مرة أخرى بنظرة فيها كبراءة ووقار، ثم رفعت صوتها فجأة تسؤال الشيخ الأصم الجالس إلى الطرف الآخر من المائدة: «هل تريدين مزيداً من الشواء وهل سكبوا له شيئاً من خمرة البورتو؟». فلم يحب الشيخ ولبث مدة من الزمن لا يفهم ما كان يُسأل عنه رغم أن جيرانه حاولوا أن يشرحوه له ضاحكين. كان فاغر الفم ينظر حواليه في كل جهة، فكان ذلك يثير مزيداً من الضحك والمرح.

— يا للغبي الأبله! انظر! ولماذا جيء به إلى هنا؟

وتابعت كاترينا ايفانوفنا كلامها تناطّب راسكولنيكوف:

– أما بيوتر بتروفتش فقد كنت دائمًا أحضره ثقة كاملة.

والتفت فجأة نحو آماليا ايفانوفنا فألقت عليها نظرة قاسية مروعة، وأردفت تقول صارخة:

– هو لا يشبه طبعاً هاتيك النساء السافلات اللواتي ما كنْ ليقبلن عند أبي حتى خادمات في المطبخ، واللواتي إذا ارتضى زوجي الراحل أن يشرّفهن باستقبالهن فإنه ما كان ليفعل ذلك إلا من فرط طيبة قلبه.

صاحب موظف التموين قائلاً وهو يفرغ في جوفه كأس الفودكا الثانية عشرة:

– نعم، كان يحب أن يشرب... هذا صحيح... كان يحب مجالسة الزجاجة حباً كثيراً!

أجبت كاترينا ايفانوفنا باندفاع شديد:

– نعم، كان لزوجي هذا الضعف، وهذا معروف، لكنه كان رجلاً طيباً نهلاً، يحب أسرته ويحترمها. إن عييه الوحيد هو أن هذه الطيبة نفسها كانت تدفعه إلى أن يشق بأناس فاسدين وأن يركن إليهم... الله يعلم مع من كان يعاشر الخمرة... مع رجال لا يساوون نعلي حذاءيه! تصور يا روديون رومانوفتش أننا وجدنا في جيئه ديكاً صغيراً من حلوى! كان لا ينسى أولاده حتى حين يأخذ منه السكر كل مأخذ!

صرخ صاحب موظف التموين السابق يسأل:

– ديكاً صغيراً؟ هل قلتِ ديكاً صغيراً؟

أبىت كاترينا ايفانوفنا أن تتنازل فتتجيئه، وها هي ذي تغرق في نوع من أحلام اليقظة، وتتنهد. ثم استأنفت

كلامها مخاطبة راسكولنيكوف:

– لعلك تظن، كما يظن جميع الناس، أنني أسرفت في القسوة عليه. ولكن هذا غير صحيح. لقد كان يعتبرني، كان يعتبرني كثيراً، كثيراً. ما كان أبل روحه وأطيب نفسه! ولكم كنت أشدق عليه، في بعض

الأحيان! كان يتفق له أن يجلس في ركن من الأركان، ويأخذ ينظر إلى من ركته ذاك، فأبلغ من الشفقة عليه عندئذ أنني أود لو ألاعبه، ولكني كنت أقول لنفسي: «لو دلاته فسوف يسخر من جديد». لم يكن يمكن صدّه عن الشراب وردعه عنه إلا بإظهار شيء من القسوة.

رأى موظف التموين السابق يقول وهو يصب لنفسه كأساً جديدة من الفودكا:

– نعم، كان يُشدّ له شعره! حدث هذا مراراً!

أجابت كاترينا ايفانوفنا تقول بلهجة قاطعة، وهي تتجه إلى موظف التموين:

– إن أمثال هؤلاء البلهاء لا يستحقون أن يُشدّ لهم شعرهم فحسب، بل يستحقون أيضاً أن يستقبلوا بضربات مقصة! ولست أتكلّم الآن عن الراحل...

والتهبت البقع الحمر في وجنتيها مزيداً من الالتهاب، وارتفع صدرها، ولم يبق إلا دقيقة واحدة حتى يمكن أن تثير كاترينا ايفانوفنا شجاراً فاضحاً. وكان كثيرون يضحكون مقهقحين، يجدون في ذلك لذة ومتعة. أخذوا يستثيرون الموظف ويحرضونه، هامسين له بأشياء في أذنه. كان واصحاً أنهم يريدون أن يصبووا على النار زيتاً.

بدأ الموظف كلامه فسألها:

– اسمحي لي أن أسألك عمن كنت تتكلمين إذن... على كل حال، لا بأس... فما هذه كلها إلا ترهات! أرملة، أرملة مسكينة! أنا أغفر وأغفو وأصفح! دعونا...

قال ذلك وجرع كأساً آخر من الفودكا.

ظل راسكولنيكوف جالساً يصغي بصمت واسهنتاز. لم يكدر يلمس الطعام الذي كانت كاترينا ايفانوفنا لا تقطع عن ملء صحنها به، بل إنه لم يتظاهر بأنه يأكل إلا من أجل أن لا يزعجها. وكان يحدّق إلى صونيا ولا يحول عنها بصره. ولكن صونيا كانت تزداد قلقاً وهمّاً. إنها توجس، هي أيضاً، أن المأدبة لن تنتهي بسلام، فكانت ترقب الاهتياج المتزايد عند كاترينا ايفانوفنا، خائفة وجلة. وكانت تعلم، فيما تعلم، أنها، هي صونيا، السبب الرئيسي للاحتقار الذي حمل المرأةين الجديدين على أن ترفضا دعوة كاترينا ايفانوفنا. لقد علمت من آماليا ايفانوفنا نفسها أن أم الفتاة مضت إلى حد الاستياء من توجيه الدعوة إليهما، وتساءلت: «كيف يمكنني أن أجلس ابنتي إلى جانب تلك «الآنسة»؟ وكانت صونيا تقدّر أن كاترينا ايفانوفنا قد وصل إلى مسامعها شيء من هذا الكلام؛ وأن إهانة يلحقها أحد بصونيا هي أشد وقعاً في نفس كاترينا ايفانوفنا من إهانة تلّحّق بها هي أو بأولادها أو بأبيها، فهذه إهانة قاتلة، وصونيا تعلم أن كاترينا ايفانوفنا لن يهدأ لها بال قبل أن «تبرهن لهاتين المرأةين التافهتين على أنها كلتيهما...»، الخ

الخ! وشاءت المصادفات، بما يشبه العمد، أن ينقل أحدهم إلى صونيا صحناً فيه قلبان من لبّ خبز أسود يخترقهما سهم. فاحمرت كاترينا ايفانوفنا غضباً، وأسرعت تقول بصوت عال إن المسؤول عن إرسال هذا الصحن ليس إلا «حماراً سكران»، لا أكثر ولا أقل.

وكانت آماليا ايفانوفنا، من جهتها، توجس أن نازلة ستقع، وتشعر عدا ذلك بأن موقف كاترينا ايفانوفنا يهينها إلى أعماق قلبها، فمن أجل أن تغير الجو السيئ الذي يسود الحفل، ومن أجل أن ترفع قدر نفسها في نظر الناس في الوقت ذاته، أخذت على حين فجأة تروي أن شخصاً من معارفها اسمه «كارل، وهو مساعد صيدلاني»، قد استأجر عربة في الليل، فأراد الحوذى أن «يقتله»، فأخذ كارل يتسلل إليه أن لا يفعل، وضم يديه باكيًّا، وبلغ من الرعب أن قلبه كاد يثب من مكانه». وكان في نطق آماليا لكنة ألمانية واضحة، فقالت لها كاترينا ايفانوفنا، وهي تبتسم، أن عليها أن لا تروي نوادر باللغة الروسية. فازداد

استيء آماليا ايفانوفنا، فرددت عليها تقول بلغة تحالفتها ألمانية، وتسودها لكنة ألمانية، إن أباها البرليني كان «رجلًا خطير الشأن جداً، وأنه كان يتجلو واضعاً يديه في جيوبه دائمًا». ولم تطق كاترينا ايفانوفنا الساخرة صبراً، فانطلقت تضحك ضحكاً صاحباً مجنوناً، فكان على آماليا ايفانوفنا التي نفرت صبرها أن تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تنفجر.

وعادت كاترينا ايفانوفنا توشوش راسكولنيكوف بما يشبه المرح قائلة:

— يا للبومة العجوز! أرادت أن تقول إن أباها كان يتجلو واضعاً يديه في جيوبه، فإذا هي تقول إن أباها كان ينش جيوبه دائمًا! هي هي! هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أن جميع هؤلاء الأجانب في بطرسبرج، ولا سيما الألمان، الذي يتلقاون علينا من كل حدب وصوب، هم جميعاً أغبي منا. انظر بنفسك: هل يمكن أن يروي أحد أن «كارل، مساعد الصيدلاني، كاد يثبت قلبه من مكانه»، وأن هذا الأبله قد «ضمّ يديه باكيًا» (ذلك الجبان!). بدلًا من أن يوثق الحوذى؟ آه! يا للغبية الحمقاء! هي تخيل أن قصتها مؤثرة جداً. إنها لا تدرك مدى ما في هذه القصة من سخافة وبلاهة! في رأيي أن هذا الموظف السكير أذكي منها كثيراً! إن المرء يرى على الأقل أنه ترك البقية الباقيه من عقله في قاع كأسه، أما الآخرون فهم جادون وقورون!.. انظر كيف تُجْيل عينيها وتديرهما! أنها غاضبة، أنها غاضبة! ها ها ها! هي هي هي!

وإذ اشرحت كاترينا ايفانوفنا هذا الانسراح، أسرعت تندفع في سرد طائفة من التفاصيل، فأعلنت أنها بفضل معاش التقاعد الذي ستحصل عليه، سوف تفتح مدرسة داخلية للبنات النبيلات في مدينة «ت...» التي ولدت فيها. ولم تكن كاترينا ايفانوفنا قد أطلعت راسكولنيكوف على مشروعها هذا. لذلك أخذت تشرح هذا النبأ شرحاً مستفيضاً، وأخذت تصف الحياة الرائعة التي ستعيشها وصفاً مسهاً. ولا يدرى أحد كيف وُجدت بين يديها، على حين فجأة «شهادة التقدير» تلك التي سبق أن

تحدث عنها المرحوم مارميلادول إلى راسكولنيكوف حين ذكر له في أول لقاء بالخمارة أن زوجته كاترينا ايفانوفنا قد رقصت، في يوم تخرجها من المدرسة الداخلية، رقصة وعلى كتفيها شال، «أمام المحافظ وشخصيات رسمية أخرى». كان واضحًا أن الغرض من إبراز هذه الشهادة هو أن تثبت أن كاترينا ايفانوفنا من حقها أن تفتح مدرسة داخلية؛ ولكن كان الغرض الرئيسي من إبرازها أيضًا هو أن تخِرس تينك المرأتين الفاسدين إذا هما قبلتا الدعوة وأن تبرهن لهما برهاناً قاطعاً على أن كاترينا ايفانوفنا تنتمي إلى أسرة نبيلة، بل يمكن القول أسرة أرستقراطية، فهي ابنة عقيد، وهي أفضل كثيراً من «أولئك النسوة المغامرات التافهات اللواتي ازداد عددهن ازدياداً كبيراً في الآونة الأخيرة». وسرعان ما دارت الشهادة بين أيدي المدعويين السكارى، وذلك أمر حاذرت كاترينا ايفانوفنا أن تعترض عليه أي اعتراض، لأن الشهادة^{٤٤} كانت تنص *en toutes lettres* على أن كاترينا ايفانوفنا هي فعلاً بنت مستشار قضائي، أي بنت عقيد تقريراً. وقدت مي كاترينا ايفانوفنا فأفاضت في الكلام على جميع تفاصيل الحياة الجميلة الهاوائية التي تنتظرها في مدينة «ت...»، وتكلمت عن الأساتذة الذين ستدعوهם إلى التدريس في مدرستها، وتكلمت عن شيخ محترم هو السيد مانجو الذي علّمها اللغة الفرنسية حين كانت تلميذة في المدرسة الداخلية، والذي ينهي الآن أيامه في مدينة «ت...»، ولا شك أنه سيقبل أن يدرّس في مدرستها بأجر معقوله. وجاءت أخيراً على ذكر صونيا، فقالت أن «صونيا ستذهب هي أيضاً إلى مدينة ت...، وأنها ستتفنّعها هنالك في أمور كثيرة». ولكن حين قالت كاترينا ايفانوفنا هذا الكلام، خنق أحدهم ضحكة عند الطرف الآخر من المائدة. فتظاهرةت كاترينا ايفانوفنا بأنها لم تسمع الضحكة، ورفعت صوتها لتعدد المزايا الأكيدة التي تتحلى بها صونيا سيميونوفنا، وأضافت أن صونيا سيميونوفنا «جدية بأن تساعدها، لما تمتاز به من رقة وعدوبة، وصبر ودأب، وتضحية وبذل، ونبل نفس وحسن تربية». ثم ربتت على

^{٤٤} نصاً صريحاً وكمالاً. (بالفرنسية في الأصل).

خدّي صونيا، ونضت تقبّلها بحرارة مرّة أُولى فمرة ثانية. واحمر وجه صونيا احمراراً شديداً. ثم ما لبّت كاترينا ايفانوفنا أن أجهشت باكيّة على حين فجأة وهي تقول «أنها ليست مخلوقة بلهاء بائسة محطمة الأعصاب، وأنها قد نفّد صبرها وبارحتها قواها... وأن الطعام قد انتهى فليصبّوا الشاي!»

وكانـت آماليـا ايفـانـوفـنا قد أضـنـاـها وأـهـلـكـها أـنـهـا لم تـسـتـطـعـ أنـتـشـارـكـ فيـالـحـدـيـثـ، حتـىـ أـنـهـاـ لمـ يـسـتـمـعـ لهاـ وـلـمـ يـصـغـ إـلـىـ كـلـامـهـاـ، فـقـامـتـ فيـ تـلـكـ الـلـحـظـةـ بـمـحـاـوـلـةـ أـخـيـرـةـ. اـسـتـجـمـعـتـ شـجـاعـتـهاـ وـوـجـّـهـتـ إـلـىـ كـاتـرـيـنـاـ اـيـفـانـوـفـناـ، رـغـمـ ماـ تـوـجـسـهـ فيـ قـرـارـةـ نـفـسـهـاـ منـ قـلـقـ وـخـشـيـةـ، مـلـاحـظـةـ هيـ منـ أـعـقـمـ الـمـلـاحـظـاتـ وـأـشـدـهـاـ جـرـأـةـ، إـذـ قـالـتـ لهاـ أـنـهـ سـيـكـونـ عـلـيـهاـ فيـ الـمـدـرـسـةـ الـدـاخـلـيـةـ أـنـ تـعـنـىـ عـنـيـةـ خـاصـةـ بـالـمـلـاءـاتـ النـظـيـفـةـ لـلـبـنـاتـ (ـقـالـتـ كـلـمـةـ الـمـلـاءـاتـ بـالـأـلـمـانـيـةـ)، «ـوـأـنـ تـسـتـخـدـمـ لـهـذـاـ الـغـرـضـ سـيـدـةـ مـحـتـرـمـةـ»ـ، وـأـنـ عـلـيـهاـ كـذـلـكـ أـنـ لـاـ «ـتـدـعـ لـأـيـةـ فـتـاةـ أـنـ تـقـرـأـ رـوـاـيـاتـ فـيـ الـلـلـيـلـ سـرـاـ»ـ. وـكـانـتـ كـاتـرـيـنـاـ اـيـفـانـوـفـناـ ثـائـرـةـ الـأـعـصـابـ مـهـدـوـدـةـ الـقـوـىـ، نـاهـيـكـ عـنـ إـزـعـاجـاتـ الـمـأـدـبـةـ، فـسـرـعـانـ ماـ اـنـفـجـرـتـ تـتـهـجـمـ عـلـىـ آـمـالـيـاـ اـيـفـانـوـفـناـ قـائـلـةـ لهاـ إـنـهـاـ تـقـولـ «ـسـخـافـاتـ وـحـمـاقـاتـ»ـ وـإـنـهـاـ لـاـ تـفـهـمـ شـيـئـاـ مـنـ شـيـئـاـ: «ـفـالـاـهـتـامـ بـالـمـلـاءـاتـ فـيـ الـمـدـرـسـةـ الـدـاخـلـيـةـ الـبـيـلـةـ لـاـ يـقـعـ عـلـىـ عـاتـقـ الـمـدـيـرـةـ بـلـ هـوـ مـنـ اـخـتـصـاـصـ الـفـرـاشـةـ. أـمـاـ قـرـاءـةـ الـرـوـاـيـاتـ فـإـنـ إـلـيـهـاـ هـيـ فـيـ حـدـ ذاتـهاـ أـمـرـ غـيرـ لـائـقـ، لـذـلـكـ يـحـسـنـ بـآـمـالـيـاـ اـيـفـانـوـفـناـ أـنـ تـصـمـتـ فـلـاـ تـقـولـ شـيـئـاـ»ـ.

اصطـبـعـ وـجـهـ آـمـالـيـاـ اـيـفـانـوـفـناـ بـحـمـرـةـ شـدـيـدـةـ مـنـ فـرـطـ الـاـسـتـيـاءـ، فـقـالـتـ غـاضـبـةـ إـنـ «ـنـيـاتـهاـ حـسـنـةـ»ـ وـإـنـهـاـ لـاـ تـرـيـدـ لهاـ إـلـاـ «ـخـيـرـاـ كـثـيرـاـ»ـ رـغـمـ أـنـهـاـ مـنـذـ مـدـةـ طـوـيـلـةـ لـمـ تـقـبـضـ مـنـهـاـ أـيـ مـالـ (ـقـالـتـهاـ بـالـأـلـمـانـيـةـ)ـ مـنـ أـجـرـةـ الـمـسـكـنـ. فـسـرـعـانـ ماـ رـدـّـتـهاـ كـاتـرـيـنـاـ اـيـفـانـوـفـناـ إـلـىـ مـكـانـهـاـ، إـذـ قـالـتـ لهاـ إـنـهـاـ تـكـذـبـ فـيـ اـدـعـائـهـاـ أـنـهـاـ تـرـيـدـ لهاـ الـخـيـرـ، لـأـنـهـاـ فـيـ الـلـيـلـةـ الـبـارـحةـ نـفـسـهـاـ، بـيـنـمـاـ كـانـ الـمـتـوـفـيـ ماـ يـزـالـ رـاـقـدـاـ عـلـىـ الـمـائـدـةـ، جـاءـتـ تـعـذـبـهـاـ بـمـسـأـلـةـ أـجـرـةـ الـمـسـكـنـ هـذـهـ. وـحـالـفـ التـوـفـيقـ آـمـالـيـاـ اـيـفـانـوـفـناـ فـيـ الرـدـ فـقـالـتـ لهاـ إـنـهـاـ «ـدـعـتـ السـيـدـاتـ، وـلـكـنـ تـلـكـ السـيـدـاتـ لـمـ يـجـئـنـ، لـأـنـ تـلـكـ السـيـدـاتـ سـيـدـاتـ مـحـتـرـمـاتـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـلـبـيـنـ دـعـوـةـ سـيـدـةـ غـيرـ مـحـتـرـمـةـ»ـ.

فأسرعت كاترينا ايفانوفنا تلّح فوراً على أن آماليا ايفانوفنا ليست مؤهلة لأن تفصل فيما هو محترم وفيما هو ليس بمحترم، لأنها هي نفسها غير محترمة وغبية. ولم تحتمل آماليا ايفانوفنا هذه الشتيمة، فسرعان ما أعلنت أن «أباها البرليني» (قالتها بالألمانية) كان رجلاً خطير الشأن جداً، جداً، وأنه كان يمشي واضعاً يديه في جيبيه، وأنه كان دائماً يزفر هكذا: بوف... بوف!.. ومن أجل أن تعطي عن أبيها صورة محسوسة أكثر من ذلك، نهضت عن مكانها ودست يديها في جيبيها ونفخت خديها وأخذت تخرج من فمها أصواتاً مبهمة لكنها تشبه «بوف، بوف»، فكان جميع المستأجرين يضجون بضحك صاحب، وكان يجلو لهم، وقد أحسوا بأن معركة ستقع بين المرأتين، أن يحرضوا آماليا ايفانوفنا باستحسانهم مزيداً من التحرير.

طفح الكيل بالنسبة إلى كاترينا ايفانوفنا، فسرعان ما أعلنت بصوت واضح وقوي يسمعه الجميع أن آماليا ايفانوفنا قد لا يكون لها «أب» أصلاً، وأنها ليست إلا سكيرة فنلندية من بطرسبرج، وأنها لا بد أن تكون قد عملت طباخة أو ما هو أسوأ من ذلك أيضاً.

احمرت آماليا ايفانوفنا أحمراراً شديداً وزعت تقول: «إن كاترينا ايفانوفنا هي التي قد لا يكون لها أب، أما أبوها هي فقد كان يعيش ببرلين، وكان يرتدي ردنجوتاً طويلاً، وكان ينفخ دائماً: «بوف، بوف».

قالت كاترينا ايفانوفنا باحتقار «إن أصلها هي يعرفه الجميع وإن الشهادة التي قرأها الحضور منذ لحظة تذكر هي نفسها بكلام مطبوع أن أباها كان عقيداً. أما أبو آماليا ايفانوفنا (إذا صح أن لها أباً) فلا بد أنه فنلندي من بطرسبرج كان بائع حليب، ولكن أغلب الظن أنها لم يكن لها أب أصلاً، والدليل على ذلك أنها لا نdry حتى الآن هل الاسم الذي ينسبها إلى أبيها هو ايفانوفنا أو لودفيجوفنا».

هنا بلغ حنق آماليا ايفانوفنا ذروته، فضربت المائدة بقبضه يدها وأعولت تقول: «إن اسمها هو آماليا ايفانوفنا وليس آماليا لودفيجوفنا، وأن أباها كان اسمه يوحنا، وأنه كان عمدة مدينة، وذلك منصب لم يشغله أبو كاترينا ايفانوفنا في يوم من الأيام».

أصفر وجه كاترينا ايفانوفنا اصفراراً شديداً، واهتز صدرها اهتزازاً عميقاً، ونهضت عن مكانها وقالت بصوت قاسٍ ظاهره المدوء: إذا تجرأت آماليا ايفانوفنا ولو مرة واحدة أخرى «فقارنت بين أبيها التافه الذي لا قيمة له، وبين أبيها هي، فلتزعن عنها قبعتها ولتدوسنّها بقدميها». فلما سمعت آماليا ايفانوفنا هذه الكلمات أخذت ترکض في الغرفة طولاً وعرضأً، وهي تصرخ بكل ما أوتيت من قوة أنها صاحبة البيت، وأن على كاترينا ايفانوفنا أن «تخلي المسكن فوراً». ثم أسرعت تجمع لغرض ما ملاعقها الفضية من على المائدة. وأعقبت ذلك جلبة لا توصف، فالأصوات تنفجر من هنا ومن هناك، والأولاد أخذوا يبكون؛ واندفعت صونيا تريد أن تصد كاترينا ايفانوفنا ولكن آماليا ايفانوفنا صرخت تقول شيئاً عن البطاقة الصفراء، فما كان من كاترينا ايفانوفنا إلا أن دفعت عنها صونيا وهجمت على آماليا ايفانوفنا لإنفاذ التهديد الذي أعلنته بصدّ القبعة.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب، وظهر في العتبة بيوتر بتروفتش لوجين فجأة. توقف لوجين لحظة، وألقى على الحضور جميعهم نظرة صارمة فاحصة، فهرعت كاترينا ايفانوفنا نحوه.

الفصل الثالث

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول:

– بيوتر بتروفتش! أنت على الأقل، أنجذبني، أغثني! أفهم هذه المخلوقة الغبية أنها لا يحق لها أن تعامل بمثل هذه المعاملة سيدة من أسرة كريمة أخنى عليها الدهر، وأن هناك محاكم لهذا الأمر... سوف أشتكي إلى المحافظ بشخصه... سوف تحاسب على ما فعلت!.. تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلتك به أبي... كان حامياً ليتامياً..

قال بيوتر بتروفتش مردداً مكرراً وهو يبعد كاترينا ايفانوفنا بحركة من يده:

– اسمحي لي يا سيدتي، اسمحي لي، اسمحي لي يا سيدتي. أنا لم أتشرف بمعروفة أبيك في يوم من الأيام، وأنت تعلمين هذا حق العلم... اسمحي لي يا سيدتي! (أخذ أحدهم يضحك ضحكاً صاحباً). ولست أنوي أن أشارك في مشاجراتك المتصلة مع آماليا ايفانوفنا... أنا إنما جئت لأمر... شخصي، أنا إنما جئت أطلب على الفور أيضاً من ابنة زوجك صونيا ايفانوفنا... هذا هو اسمها، أليس كذلك؟ فاسمحي لي أن أمر...
لي أن أمر...

قال بيوتر بتروفتش ذلك وترك كاترينا ايفانوفنا واتجه إلى الركن المقابل من الغرفة، حيث كانت صونيا.

تجمدت كاترينا ايفانوفنا كأنها نزلت عليها صاعقة. لم تستطع أن تفهم كيف أمكن أن ينكر بيوتر بتروفتش أن أباها قد أكرم ضيافته. إنها وقد تخيلت تلك الضيافة أصبحت تصدقها وتومن بها هي نفسها. وهذه اللهجة التي تكلم بها بيوتر بتروفتش، هذه اللهجة الخشنة، الرسمية، التي فيها احتقار وتهديد، قد أدهشتها أيضاً. على أن الجميع قد صمموا منذ دخل بيوتر بتروفتش. إن «رجل الأعمال الجاد» هذا يفوقسائر الحضور شأنًا، ولقد كان واضحاً عدا ذلك أنه إنما جاء لأمر خطير، فلا بد أن يكون هناك سبب

خارق دفعه إلى المجيء إلى هذه البيئة، ولا بد إذن أن يقع حادث ما بعد قليل. وكان راسكولنيكوف إلى جانب صونيا فتنحى حتى يدع له أن يمر. وبدأ على راسكولنيكوف أن بيوتر بتروفتش لم يلاحظه. وبعد دقيقة ظهر ليزياتينيكوف في عتبة الباب هو أيضاً. لم يدخل الغرفة، غير أنه وقف مستطلاً كذلك، حتى ليكاد يكون مدهوشًا. وقد أصاخ بسمعه مصغياً، لكنه ظل مدة طويلة يبدو عليه أنه لا يفهم الأمر الذي يدور عليه الكلام.

قال بيوتر بتروفتش يخاطب الجميع:

– اغفروا لي إزعاجكم، غير أن القضية هامة خطيرة، بل إنني يهمني أن تنجلِي الأمور على رؤوس الأشهاد. يا آماليا ايفانوفنا، أرجوك وألح في الرجاء أن تستمعي إلى الحديث الذي سأجريه مع صونيا ايفانوفنا، بصفتك صاحبة البيت.

وتابع كلامه يقول مخاطباً صونيا التي كانت مذهولة وكانت مروعة مذعورة سلفاً:

– يا صونيا ايفانوفنا، بعد زيارتك فوراً افتقدت ورقة نقدية قيمتها مائة روبل كانت موجودة على المائدة في غرفة صديقي آندريه سيميونوفتش ليزياتينيكوف. فإذا كنت تعرفين بطريقة أو بأخرى أين توجد هذه الورقة. المالية الآن، وقلت لنا أين توجد، فإن لك على عهد الشرف – وهؤلاء جميعاً شهود على ما أقول – أن تقف القضية عند هذا الحد؛ وإلا كنت مضطراً أن ألجأ إلى إجراءات أخطر... وليس لك عندئذ أن تلومي إلا نفسك!

خيّم على الغرفة صمت مطلق. حتى الأطفال الذين كانوا ي يكون سكتوا. وكانت صونيا واقفة، شاحبة كأنها ميتة، تنظر إلى لوجين ولا تجد كلاماً تحييه به. كان يبدو عليها أنها لا تفهم. وانقضت بضع ثوان.

سألها لوجين وهو يحدق إليها:

— هيء؟ ما قولك؟

فقالت صونيا أخيراً بصوت واهن:

— لا أعلم... لا أعلم شيئاً...

— حقاً؟ لا تعلمين؟ لا تعلمين شيئاً؟

كذلك سألهما لوجين مكرراً، ولزم الصمت بعض ثوان أخرى، ثم استأنف كلامه فكأنه ينذر وينصح:

— فكري يا آنسة، فكري في الأمر. أحب أن أمهلك بعض الوقت لتفكيري. اسمعي: لو لا أنتي واثق بما أقول، موقن منه، فإنني بحكم تجربتي ما كنت لأجازف فأوجه إليك اتهاماً مباشراً إلى هذا الحد، لأنني سأحاسب أنا نفسي عن توجيه مثل هذا الاتهام المباشر على رؤوس الأشهاد إذا ظهر أنه خطأ فحسب. ذلك أمر أعرفه. إنني في هذا الصباح قد بدلت، لقضاء حاجات شخصية، بضعة سندات ذات ريع، قيمتها الاسمية ثلاثة آلاف روبل. ذلك هو الرقم المسجل في دفترني. فلما عدت إلى مسكنني – وإن آندرية سيميونوفتش شاهد على ذلك – أخذت أعد المال من باب التثبت والتحقق، حتى إذا عدت ألفين وثلاثمائة روبل، رتبتها في محفظتي ووضعت المحفظة في الجيب الداخلي من ريدنجوفي. وبقي على المائدة نحو خمسة روبل أوراقاً نقدية، منها ثلاثة قيمة الواحدة مائة روبل. وفي تلك اللحظة دخلت أنت (تلبيةً لدعوتي)، وطوال المدة التي قضيتها عندي، كان يبدو عليك اضطراب شديد، حتى أنك قد نهضت أثناء الحديث ثلاث مرات. كنت تريدين أن تخرجي – لا أدرى لماذا! – رغم أن محادثي معك لم تكن قد انتهت. إن آندرية سيميونوفتش يستطيع أن يؤكد هذا كله. وأغلب الظن أنك لن ترفضي أنت نفسك، يا آنسة، أن تعرفي بأنني أرسلت آندرية سيميونوفتش في طلبك هدف واحد هو أن أتكلم معك في الوضع المحزن الذي آلت إليه قريبتك كاترينا ايفانوفنا (التي لم أستطع أن أشارك في مأدبتها)، وفي

وسائل مساعدتها بتنظيم اكتتاب تبرعات أو إقامة يانصيب أو شيء من هذا القبيل. وقد شكرتني، حتى أن الدموع ترقرقت من عينيك (إنني أروي الأشياء كما وقعت، أولاً لأذكرك بها، وثانياً لأبين لك أنه ما من تفاصيل من التفاصيل قد تمحى من ذاكرتي). ثم تناولتُ من على المائدة ورقة عشرة روبلات وأعطيتك إياها، دليلاً على اهتمامي بقريبيتك، ومشاركة أولى مني في مساعدتها. وهذا أيضاً قد رأه آندريه سيميونوفتش. ثم شيعتك حتى الباب - وأنت في نفس الاضطراب والارتباك. وخلوت بعد ذلك إلى آندريه سيميونوفتش. وتحدثتُ معه قرابة عشر دقائق. حتى إذا خرج عدت إلى المائدة أتوي أن أرتب، على حدة، المال الذي كان موضوعاً عليها، وذلك بعد أن أعددّه مرة أخرى (كنت قد قررت ذلك من قبل). فما كان أشد دهشتي حين وجدت أن ورقة مالية بمائة روبل قد فقدت. أفصلي في الأمر بنفسك: لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أشك في آندريه سيميونوفتش، حتى أن هذه الفكرة وحدها تشعرني بالخجل والعار. لا ولا يمكن أن أكون قد أخطأت في حساباتي، لأنني قبل وصولك بدقة واحدة كنت قد تثبت من صحة المجموع. لذلك، ونظراً لاضطرابك الشديد أثناء المقابلة، ونظراً لاستعجالك الخروج، ونظراً لكونك قد ظللت واسعةً يديك على المائدة بضع لحظات، ونظراً لوضعك الاجتماعي وما يخلقه من عادات، فقد أكرهت إن صح التعبير، أكرهت مرتاعاً مشمئزاً على أن أتوقف عند شبهة لا شك أنها قاسية لكنها في محلها ولها ما يسوّغها. أضيف وأكرر أني رغم يقيني البدائي الكامل أدرك أن إلقاء هذه التهمة لا يخلو من مخاطر أتعرض لها. ولكنني لم أتردد دقيقة واحدة، كما ترين، بل ثارت ثائرتي واستعرَ حنقِي، وسأقول لك الآن لماذا ثارت ثائرتي واستعر حنقِي: إن سبب ذلك هو نكرانك الفظيع للجميل يا آنسة؟ كيف؟ أدعوك إلى مسكنِي، وأهتم بقريبيك المسكينة، وأعطيك عشرة روبلات مساهمة مني في مساعدتها، فتكافئيني هذه المكافأة في تلك الدقيقة نفسها! لا، حقاً ليس هذا حسناً! ولا بد أن ألقنك درساً! فكري في الأمر! ثم إنني أطلب منك ذلك كصديق مخلص (وليس يمكن أن يكون

لك في هذه اللحظة صديق خير مني): تذكرني هذا، وإن أصيحتُ بغير رحمة أو شفقة. هل تعرفين بأنك..

دمدمت صونيا تقول مذعورة:

— أنا لم أسلبك شيئاً. أنت أعطيتني عشرة روبلات. ها هي ذي. إنني أردها إليك.

واستلت صونيا من جيبيها منديلاً، واهتدت إلى العقدة التي عقدتها فيه ففاضتها وسحببت منها ورقة العشرة روبلات ومدّتها إلى لوجين. قال لوجين ملحاً، بلهجة اللوم والتقرير، دون أن يتناول الورقة المالية:

— ألا تعرفين إذن بالمائة روبل؟

أجالت صونيا بصرها فيها حوالها. كان الجميع ينظرون إليها بعيون قاسية، ساخرة، مبغضة!.. وألقت نظرة على راسكولنيكوف.

كان راسكولنيكوف واقفاً، مسندًا ظهره إلى الجدار، عاقداً ذراعيه على صدره، يحذق إليها بعينين ملتمعين.

وأفلتت من صونيا هذه الاستغاثة:

— يا رب!

قال لوجين في رفق، بل بصوت عذب:

— يا آماليا ايفانوفنا، سيكون علينا أن نبلغ الشرطة، فأرجوك بانتظار ذلك أن ترسل أحداً ينادي الباب..

قالت آماليا ايفانوفنا وهي تضرب كفًا بكف:

— «غوت دير بار مغير تسيغيه»^{٤٠}! كنت أعرف أنها لصة!

قال لوجين:

— ها... كنت تعرفين ذلك؟ لا بد أن يكون هنالك إذاً سبب دعاك إلى استخلاص هذه النتيجة، واستخراج هذا الرأي في الماضي! فأرجوك يا آماليا ايفانوفنا، المحترمة جداً، أن تتذكري هذه الكلمات التي قلتها الآن، وقد قلتها أمام شهود على كل حال..

أخذ الحضور يتكلمون بأصوات قوية دفعة واحدة في كل جهة من الجهات، وشمل الحفل كله اضطراب كبير.

صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول فجأة وقد ثابتت إلى رشدها:

— كيف؟

وأندفعت مسرعة نحو لوجين مرددة:

— كيف؟ أتهمها بالسرقة؟ أتهمها هي؟ هي، صونيا؟ آه... يا للأوغاد! يا للأوغاد!

وارتقت على صونيا، فاحتضنتها بذراعيها المعروقتين الهزيلتين. وتابعت كلامها تقول:

— صونيا! كيف تجرأت أن تقلبي عشرة روبلات من هذا الرجل؟ يا لك من حقاء! يا لك من حقاء! ردّيها إليه حالاً!، ردّيها إليه حالاً ، روبلاته العشرة! خذ...

^{٤٠} يا إله الرحمة! (بالألمانية في الأصل).

انزعت كاترينا ايفانوفنا الورقة النقدية من يد صونيا، فدعتها بيدتها، ورمتها في وجه لوجين، فأصابت كرتها عينه ثم تدحرجت على أرض الغرفة. فأسرعت آماليا ايفانوفنا تشيلها، وغضب بيوتر بتروفتش،

وصرخ قائلاً:

– أمسكوا هذه المجنونة!

وفي تلك الدقيقة ظهر عدة أشخاص آخرين يمكن أن نرى بينهم، عدا ليزياتنيكوف، السيدتين القادمتين من الأقاليم، اللتين تسكنان هنا منذ مدة قصيرة.

زعقت كاترينا ايفانوفنا تقول:

– كيف؟ المجنونة؟ أأنا المجنونة؟ يا للأبله! يا للوغد الشقي! يا للرجل الدنيء! صونيا، صونيا، تسرق منه مالاً؟ صونيا، سارقة؟ ولكنها قادرة على أن تعطيك أنت مالاً يا أبله!

صرخت كاترينا ايفانوفنا ذلك وانفجرت تضحك ضحكة هستيرية، وهتفت تقول وهي ترکض إلى اليمين وإلى اليسار مشيرة بجميع الناس إلى لوجين:

– أرأيتم إلى هذا الأبله؟

ولمحت صاحبة البيت فجأة فقالت:

– كيف؟ أفأنت أيضاً تدعين أنها سارقة؟ يا للدجاجة الألمانية! انظروا إليها الناس، انظروا!

وعادت تخاطب بيوتر بتروفتش فقالت:

– آه... أنت... أنت... أجهلت أنها لم تترك هذه الغرفة لحظة واحدة إليها النذل، فما أن خرجت من عندك حتى جاءت تجلس إلى جانب روديون رومانوفتش! فتشها إذاً! فما دامت لم تذهب إلى أي مكان، فلا بد

أن يكون المال معها. ابحث إذا! ابحث! ابحث! ولكن إذا لم تجد شيئاً يا عزيزي فلتتحاسبن على افتراك!
إلى الإمبراطور سأشكوك، إلى الإمبراطور، إلى القيصر الرحيم! لأرتدين على قدميه حالاً، في هذا اليوم
نفسه! أنا يتيمة! سيسمحون لي بالدخول! ماذا؟ أتظن أنهم لن يسمحوا لي بالدخول؟ أنت إذاً مخطئ!
لسوف أصل إليه، لسوف أصل إليه! آ... كنت تعول على خجلها وحيائها، على رقتها وخفتها، أليس
كذلك؟ على هذا إنما كنت تبني أملك! ولكنني، أنا، لا أستحي يا عزيزي! أنا عيناي ماء! هيا فتش!
فتش!

قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك خارجة عن طورها وقد أخذت تهز لوجين بكل قواها وتجره نحو صونيا.
تمتم لوجين:

– أنا مستعد... أنا مستعد لأن أحاسب... ولكن هدئي روحك يا سيدتي، هدئي روحك! أني للاحظ
حقاً أنك لا تستحين... أمام الشرطة إنما يحسن في الواقع أن... رغم أن ههنا شهوداً يكفي عددهم
ويزيد... أنا مستعد... ولكن هذه مهمة محرجة بالنسبة إلى رجل... وذلك بسبب... بسبب الجنس
طبعاً... ليتنى أستطيع أن أطلب إلى آماليا ايفانوفنا أن تساعدنى... رغم أن الطريقة الواجبة ليست هذه
الطريقة... ليست هذه الطريقة... ما العمل؟

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول:

– اختر من تشاء! فليفتتشها من يريد أن يفتشها! صونيا! أقلبي جيوبك أمامهم! انظر، انظر إليها الشيطان!
وكان ثمة هناك منديل... هانت ذاتى أن جيبها خال. أرأيت؟ واقلبي الجيب الآخر الآن! انظر، انظر!
أرأيت؟ أرأيت؟

ولم تكتف كاترينا ايفانوفنا بقلب جيبي صونيا، بل شدّتها شدّاً عنيفاً لظهورهما إظهاراًًاً أوّلّاً، فإذا بورقة صغيرة تشبّع عندئذ من الجيب الثاني، وهو الجيب الأيمن، فترسم في الهواء قوس دائرة ثم تسقط عند قدمي لوجين.

جميع الحضور رأوا الورقة، وكثيرون منهم أطلقوا صرخات. ومال بيوتر بتروفتش على الأرض، فتناول الورقة بإصبعين، وفضّلها على مرأى من الشهود كافة. أنها ورقة مائة روبل قد طُويت ثمان طيّات. أجال بيوتر بتروفتش يده في جميع الاتجاهات حتى يتمكن الحضور جميعاً من رؤية الورقة رؤية واضحة.

أعولت آماليا ايفانو فنا تقول:

— سارقة! لصة! أغربي عن وجهي! نادوا الشرطة، الشرطة! يجب إرسالهم إلى سيبيريا! أخرجوا من هنا!
وارتفعت صيحات من كل صوب. وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يحول بصره عن صونيا، مع إلقائه
نظرة سريعة على لوجين من حين إلى حين. وما تزال صونيا واقفة في مكانها كأنها أصبيةت بخبار، حتى
أنها لا تبدو عليها دهشة. وفجأة أحمر خداها أحمراراً شديداً، وأطلقت صرخة خفيفة، وأخفت وجهها
في يدها، ثم صرخت بصوت ممزق يقطعه نشيج بكاء، وهي تندفع نحو كاترينا، صرخت تقول:

—لا، لست أنا!! أنا لم آخذها! لا أعلم!

فاحضستها كاترينا ايفانوفنا بذراعيها، وضمتها إليها بقوة كأنها تريد أن تجعل من صدرها متراساً يحميها. وصرخت كاترينا ايفانوفنا تقول على خلاف الدليل القاطع، وهي تهدهدها في ذراعيها كما يهدّه طفل صغر، وتقبّلها طائشة العقل، وتمسّك يديها فتغرقهما لثماً:

– صونيا! صونيا! لست أصدق! هاًنت ذي ترين أنتي لا أصدق! أنت تسرقين؟ أهم أغبياء حتى يصدقوا أنك تسرقين؟ يا رب!..

ثم صرخت تخاطبهم جمِيعاً:

– أنتم أغبياء؛ أنتم بلهاء! أنتم إذن لا تعرفون حتى الآن مدى ما تتمتع به من طيب القلب ونبل النفس! أنتم إذن لا تعرفون أية فتاة هي! أهي تسرق؟ هي؟ ألا إنها لمستعدة أن تهب للناس آخر قميص تملكه، ألا إنها لمستعدة أن تسير حافية القدمين لتبكي آخر قميص تملكه، إذا كتم في حاجة إليه! نعم، هذه هي طبيعتها! ولئن تطوعت فأصبحت ذات بطاقة صفراء، فلأن أولادي كانوا يتضورون جوعاً! لقد باعت نفسها في سبيلنا! آه... يا زوجي الراحل... يا زوجي المسكين الراحل، هل ترى هذا؟ هل ترى؟ انظر إلى مأدبة الجنازة هذه التي تقام لك! رباه! ولكن ما بالكم لا تدافعون عنها أنتم؟ ما بالكم تبكون جامدين كالموياوات؟ لماذا لا تدافعون عنها أنت يا روديون رومانوفتش؟ أتصدق أنت أيضاً أنها حقاً؟.. إنكم جمِيعاً لا تساوون خنجرها، جمِيعاً، جمِيعاً، جمِيعاً! هلاً دافعتم عنها أخيراً يا رباه!..

كان لشهقات كاترينا ايفانوفنا المسكينة، المصدورة، التي هجرها جميع الناس أثر قوي في الحضور. إن هذا الوجه الحزين المخرب الضاوي من وجوه المصابين بداء السل، وإن هاتين الشفتين اليابستين المدماتين، وإن هذا الصوت الأخش الصافر، وإن هذا النشيج المتشنج الذي يشبه نشيج الأطفال؛ وإن هذه الضراعة التي فيها ثقة الأطفال رغم ما فيها من يأس، إن ذلك كله كان يبلغ من إثارة الشفقة وإيلام النفس أن الجميع أصبحوا كمن يرثي حال المرأة الشقية من أعماق نفسه. وسرعان ما رثى لحالها بيوتر بتروفتش على كل حال. قال يهتف بصوت يعبر عن الحماية والرعاية:

— سيدتي، سيدتي! ليس لك في هذا الأمر ضلعاً! ما من أحد يخطر بباله أن يتهمك بسوء النية أو المشاركة والتواطؤ، لا سيما وأنك توليت بنفسك قلبَ جيوبها، فهذا دليل على أنك لم تراودك أية شبهة. إنني مستعد أتم الاستعداد، نعم، أتم الاستعداد، لأن أتسامح إذا كان المؤس هو الذي دفع صونيا سيميونوفنا إن صح التعبير. ولكن لما لم تشاري أن تعترفي يا آنسة؟ لعلك كنت تخشين العار؟ لعل تلك الخطوة كانت خطوتك الأولى في هذا الطريق؟ لعلك كنت قد فقدت صوابك؟ ذلك أمر يُفهم تماماً. ولكن لماذا، لماذا وضعت نفسك في موقف كهذا الموقف؟

وأردف بيوتر بتروفتش يُشهد الحضور قائلاً:

— أيها السيدات والساسة، إنني، من باب الشفقة أو قولوا من باب الرأفة والرحمة، ما أزال مستعداً لأن أغفر وأصفح، رغم الإهانات والشتائم الشخصية التي وُجّهت إليّ!

والتفت إلى صونيا، فقال لها:

— نعم يا آنسة، ليكن الخزي الذي أصابك الآن درساً يفيدك في المستقبل. لن أتابع هذه القضية. أريد أن تقف الأمور عند هذا الحد. يكفي هذا.

وبطرف العين نظر بيوتر بتروفتش إلى راسكولنيكوف، فاللتقت نظراتهما. كانت نظرة راسكولنيكوف المشتعلة الملتهبة تهمّ أن تسحق لوجين سحقاً.

ولم يجد على كاترينا ايفانوفنا أنها سمعت شيئاً. كانت تعانق صونيا وتقبّلها كمجونة. وكان الأطفال أيضاً يضمون صونيا بأذرعهم الصغيرة، وقد أجهشت بوليتشكا باكية، (رغم أنها لم تفهم الأمر الذي يدور عليه المشهد فهماً واضحاً)، وألقت وجهها الجميل المتفتح على كتف صونيا، مهتزة الجسم من النشيج.

— أندال هذا! قال صوتٌ رصين على حين فجأة قرب الباب.

النفت بيوتر بتروفتش. فكرر ليزياتنيكوف قوله محدقاً إليه متفرساً فيه:

– يا للنذالة!

أصاب بيوتر بتروفتش شيء يشبه أن يكون رعشة. لقد لاحظ الجميع هذه الرعشة (وتذكروها فيما بعد).

تقدم ليزياتنيكوف بضع خطوات. وقال مخاطباً بيوتر بتروفتش وهو يقترب منه:

– وتجروا أن تُشهدني أيضاً؟

– ما معنى هذا... يا آندريه سيميونوفتش؟ عم... تتكلم؟ – دمم لوجين متشر اللسان.

أجابه ليزياتنيكوف بعنف، وهو ما يزال يحدّق إليه تحديقاً قاسياً بعينين عماشتين:

– معناه أنك كاذب مفتر... نعم... هذا ما يعنيه كلامي!

كان ليزياتنيكوف في حالة غضب رهيب. ونظر إليه راسكولنيكوف هو أيضاً، كأنما ليتلقّف كلماته ويزنها محاولاً أن يفهم معناها الغامض المكتوم. وساد صمت جديد. كان بيوتر بتروفتش قد فقد سيطرته على نفسه تقريراً، ولا سيما في الوهلة الأولى.

وببدأ يتكلّم فقال متلثثاً:

– إذا كنت تخاطبني أنا... ولكن ماذا دهاك؟ أنت في قام عقلك؟

– نعم... أنا في قام عقلي... ولكنك أنت... نذل! آه... ما أندزال هذا! لقد كنت أستمع إلى كل شيء، وتعمدت أن انتظر لأفهم كل شيء، ذلك أنتي حتى هذه الساعة... لا تزال الأمور غير منطقية تماماً، أعترف بذلك!.. نعم، لماذا فعلت هذا؟.. إني لا أفهم!

– ولكن ما الذي فعلته؟ هلا كففت عن الكلام بألغاز غبية؟ لعلك سكران؟ لعلك شربت؟

– بل لعلك أنت الذي شربت، لا أنا، أيها الرجل الدنيء! ثم إنني لا أشرب فودكا أبداً، لأن هذا يخالف مبادئي. هل تتصورون أنه هو نفسه، هو الذي أعطى صونيا سيميونوفنا، بيديه، ورقة المائة روبل هذه؟ لقد رأيته بعيني رأسياً، أنا شاهد، وفي وسعي أن أحلف على ذلك بأغلظ الأيمان!

وردد ليزياتنيكوف يقول متوجهًا إلى الجميع وإلى كل واحد:

– هو! هو!

أعول لوجين يقول:

– أأنت مجنون أيها الغر؟ لقد أقرت هي نفسها، هي الواقفة هناك، بقربك، أقرت أمام جميع الناس أنها لم تأخذ مني إلا عشرة روبلات. وكيف كان يمكنني أن أعطيها تلك الورقة بعد ذلك؟

ردّ ليزياتنيكوف يقول صارخًا:

– رأيت ما فعلته! رأيت بعيني! وأنا مستعد، رغم أن ذلك يخالف مبادئي، مستعد لأن أحلف اليمين أمام المحاكم... لأنني رأيتك تدس لها هذه الورقة خلسة. ولكنني، لغبائي، اعتقدت أنك تفعل ذلك من باب البر والإحسان. قرب الباب، لحظةً كانت تودعك، حين التفتْ ومددت لها يدك اليمنى، ودسستَ ورقة المائة روبل باليد اليسرى في جيبها خلسة. رأيت ذلك! رأيته!

شحب لون لوجين. وصرخ يقول بوقاحة:

– ما هذه السخافات التي تقولها؟ كيف كنت تستطيع، وأنت واقف قرب النافذة، أن تعرف على هذه الورقة؟ ما هذا إلا وهم!.. ما هذا إلا وهم خلقته عيناك العمشاوان! أنت تهذى!

– لا، ليس هذا وهمًا! ورغم أنني وقفت بعيدًا، والحق يقال، فقد رأيت كل شيء، كل شيء! صحيح أن من الصعب على المرء أن يميز ورقة من بعيد وهو واقف قرب النافذة. ولكنني بفضل ظرف خاص جداً كنت أعلم أن تلك الورقة إنما كانت ورقة مالية بمائة روبل، إذ في اللحظة التي أعطيت صونيا سيميونوفنا عشرة روبلات، رأيتك تتناول من على المائدة ورقة مائة روبل (وقد رأيت هذا لأنني كنت عندئذ بالقرب منك)؛ ولأن فكرةً ما قد ومضت في ذهني حينذاك، فإني لم أنس أن هذه الورقة كانت بيديك. لقد طويتها واحتفظت بها في يدك طوال الوقت. ثم لم أفكر أنا بعد ذلك في هذا الأمر التفصيلي، ولكنك حين هضست نقلت الورقة من يدك اليمنى إلى يدك اليسرى؛ وحين فعلت ذلك كدت تُسقطها على الأرض. فتذكرت ذلك الأمر التفصيلي من جديد، لأن تلك الفكرة نفسها قد ومضت في ذهني مرة أخرى: وهي أنك تريد أن تمنّ على صونيا سيميونوفنا دون أن أعلم أنا بذلك. لهذا أخذت أراقبك وأرصد حركاتك، فرأيت أنك أفلحت في أن تدسّ تلك الورقة في جيبها! رأيت ذلك! رأيت! وأني مستعد لأن أحلف يميناً!

كان ليزياتنيكوف كمن يختنق. وأخذت الصيحات تنهمر من كل صوب، وكان أكثرها يدل على الدهشة والاستغراب. غير أن بينها صيحات كان فيها شيء من تهديد أيضاً. واقترب الجميع من بيوتر بتروفتش، واندفعت كاترينا ايفانوفنا نحو ليزياتنيكوف.

– آندريه سيميونوفتش! لقد أخطأت الظن فيك! دافع عنها! أنت الوحيد الذي يدافع عنها! هذه يتيمة! إن الله هو الذي أرسلك لتساعدنا! آندريه سيميونوفتش، يا عزيزي الطيب الشهم آندريه سيميونوفتش!

قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك، وارتمت ترکع أمامه، وهي لا تكاد تدرك ماذا تصنع!

زار لوجين يقول وقد بلغ ذروة الغضب:

– سخافات! هذا كل ما تستطيع أن تمضغه من كلام: «نسيت، تذكرت، تذكرت، نسيت!». ما معنى هذا؟ في زعمك إذن أنني دسست لها الورقة عمداً... ولكن لماذا؟ ما عسى يكون هدفي من ذلك؟ أي شيء يجمع بيني وبين هذه الـ...

– لماذا؟ ذلك بعينه هو ما لا أفهمه أنا نفسي، ولكن هذا لا ينفي أنني أقول الحقيقة! إنني لم أخطئ في شيء أيتها الحقير النذل، إنني أتذكر أن فكرة قد راودتني في تلك المناسبة، حين كنت أشكرك مصافحاً. لقد قلت لنفسي عندئذ: (لماذا دسّ لها هذه الورقة خلسة؟ أيمكن أن لا يكون غرضه من ذلك إلا أن يخفى عني عمله، لعلمه بأن مبادئي تتعارض مع فكرة الإحسان الفردي، الإحسان الذي لن يخفف إطلاقاً عن أحد تخفيفاً جذرياً في يوم من الأيام؟). ثم خطر بيالي أنك ربما كنت تشعر بحرج من إهداه مثل هذا المبلغ الكبير بحضورك؛ ثم اعتقدت أنك إنما أردت أن تحدث لها دهشة حين ستعرّث في جييها على ورقة مالية بمائة روبل (أنا أعلم أن بعض المحسنين يحبون أن يتصرّفوا على هذا النحو المسؤول). ولكنني قلت لنفسي بعد ذلك أيضاً أنك تريده أن تختبرها وأن تختبرها، أي أن تعلم هل تجبيء إليك شاكرة بعد أن تجد الورقة. وبعد ذلك أيضاً تخيلت أنك إنما أردت أن تتجنب كل تعبير عن الشكر والامتنان، عملاً بالمبداً القائل إن اليد اليمنى يجب أن تتجه...^{٤٤} الخ... آه... ما أكثر الأفكار التي راودت ذهني حينذاك!.. وقد قررت أن أفكّر في هذه المسألة على مهل، ورأيت أن من غير اللائق أن أظهر لك منذ ذلك الحين أنني عارف بسرّك. وقد راودتني عندئذ فكرة أخرى. تسأّلت: «ماذا لو أضاعت صونيا سيميونوفنا هذا المال قبل أن تلاحظ وجوده؟، وذلك هو السبب الذي دفعني أن أجبيء إلى هنا فأذكرها أو أعلمها أنك وضعت مائة روبل في جييها. ولكنني، أثناء الطريق، دخلت على السيدتين

^{٤٤} « عملاً بالمبداً القائل إن اليد اليمنى يجب أن تتجه...»: تحوير للممثل القائل «تجهيل اليد اليمنى ما تفعله اليد اليسرى».

كوبلياتنيكوف، لأعطيهما كتاب «العرض العام للمنهج الوضعي»^{٤٧}، ولأوصيهما خاصة بقراءة مقالة بيدريت (ومقالة فاجنر أيضاً)، ثم جئت إلى هنا، فانظر في وسط أية قصة وقعت! هل كان يمكن أن تخطر بالي تلك الأفكار كلها، وهل كان يمكن أن أجري تلك الاستدلالات جميعها، لو لا أنني رأيتك تدس المائة روبل في جيب صونيا سيميونوفنا فعلاً؟

حين أنهى آندريه سيميونوفتش أقواله المفهمة وختمتها بهذه التسليمة المنطقية شعر بطبع رهيب، فكان العرق يقطر من جبينه. إنه لا يجيد التعبير باللغة الروسية وأسفاه (وإن كان لا يعرف أية لغة أخرى)، لذلك بدا عليه بعد مغامرته الخطابية إرهاق شديد، حتى لكانه أصيب بنحول وهزال. لكن حديثه أثر تأثيراً حارقاً. لقد تكلم بدون تصنع أو افتعال، وكان كلامه مقنعاً مفحماً، فصدقه الجميع. وشعر بيوتر بتروفتش أن الأمور لا تجري على ما يحب. فهتف يقول:

– أنا لا تهمني المسائل السخيفة التي خطرت ببالك في قليل ولا كثير! ليس هذا ببرهان. من الجائز جداً أن تكون قد رأيت ذلك كله في حلم. وأنا أقول لك إنك تكذب يا سيد! أنت تكذب، وأنت تقترن علىّ، يدفعك إلى ذلك حقدٌ شخصي، فأنت تضمر لي الضغينة لأنني لا أشاركك آراءك الاشتراكية الملحدة. ذلك كل شيء!

ولكن هذه المراوغة لم تعد على بيوتر بتروفتش بأي نفع. بالعكس: ارتفعت الدمدمات من كل جهة. وصاح ليزياتنيكوف يقول:

^{٤٧} «العرض العام للمنهج الوضعي»: كتاب ظهر ببرلين سنة ١٨٦٦ يضع ترجمات مقالات علمية مادية الاتجاه لعدد من المؤلفين: فيرشوف، كلود برنار، موليشوت، تيودور بيدريت «الدماغ والفكر». أدولف فاجنر «ما يدل عليه الإحصاء من أن الأفعال التي تبدو حرة في الظاهر إنما هي حتمية في الواقع».

— آ... هذا ما ت يريد أن تصل إليه! أنت تكذب! استدع الشرطة، وسأحلف اليمين. ليس هناك إلا شيء واحد لا أستطيع أن أفهمه: ما الذي دفعه إلى أن يتصرف هذا التصرف الدنيء؟ يا للحقير! يا للنذل!

— أنا أستطيع أن أشرح السبب الذي دفعه إلى التورط في مثل هذا الفعل. وأنني لستعد أن أحلف اليمين أنا أيضاً إذا لزم ذلك. قال راسكولنيكوف بصوت قاسي وهو يتقدم إلى أمها. كان يبدو حازماً. وأدرك الجميع من نظرة واحدة ألقواها عليه أنه يعرف القضية كلها فعلاً، وأن الخاتمة قد اقتربت.

وقال راسكولنيكوف متوجهًا بالكلام إلى ليزياتينيكوف رأساً:

— الآن فهمت كل شيء! لقد أحسست منذ بداية هذه الحكاية أن في الأمر مكيدة قذرة، أحسست ذلك بسبب ظروف خاصة لا يعرفها أحد غيري وسأكشف عنها لكم الآن، لأنها أصل كل شيء. وأنت الذي أضألت لي الحقيقة نهائياً بشهادتك الثمينة يا آندريه سيميونوفتش. أرجوكم جميعاً، جميعاً، أن تصغوا إلى. إن هذا السيد (قال راسكولنيكوف ذلك مشيراً إلى لوجين) قد خطب في الآونة الأخيرة فتاة... فتاة... هي اختي آفدوتيا رومانوفنا راسكولنيكوفا. لكنه منذ وصوله إلى بطرسبرج أمس الأول قد حدث بيني وبينه شجار أثناء أول لقاء بيننا فطردته من مسكنى، وذلك بحضور شاهدين اثنين. إن هذا الرجل مغتاظ جداً وشرير... لم أكن أعرف أمس الأول أنه يسكن في غرفة مفروشة عندك يا آندريه سيميونوفتش، ولم أكن أعرف إذاً أنه في يوم تшاجرنا نفسه، أي أمس الأول بعينه، قد رأى أنني بصفتي صديقاً للمرحوم السيد مارميلادوف قد أعطيت زوجته كاترينا ايفانوفنا مالاً تتفقه على الاحتفال بالجنازة. ولكنه قد رأى ذلك فسرعان ما كتب إلى أمي رسالة يبلغها فيها أنني قد وهبت كل ما أملك من مال، لا لكاترينا ايفانوفنا بل لصونيا سيميونوفنا، واصفاً هذه الفتاة بأحط النعوت... أقصد... واصفاً طبيعة علاقتي بها بأحط النعوت. وهو يهدف من ذلك طبعاً إلى أن يحدث شقاقاً بيني وبين أمي وأختي، عن طريق إقناعهما بأنني أتلف في وجوه غير شريفة آخر مال يحرمان نفسيهما منه في

سبيل سد حاجاتي. وفي مساء أمس، أثناء مقابلة ثمت بيني وبين أمي وأختي، وقد حضر هذه المقابلة، أظهرت الحقيقة مبرهناً على أنني إنما أعطيت المال لكاترينا ايفانوفنا، لإنفاقه على الاحتفال بالجنازة، ولم أعطه لصونيا سيميونوفنا، التي كنت منذ ثلاثة أيام لا أعرفها على كل حال... ولكنني أضفت إلى ذلك أنه، هو بيوتر بتروفتش، بكل مزاياه، لا يساوي خنصر صونيا سيميونوفنا التي يقول في حقها ذلك الكلام الدنيء! ثم سألني هل أنا مستعد لأن أجلس صونيا سيميونوفنا إلى جانب اختي، فأجبته بأنني قد فعلت هذا في ذلك اليوم نفسه. وأغضبه أشد الغضب أن يلاحظ أن أمي وأختي لا تريدان أن تتشاجرا معي تصديقاً لنمائمه وافتراطاته، فسرعان ما أخذ يتفوه بوقايات لا تُغتفر. ونشأت عن ذلك قطيعة حاسمة بينه وبين اختي، وطرد شر طردة. ذلك كله حدث أمس. والآن انتبهوا: لو قد أفلح في أن يبرهن اليوم على أن صونيا سيميونوفنا سارقة، لاستطاع أن يظهر لأمي وأختي أولاً أنه كان على حق حين اشتبه في أمرها، وثانياً أنه كان على حق حين غضب إذ علم أنني ساويت بينها وبين اختي، وأنه إذ هجم علي دافع بذلك عن شرف اختي وخطيبته وحافظ عليه. جملة القول إنه بفضل ذلك كان يستطيع أن يظل يأمل في أن يحدث شقاقاً بيني وبين أسرتي وفي أن يسترد حظوظه لديها. ناهيكم عن أنه بذلك يتقمم مني شخصياً، لأن من حقه أن يفترض أن شرف وسعادة صونيا سيميونوفنا يهانى كثيراً. ذلكم هو حسابه كله! هكذا أفهم أنا القضية! هذا هو دافعه ولا دافع سواه!

بهذه الكلمات، أو بهذه الكلمات تقريراً، ختم راسكولنيكوف كلامه الذي كثيراً ما كانت تقطعه صيحات التعجب من المستمعين، الذين تابعوا كلامه بكثير من الانتباه. ولكن راسكولنيكوف، رغم المقاطعات، تكلم بلهجة جازمة هادئة ثابتة، وبوضوح كامل ودقة لا يشوشها شيء. وكان لصوته المختلج ونبرته المقنعة وهيئته القاسية أثر شديد في جميع الناس.

قال ليزياتينيكوف مؤيداً بحاسة:

– هذا هو الأمر! هذا هو الأمر يقيناً، لأنه سألهي، منذ دخلت صونيا سيميونوفنا الغرفة، هل «أنت موجود، وهل رأيتك في عداد الذين دعتهم كاترينا ايفانوفنا؟». لقد جذبني إلى شق النافذة ليلقي على هذا السؤال همساً. معنى ذلك أنه كان يحرص حرصاً مطلقاً على أن تكون موجوداً! هذا هو الأمر تماماً!

كان لوجين صامتاً يبتسم باحتقار. لكنه كان شديد الشحوب. كأنه يفكر في الوسيلة التي يخرج بها من المأزق. لعله كان يتمنى لو يدع كل شيء وينخرج، لكن ذلك لم يكن بالأمر الممكن كثيراً في تلك اللحظة: فلو خرج لكان معنى خروجه صراحة أنه يعترف بصحبة الاتهامات الموجهة إليه، وأنه قد افترى على صونيا سيميونوفنا فعلاً. ثم إن الحضور، وقد سكروا، أخذوا يضطربون اضطراباً شديداً. وهذا موظف التموين يصرخ صرخاً أعلى من صرخة سائر الناس، رغم أنه لم يفهم كل شيء، مقتراحاً اتخاذ إجراءات تسيء إلى لوجين كثيراً. هذا إلى أن هناك أشخاصاً لم يكونوا سكارى: لقد هرع أناس من جميع الغرف. البولنديون الحقراء الثلاثة اهتاجوا اهتاجاً رهيباً فهم لا ينفكون يصرخون قائلين بالبولندية: «سيد حقير»، ويجمجمون مرددين تهديدات بلغتهم أيضاً.

كانت صونيا تصغي في جهد، ولكن كان لا يedo عليها أنها تفهم كل شيء هي الأخرى. لأنها خارجة من غيبة. كانت لا تحول عينيها عن راسكولنيكوف، شاعرة أنه سندها الوحيد. وكانت كاترينا ايفانوفنا تتنفس في مشقة، وكانت حنجرتها تصدر أصواتاً جشاء، وكانت تبدو مرهقة إلى أبعد حدود الإرهاق. إلا أن وضع آماليا ايفانوفنا كان أبغى الأوضاع، فهي فاغرة الفم يبدو عليها أنها لا تفهم شيئاً البة. كل ما هنالك أنها كانت تحس أن بيوتر بتروفتش في مأزق. وأراد راسكولنيكوف مرة أخرى أن يتكلم، ولكنهم لم يدعوا له أن يفعل، فالحضور جميعاً يصرخون في آن واحد ويحتشدون حول لوجين

بالشتائم والتهديدات. ومع ذلك لم يفت هذا في عضد لوجين. وإن رأى أن حملته على صونيا سيميونوفنا خاسرة، لجأ إلى الوقاحة عامدًا. قال وهو يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور:

— اسمحوا لي أيها السادة، اسمحوا لي! أرجوكم لا تهددوني! أؤكد لكم أن هذا لا يجدي، وأنكم لن تبلغوا بهذه الطريقة شيئاً! لست بالصبي الغر... بالعكس: أنتم الذين ستحاسبون أمام العدالة عن أنكم استعملتم العنف لتغطية جرم. لقد انفضحت السارقة، وسأشكوها إلى القضاء. والقضاء ليسوا عميا، ولا هم سكارى!.. القضاة لن يثقوا بأقوال ملحدين زنديقين يعاديان النظام ولا يؤمنان بالدين، ويتهمانني حقدا وانتقاما، وذلك ما اعترفا به بلسانها لغبائهما! نعم، اسمحوا لي!

قال آندريه سيميونوفتش:

— ألا فليختف كل أثر لوجودك عندي على الفور! هيا غادر غرفتي حالاً، ولينته كل شيء بيننا... آه... حين أتذكركم أرهقت نفسي في أن أشرح له... طوال خمسة عشر يوما!

— ولكتني قلت لك أنا نفسي منذ قليل، بينما كنت تلحّ أنت على بقائي عندك، إني مبارح غرفتك حتى. هناك شيء واحد أضيفه الآن: هو أنك غبي أبله! أتمنى لك أن يشفى عقلك وأن يتحسن بصرك الحسير. اسمحوا لي يا سادة!

واستطاع أن يشق لنفسه ممراً. لكن موظف التموين لم يكن يسمعه بهذه الأذن، ولم يشأ أن يخلي سبيله بهذه السهولة، فتناول كأساً عن المائدة فلوح بها ثم قذفها إلى جهة بيوتر بتروفتش بكل ما أوتي من قوة. غير أن الكأس طارت نحو آماليا ايفانوفنا رأساً، فأطلقت هذه صرخات حادة، بينما أخذ موظف التموين يتدرج بخرافة تحت المائدة بعد أن فقدته هذه الحركة توازنه.

انسحب بيوتر بتروفتش إلى غرفته، وما انقضى على ذلك نصف ساعة حتى كان قد غادر المنزل.

كانت صونيا، الوجلة بطبعتها، لا تجهر أن من السهل على أي إنسان أن يسبّ ضياعها وهلاكها هي أكثر من أي شخص آخر. وكانت تعرف كذلك أن أي إنسان يستطيع أن يهينها وأن يؤذها دون أن تصيبه من ذلك أية إساءة تقريباً. ولكنها كانت ما تزال تعتقد حتى ذلك الحين أن في وسعها، بطريقة أو بأخرى، أن تتجنب نهائماً كبيرة وافتراطات ضخمة إذا هي عاملت جميع الناس وكل إنسان بالتأني والحذر، والتواضع والمذلة، والرقة واللطف. فخاب الآن ظنها، وكانت خيبة الظن هذه قاسية الواقع في نفسها. صحيح أنها كانت تستطيع، مذعنة مستسلمة، ودون دمدمه تقريباً، أن تحتمل كل شيء، وأن تحتمل حتى هذا. غير أن هذا قد بلغ من شدة الوطأة على نفسها، في الوهلة الأولى، درجة لا تطاق. فهي، رغم انتصارها وتبرئتها، ما أن زال رعبها الأول وما أن أفاقت من ذهولها وأصبحت قادرة على أن تدرك الأمور إدراكاً صحيحاً، حتى كان شعورها بأنها مهجورة وإحساسها بالإهانة التي ألحقت بها يقظان صدرها قبضاً أليماً، فإذا هي تصاب بنبوة عصبية. ثم إذا هي تفقد صبرها فتولّ هاربة من الغرفة راكضة إلى مسكنها. حدث ذلك فور انصراف لوجين تقريباً.

وآماليا ايفانوفنا التي أصابتها الكأس لم تحتمل كذلك ضحكات الحضور، فاستعر غضبها، وأخذت تطلق صرخات مجنونة، ثم اتجهت نحو كاترينا ايفانوفنا تحملها تبعة كل شيء، وتقول لها:

– ارحل من بيتي ! اخرجي حالاً ! هيا، اغري عن وجهي !

كانت آماليا ايفانوفنا تقول ذلك وهي تقبض على كل ما يقع بين يديها من أمتعة كاترينا ايفانوفنا فتلقيه على الأرض.

وكانـت كـاتـريـنا ايـفـانـوفـنا قد تـهـالـكـت عـلـى السـرـير مـهـدـوـدـة الـقـوـى، شـاحـبـة الـوـجـه، مـهـدـمـة، مـحـطـمـة، فـلـمـا رـأـت صـاحـبـة الـبـيـت تـفـعـل ذـلـك بـأـمـتـعـتـها وـثـبـت عـن السـرـير وـهـجـمـت عـلـيـها. وـلـكـن الـصـرـاع لـم يـكـنـ فـيـهـ أـيـ تـكـافـؤـ، فـكـانـت الـأـلـمـانـيـة تـهـزـ كـاتـريـنا وـتـرـجـحـها كـأـنـهـ رـيشـة طـائـرـ.

– ماـذـا؟ أـلـم يـكـفـي هـذـهـ الـمـخـلـوقـةـ أـنـهـاـ اـفـتـرـتـ عـلـىـ صـوـنـيـاـ اـفـتـرـاءـاتـ شـيـطـانـيـةـ، فـهـيـ تـهـجـمـ عـلـيـيـ أـنـاـ أـيـضـاـ؟ـ كـيـفـ؟ـ هـلـ أـرـمـىـ إـلـىـ الشـارـعـ فـيـ يـوـمـ وـفـاةـ زـوـجـيـ؟ـ أـبـعـدـ أـنـ تـقـبـلـ ضـيـافـتـيـ أـلـقـىـ إـلـىـ الشـارـعـ مـعـ الـيـتـامـيـ؟ـ فـإـلـىـ أـيـنـ يـمـكـنـيـ أـنـ أـذـهـبـ؟ـ

بـهـذـاـ كـانـتـ تـعـولـ كـاتـريـناـ ايـفـانـوفـناـ مـخـنـقـةـ مـنـ خـلـالـ النـشـيـجـ.ـ وـصـرـخـتـ تـقـولـ عـلـىـ حـيـنـ فـجـأـةـ وـقـدـ اـشـتـعـلـتـ عـيـنـاهـاـ:

– هـلـ يـمـكـنـ أـنـ لـاـ يـكـونـ هـنـاكـ عـدـالـةـ يـاـ إـلـهـ السـمـاءـ؟ـ عـمـّـنـ عـسـاكـ تـدـافـعـ وـمـنـ عـسـاكـ تـحـمـيـ إـذـاـ لـمـ تـدـافـعـ عـنـاـ نـحـنـ الـيـتـامـيـ؟ـ..ـ لـسـوـفـ نـرـىـ!ـ أـنـ عـلـىـ الـأـرـضـ قـضـاءـ وـمـحـاـكـمـ!ـ نـعـمـ،ـ هـنـاكـ قـضـاءـ وـمـحـاـكـمـ!ـ سـأـتـجـهـ إـلـىـ الـمـحـاـكـمـ،ـ سـأـجـدـ الـمـحـاـكـمـ!ـ حـالـاـ!ـ فـورـاـ!ـ اـنـتـظـرـيـ قـلـيـلـاـ!ـ أـيـتـهـاـ الـمـخـلـوقـةـ الـدـنـيـةـ!ـ ثـمـ أـضـافـتـ:ـ يـاـ بـوـلـيـتـشـكـاـ،ـ اـبـقـيـ مـعـ الـأـوـلـادـ!ـ سـأـعـودـ!ـ اـنـتـظـرـيـ فـيـ الشـارـعـ إـذـاـلـزـمـ الـأـمـرـ!ـ سـوـفـ نـرـىـ هـلـ فـيـ هـذـاـ عـالـمـ عـدـالـةـ وـحـقـيـقـةـ!ـ وـأـلـقـتـ كـاتـريـناـ ايـفـانـوفـناـ عـلـىـ رـأـسـهـاـ ذـلـكـ الشـالـ المـصـنـوـعـ مـنـ الـجـوـخـ الـخـفـيـفـ،ـ الـذـيـ تـحـدـثـ عـنـهـ الـمـرـحـومـ مـارـمـيـلـادـوـفـ،ـ وـشـقـتـ لـنـفـسـهـاـ طـرـيـقاـ بـيـنـ جـمـهـرـةـ السـكـارـىـ الـمـعـشـرـينـ فـوـضـىـ،ـ الـذـينـ كـانـوـاـ لـاـ يـزـالـونـ مـخـتـشـدـيـنـ فـيـ الـغـرـفـةـ.ـ وـانـدـفـعـتـ فـيـ الشـارـعـ بـاـكـيـةـ نـاـشـجـةـ،ـ وـهـيـ تـنـوـيـ عـلـىـ نـحـوـ غـامـضـ أـنـ تـضـيـيـ باـحـثـةـ عـنـ الـعـدـالـةـ فـورـاـ!ـ مـهـمـاـ كـلـفـ الـأـمـرـ.

وـأـسـتـوـلـيـ الـرـعـبـ عـلـىـ بـولـيـاـ،ـ فـلـطـتـ فـيـ رـكـنـ مـنـ الـأـرـكـانـ قـرـبـ الصـنـدـوقـ،ـ مـعـ الصـغـارـ الـمـرـجـفـيـنـ الـمـرـتـعـدـيـنـ،ـ وـقـدـ أـحـاطـتـهـمـ بـذـرـاعـيـهـاـ مـتـنـظـرـةـ عـوـدـةـ أـمـهـاـ.

وكانـت آمـالـيا إـيـانـوـفـنـا تـضـطـرـبـ فيـ الغـرـفـةـ، وـتـطـلـقـ الصـرـاخـ بـعـدـ الصـرـاخـ، وـتـرـعـدـ، وـتـلـقـيـ عـلـىـ الـأـرـضـ
كـلـ ماـ تـجـدـهـ ثـمـ تـدـوـسـهـ. وـكـانـ الـمـسـتـأـجـرـوـنـ يـصـرـخـوـنـ كـلـ مـنـ جـهـتـهـ: فـبـعـضـهـمـ يـعـلـقـوـنـ عـلـىـ الـأـحـدـاـثـ
بـطـرـيـقـهـمـ، وـبـعـضـهـمـ يـتـشـاجـرـوـنـ وـيـتـشـاتـمـوـنـ، وـبـعـضـهـمـ يـعـنـونـ.

وـقـالـ رـاـسـكـوـلـنـيـكـوـفـ يـحـدـثـ نـفـسـهـ: «وـالـآنـ حـانـ حـيـنـيـ أـنـ أـيـضـاـًـ. سـوـفـ نـرـىـ يـاـ صـوـنـيـاـ سـيـمـيـوـنـوـفـنـاـ مـاـ قـدـ
تـقـولـيـنـهـ الـآنـ!»

وـاتـجـهـ نـحـوـ مـسـكـنـ صـوـنـيـاـ.

الفصل الرابع

ودافع راسكولنيكوف عن صونيا دفاعاً متھمساً قوياً ضد لوجين رغم أن نفسه كانت تفيض هولاً شديداً وعداً أليماً. ولكن شعر بعد تباريھ الصباح برضى صادق وارتياح حقيقي لتغير مشاعره التي كان قد أصبح لا يطيق احتمالها، بصرف النظر عن العاطفة التي دفعته إلى التدخل مدافعاً عن صونيا. ثم إنه لم ينس أنه على موعد وشيك مع الفتاة، وهو موعد كانت فكرته تحدث له في بعض الأحيان أشد أنواع القلق. كان عليه أن يبلغها بأنّه هو الذي قتل اليزافيتا، وكان يحس منذ الآن أنه سيشعر بعداً شديداً وألم مضى، وكأنه بحركة من يده، أبعد هذه الفكرة عن ذهنه. لذلك فإنه حين هتف يقول لحظة خروجه من عند كاترينا ايفانوفنا: «سوف نرى يا صونيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن» كان ما يزال خاضعاً لحالة الاضطراب الظاهري والتحدي وللأثر الذي أحدثه فيه انتصاره منذ هنيهة على لوجين. غير أن شيئاً غريباً قد حدث حينذاك: فإنه حين وصل إلى مسكن كابرناوموف شعر بقواه تبارحه على حين فجأة، وشعر بخوف يستولي عليه، فاحتار وأضطرب، ووقف أمام الباب وألقى على نفسه هذا السؤال العجيب: «هل يجب أن يقول لها من الذي قتل اليزافيتا؟». وإنما كان هذا السؤال عجياً لأن راسكولنيكوف كان يشعر في الوقت نفسه أنه عاجز عن كتمان هذا الأمر بل شعر أيضاً أنه يستحيل عليه أن يؤخر اعترافه هذا أي تأخير. كان لا يعرف، بعد، لماذا يستحيل عليه ذلك. وإنما هو يحس تلك الاستحالة إحساساً فحسب. وكان هذا الإحساس الموجع الأليم بعجزه يثقل على نفسه ويرهقه من أمره حتى ليسحقه سحقاً. ومن أجل أن يضع حدأً لخواطره وتأملاته، وهمه وقلقه، فتح الباب بفترةً لاحظ صونيا من مكانه في العتبة.

كانت صونيا جالسةً، واضعةً كوعيها على مائدها الصغيرة، دافنةً وجهها في يديها. فلما رأت راسكولنيكوف نهضت بسرعة شديدة وهبّت إلى لقائه كأنها كانت تنتظره.

– لولا وجودك لما عرفتُ ما عسى كان يحدث لي حينذاك! قالت بسرعة وهي تدنو منه. من البدائي أن هذا الكلام كان الكلام الوحيد الذي أرادت أن تقوله له بأسرع وقت ممكن، والذي كانت بسببه في انتظاره.

اقرب راسكولنيكوف من المائدة وجلس على الكرسي الذي تركته صونيا. كانت صونيا واقفةً على بعد خطوتين منه، كالبارحة تماماً.

قال راسكولنيكوف وهو يشعر فجأة بأن صوته يرتجف:
– هي صونيا! أرأيت؟ أن أساس الأمر كله إنما «وضعك الاجتماعي والعادات التي يخلقها». هل فهمت؟

ارتسم الألم على وجه صونيا. وقاطعته تقول:
– ولكن لا تكلمني كما كلامتني أمس. أرجوك، لا تفعل ما فعلته أمس. كفى تعذيباً!

وأسرعت تبتسّم، مخافة أن يسوءه هذا اللوم.
وأردفت تقول:

– كانت حماقةً مني أن انصرفت. فما الذي يجري الآن هناك؟ لقد أردت أن أعود، لكنني كنت أقدر طوال الوقت أنك... قد تجيء.

روى لها راسكولنيكوف أن آماليا ايفانوفنا قد طردتهم من البيت وأن كاترينا ايفانوفنا مضت «تبث عن العدالة» في مكان ما.

هتفت صونيا تقول:

– آه! رباء! هيا بنا حالاً، فوراً!

وتناولت خمارها.

صاح راسكولنيكوف يقول بلهجة حانقة:

– مازلت كما كنت! لا تفكرين إلا فيهم! هلا بقيت معي قليلاً!

– لكن... وكاترينا ايفانوفنا؟

– كاترينا ايفانوفنا ستعرف كيف تهتمي إليك.

قال راسكولنيكوف ذلك، ثم أضاف يقول بحزن:

– ستجيئك بنفسها ما دامت قد خرجمت. فإن لم تجده هنا كنت أنت المذنبة.

جلست صونيا وهي فريسة تردد أليم. وصمت راسكولنيكوف مطروقاً إلى الأرض يجتر فكرة ثابتة.

ثم بدأ يتكلّم فقال دون أن ينظر إلى صونيا:

– لنسلم بأن لوجين لم يشأ أن يتبع الأمر... ولكن لو شاء ذلك، لو كان ذلك داخلاً في حساباته،

لاستطيع أن يرسله إلى السجن لولا وجود ليزياتيكوف، أليس كذلك؟

أجبت صونيا تقول بصوت ضعيف:

– نعم!

ثم كررت تقول قلقة وكأنها غائبة عن نفسها:

– نعم!

قال راسكولنيكوف:

– ولكن كان من الجائز جداً أن لا أكون أنا موجوداً هناك. أما ليبزياتنيكوف فإنه لم يكن قد رجع إلا مصادفة.

صمت صونيا ولم تجب بشيء.

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال:

– فهذا لو أودعْتِ في السجن؟ ما عسى يحدث حينذاك؟ هل تتذكرين ما قلته لك أمس؟

ظللت صونيا صامتة. وانتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قال وهو يحمل نفسه على الابتسام:

– كنت أتصور أنك سوف تصرخين قائلة مرة أخرى: «آه... لا تقل هذا الكلام! اسكت!»

ولم تجب صونيا أيضاً، فسألها راسكولنيكوف بعد دقيقة:

– هيه! أتعودين إلى الصمت؟ ولكن لا بد أن نتحدث عن شيء ما على كل حال! إنني ليهمني كثيراً أن أعرف كيف يمكن أن تتحلى مسألة من المسائل... على حد تعبير ليبزياتنيكوف (لأن راسكولنيكوف كان يوشك أن يرتكب) – وتابع كلامه: لا، لا، أنا لا أتكلم جاداً. تخيلي يا صونيا أنك كنت تعلمين سلفاً (يعني لو كنتِ تعرفين بالضبط) جميع نيات لوجين، وأنك كنت تعرفين معرفة اليقين الكامل أن كاترينا ايفانوفنا سوف تضيع بسبب هذه النيات ضياعاً تماماً، هي والأولاد أيضاً، وأنك ستضيعين أنت أيضاً زيادة عليهم (لأنك لا تعتبرين نفسك إنساناً، زيادة عليهم)، وكذلك بوليا... من جهة أخرى... لأن هذا الطريق هو طريقها هي أيضاً... تخيلي هذا كله ثم تخيلي أنه يتوقف عليك أنت أن يبقى على قيد الحياة

إما هذا وإما أولئك، أي إما لوجين مع كل الدناءات التي يرتكبها وإما كاترينا إيفانوفنا، فماذا تقررين؟
أختارين موته أم تختارين موتها؟ إنني ألقي عليك هذا السؤال.

نظرت إليه صونيا في قلق. إنها تحذر وراء هذه الكلمات الملتبسة فكرة مخبأة تُقرّبها من شيء ما.

قالت وهي تثبت عليه نظرة فاحصة:

– كنت أوجس أنك ستلقي على سؤالاً من هذا النوع.

قال راسكولنيكوف:

– طيب، ليكن ذلك. فماذا تختارين؟

سألته صونيا بنفور:

– لماذا تسألني عن شيء لا يمكن أن يحدث؟

– الأفضل إذاً أن يبقى رجل مثل لوجين حياً وأن يستمر في ارتكاب حقاراته! هذا مع ذلك رأي لا تجسرين أيضاً أن ترتئيه؟

– ليس يخصني أنا أن أنفذ إلى أغراض «العناية الإلهية»... ولماذا تسأل عما لا نملك حق السؤال عنه؟ ما جدوى هذه الأسئلة الباطلة؟ كيف يمكن أن يتوقف أمر كهذا الأمر على قراري أنا؟ من الذي نصبني قاضياً فأعلم من ذا يجب أن يحيا ومن يجب أن لا يحيا؟

جمجم راسكولنيكوف يقول بلهجة عابسة:

– متى تدخلت «العناية الإلهية» في الأمر، لم يبق ما نقوله!

فهتفت صونيا تقول في ألم:

– الأولى أن تقول لي ما ت يريد أن تقوله، بغير لفٍ ولا دوران! إنك ما تزال تجتر شيئاً ما. هل من الممكن أن لا تكون قد جئت إلا لتعذبني؟

ولم تطلق صونيا صبراً، فأخذت تبكي بكاءً مرّاً. فكان ينظر إليها مكفهر الوجه حزيناً. وانقضت على ذلك خمس دقائق.

وتكلم أخيراً فقال بصوت رقيق عذب:

– نعم، أنت على حق.

لقد تبّدل راسكولنيكوف فجأة. إن هجته التي كان فيها وقاحة مقصودة وتحدى متعمّد قد اختفت. حتى لقد ضعف صوته. وتابع كلامه فقال:

– لقد قلت لك أمس إنني لن أجئك اليوم مستغفراً، ومع ذلك فإنني بدأت كلامي بالاستغفار تقريرياً. فحين تكلمت عن لوجين وعن العناية الإلهية كنت لا أتكلّم إلا عن نفسي، وكنت أستغفر يا صونيا... وأراد راسكولنيكوف أن يبتسم، لكن تعبيراً عن العجز والتعب تخل في تلك الابتسامة الضعيفة. وخفض رأسه وغطى وجهه بيديه.

وفجأة، اجتاح قلبه إحساس غريب غير متوقع، إحساس بكره عنيف نحو صونيا. فاستغرب راسكولنيكوف هذا الاكتشاف بل روعه هذا الاكتشاف، فرفع رأسه بفترة ونظر إليها محدقاً. ولكن نظرته لم تلتقي إلا بنظرة الفتاة التي كانت نظرة قلقة زاخرة بضراوة أليمة. لقد كان في تلك النظرة حب. وتبدد

من نفس راسكولنيكوف كل إحساس بالكره، كما يتبدل حلم. لا، لم يكن الأمر كما تصور، لقد أخطأ في فهم طبيعة العاطفة التي شعر بها. ذلك يعني أن اللحظة الخامسة قد وافت.

ومرة أخرى دفن وجهه في يديه، وخفض رأسه. واصفر وجهه على حين بعثة، ونهض عن كرسيه ونظر إلى صونيا، ثم مضى يجلس على السرير بخطى آلية، دون أن يقول كلمة واحدة.

كانت هذه الدقيقة، من ناحية الإحساس الذي شعر به، تشبه كثيراً تلك الدقيقة التي كان فيها واقفاً وراء العجوز، بعد أن أخرج الفأس من العلاقة، وأحس أنه «لم يبق ثمة لحظة يضيعها».

سألته صونيا مروّعة:

— ماذا بك؟

فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة. لم يكن يقدر أنه على هذا النحو سينبئها بالأمر. ولم يتمكن راسكولنيكوف من أن يفهم ما يحدث في نفسه في تلك اللحظة.

اقربت صونيا منه برفق، وجلست على السرير بقربه، وانتظرت دون أن تحول عينيها عنه. وكان قلب صونيا يخفق خفقاناً قوياً حتى ليكاد ينفجر.

أصبح الموقف لا يُحتمل. أدار راسكولنيكوف نحوها وجهه المصطبغ بصفة كصفرة الموت. وتقبضت شفتيه فلم يستطع أن ينطق أية كلمة. استولى الرعب على صونيا. فقالت مرددة وهي تبتعد عنه قليلاً:

— ماذا بك؟

فدمدم يقول كإنسان استولى عليه الذهاب وأصبح لا يدري ماذا يقول:

— لا شيء يا صونيا. لا تخافي. حقاً، متى فَكَرَ المرء في هذه الأمور أدرك أنها سفاسف وترهات وحمّاقات!

وأضاف يقول فجأة وهو ينظر إليها:

— لماذا جئت أعتذبك أنت؟ حقاً، لماذا؟ إنني لا أنفك ألقى على نفسي هذا السؤال يا صونيا...

لعله كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال منذ ربع ساعة، ولكنه يعبر عنه الآن وهو في حالة ضعف كامل، فما يكاد يشعر بنفسه، وما برح جسمه يرتجف بارتعاش متصل.

قالت صونيا متأللة وهي تتحصص بنظرها:

— آه... لشد ما تعذب نفسك!

— ما هذه كلها إلا سخافات! اسمعي يا صونيا: (إن فكرة من الأفكار قد جعلت شفتيه تلم بها ابتسامة ضعيفة عاجزة كثانيتين لا أكثر) هل تتذكري ما كنت أريد أن أقوله لك أمس؟

انتظرت صونيا قلقة.

— لقد قلت لك عند انصرافي أنني ربما كنت أودعك إلى الأبد، ولكنني إن جئت فسأقول لك... من الذي قتل اليزافيتا.

أخذت صونيا ترتعش من الرأس إلى القدمين.

— فها أنت أجيء لأقول لك من الذي قتل اليزافيتا.

تمتمت تقول في جهد ومشقة:

— كنت تتكلم جاداً إذاً حين قلت لي أمس...

لكنها أسرعت تسأله كأنها ثابت إلى رشدتها فجأة:

– فكيف عرفت من الذي قتلتها؟

كانت صونيا تنفس تنفساً شاقاً. وكان وجهها يزداد شحوباً. قال راسكولنيكوف:

– أنا أعرف.

فلزمت صونيا الصمت مدة دقيقة. ثم سأله خائفة:

– وهل وجدوه؟

– لا، لم يجدوه.

– إذن كيف عرفت من هو؟

قالت ذلك بصوت مختنق، بعد صمت جديد.

التفت راسكولنيكوف إليها، وأمعن في النظر إليها. ثم قال لها وهو يرسم على شفتيه تلك الابتسامة

المصنوعة العاجزة نفسها:

– احزمي!

وكان تشنجات عنيفة كانت تهز جسم صونيا كلها.

قالت وهي تبتسم كطفلة:

– ولكنك... ولكنك تخبي... تخيفني بهذا الكلام!

تابع راسكولنيكوف كلامه وهو ما يزال ينظر إليها ويتفرس فيها لأن عينيه مشدودتان إليها شدّاً لا فكاك

منه، وكأنه لا يستطيع أن يحول بصره عنها.

– هذا يبرهن على أن بيبي وبينه هو صداقه حميمة. ولقد كان لا يريد قتل اليزافيتا تلك، وإنما هو قتلها... مصادفة... لقد كان يريد قتل العجوز حين كانت وحيدة في البيت... وجاء... فإذا باليزافيتا... وعندئذ... قتلها هي أيضًا.

وانقضت دقة أخرى مروعة. كان كل منها ينظر في الآخر.

سألهما بعثة وهو يحس أنه يهوى من برج ناقوس:

– ألم تخزري إذا؟

هامست صونيا تقول بصوت لا يكاد يُدرك:

– لـ... لا...

– انظري في وفكري!

فها كاد راسكولنيكوف يقول ذلك حتى غزاه إحساس مألهوف جمد قلبه. نظر إليها فكأنما هو يرى في وجهها ملامح وجه اليزافيتا. وتذكر تذكرًا واضحًا متميزًا تعبير وجه اليزافيتا في اللحظة التي اقترب فيها منها مشهراً فأسه، فترجعت نحو الحائط واضعة يديها أمامها، كالأطفال الصغار حين يخافون فيثبتون على ما يخيفهم نظرة جامدة قلقة ويتراجعون ويمدون أيديهم الصغيرة ويوشكون أن يبكوا. كذلك كان شأن صونيا في تلك اللحظة. لقد تأملته بعض الوقت بتلك الحيرة نفسها، وبذلك العجز نفسه، وبذلك الارتياح ذاته، ثم رفعت يدها اليسرى فلمست صدره بأطراف أصابعها في رفق، ونهضت عن السرير ببطء، وابتعدت عنه رويداً رويداً، وهي تحدّق إليه مزيداً من التحديق. وارتسم هذا الرعب نفسه على وجه راسكولنيكوف، ارتسم هو نفسه تماماً. وأخذ ينظر إليها وهو يبتسم ابتسامة «الأطفال» تلك نفسها تقرباً.

وحماس يسألها أخيراً:

– هل حزرت؟

قالت صونيا مرتابة وهي تشهق شهقة رهيبة:

– يارب!

وخارت قواها، فسقطت على السرير دافنةً وجهها في الوسادة. ولكنها عادت تنهض بعد لحظة، واقربت منه، وتناولت يديه، وضغطتها بأصابعها النحيلة بقوّة. ثم استأنفت التحديق إليه. كانت تريد بهذه النظرة الأخيرة اليائسة أن تلتقط شيئاً من أمل ولو أمل ضعيف. ولكن توقعها كان باطلًا. لم يبق أي شك. نعم، ذلك هو الأمر! وحتى في المستقبل، حين ستستحضر صونيا بخيالها تلك اللحظة، سيبدو لها غريباً عجياً: لماذا رأت على هذا النحو، دفعة واحدة، أنه لم يبق مجال لأي شك؟ ما كان لها أن تجرب على الادعاء أنها كانت قد أوجست شيئاً من هذا النوع من قبل، ومع ذلك فإنها ما إن قال لها هذا حتى بدا لها أنها كانت قد أوجست هذا الأمر نفسه حقاً.

قال لها راسكولنيكوف متسللاً في ألم:

– كفى يا صونيا، كفى! لا تعذبني!

لم يكن قد قدر أنه على هذا النحو سوف يعترف لها، ولكن على هذا النحو إنما تم الاعتراف. وكأنما خرجمت صونيا عن طورها، وواثبت، ولوت يديها، ومضت إلى وسط الغرفة. ولكنها سرعان ما عادت إلى قربه، فجلست بجانبه حتى ليكاد كتفها يلتصق بكتفه. وكأن فكرة مباغة قد ومضت في

ذهنها، فإذا هي ترتعش فجأة، وتطلق صرخة، وترتقي راكعة أمام راسكولنيكوف، لا تدري هي نفسها لماذا؟

قالت بصوت يائس:

— ماذا فعلت؟ ماذا فعلت بنفسك؟

وثبتت وارتمت على عنقه وضمته إليها ضمًّا قوياً.

بدرت من راسكولنيكوف حركة تهقر، ونظر إليها وهو يبتسم ابتسامة حزينة.

— ما أغربك يا صونيا! أتعانقيني بعد أن قلت لك ذلك الأمر؟ أنت لا تعرفين ماذا تفعلين!

صاحت صونيا تقول حتى دون أن تسمع ملاحظته:

— لا، لا، ليس في العالم كله الآن رجل أشقى منك.

وأجهشت تبكي فجأة.

إن عاطفة يجهلها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة تغرقه الآن كموجة غامرة، وتملاً قلبه رقة وحنانًا. لم

يحاول راسكولنيكوف أن يقاوم هذه العاطفة. وانجست من عينيه دمعتان ظلتا معلقتين بأهدابه.

سألهما وهو ينظر إليها في أمل تقريرياً:

— ألن ترکيني إذاً يا صونيا؟

فصاحت صونيا تحبيبه:

– لا، لن أتركك أينما تذهب! سأبعك إلى أي مكان! آه... يا رب!.. آه... ما أشقاني!..

لماذا، لماذا لم أعرفك من قبل؟ لماذا لم تأتِ قبل هذا الأوّان؟ آه... يا رب!..

– لكنني أتيت مع ذلك.

– الآن أتيت! ولكن ما العمل الآن؟

ثم ردت تقول طائشة العقل وهي تعانقه من جديد:

– معاً، معاً! سوف أذهب معك إلى الأشغال الشاقة!

أصابت هذه الكلمات قلبه، وعادت تظهر على شفتيه تلك الابتسامة نفسها التي تشتمل على كره وتكاد تشتمل على تعال وكبرياء.

– ربما كنتُ يا صونيا لا أحب أن أذهب إلى الأشغال الشاقة.

ألقت عليه صونيا نظرة سريعة. وبعد العاطفة الأولى التي غزت نفسها وهي عاطفة شفقة حارة أليمة نحو الإنسان الشقي المذنب، عادت تستولي عليها فكرة القتل الرهيبة المروعة. إن لهجة كلماته الأخيرة، وهي لهجة تبدلت على حين فجأة، قد أرتها فيه صورة القاتل السفاح. ونظرت إليه مشدوهة. كانت لا تعرف، بعد، شيئاً. كانت لا تعرف لماذا حصل هذا أو كيف حصل. والآن تنبّح هذه الأسئلة جميعها في شعورها دفعة واحدة. ومرة أخرى عادت تشك: «أيكون هو قاتلاً؟ مستحيل... مستحيل!» ثم قالت وقد بلغت ذروة الدهشة والذهول، كأنها لم تعد إلى رشدتها:

– ولكن ما هذا؟ أين أنا؟ كيف، كيف أمكنك وأنت ما أنت... أن تعزم أمرك على تلك الفعلة؟

لماذا؟ أجاب بلهجة مرهقة، وكأنها ملتاعة:

– لأسرق. كفى يا صونيا!

لبثت صونيا متجمدة خلال لحظة، ولكنها هتفت تقول فجأة:

– كنت جائعاً! فعلت ذلك لتساعد أمك، أليس كذلك؟

تمتم يقول وهو يشيخ وجهه وينخفض رأسه:

– لا يا صونيا، لا... لم أكن جائعاً إلى ذلك الحد. الواقع أنني كنت أريد أن أساعد أمي... ولكن... هذا أيضاً ليس صحياً كل الصحة... لا تعذبني يا صونيا.

ضمت صونيا يديها إحداها إلى الأخرى. وقالت:

– ولكن هل يمكن، هل يمكن أن يكون هذا كله صحياً؟ رباه! أهذه هي الحقيقة؟ من ذا الذي يمكن أن يصدقها؟ وكيف، كيف يُعقل أن تقتل لتسرق، أنت الذي تعطي آخر ما تملك؟

ثم صاحت تقول فجأة:

– وذلك المال الذي قدمته إلى كاترينا ايفانوفنا... وذلك المال... يا رب! هل يمكن أن يكون ذلك المال أيضاً...

قاطعها راسكولنيكوف يقول مسرعاً:

– لا يا صونيا... اطمئني! ذلك المال إنما أرسلته إلى أمي بواسطة تاجر، وقد تلقيته أثناء مرضي، في ذلك اليوم نفسه الذي أعطيته أمك... رازوميخين يعرف هذا... هو الذي قبضه نيابة عنِي... كان ذلك المال مالي أنا، مالي أنا حقاً.

كانت صونيا تصغي إليه حائرة، جاهدة بكل قواها أن تفهم.

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال بصوت خافت وهيئة حاملة:

– أما المال الآخر... فإني لا أعلم هل له وجود. لقد انتزعت من عنقها... محفظة نقود من جلدي... محفظة نقود ملأى، محسوسة، لكنني لم أفتحها... أما الأشياء الأخرى... أزرار الأكمام وسلسل الذهب فقد أخذتها مع محفظة النقود في آن واحد، ومضيت أدفن ذلك كله في فناء منزل بشارع ف.. ودفتها تحت صخرة... في الصباح التالي وما يزال كل شيء هناك...

كانت صونيا تصغي بانتباه.

– ولكن كيف تقول إنك قتلت «لتسرق»، في حين أنك لم تستول على شيء؟

كذلك سأله صونيا بسرعة شديدة، محاولة أن تتشبث بهذه القصة.

– لا أدرى... إني لم أقرر بعدُ أاستولي على ذلك المال أم لا...

ثم أضاف فجأة وكأنه قد عاد إلى وعيه، بينما ظهرت على شفتيه ابتسامة سريعة ضعيفة:

– يا له من سخف، هذا الكلام الذي قلته الآن، هه؟

وومضت في ذهن صونيا فكرة: «ألا يمكن أن يكون مجنوناً»، ولكنها أسرعت تبذر تلك الفكرة. لا، إن في الأمر شيئاً آخر، ولكنها لا تفهمه، لا تفهمه البتة.

قال راسكولنيكوف فجأة بها يشبه الإلهام:

– هل تعلمين يا صونيا ماذا سأقول لك الآن؟

وأردف يقول مشدداً على كل كلمة من كلماته، ملقياً نظرات ملغزة رغم أنها صادقة:

– لو أنني لم أقتلها إلا بدافع الجوع، فلربما كنت الآن... سعيداً! أعلمك هذا!

وهتف يقول بعد لحظة بشيء من اليأس في صوته:

– ولكن فيم يعنك أن أعترف بأنني أخطأت؟ فيم يفيدك أن تنتصر لي على هذا الانتصار الأبله؟ آه يا صونيا... أمن أجل هذا سعيت إليك؟!

أرادت صونيا مرة أخرى أن تقول شيئاً، ولكنها لزالت الصمت.

قال راسكولنيكوف:

– إذا كنت قد ناديتك أمس فلأنه لم يبق لدى أحد غيرك.

سألته صونيا:

– ناديني إلى أين؟

– ما ناديتك لتقتلي أو لتسرقني. اطمئني. ما ناديتك من أجل هذا (كذلك ردّد وهو يبتسم ابتسامة مرّة)، فنحن مختلفان أحدهنا عن الآخر اختلافاً كبيراً. هل تعلمين يا صونيا أنني لم أدرك إلا الآن إلى أين ناديتك أمس. حين ناديتك أمس، لم أكن أعرف إلى أين ناديك. والحقيقة أنني ناديتك لتحقيق هدف واحد، الحقيقة أنني سعيت إليك لغرض واحد: هو أن لا تتركيني يا صونيا؟

شدت صونيا على يديه.

وهتف راسكولنيكوف يقول بعد دقيقة وقد بلغ غاية اليأس:

«لماذا، لماذا ذكرت لها الأمر؟ لماذا كشفت لها عن الحقيقة؟».

قال ذلك ونظر إليها شاعرًا بعذاب لا نهاية له. وتابع كلامه يقول:

– هأنت ذى تنتظرين مني شروحاً وتفسيرات يا صونيا. أنت هنا تنتظرين هذه الشروح والتفسيرات. إبني أرى ذلك. ولكن ما عسانى أقول لك؟ إنك لن تفهمي من الأمر شيئاً. ولن تزيدني على أن تتألمى بسببي! وأنت الآن تبكين، وتعانقيني من جديد. لماذا تعانقيني؟ لأنني لم أستطع أن أحتمل العباء، فجئت أتحفف منه بإلقائه على غيري؟ «تألمى، تألمى أنت أيضاً، فذلك يخفف عنى أنا»، ذلك هو لسان حالى. أفتستطيعين أن تحببى وغداً كهذا الوغد؟

هتفت صونيا تسله:

– ولكن ألسنت تتألم أنت أيضاً؟

ومرة أخرى عمرته تلك العاطفة نفسها فرق قلبه لحظة قال:

– صونيا، إن لي قلباً شريراً، انتبهي إلى هذا، فيضيئ لك أموراً كثيرة. ولأنني شرير إنما جئت أيضاً. هناك أشخاص كان يمكن أن لا يحيئوا. أما أنا فجبان... جبان!.. ولكن... لا ضير!.. ليس هذا هو الأمر الأهم. وإنما على الآن أن أتكلم، ولست أدرى بمبدأ.

قال راسكولنيكوف ذلك وصمت مفكراً. ثم هتف يقول من جديد:

– هيه! نحن مختلفان أحدهنا عن الآخر اختلافاً تاماً! مستحيل أن نتفاهم! لماذا، لماذا جئت؟ لن أغفر هذا لنفسي أبداً!

صاحت صونيا تقول:

– بل لقد أحسنت إذ جئت! الأفضل أن أعرف! ذلك أفضل كثيراً.

نظر إليها راسكولنيكوف بألم. ثم قال كمن يتبع فكره:

– نعم، هكذا جرت الأمور، هكذا جرت حقاً. اسمعي كيف جرت: لقد أردت أن أصبح نابوليون، ومن أجل ذلك إنما قتلت. فهل فهمت الآن؟..

دمدمت صونيا تقول بصوت خجول وسذاجة واضحة:

– لـ... لا... ولكن تكلم، تكلم، فسوف أفهم، فسوف أفهم كل شيء في أعماق نفسي... بذلك طالبته صونيا ضارعة متولدة.

قال راسكولنيكوف:

– سوف تفهمين؟ طيب... سترى.

وصمت. وفكرة مليأً. ثم قال:

– إليك الأمر! لقد ألمي على نفسي في ذات يوم هذا السؤال: ما عسى كان يحدث لو أن نابوليون مثلاً قد وجد في مكانه، ولم يكن أمامه في بداية حياة المجد الذي حققه لا تولون ولا مصر ولا مرمونبلان^{٤٨}، وإنما كان أمامه، بدلاً من جميع هذه الأشياء العظيمة الفخمة الضخمة عجوز حقيرة شريرة تافهة مرابية يجب أن يقتلها ليستولي على المال الذي تخبيه في صندوقها (في سبيل تحقيق رسالته طبعاً، هل تفهمين؟)؟ نعم، أكان يعزم أمره على أن يفعل ذلك إذا لم يعرض له أي مخرج آخر؟ أما كان سيشعر بشيء من الحياء والخجل لأن فعلاً كهذا الفعل خالٍ حقاً من الفخامة والضخامة... ناهيك عن الخطيئة؟ أؤكّد لك أن هذا «السؤال» قد أقصى مضجعي مدة طويلة، إلى أن أدركت أخيراً (على حين فجأة) وقد أشعرني هذا

^{٤٨} «لم يكن لديه... لا تولون، ولا مصر، ولا مرمونبلان...»: بالنسبة لتولون ومصر راجع الحاشية رقم ٦٤ في المجلد الأول. أما مرمونبلان فهو سلسلة جبلية في الألب على الحدود بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا عبرها نابوليون بونابرت في مايو عام ١٨٠٠ نحو إيطاليا، حيث سحق القوات النمساوية في معركة مارنوجو في ١٤ يونيو ١٨٠٠.

الإدراك بالخزي أن نابوليون ما كان له أن يحس ب AISER خجل من هذا الفعل، بل وما كان ليخطر بباله في أية لحظة من اللحظات أن هذا الفعل قد تعوزه العظمة والرفة، بل وما كان له أن يرى ما نوع العار الذي يمكن أن يشتمل عليه هذا الفعل... ولا شك في أنه، إذا لم يعرض له أي حل آخر، كان سيقتل العجوز دون تردد دون تفكير. هكذا خرجمت أنا من التردد بين الإقدام والإحجام، فقتلت... مقتدياً بذلك الرجل الذي هو «حجّة». نعم، على ذلك النحو إنما جرت الأمور. أيدو لك هذا سخيفاً مضحكاً؟ نعم يا صونيا، لعل أسف ما في القضية أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً!

ولكن صونيا لم تر في هذا كله شيئاً سخيفاً مضحكاً.وها هي ذي تسأله بصوت فيه مزيد من الخجل والوجل، بصوت لا يكاد يُسمع:

– بل حدثني... رأساً... مباشرة... دون أن تضرب أمثلة!

فالتفت راسكولنيكوف نحوها، ونظر إليها بحزن، وتناول يديها، ثم قال لها:

– أنت على حق يا صونيا. ما ذلك كله إلا غباء وثرة! فاسمعي: أنت تعرفين أن أمي كانت قد أصبحت بلا مورد تقريباً. وأختي التي نالت قسطاً حسناً من التعليم بالمصادفة اضطررت أن تعيش حياة خاملة كمربيّة فكنت أنا أملّهم الوحيد. و كنت أتم دراستي، لكنني وقد أصبحت لا أستطيع سدّ حاجاتي اضطررت أن أترك الجامعة. وهبّي كنت سأستطيع متابعتها بعد عشر سنين أو بعد اثنين عشرة سنة (في أحسن الظنون) فكل ما كان يجوز لي أن آمله هو أن أصبح أستاذًا أو موظفًا من الموظفين يتتقاضى راتباً سنوياً قدره ألف روبل (كان راسكولنيكوف كمن يلقي درساً محفوظاً). وفي أثناء ذلك تكون أمي قد أذابتها الهموم والأحزان، ولا أكون قد ظفرت حتى بتأمين الطمأنينة لها. أما أختي فيكون قد جرى لها ما هو أسوأ من ذلك أيضاً. ولماذا أخفق في حياتي هذا الإخفاق، وأمر بكل شيء مروراً عابراً، وأنسى

أمي، وأحتمل الإهانات التي تنزل بأختي؟ لماذا؟ في سبيل أن أبني أسرة جديدة بعد أن أدنن أمي وأختي، فتكون لي زوجة ويكون لي أولاد، ثم أتركهم هم أيضاً بلا مال، بلا لقمة خبز؟ لذلك قررت أن أقف على المال الذي سأستولي عليه من العجوز، قررت أن أنفقه على دراستي، وعلى خطواتي الأولى في الحياة عند التخرج من الجامعة (دون أن أعدب أمي). و كنت أريد أن أفعل كل شيء بمقاييس ضخم، أن أفعل كل شيء بطريقة جذرية، فأدخل حياة جديدة، وأضمن لنفسي وضعياً مستقلاً كل الاستقلال... هذا كل شيء!.. ولقد أساءت صنعاً إذ قتلت العجوز طبعاً. ولكن هيا، كفى هذا! أتم راسكولنيكوف شروحة هذه بمشقة كبيرة وعناء شديد. كان يبدو مرهقاً، وكان خافضاً رأسه.

صاحت صونيا تقول حزينة:

– لا، ليس هذا هو الأمر، ليس هذا هو الأمر، لا، هل هذا معقول؟.. ليس هذا، ليس هذا...
– أرأيت؟ تقولين بنفسك إن الأمر ليس هو هذا. ومع ذلك فقد قلت لك كل شيء، وحدثتك صادقاً ملخصاً. تلك هي الحقيقة!
– ولكن أي حقيقة هنا؟ رباء!

– إنني لم أقتل إلا قملة يا صونيا، قملة قدرة، لا فائدة منها، ضارة، مسيئة!
– أتقول قملة وهي مخلوقة إنسانية؟

أجاب راسكولنيكوف وهو يلقي على صونيا نظرة غريبة:
– ولكنني أعرف أنها ليست قملة!
ثم أضاف:

– ثم إنني أكذب يا صونيا، إنني أكذب منذ زمن طويل. أيضاً ليس هذا هو الأمر! أنت على حق! لقد كان لفعلي بواعث غير هذه البواعث، غيرها تماماً. إنني لم أكلم أحداً منذ عهد بعيد يا صونيا... أنا أشعر الآن بصداع شديد.

كانت عينا راسكولنيكوف تحرقان بحرارة محمومة. كان كمن يهذي. وكانت تطوف بشفتيه ابتسامة قلقة. ومن خلال اهتياجه، كان يلوح إعيا رهيب. أدركت صونيا مدى ما كان يقاسي من عذاب. وأخذ الدوار يستولي عليها هي أيضاً. ثم إنه كان يتكلم بطريقة غريبة جداً: صحيح أن المرء يستطيع أن يستخرج من كلامه بعض الأشياء المفهومة، ولكن: «كيف؟ كيف؟ يا رب!» ولوت صونيا يديها حزناً ويسألاً.

واستأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يرفع رأسه فجأة لأن أفكاره قد جرت في مجرى آخر على حين بغتة فصدمنه وأيقظت نشاطه. فقال:

– لا يا صونيا، ليس هذا هو الأمر. ليس هو هذا... وإنما عليك أن تفترضي (نعم افترضي هذا، فهو أصح) أنني إنسان غيور، حسود، منحط، شرير، حقد، يحب الانتقام، مهياً... للجنون (أقول كل شيء دفعة واحدة ما دمت قد بدأت؛ وفيما يتعلق بالجنون فقد سبق أن قالوا بذلك وأنا لاحظت...) لقد ذكرت لك منذ هنيهة أن مواردي كانت لا تتيح لي البقاء بالجامعة. ولكن هل تعلمين أنني ربما كان يمكنني مع ذلك أن أتابع دراستي؟ كان يمكن أن ترسل إلى أمي ما أنا في حاجة إليه، وكان يمكنني أيضاً أن أجني بالعمل ما يكفيني طعاماً وكساء. لا شك في أنني كنت أستطيع ذلك. كان يمكنني أن أعطى دروساً، فأتقاضى حسين كوبكاً أجراً عن كل درس. وهذا رازوميخين! لقد كان يجني من العمل رزقاً طيباً! ولكنني شعرت بسخط ورفضت أن أعمل. نعم شعرت بسخط (هذه هي الكلمة الصحيحة). فلبدت في ركني كما يلبد عنكبوت. لقد جئت إلى مسكنى الحقير فرأيته. ولكن هل تعلمين يا صونيا أن

السقوف الواطئة والغرف المتلاصقة تخنق النفس والفكر؟ آه... لشدّ ما كنت أكره ذلك المسكن الحقير!
ومع ذلك كنت لا أريد أن أتركه. عن عمد إنما كنت لا أريد أن أتركه. كنت أقضي فيه أياماً بكمالها، لا
أريد أن أعمل، بل وحتى لا أريد أن آكل. كنت أظل راقداً طوال الوقت. فإن جاءتني ناستاسيا ب الطعام
أكلته، وإن لم تجئني بشيء بقيت صائمًا لا أطلب ب الطعام، غضباً وحنقاً! حتى إذا هبط الليل بقيت في ظلام
دامس لأنني لا أملك ما استضيء به. كنت أؤثر أن أبقى في ذلك الظلام الحالك على أن أعمل في سبيل
أن أتمكن من شراء شموع. وبعثت كتبي بدلاً من أن أدرس. ودفاتري على المائدة غطتها طبقة من الغبار
سُمكها سُمك إصبع. وما يزال هذا الغبار موجوداً إلى الآن. كنت أؤثر أن أبقى راقداً أفكراً وأتأمل.
كنت لا أزيد على أن أفكراً وأن أسترسّل في الأحلام. لا داعي إلى القول إن تلك الأحلام كانت غريبة
عجبية، وكانت متغيرة متقلبة! ولكن بدأ يبدولي عندئذ أن... لا، لا، ليس هذا هو الأمر! إنني لا أحكي
الأشياء كما حذّرت. الواقع أنني كنت لا أفكّر أتساءل حينذاك، لعلّمي بأن الناس أغبياء، لماذا أنا غبي
مثلكم لا أحارّل أن أكون أذكيّاً منهم؟ وأدركت بعد ذلك، يا صونيا، أنه إذا وجب انتظار اللحظة التي
يصبح فيها الناس أذكياء، فلا بد من إضاعة وقت طويّل. ثم رأيت أن هذا لن يكون أبداً، فالناس لن
يتغيروا في يوم من الأيام، وما من أحد يملك أن يغيّرهم، فلا داعي إلى إضاعة الوقت في محاولة ذلك.
نعم، تلك هي حالمهم، وذلك هو قانونهم... نعم... القانون يا صونيا، القانون... وأني لأعلم الآن يا
صونيا أن من كان قويّ النفس والعقل، فذلك هو سيدهم، ذلك هو مولاهما من كان يملك جرأة كبيرة،
فذلك هو الذي له الغلبة عليهم! من كان يبصق على الأشياء أكثر من غيره، فذلك هو عندهم المشرع!
من كان يتمتع بأكبر جسارة، فذلك هو الذي يهبون له جميع الحقوق! هذا ما كان من قديم الزمان، وهذا
ما سيجيئ إلى آخر الدهر! الأعمى وحده لا يصرّ هذه الحقيقة!

لم يهتم راسكولنيكوف بأن يعرف أكانت صونيا تفهمه أم لا، رغم أنه كان لا ينفك ينظر إليها أثناء كلامه. لقد استولت عليه الحمى. وكان يجتازه نوع من اهتياج مظلم قاتم (حقاً، أنه لم يتحدث إلى أي إنسان منذ مدة طويلة). وأدركت صونيا أن هذه التعاليم الكالحة أصبحت إيمانه وأصبحت قانونه.

وابع راسكولنيكوف يقول حماسة:

– لقد أحسست يا صونيا أن السلطة لا توهب إلا من يجرؤ أن يطأطئ ليتناولها. تكفي الجرأة: الجرأة كل شيء! ووافتهني عندئذ، لأول مرة في حياتي، فكرة لا شك أنها لم تخطر ببال أحد حتى الآن في يوم من الأيام لا أحد! لقد بدا لي واضحاً وضوح النهار، على حين فجأة، أنه ما من أحد قد تجرأ ولا يتجرأ، حين رأى بطلان العالم، أن يمسك الشيطان من ذيله ببساطة، فيرسله إلى جهنم! أما أنا، أما أنا... فقد أردت أن أجروه فقتلت! إنني حين قتلت لم أرد يا صونيا إلا أن أجروه! ذلك هو السبب الذي جعلني أقتل!

صاحت صونيا تقول له متسللةً وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

– اسكت، اسكت! لقد ابتعدت عن الله، فضربك الله وأسلمك لإبليس..

– قولي لي يا صونيا: حين كنت أبقي راقداً في ظلام غرفتي أجترّ أنواع الخواطر والأفكار، فهل كان إبليس هو الذي يغويني حينذاك! قولي؟

– اسكت! لا تضحك أيها المجدف! إنك لا تفهم شيئاً، لا تفهم شيئاً! رباء! إنه لا يفهم شيئاً!

– اسكنني يا صونيا، أنا لا أضحك البتة. أنا نفسي أعلم أن إبليس هو الذي كان يجرّني...

كذلك قال راسكولنيكوف ثم عاد يردد بإلحاح عابس حزين:

– اسكتي يا صونيا، اسكتي! أنا أعلم كل شيء! لقد قللت الأمر بعقلاني مراراً وهمست لنفسي بهذا كله أثناء اضطجاعي في الظلام... لقد ناقشت هذا كله في قرارة نفسي قبل الآن بأدق التفاصيل! أنا أعلم كل شيء، كل شيء! وهذه الشرارة قد ملأت نفسي بالسأم والضجر إلى حدّ أدنى أردت أن أنسى، وأن استأنف حياة جديدة يا صونيا، وأن أكف عن الشرارة. هل تظنين حقاً أنني قد اندفعت إلى ذلك الأمر منكس الرأس كإنسان أبله؟ إن العقل هو الذي كان يقودني، وذلك بعينه هو ما ضيعني! هل يمكن حقاً أن تظنين أنني كنت أجهل مثلاً أن مجرد إلقاء هذا السؤال: «هل لي حق في السلطة أم لا؟» كان يبرهن على أنني لا أملك ذلك الحق؟ أو هل تظنين أنني كنت أجهل أن إلقاء هذا السؤال: «هل الإنسان قملة؟» إنما يعني في الواقع أن الإنسان ليس قملة في نظري أنا، وأنه ليس قملة إلا في نظر من لم يخطر بباله يوماً أن يلقي على نفسه ذلك السؤال، وإنما هو يمضي إلى هدفه قديماً لا يلوي على شيء؟ لكن ظلت أذب نفسى طوال تلك الأيام كلها بالتساؤل عن نابوليون: أكان يقتل العجوز أم لا، فإن معنى ذلك أنني كنت أشعر شعوراً واضحاً بأنني لست نابوليون. ذلك هو العذاب الذي عانيته يا صونيا، والذي أردت أن أتخلص منه دفعة واحدة. لقد أردت يا صونيا أن أقتل بدون مناقشة منطقية سفسطائية، أردت القول لنفسي، لنفسي أنا وحدي! أنني حين فعلت ما فعلت لم أشأ حتى أن أكذب على نفسي: أنا لم أقتل في سبيل أن أساعد أمي! لا! لا. ولا في سبيل أن أصبح محسناً إلى الإنسانية بعد أن أملك وسائل الإحسان إليها. لا، وإنما أنا قتلت لنفسي، لنفسي وحدي! وفي تلك اللحظة لم يكن يعنيني كثيراً أن أعرف هل سأصبح واحداً من المحسنين إلى الإنسانية، أم أنني سوف أقضي حياتي كالعنكبوت أصطاد غيري في نسيج خيوطي وأمتص قواه الحية! ولا ولا كان المال هو ما أحتاج إليه ذلك الاحتياج كله... وإنما كان احتياجي إلى شيء آخر... أنا أعرف هذا الآن! افهمني يا صونيا: لو كان عليّ أن أعيد السير في هذا الطريق نفسه، فقد لا أقتل. غير أن هناك شيئاً كان يغريني بمعرفته. كان هناك شيء يرفع ذراعي. كان عليّ أن أعرف

عندئذ، بأقصى سرعة ممكنة، أأنا قملة كسائر الناس، أم أنا إنسان؛ أأنا أستطيع أن أخطى الحاجز، أم أنا لن أستطيع ذلك؛ أأنا أجرؤ أن أطأطئ فأتناول هذه القدرة، أم أنا لن أجرؤ؛ أأنا مخلوق مرتعش أم أنا أملك الحق...

– الحق في القتل؟ تملك الحق في القتل؟

كذلك قالت صونيا وهي تضم يديها إحداهمَا إلى الأخرى.

صاحب راسكولنيكوف مهتاجاً يريد أن يعرض عليها:

– هيء! صونيا...

ولكنه عدل عن ذلك، ولزم صمتاً فيه احترام. ثم أردف يقول:

– لا تقاطعني يا صونيا! لقد أردت أن أبرهن لك على شيء واحد: هو أن إبليس قد جرّني في أول الأمر، ثم لم يُفهمني إلا بعد ذلك أنني لم يكن من حقي أن أقترف الفعل الذي اقترفته، لأنني أنا نفسي قملة كسائر الناس. لقد سخر مني واستهزأ بي، ولهذا السبب إنما جئت إليك الآن، فأحسني وفادة ضيفك يا صونيا! أكنت أجيء إليك لولا أنني قملة؟ اسمعي: إنني حين ذهبت إلى العجوز لم أكن أريد إلا أن أحاول تجربة... فاعلمي هذا!

– وقتلت! قتلتها!..

– لكن كيف قتلت؟ أهكذا يتذرع المرء الأمور من أجل أن يقتل؟ سأروي لك في ذات يوم كيف ذهبت إلى هناك... هل العجوز قتلت؟ لا بل أنا قتلت نفسي! لقد أجهزت على نفسي، دفعهً واحدة، وإلى الأبد! أما العجوز فإن إبليس هو الذي قتلتها لا أنا!

ذلك قال راسكولنيكوف ثم صاح فجأة وقد أصبح فريسة قلق لا يغالب:

– كفى كفى يا صونيا، دعني! دعني!

ووضع كوعيه على ركبتيه، وشد رأسه بين يديه ككماشة.

بلغت صونيا ذروة الاضطراب والألم، فأفلت من لسانها قولها:

– ما أشدّ ألمك وعذابك!

فأسألاها فجأة وهو يرفع رأسه منقلب الهيئة من شدة الكرب واليأس:

– وما العمل الآن؟ قولي...

صاحت وهي تندفع من مكانها وقد سطعت عيناهَا فجأة بعد أن كانتا حتى ذلك الحين ممتلئتين بالدموع:

– ما العمل؟

ثم أضافت وهي تمسكه من كتفه، فينهض هو من مكانه وينظر إليها بما يشبه الذهول دهشة:

– اذهب فوراً في هذه اللحظة نفسها، اذهب إلى مفرق طرق، فاسجد على الأرض أولاً، وقبلها هي التي قد دنسّتها، واتّجه إلى جهات العالم الأربع جهةً بعد جهة، ثم ارفع صوتك عالياً قوياً أمام جميع الناس بقولك: «لقد قتلت!». عندئذ سيردّ إليك الإله الحياة. أذهب؟ أذهب؟

كذلك سأله مرتعشة من رأسها إلى قدميها، كأن نوبة عصبية قد ألمّت بها. وأمسكت يديه، فضغطتها بيدّيها ضغطاً قوياً، وتأملته بنظرة حارة.

ذهل راسكولنيكوف ذهولاً شديداً حتى كاد يصعق من هذه الحساسة المفاجئة. وسألاها مكفره الوجه:

– أتريدين إذاً أن تذهب إلى الأشغال الشاقة يا صونيا؟ يجب أن أشي بمنفي، أليس كذلك؟

– الشيء الذي يجب أن تفعله هو أن تقبل الألم فتکفر عن خطئك وتفدي نفسك. ذلك هو ما يجب!

– لأن أذهب إليهم يا صونيا!

صاحت صونيا تسلّه:

– فكيف يكون في وسعك أن تحيا إذا؟ كيف يكون في وسعك أن تحيا؟ أما يزال هذا ممكناً؟ عجيب! كيف يكون في إمكانك أن تظل تكلم أمك وأختك؟ آه... (ما عسى تصيران إليه؟ ما عسى تصيران إليه كلتاهم؟) ولكن ماذا أقول؟ لقد تركت أمك وأختك وانتهى الأمر! لقد تركتهما، تركتهما! آه... يا رب! إذن أنت تدرك هذا كله بنفسك! كيف، نعم، كيف يمكن أن تعيش بعيداً عن البشر؟ ما عسى تصير إليه الآن؟

قال راسكولنيكوف بهدوء ورفق:

– لا تكوني طفلاً يا صونيا! ما ذنبي في حقهم؟ لماذا أشي بمنفي إليهم؟ ما عسانى قائلاً لهم؟ ليس هذا كله إلا سراباً... هم أنفسهم يقتلون ملايين البشر، ثم يستمدون من ذلك مجدًا! هم أوغاد وجبناء يا صونيا! لا، لن أذهب! ثم ماذا أقول لهم؟ أقول لهم إنني قتلت لكنني لم أجرب أن آخذ المال وإنما خبأته تحت صخرة؟ (كذلك أضاف يقول وهو يتسم بابتسامة ساخرة). ولكنهم سيفسحون عندي ذلك على، وسيعدونني رجلاً أبله، لأنني لم أجرب من فعلتي نفعاً... سيعدونني أبله وجباناً! لن يفهموا شيئاً يا صونيا، لن يفهموا شيئاً، إنهم غير جديرين بأن يفهموا شيئاً... فلماذا أذهب إليهم فأسلمهم نفسي؟ لا، لن أذهب! لا تكوني طفلاً يا صونيا!

قالت صونيا مرددة متسللة مادة نحوه يديها:

– لن تكون حياتك بعد الآن إلا عذاباً متصلةً طويلاً، عذاباً متصلةً طويلاً!

قال راسكولنيكوف قاتم الوجه شارد الذهن:

– لعلني ظلمت نفسي. لعلني ما زلت إنساناً لا قملة. لعلني تسرعت في اتهام نفسي... سوف أكافح
مزيداً من الكفاح...

وظهرت على شفتيه ابتسامة فيها تعلي وكبرباء.

قالت صونيا:

– أتحمل ثقلاً كهذا الثقل؟ طوال حياتك، طوال حياتك؟

فأجاها راسكولنيكوف كالح الهيبة شارد اللب:

– سوف أعتاد ذلك!

ثم أضاف يقول بعد دقيقة:

– اسمعي! كفى بكاء! آن لي أن أصل من هذا كله إلى أن أذكر لك الواقع. لقد جئت لأقول لك إنني
ملاحق، إنني مطارد!..

صرخت صونيا مروعة:

– آه...

فقال لها راسكولنيكوف:

– لماذا تصرخين؟ ألم تريدي أنت نفسك أن أذهب إلى الأشغال الشاقة؟ فما بالك تخافين الآن؟ على أنني لن أستسلم لهم، لن أدع لهم أن يقبحوا علي! سأظل أقارعهم، ولن يستطيعوا أن يفعلوا بي شيئاً! إنهم لا يملكون قرائن واقعية. لقد تعرضت أمس لخطر كبير، فحسبت أنني هلكت. ولكن يبدو أن الأمور قد سُويت اليوم. إن كل دليل من أدتهم ذو حدين. أعني أن في وسعي أن أقلب كل دليل من تلك الأدلة فأجعله لي لا عليّ، هل تفهمين؟ وسأفعل ذلك... لأنني أصبحت الآن خبيراً بمهمتهم! لكنهم سيسجنوني حتى! ولو لا أن حادثاً قد وقع بمصادفة فلربما كانوا أودعوني في السجن منذ اليوم؛ وما يزال من الجائز جداً أن أسجن اليوم. ولكن لا ضير يا صونيا! سأقضي في السجن بعض الوقت ثم يطلق سراحني... لأنهم لا يملكون ولن يملكون دليلاً حقيقياً واحداً، أوكد لك ذلك! إن الأدلة التي يملكونها لا تكفي لأن «تلطخ» إنساناً! ولكن كفى كلاماً الآن! أنا إنما قلت لك هذا كله لا شيء إلا أن تعلمي... أما أمي وأختي فسأحاول بطريقة أو بآخرى أن أهدى روبيهما وأن أطمئنها. إن أختي تبدو الآن في منجى من الفاقة والعزوز، وكذلك أمي... هذا كل ما كنت أريد أن أقوله لك. ثم عليك بالحذر! هل تزوريني حين أودع في السجن؟

– سوف أزورك، سوف أزورك!

كانا جالسين أحدهما إلى جانب الآخر، حزينين مهدمين، كغريقين وجد كل منهما صاحبه على شاطئ مقفر بعد عاصفة. كان راسكولنيكوف ينظر إلى صونيا وهو يشعر شعوراً واضحاً بالحب الذي تغمره به. ومن الغريب أنه شقّ على نفسه بل آلام نفسه فجأة أن يحس بأنه محظوظ إلى هذا الحد. آه! كما كان هذا الشعور غامضاً ورهيباً!

حين ذهب إلى صونيا كان قد شعر بأنها أمله الوحيد، وبأنها ملاذه الوحيد. وكان يأمل أن يتخفف عندها من جزء من حمله على الأقل. ولكنها هو ذا الآن يحس ويدرك فجأة، في حين مال قلبها كله إليه، أنه

أشقى مما كان من قبل. قال:

– صونيا، الأفضل أن لا تجئي إليّ في السجن.

لم تجب صونيا، وكانت تبكي. وانقضت بضع دقائق. فإذا هي تسأله على غير توقع، كأنها تذكرت شيئاً ما على حين بعثة:

– هل معك صليب؟

فلم يفهم السؤال في أول الأمر.

قالت:

– لا، ليس معك صليب، أليس كذلك؟ خذ، إليك هذا الصليب، إنه من خشب السرو. معي صليب آخر، صليب من نحاس، بقي لي من اليزافيتا. لقد قمنا بمبادلة، أنا واليزافيتا: أعطتني صليبيها، وأعطيتها أنا أيقونتي الصغيرة. سأحمل الآن صليب اليزافيتا، وستحمل أنت هذا الصليب. خذه... إنه صليبي أنا! صليبي أنا! ستتألم معاً، فلنحمل إذن صليبينا معاً!

قال راسكولنيكوف:

– هاقي! لم يُرِدْ أن يسمى إليها.

ولكنه لم يلبث أن سحب يده.

ثم أضاف يقول ليهدها:

– ليس الآن يا صونيا فيما بعد! ذلك أفضل!

فقالت صونيا تردد بحاسة:

– نعم، نعم، ذلك أفضل، أفضل! سوف نضع الصليب في عنقك حين تسافر للتکفیر. تجيء إليّ، فأضعه في عنقك، ونصلّي معاً، ونسافر معاً...

في تلك اللحظة نقر الباب ثلاثة نقرات. ونادى صوت مهذب مألوف يسأل:

– هل أستطيع أن أدخل يا صونيا سيميونوفنا؟

فاندفعت صونيا نحو الباب مذعورة. وظهر في فرجة الباب وجه ليزياتنيكوف الأشقر.

الفصل الخامس

كان ليزياتنيكوف مضطرب الهيئة منقلب السحنة.

قال يكلم صونيا:

– جئت لأراك يا صونيا سيميونوفنا.

ثم قال يخاطب راسكولنيكوف فجأة:

– معذرة. كنت أتوقع أن أجده هنا. أقصد لم يخطر ببالي شيء.. ما قد تظن، وإنما أنا قدرت أن...

وعاد يكلم صونيا ناسياً وجود راسكولنيكوف فقال دفعة واحدة:

– جُنّت كاترينا إيفانوفنا!

أطلقت صونيا صرخة. وتابع ليزياتنيكوف كلامه:

– أو على الأقل ذلك ما يبدو. أصبحنا هناك لا ندرى ماذا يجب أن نعمل. أغلب الظن أنهم طردوها من المكان الذي ذهبت إليه، ولعلهم ضربوها أيضاً... أو على الأقل ذلك ما يبدو... لقد ركضت تسعى إلى الرئيس سيميون زاخارتش^{٤٤}، فلم تجده في بيته: كان يتغدى عند جنرال آخر. فذهبت إلى حيث كان يتغدى... تصوروا... ذهبت إلى بيت ذلك الجنرال الآخر... هل تصدقون هذا؟ واستطاعت أن تستدعي الرئيس سيميون زاخارتش، نعم، اضطرته أن ينهض عن المائدة، أو على الأقل ذلك ما يبدو. وفي وسعكم أن تخيلوا التتمة! لقد طُردت طبعاً، لكنها تروي أنها شتمته وأنها رشقته بشيء على رأسه. ذلك جائز جداً. حتى أنني أستغرب أنهم لم يعتقلوها. وهي الآن تروي هذه القصة لكل من يريدون أن

^{٤٤} «سيميون زاخارتش»: هو مارميلاروف.

يسمعوها، ومنهم آماليا ايفانوفنا. غير أن من الصعب أن يفهم المرء عليها، من فرط صراخها وتخبطها!.. آه.. نعم.. هي تقول.. هي تصريح قائلة إنها ما دامت قد هجرها جميع الناس، فستأخذ أولادها، وستمضي في الشارع تعزف على أرغن يدوی، وأن أولادها سيعذبون ويرقصون، وأنها ستغني وترقص هي أيضاً، وأنهم سيستعطون الصدقات من المارة، وأنها ستقود الأولاد كل يوم إلى منزل الجنرال فتقف بهم تحت نوافذ غرفته، وهكذا «سيتعرف الجنرال، على حد تعبيرها، كيف أن أولاداً نباء أبوهم موظف محترم يستجدون أكف الناس في الشوارع». وهي تضرب جميع أولادها، والأولاد ي يكون. إنها تعلم لينيا أغنية «القرية الصغيرة»^٠، وتعلّم الصبي الصغير الرقص، وكذلك تعلّم الرقص بولينا ميخائيلوفنا. ولقد مزقت ملابسهم، وأخذت تخيط لهم طاقيات مهرّجين. إنها تريد أن تحمل طشتاً تقر عليه كما تقر على آلة موسيقية. وهي ترفض أن تسمع شيئاً.. تصوروا! هل يمكن أن نتركها تفعل هذا!

كان يمكن أن يستمر ليزياتنيكوف في الكلام، ولكن صونيا التي أصغت إليه وهي تتنفس بمشقة كبيرة تناولت خارها وقبعتها فجأة، واندفعت إلى خارج الغرفة نمهي ارتداء ثيابها في الطريق. وخرج راسكولنيكوف وراءها، وخرج ليزياتنيكوف وراء راسكولنيكوف.

قال ليزياتنيكوف لراسكولنيكوف عندما أصبحا في الشارع:

– لا شك في أنها فقدت عقلها. لم أسا أو أروع صونيا سيميونوفنا، لذلك قلت: «ذلك ما ييدو»، ولكن الواقع أنه لا يمكن أن يساورنا أي شك في أنها فقدت عقلها. يقال إن هناك درنات تنشأ في أدمغة المصابين بمرض السل، فنورثهم هذا الجنون! خسارة أني لا أعرف الطب. على أني حاولت إقناعها، لكنها لا تريد أن تسمع شيئاً!

^٠ إنها تعلم لينيا أغنية «القرية الصغيرة» للموسيقار كليموفسكي التي كانت واسعة الشهرة آنذاك.

– كلمتها عن الدرنات؟

– لا عن الدرنات تماماً، خصوصاً وأنها ما كان لها أن تفهم شيئاً عن الدرنات لو كلمتها فيها. لكنني أقول إننا إذا استطعنا بواسطة المنطق أن نقنع شخصاً بأنه لا داعي إلى البكاء، فإن هذا الشخص سيكفي عن البكاء فوراً. هذا واضح. ماذا. أليس من رأيك أنه سيكفي عن البكاء؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً:

– ما أسهل الحياة إذا صدق قوله!

– اسمح لي، اسمح لي! صحيح أن كاترينا ايفانوفنا يصعب عليها أن تفهم هذا. ولكن هل تعلم أن هناك تجارب جديدة قد أجريت في باريس عن إمكان شفاء المجانين بواسطة الإقناع المنطقي وحده؟ إن أستاذًا من الأساتذة هناك، وقد مات منذ مدة قصيرة، وهو عالم من أكبر العلماء^١، قد رأى أن في الإمكان شفاء المجانين بهذه الطريقة. والفكرة الأساسية التي جاء بها هي أن المجانين ليس فيهم أي آفة عضوية، فإنما الجنون ضلال منطقي إن صح التعبير، أي خطأ في الحكم أو فساد في الرأي. لذلك أخذ العالم يدحض أقوال المريض بالتدريج، فإذا هو ينجح في شفائه شيئاً بعد شيء، ولكن لا بد لنا أن نعترف بأن نتائج المعالجة يمكن أن تكون موضع أخذ ورد، ما دام الطبيب قد استعمل في الوقت نفسه حمامات «دوش»، أو ذلك ما يبدو على الأقل...

كان راسكولنيكوف قد انقطع عن الإصغاء منذ مدة. فلما وصل أمام المترزل الذي فيه بيته، ودع ليزياتنيكوف بإشارة من رأسه، وانعطف يدخل بوابة المنزل. فتحير ليزياتنيكوف، ونظر حواليه، ثم تابع طريقه. دخل راسكولنيكوف مسكنه الحقير، وهناك وقف يتساءل: «لماذا جئت؟» وألقى نظرة على

^١ لعل الأستاذ العالم المقصود هنا هو الطبيب الفرنسي فرانسوا لوريه (1795-1851) مؤلف كتاب «المعالجة النفسية للجنون» (1838).

الورق الأصفر الباهت الذي يغطى الجدران، وعلى الغبار الذي يغشى كل مكان، وعلى سريره. وكان يصل من فناء المنزل صوت جاف متصل، كأن أحداً كان يغرس مسامير.

مضى راسكولنيكوف إلى النافذة، وارتفع على رؤوس أصابع قدميه، وظل يفتش فناء المنزل بانتباه شديد مدة طويلة. ولكن الفنان كان حالياً مقفرأً، وليس يرى المرء أحداً يغرس المسامير. وعلى اليسار، في جناح آخر، كان ثمة نوافذ مفتوحة، تُرى على أفاريزها أصص أزهار، ويرى من خلالها غسيل منشور في الداخل على جبال... لقد كان راسكولنيكوف يعرف هذا كله حفظاً على ظهر القلب. فأشاح عنه، وعاد يجلس على سريره.

إنه لم يشعر في يوم من الأيام، في أي يوم من الأيام، بأنه وحيد إلى هذا الحد من الوحيدة. نعم، لقد أحس من جديد أنه قد يعود يكره صونيا، لا شيء إلا لأنه قد أشقاها الآن مزيداً من الشقاء. تساءل: «لماذا ذهبت أستجديها صدقة من دموعها؟ ما كانت حاجتي إلى تسميم حياتها؟ يا للدناءة! يا للحقاره!»

وقال فجأة بلهجة جازمة: «سابقى وحيداً. ولن تأقى لتراني في السجن!»

وبعد خمس دقائق عاد يرفع رأسه، وابتسم ابتسامة غريبة. لقد وافته فكرة لم تكن في الحسبان، قال يسأل نفسه: «أليس من الجائز أن تكون حالي في السجن أفضل حقاً؟»

لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف المدة التي قضتها في مسكنه يدير في رأسه هذا الطوفان من الأفكار المبهمة والخواطر الغامضة. ولكنه يعرف أن الباب فتح فجأة، فدخلت آفدوتيا رومانوفنا. توقفت في أول الأمر وتأملته واقفة في العتبة، كما تأمل هو صونيا منذ قليل. ثم تقدمت وجلست على كرسي أمامه في مكان الأمس نفسه؛ ونظر إليها صامتاً بنظرة ليست فيها أية فكرة.

قالت دونيا:

– لا تزعل يا أخي، أنا ما جئت إلا لحقيقة!

كان في وجهها وقار ورصانة، ولكن بغير تجهم أو قسوة. وكانت نظرتها راققة، صافية، وادعة هادئة. فأدرك راسكولنيكوف أنها قد جاءت إليه هي أيضاً بحب.

وتابعت الأخت كلامها فقالت:

– روديا، أنا أعلم الآن كل شيء، كل شيء! لقد روی لي دمتری بروکوفتش كل شيء، وشرح لي كل شيء! إنهم يضطهدونك ويعذبونك بسبب شبهة غبية كريهة. لقد قال لي دمتری بروکوفتش إنك غير معرض لأي خطر، وقال إنك تخطئ إذ تضخم الأمور وتأخذها مأخذ الفاجعة. ولست أشاطره رأيه، فأنا أفهم حق الفهم أن يثير هذا ترددك، وأن يختلف هذا التمرد آثاراً في حياتك كلها. وذلك ما أخشاه حقاً. ولست أحكم على إنك تركتنا، ولا أجرؤ أن أحكم، فأرجوك أن تغفر لي ما وجهته إليك من لوم. أنا أشعر بأنني لو أصابني حزن كحزنك لابعدت عن جميع الناس كما تبتعد عنهم أنت.. لن أقص هذا الأمر على أمنا، لكنني لن أنفك أحدهما عنك، وسأقول لها على لسانك إنك لن تتأخر في العودة إلينا. لا تقلق عليها، سوف أتولى أنا تهدئتها وطمأنيتها. ولكن عليك من جهتك أن لا تعذبها: زرها ولو مرة واحدة، تذكر أنها أمك. ولقد جئت الآن لأقول لك (هنا نهضت دونيا): إذا احتجت إلى في أي أمر من الأمور، أو إذا احتجت إلى حياتي... كلها... نادني فأتي! أستودعك الله!

قالت دونيا ذلك، ثم استدارت واتجهت نحو الباب.

أوقفها راسكولنيكوف وقد نهض واتجه نحوها:

– دونيا! إن رازوميخين هذا، إن دمتری بروکوفتش رازوميخين شاب ممتاز!

احمر وجه دونيا قليلاً، وسألته بعد دقيقة:

— وبعد؟

— وبعد، هو فتى نشيط مجتهد شريف، قادر على أن يحب حباً جماً، حباً صادقاً... أستودعك الله يا دونيا!

احمر وجه دونيا احمراراً شديداً، ثم قالت وقد تنبهت إلى الخطر فجأة:

— ولكن لماذا توصى به هذا التوصيات كلها؟ أترانا نفترق إلى الأبد؟

— لا قيمة لهذا... أستودعك الله!..

قال ذلك، وابتعد عنها، ومضى إلى النافذة. فانتظرت لحظة، ونظرت إليه قلقة، ثم خرجت وقد استولى عليها هم وخوف.

لا، إنه لم يشعر نحوها ببرودة في العاطفة، حتى إنه في لحظة من اللحظات (هي اللحظة الأخيرة) قد استبدت به رغبة قوية في أن يحتضنها بذراعيه وأن يقول لها كل شيء، مودعاً إياها، لكنه لم يستطع أن يعزم أمره على أن يمدد إليها يده، وأضاف يحدث نفسه قائلاً: «في المستقبل، قد ترتعش حين تتذكر أنني احتضنتها بذراعي، وقد تقول لنفسها إنني سرقت منها قبلتها» وأضاف يتساءل بعد لحظات: «ثم هل يمكنها أن تحتمل اعترافاً كهذا الاعتراف؟ لا، لن تستطيع أن تحتمله. هي من أولئك اللواتي لا يمكنهن أن يحتملن مثل هذه الأشياء».

وفكر في صونيا.

وكان هواء طري يهب من النافذة. وفي الخارج كان الضياء قد خبا سطوعه. فتناول راسكولنيكوف قبعته فجأة وخرج.

كان لا يستطيع أن يعيأ بحالته الصحية، لا ولا يريد أن يعيأ بها. ولكن جميع تلك الإنذارات المتصلة وجميع تلك الأهوال النفسية، كان لا بد أن يكون لها آثار. ولئن لم تصرعه الحمى حتى الأأن، فلعل مرد ذلك أن القلق المستمر كان يجعله في حالة تنبه وتيقظ، ولو على نحو مصطنع مؤقت جداً.

لبيضرب في الأرض على غير هدى. أخذت الشمس تغرب. إنه يحس منذ بعض الوقت بحزن خاص جداً. لم يكن في ذلك الحزن شيء من حدة، وإنما كان فيه نوع من ثبات وبقاء أبدي، نوع من تنبؤ بجميع السنين التي سوف يقضيها في غم بارد كالصقيع، غم قاتل هو شيء كالآبديّة على مساحة من الأرض ليست أكبر من «موطئ قدم». كان راسكولنيكوف يشعر بهذا الإحساس أقوى ما يكون عند هبوط الليل خاصة.

دمدم يقول متذمراً: «هيا امتنع عن ارتكاب حماقة من الحماقات إن استطعت وأنت تعاني من هذه الاضطرابات الجسمية السخيفية المرتبطة بغرروب الشمس! إن في الإمكان أن تقوّدك هذه الحالة لا إلى الاعتراف لصونيا فقط، بل الاعتراف لدونيا أيضاً!»

وسمع أحداً ينادي، فالتفت، فإذا ليزياتنيكوف يهرع إليه.

قال ليزياتنيكوف:

– لقد كنت أبحث عنك! تخيل أنها وضعت مشروعها موضع التنفيذ مقتادة أو لادها! ولقد لقينا أنا وصوفيا سيميونوفنا كثيراً من العناء والمشقة حتى وجدناهم! إنها تنقر على مقلة، وتجبر الأولاد أن يغنو ويرقصوا. والأولاد ي يكون. إنهم يتوقفون عند مفارق الطرق وأمام الدكاكين، ووراءهم يجري جمهور كبير غبي. تعال!

سؤال راسكولنيكوف قلقاً وهو يجري وراءه:

— وصونيا؟

— فقدت عقلها. لا أقصد أن صونيا سيميونوفنا هي التي فقدت عقلها بل كاترينا ايفانوفنا. وصونيا سيميونوفنا أيضاً على كل حال. ولكن كاترينا ايفانوفنا فقدت عقلها تماماً. نعم، لقد جُنت جنوناً كاملاً نهائياً.

ستقاد مع الأولاد إلى الشرطة. هاًنت ذا ترى الأثر الذي سوف يحدثه هذا. هم الآن على رصيف النهر، قرب جسر س...، غير بعيد عن مسكن صونيا سيميونوفنا، على مسافة خطوتين من هنا.

على الرصيف، غير بعيد عن الجسر، قبل منزل صونيا بعمارتين، كانت تختشد جمّهرة من الناس فعلاً، يرى المرء بينها على وجه الخصوص صبياناً وبنات يقفزون ويثبون...

إن صوت كاترينا ايفانوفنا الأبح يُسمع حتى من الجسر. مشهد غريب فعلاً، لا بد أن يشوق المستطلعين المتسكعين الذي يحبون أن يروا كل شيء وأن يسمعوا كل شيء!

كانت كاترينا ايفانوفنا ترتدي ثوبها المهترئ وشالها المصنوع من الجوخ الخفيف، وتضع على رأسها قبعة من قش تسطحه وتشوهات. وكانت في حالة جنون مطلق حقاً، وتلهث منهوكة مهدودة القوى. وكان وجهها، الشاحب الهزيل من مرض السل، يعبر عن ألم أقوى من الألم الذي يعبر عنه هذا الوجه عادةً (إن المصدوريين يبدون في ضوء الشارع أشد مرضًا مما يبدون مرضي في منازلهم). وكان اهتياجها لا يهدأ، بل يقوى ويستعر مزيداً من الاستعار لحظة بعد لحظة. فهي تندفع نحو أولادها، فتصرخ فيهم وتقرّعهم وتعلّمهم على مرأى من جميع الناس كيف ينبغي لهم أن يرقصوا وأن يغنوا وتشرح لهم ضرورة ذلك، حتى إذا لاحظت أنهم لا يفهمون أخذت تضرّبهم؛ ثم هي تهرب إلى الجمهور لتتكلّمه قبل أن تفرغ مما تكون قد شرعت فيه. فإذا لاحت بين أفراد الجمهور شخصاً يرتدي ثياباً لائقة بعض الشيء، أسرعت

تشرح له الحالة التي آل إليها «أولاد أسرة نبيلة، بل أسرة أرستقراطية». وإذا سمعت انطلاق ضحكة أو مجرد كلمة ساخرة هجمت على الوقحين فوراً وأخذت تشاجرهم. وكان بعض الناس يضحكون وكان بعضهم الآخر يهزون رؤوسهم، ولكنهم كانوا جميعاً ينظرون بكثير من الاستطلاع والفضول إلى المرأة المجنونة وأولادها المروعين. والمقالة التي تكلم عنها ليزياتنيكوف لم تكن موجودة، أو أن راسكولنيكوف لم يرها على الأقل، لكن كاترينا إيفانوفنا كانت ترافق الغناء والرقص بضبط الوزن صفقاً بيديها اليابستين، مجبرة كوليا ولينيا على الرقص بينما تغنى بوليا. وكانت تحاول في الوقت نفسه أن تغنى هي أيضاً، ولكن نوبة رهيبة من السعال ما تلبث أن تقطع غناءها، فتحزن عندئذ حزناً شديداً، وتأخذ تشتم المرض وتلعنه، حتى لتبكي حسراً ولوحة. والشيء الذي كان يثير حنفها خاصة إنها هو بكاء كوليا ولينيا وذعرهما. وكانت كاترينا إيفانوفنا قد حاولت حقاً أن تلبس أولادها على طريقة مغني الشوارع. فأما الصبي الصغير فقد وضعت على رأسه لفة بيضاء مخيطة مع قطعة قماش أحمر فكأنها طربوش وعمامة مما يضعه على رؤوسهم الأتراك. وأما لينيا فإن كاترينا إيفانوفنا لأنها لم تجد قماشاً تصنع لها به ثوباً حقيقياً من ثياب مغني الشوارع، قد اقتصرت على أن ألبست رأسها قلنسوة منسوجة بالإبرة من قماش أحمر (بل قل طافية المرحوم سيميون زاخارتش نفسها)، وغرست في القلنسوة بقية ريشة من ريش النعام الأبيض كانت تملكتها في الماضي جدة كاترينا إيفانوفنا، وكانت كاترينا إيفانوفنا قد حفظتها حتى ذلك الحين في صندوق كأثر من تراث الأسرة. وأما بوليا فهي ترتدي ثوبها الذي كانت ترتديه كل يوم، وتدرك أن أمها قد جنّت فتنظر إليها نظرة فيها خجل وخوف وحزن، ولا تبتعد عنها شبراً واحداً، مخفية دموعها، ملقة على ما حولها نظرات قلقة. كان الشارع والجمهور يبchan في نفسها رعباً هائلاً.

كانت صونيا تسير وراء كاترينا ايفانوفنا باكية، وما تنفك تصرع إليها في كل دقيقة أن ترجع إلى البيت. ولكن كاترينا ايفانوفنا لا تثنى عن عزها، ولا تلين قناتها، فهي تقول لصونيا صارخة بصوت متوجّل وهي تسعل وتلهث:

— اتركيني يا صونيا، اتركيني! أنت نفسك لا تدررين ماذا تطلبين مني! أنت طفلة، أنت طفلة! قلت لك إنني لن أرجع إلى تلك الألمانية السّكّيرة! ألا فليعلم جميع الناس وبطربسبرج كلها كيف صار إلى استجداء الأكف أولاد أبٍ نبيل ظل طوال حياته يخدم الدولة باستقامة وشرف، حتى ليتمكن أن يقال إنه مات أثناء أداء واجب وظيفته (لقد أفلحت كاترينا ايفانوفنا في أن تخلق لنفسها هذا الوهم وأن تؤمن به إيماناً أعمى)! ألا فليَر ذلك الجنرال التافه كل هذا، ألا فليَر! أنت حمقاء يا صونيا! ما عسانا نفعل الآن من أجل أن نأكل؟ لقد استغللناك واستثمرناك بها فيه الكفاية! لا أريد هذا بعد الآن!.. روديون رومانوفتش؟ أهذا أنت؟ (كذلك هتفت وقد لمحت راسكولنيكوف، فهرعت إليه) أرجوك أن تُفهم هذه الحمقاء الصغيرة أنتا لم يبق لنا أن نفعل شيئاً غير هذا! إن العازفين على أرغن يدوبي يتوصّلون إلى جني رزقهم، ونحن سوف يتعرّفنا جميع الناس، وسوف يرى جميع الناس أننا أسرة نبيلة مهجورة بائسة، وسوف يفقد ذلك الجنرال التافه منصبه، لترىن هذا! سنذهب كل يوم إلى تحت نوافذه، حتى إذا مرّ القيصر جثوت عند قدميه، ودفعت هؤلاء إلى أمام ليراهم، وهتفت أقول له: «إِحْمَهُمْ يَا أَبَانَا!». إنه أبو اليتامي، إنه رحيم... سوف يحميهم، لترىن أنه سوف يحميهم! أما ذلك الجنرال التافه فسوف... لينيا— tenez vous droite! وانت يا كوليا! ارقص من جديد! ما لك تبكي! إنه ما يزال يبكي! عجيب! مَّ أنت خائف أيها الأحمق الصغير؟ ماذا يجب أن أصنع بهم يا روديون رومانوفتش؟ ليتك تعلم مدى غباوتهم وبلاهتهم! ما عسانا صانعة بأولاد كهؤلاء الأولاد؟

^{٢٠} انصبي قامتك. (بالفرنسية في الأصل).

قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك لراسكولنيكوف وأوشكت أن تبكي هي نفسها (دون أن يوقف هذا سيل كلامها المتدفق الذي لا ينضب) وهي تريه الأولاد الذين كانوا ي يكونون.

حاول راسكولنيكوف أن يقنعها بأن عليها أن ترجع إلى البيت، وقدر أنه يستطيع بكلامه أن يوقف حبها لذاتها وشعورها بكرامتها فقال لها إنها لا يليق بها أن تتجول في الشوارع تحول العازفين على أرغن يدوى على حين أنها تتوقف إلى إنشاء مدرسة داخلية للفتيات النبيلات!

فصاحت كاترينا ايفانوفنا تقول ضاحكة مقهقة:

— مدرسة داخلية! ها ها ها!.. اسمعوا هذا الكلام!..

وأعقبت ضحكتها نوبة سعال. ثم تابعة كلامها فقالت:

— لا يا روبيون رومانوفتش! هذا الحلم قد تبّدّ! لقد هجرنا جميع الناس! وهذا الجنرال التافه... هل تعلم يا روبيون رومانوفتش أنني رميته بمحبرة على وجهه، هي المحبرة التي كانت توجد في حجرة المدخل على المنضدة قرب الورقة التي يسجل فيها الزوار أسماءهم؟ لقد سجلت اسمي أنا أيضاً، ثم رميته بالمحبرة ووليت هاربة؟ آه! يا للجبناء! يا للحقراء! ولكنني أصبحت الآن لا أهتم... فسوف أجني لهم رزقهم بنفسي، سوف أجني للأولاد رزقهم بنفسي. لن أطأطئ رأسي لأحد! لقد عذبناها بما فيه الكفاية (كانت كاترينا ايفانوفنا تقصد صونيا). يا بوليتشكا، كم جمعنا إلى الآن؟ أريني! كيف؟ ألم نجمع إلا كوبكين فقط؟ آه... يا للأوغاد! إنهم لا يعطوننا شيئاً! إنهم لا يزيدون على أن يركضوا وراءنا مادّين لنا أسلتهم استهزاءً! انظر إلى هذا المعتوه مثلاً: مم تراه يضحك؟ (وأومأت إلى واحد في الجمهور) ذلك كله بسبب كوليا! فلأن كوليا غبي هذا الغباء كله إنما يسخر منا الناس جمِيعاً! مالك يا بوليتشكا؟

Parlez-moi français! عجيب! ألم أعلمك الفرنسية؟... إنك تعرفين بضع جمل.. آنّى لهم أن يعرفوا أنكم تتتمون إلى أسرة نبيلة وأنكم قد نشئتم تنشئة طيبة فلستم من أمثال العازفين في الشوارع، آنّى لهم أن يعرفوا ذلك إذا لم تكلميوني باللغة الفرنسية يا بوليشكا؟ نحن لا نمثل «بوروشك»^{٤٤} المبتذل وإنما نحن نغني أغنيات راقية! ها... نعم... ما الذي سوف نغنيه الآن؟ أنت لا تزيد على أن تقاطعنا، ونحن... اسمع يا روديون رومانوفتش، لقد توقفنا هنا قليلاً لنقرر ما الذي سنغنه: يجب أن نغني شيئاً يكون في وسع كوليا أن يرافقه برقصه، ذلك أننا، كما تستطيع أن تقدّر، قد أخذنا على غير تهيه أو استعداد. ولا بد لنا من توزيع أعمالنا والتوفيق بين أعبائنا حتى نرتّب الأمور. وبعد ذلك سوف نذهب إلى شارع نيفسكي، حيث يكثر الناس الذين يتتمون إلى المجتمع الراقي فسرعان ما يلاحظوننا. إن لينيا لا تعرف إلا أغنية «القرية الصغيرة»، لا تعرف إلا «القرية الصغيرة» وحدها! وجميع الناس يغنوون هذه الأغنية حتى أصبحت كال المشار! يجب علينا أن نختار شيئاً أرقى. فماذا يا بوليا؟ هل عندك فكرة؟ ليتك تستطعين، أنت على الأقل، أن تساعدني أمك! آه من الذاكرة! إن الذاكرة هي التي تخونني، ولو لا ذلك لجرت الأمور من تلقاء ذاتها، لو لا ذلك لتذكرة! لن نغني مع ذلك أغنية «الفارس المتكئ على سيفه»!^{٤٥} الأولى أن نغني بالفرنسية أغنية «خمسة قروش»^{٤٦}. لقد علمتكم إياها، تلك الأغنية! ثم إن الناس سرعان ما يدركون، لأننا سوف نغني بالفرنسية، إنكم أولاد أسرة كريمة الأصل، فيؤثر ذلك في نفوسهم تأثيراً أكبر! حتى أن في وسعنا أن نغني أغنية «Malborough s'en Va-t-en guerre»^{٤٧} لا سيما وأنها

^{٤٤} كلاميوني بالفرنسية. (بالفرنسية في الأصل).

^{٤٥} نحن لا نمثل «بوروشك» المبتذل....: بوروشك هو البطل الرئيسي لفن مسرح العرائس الروسي الشعبي... وهو شخصية شجاعية، مرحمة، يخرج منتصراً في العادة من خلافاته ومشاحناته مع السادة والقساوسة والشياطين... ألمخ.

^{٤٦} «الفارس المتكئ على سيفه»: هذه هي الكلمات الأولى من قصيدة «فراق» للشاعر الروماني باتيوشكوف؛ وقد لحت القصيدة سنة ١٨١٤، وراجت رواجاً كبيراً.

^{٤٧} خمسة قروش. (بالفرنسية في الأصل).

^{٤٨} مالبورو مسافر إلى الحرب. (بالفرنسية في الأصل).

أغنية صغيرة للأطفال وحدهم، نعم للأطفال وحدهم، تُستعمل في جميع البيوت الأرستقراطية لهدأة الأطفال. قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك وأخذت تغني:

مالبورو مسافر للحرب

لا يدرى متى يعود...^{٥٨}

ثم استدركت تقول: بل الأفضل أن نغني «خمسة قروش» يا كوليا، ضع يديك على خصريك! أسرع؟ وأنت يا لينيا، استديري في اتجاه معاكس! وسوف أرافقكما أنا وبوليا بصفق الأيدي:

خمسة قروش، خمسة قروش...

لإنشاء أسرتنا...^{٥٩}

واجتاحتها نوبة سعال أخذت تهزها هزاً: كح كح!.. وقالت تناطّب بوليا من خلال السعال: – اعدلي ثوبك يا بوليتشكا! إنه ينزلق عن كتفيك! علينا الآن أن نحافظ على أحسن مظهر، حتى يرى جميع الناس أنكم أولاد أسرة نبيلة!.. آه... ما أكثر ما قلت إن صدر هذا الفستان ينبغي أن يكون أطول... ولكن نصائحك أنت يا صونيا هي التي أفسدت كل شيء: «قصروا! قصروا!» فانظري الآن ماذا كانت النتيجة: لقد تشوّهت هذه الطفلة! ماذا؟ هأنتم أولاء تستأنفون البكاء؟ ما بالكم تعودون إلى البكاء أيها الأغياء؟ هيا يا كوليا! غن! بسرعة أكبر! أكبر! أوه! يا لك من ولد لا يطاق

خمسة قروش، خمسة قروش...

^{٥٨} مالبورو مسافر للحرب، لا يدرى متى يعود... (بالفرنسية في الأصل).

^{٥٩} خمسة قروش، خمسة قروش لإنشاء أسرتنا... (بالفرنسية في الأصل).

– ماذا؟ الجنديُّ أيضاً؟ ماذا تريد إليها الجندي؟

كان شرطي من شرطة المدينة يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور بالفعل! ولكن سيداً يرتدى بزة رسمية ومعطف، هو موظفي كبير في نحو الخمسين من عمره، وقرر المظهر مهيب الطلعه، يحمل عدا ذلك وساماً في عنقه (وهذا الأمر التفصيلي الأخير قد أبهج كاترينا إيفانوفنا كثيراً وأحدث في شرطي المدينة تأثيراً كبيراً)، قد ظهر في تلك اللحظة نفسها فاقرب من كاترينا إيفانوفنا ماداً إليها ورقة نقدية قيمتها ثلاثة روبلات. وكان وجهه يعبر عن شفقة صادقة. فتناولت كاترينا إيفانوفنا الورقة، وانحنت أمام الرجل بشيء من الأدب، بل وبشيء من الاحتفال. وبدأت تتكلّم فقالت متعالية:

– أشكرك يا سيدى. إن الأسباب التي أهابت بنا إلى... خذى المال يا بوليتشكا. هاؤنت ذى ترين أن هناك أناساً كراماً عظاماً مستعدين لمساعدة سيدة نبيلة بائسة أناخ عليها الدهر... إن أمامك يا سيدى يتامى نباء، بل يتامى يمكن أن تقول إن لهم قربى بأعلى الأسر الأرستقراطية. ولكن ذلك الجنرال التافه الذي كان بسبيل التهام دراريج... آه... لقد ضرب الأرض بقدمه لأنني أزعجه! قلت له: «يا صاحب السعادة، كن حامياً لأيتام المرحوم سيميون زاخارتش، أنت يا من عرفته حق معرفته، فإن إنساناً حقيراً من المقراء قد افترى على بنته في يوم موته نفسه». أما يزال هذا الجندي هنا؟ كان حامياً لنا يا سيدى (كذلك صاحت كاترينا إيفانوفنا مخاطبة الموظف الذي أعطاها الروبلات الثلاثة). لماذا يلاحقنى هذا الجندي؟ ما باله يطاردنى دائمًا؟ لقد سبق أن هربنا من جندي غيره في شارع ميشانسكايا... ماذا تريد إليها الغبي؟

– لا يجوز لكم أن تفعلوا هذا في الشوارع؛ يجب عليكم أن تلتزموا حدود اللياقة!

– أنت الذي لا تلتزم حدود اللياقة! أنا أفعل ما يفعله العازفون على الأرغن اليدوي! فما شأنك أنت؟

– من أجل العزف على الأرغن، لا بد من ترخيص... أما أنت فإنك لم تحصل على ترخيص... أنت تزعجين الناس؟ أين تسكنين؟

أعولت كاترينا ايفانوفنا تقول:

– ماذا؟ ترخيص؟ لقد دفنت زوجي في هذا اليوم نفسه! أي ترخيص تريد؟

تدخل الموظف فقال:

– سيدتي، سيدتي، هدئي نفسك. تعالى.. سأوصلك إلى بيتك! ليس هذا لئنقاً هنا، أمام الناس! أنت مريضة!

فصاحت كاترينا ايفانوفنا تقول:

– يا سيد، يا سيد، أنت لا تعرف شيئاً! سوف نذهب إلى شارع نيفسكي! صونيا، يا صونيا! ولكن أين ذهبت صونيا؟ إنها تبكي هي أيضاً! ولكن ماذا دهاكم جميعاً؟

وصرخت فجأة تسأل:

– كوليا، لينيا، إلى أين تذهبان؟ إلى أين أنتما ذاهبان؟

كان كوليا ولينيا، وقد رأيا الجندي الذي يريد أن يقبض عليهما وأن يقتادهما إلى مكان ما، وروّعتهما هذه الجمّرة المحتشدة من الناس وهذه الحالات الجنونية في أمّها، كانوا قد تماسّكت يداهما وأخذنا يركضان كأنّما على سابق اتفاق وتوافق. فلما رأتهما المسكينة كاترينا ايفانوفنا على هذه الحال أخذت تشن وتنشج، واندفعت تطاردهما. إنه منظر عجيب محزن أن يراها المرء تركض غارقة بدموعها منقطعة أنفاسها. وأسرعت صونيا وبوليا تركضان وراءهما.

– ارجعيهما يا صونيا، ارجعيهما؟ آه!.. يا للأولاد الأغبياء! يا للأولاد العاقّين!.. يا بوليا؛ أدركيهما!
اقبضي عليهما! من أجلكم إنما أنا...

وترنحت كاترينا ايفانوفنا في ركبها وسقطت.

صاحت صونيا قائلة وهي تميل عليها:

– إنها مغطاة بالدم! رباه!

هرع الجميع، وتحلقوا حول كاترينا ايفانوفنا. وكان راسكولنيكوف وليزياتنيكوف أول المسرعين. وقد أسرع الموظف أيضاً. ووراءه وصل شرطي المدينة قائلاً في تذمر: «أقصة جديدة؟» ثم حرك يده بإشارة انزعاج، شاعراً أن هذه القضية ستحدث كثيراً من المتابعة.

قال الشرطي وهو يصرف المستطلين الذي تجمعوا ينظرون:

– انصروا! انصروا!

قال أحدهم:

– إنها تموت.

وقال آخر:

– لقد فقدت عقلها.

وقالت امرأة وهي ترسم على نفسها إشارة الصليب:

– رأف الله بها. هل أعيد الأولاد على الأقل؟ ها هم أولاء يرجعون! إن الكبرى هي التي أدركتهم. يا للعفاريت!..

ولكن حين أنعم النظر في كاترينا ايفانوفنا عُرف أنها لم تُخرج لاصطدامها بحجر كما قدّرت صونيا، فإن الدم الذي صبغ بالحمرة أرض الشارع إنما تدفق من حلقتها.

دمدم الموظف يقول لراسكولنيكوف وليزياتينيكوف:

– أنا أعرف، أنا أعرف، هذا مرض السل! هكذا ينبعس الدم من فم المريض ثم يخنقه. شهدت هذه الحادثة نفسها منذ مدة غير طويلة: إحدى قريباتي سكبتمن صدرها على هذا النحو كأساً أو أكثر من دم على حين فجأة. ما العمل؟ سوف تموت..

تضرعت صونيا قائلة:

– هنا! هنا! إلى بيتي! أنا أسكن هنا، هنا، في هذا المنزل، العمارة الثانية... فلتُنقل إلى بيتي، بسرعة، بسرعة!.. استقدموا طبيباً... اه... يا رب!..

كذلك كانت تقول صونيا متوجهة بكلامها إلى الحضور واحداً بعد واحد.

ودُبرت الأمور بفضل جهود الموظف. حتى لقد ساعد الشرطي نفسه في نقل كاترينا ايفانوفنا. صعدوا بها إلى مسكن صونيا وهي شبه ميتة، وأضجعواها على السرير. كان الدم ما يزال ينذف، ولكن كان يبدو على المريضة أنها تثوب إلى شعورها شيئاً بعد شيء. ولقد دخل إلى الغرفة، عدا راسكولنيكوف وليزياتينيكوف، دخل الموظف والشرطي. وكان الشرطي قد صرف الجمهور فلم يفلت منه إلا بضعة فضوليين صاحبوا كاترينا ايفانوفنا وموكبها ودخلوا الغرفة هم أيضاً. ووصلت بوليا مسكة كوليا ولينيا اللذين كانوا يرتجفان ويبكيان. وُهُر من بيت كابرناؤموف أيضاً عدة أشخاص: كابرناؤموف نفسه،

وهو رجل أعرج أعور يضفي عليه شعر رأسه وفوديه المجدّد تجعد شعر الخنزير مظهراً غريباً جداً؛ وامرأته التي يعبر وجهها عن ذعر مستمر متصل؛ وعدد من أولادهما فغرت أفواههم وجذبهم الدهشة؛ وظهر بين المشاهدين أخيراً سفديجايروف. فنظر إليه راسكولنيكوف في أول الأمر مذهولاً لا يفهم من أين عساه طلع، فهو لا يتذكر أنه رأه بين الجمهور المحتشد في الشارع.

وتكلم الحضور عن استقدام طبيب وكاهن. وهذا هو الموظف يصدر أمره باستقدام طبيب، رغم أنه كان قد همس يقول لراسكولنيكوف إن مساعدات الطبيب أصبحت غير مجده. وتعهد كابرناوموف أن يسعى إلى الطبيب لإحضاره.

وتحسنت حالة كاترينا ايفانوفنا قليلاً أثناء ذلك، فالنزيف قد انقطع مؤقتاً، وألقت نظرة موجعة، وإن تكن ثابتة نافذة، على صونيا التي كانت تجفف قطرات العرق عن جبينها شاحبة الوجه مرتعشة اليدين. وطلبت كاترينا ايفانوفنا أخيراً إنهاضها، فأجلست على السرير مسنودةً من الجهتين.

دمدمت تقول بصوت ضعيف:

– أين الأولاد؟ هل أرجعتهم يا صونيا؟ آه... يا لهم من بلهاء! لماذا هربتم؟ آه..

وغضي الدم شفتيها من جديد. فأجالت عينيها على ما حولها. وقالت:

– آه... أهكذا تعيشين إذاً يا صونيا! لم يتح لي أن آتي إليك قبل الآن مرة واحدة!

ونظرت إليها بألم.

– قد امتصصنا قواك يا صونيا... بوليا، كوليا ولينيا... تعالوا إلى... ها هم جمِيعاً أمامك، يا صونيا... أما أنا فيكفي... انتهي الأمر!.. ضعوني على الوسادة واتركوني لأموت هادئة..

وضعوها على الوسادة من جديد.

– ماذا؟ كاهن؟ لا أريد!.. هل معكم روبل تضيئونه؟ أنا لا ذنب لي! لا بد أن يغفر الله لي. إن الله يعلم
كم تأمت! فإذا لم يغفر لي، فلا يغفر!

واستولى على كاترينا ايفانوفنا هذيان ما فتئ يزداد اضطراباً، كانت في بعض اللحظات ترتعش، وتنظر
حواليها، فتتعرف جميع الأشخاص الذي يحيطون بها، تعرّفهم خلال دقيقة واحدة، ثم ما تلبث أن تفقد
صحوها وترتّد إلى هذيانها من جديد. وكان تنفسها أبّ أحشّ، وكان شاقاً أليماً، وكان يُسمع نوع من
القرفة يخرج من حلتها.

و�향ت تقول وهي تختنق لدى كل كلمة تنطق بها:

– قلت له: «يا صاحب السعادة...» آه... سحقاً لآماليا لودفيجوفنا هذه!.. لينيا، كوليا، ضعا يديكما
على الخصرين، واجعلا رقصكما أسرع، أسرع... انزلقا... انزلقا!.. عليكما بخطوة «البسك»... إقرع
كعيك! كن ولداً رشيقاً!

لك ماس ولائي^{٦٠}

– ماذا بعد؟ ها... نعم... يحب الغناء كما يلي:

لك أجمل عينين

فماذا تريدين أكثر من ذلك يا فتاة؟^{٦١}

^{٦٠} لك ماس ولائي (بالألمانية في الأصل).

^{٦١} لك أجمل عينين، فماذا تريدين أكثر من ذلك يا فتاة! (بالألمانية في الأصل).

نعم «ماذا تريدين أكثر»، يا للغبي ما أسف قوله! ها... نعم... وهذا شعر آخر:

تحت أشعة الشمس الحارة، بوادي داغستان...

ـ آه... لشد ما أحبت هذه الأغنية! أحبتها حتى العبادة، هذه الأغنية! هل تعلمين يا بوليتشك؟ كان

أبوك يعنيها أيام كنا خطيبين!.. ذلك ما يجب أن نغنه إذا أردنا الغناء! ولكن ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

قد نسيت! هلا ذكرتوني! ذكرتوني!

كانت كاترينا ايفانوفنا في حالة اضطراب شديد، وكانت تحاول أن تنهض. وأخذت أخيراً تغنى بصوت

رهيب أبّح مكسّر، صارخة مختنقة عند كل كلمة تنطق بها، وكان وجهها يعبر عن رعب ما ينفك يزداد:

تحت أشعة الشمس الحارة! بوادي داغستان!...

وفي صدري رصاصة!..

وأعولت تقول فجأة بصياح ممزق وهي تجهش باكية:

ـ يا صاحب السعادة، كن حاماً للبيامي... تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلتك به سيميون

زادخارتش... والذي يمكن أن يوصف بأنه أرستقراطي...

وانتفضت كاترينا ايفانوفنا فجأة وقد ثاب إليها شعورها وأخذت تتفرس في الحضور مذعورة. لكنها لم

تلبث أن تعرّفت صونيا، فنطقت تقول في رقة وحنان وكأنها تستغرب أن تراها أمامها:

ـ صونيا! صونيا! أنت أيضاً هنا يا عزيزتي؟

أنهضت كاترينا ايفانوفنا من جديد.

صرخت تقول في يأس وكره:

– كفى! آن الأوان! وداعاً! لقد أجهزوا على الحصان القديم! إنه يفطس!

وتركت رأسها يتهاوى على الوسادة.

واستولى عليها المذيان مرة ثانية، لكن ذلك لم يدم إلا مدة قصيرة. انقلب وجهها المصفر إلى وراء، وانفتح فمها، وامتدت ساقاها في تشنج، وزفرت زفة عميقة وماتت.

أسرعت صونيا إلى جثتها، فطوقتها بذراعيها متألمة، وشدّت رأسها إلى صدرها الناحل. وঁجثت بوليا عند قدمي أمها فقبلتها باكية ناشجة. ولم يدرك كوليا ولينيا إدراكاً واضحاً ما الذي حدث، لكنهما أوجسا أن ثمة شيئاً رهيباً قد وقع، فارتى كل منهما بين ذراعي الآخر، وفغر فماهما وأخذا يصرخان. كانوا ما يزالان يرتديان ثياب المهرجين، فأحدهما على رأسه عمامه، والأخرى على رأسها طاقية تزينها ريشة نعامة.

لا ندري كيف وُجدت «شهادة التقدير» موضوعة على الوسادة قرب كاترينا ايفانوفنا، غير أن راسكولنيكوف قد رأها على كل حال.

ابعد راسكولنيكوف نحو النافذة، وأسرع ليزياتينيكوف يلحق به. قال:

– ماتت!

قال سفدريجايلوف وهو يتقدم نحو راسكولنيكوف:

– روديون رومانوفتش، عندي كلمة أريد أن أقوها لك. أمر مستعجل!

فسرعان ما تناهى له ليزياتينيكوف عن مكانه مبتعداً، غير أن سفدريجايلوف ابتعد براسكولنيكوف مزيداً من الابتعاد يريد أن يخلو إليه وأن يكلمه على انفراد. كان راسكولنيكوف متثيراً. قال سفدريجايلوف:

– سوف أتولى جميع هذه الأمور، أقصد نفقات الدفن وكل ما عداه. هذا يقتضي مالاً... هذان العصفoran الصغيران وهذه البنت بوليتتشكا سوف أدخلهم مأوى للأيتام، فتكون العناية بهم أحسن ما تكون العناية، وسأودع باسم كل منهم مبلغ ألف وخمسين روبل، إلى أن يبلغوا سن الرشد، وذلك حتى يطمئن بالصونيا سيميونوفنا كل الاطمئنان. سوف أخرجها هي أيضاً من الحمأة التي تعيش فيها، لأنها فتاة طيبة، أليس كذلك؟ فتستطيع أن تقول لآفدوتيارومانوفنا في أي وجه من الوجوه استعملت العشرة آلاف روبل.

سؤال راسكولنيكوف:

– لأي هدف من الأهداف تظهر هذا الكرم كله؟

فأجابه سفديجايروف يقول ضاحكاً ضحكة صغيرة:

– هيء! هيء! يا لك من رجل قليل الثقة سيء الظن! لقد قلت لك إنني في غير حاجة إلى هذا المال! لماذا ترفض أن تصدق أنني لا أتصرف إلا بدافع الأنانية؟ وكيف دار الأمر فإن هذه (قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى الركن الذي ترقد فيه المدفأة) لم تكن قملة، لم تكن عجوزاً مرا比ة ما... هيّا قل لي: «هل الأفضل أن يبقى رجل مثل لوجين حياً يرتكب دناءاته وحقاراته، في حين تموت هي؟... ثم إنه بدون مساعدتي، فإن بوليتتشكا مثلاً ستكون مضطورة أن تسير في هذه الطريق نفسها»..

قال تلك الكلمات بلهجة فيها شيء من المكر المرح، دون أن يحول بصره عن راسكولنيكوف.

اصفر راسكولنيكوف وتجمد رعباً حين سمع تلك العبارات نفسها التي قالها هو نفسه في حديثه مع صونيا. وتقهقر فجأة وألقى على سفديجايروف نظرة ضاربة.

ودمدم يسأل بصوت مختنق:

– كيف... عرفت... هذا؟

– أنا أقطن هنا، في الجهة الأخرى من هذا الحاجز، عند السيدة ريسليخ. هنا شقة كابرناوموف، وهناك شقة السيد ريسليخ، وهي صديقة لي منذ عهد طويل، صديقة من أخلص الصديقات. أنا جار من الجيران. هذا هو الأمر!

– أنت؟!

فضحك سفدر يجايروف واهتز بدنـه كله من ضـحـكتـه الطـولـيـة، وتابع كلامـه فـقـالـ:

– أنا، وأستطيع أن أؤكـدـ لكـ صـادـقاً يا روـديـون روـمانـوفـتشـ العـزيـزـ أنـ أـمـرـكـ قدـ شـاقـنيـ كـثـيرـاًـ.ـ أـلمـ أـقلـ لكـ إـنـناـ سـنـكـونـ مـتـفـاهـمـينـ!ـ لـقـدـ تـنـبـأـتـ لـكـ بـذـلـكـ!ـ نـعـمـ،ـ لـقـدـ تـفـاهـمـنـاـ!ـ لـسـوـفـ تـرـىـ أـنـيـ رـجـلـ موـادـعـ مـجـارـ مـرـيـحـ!ـ لـسـوـفـ تـرـىـ أـنـيـ أـمـرـؤـ مـاـ تـزالـ الـحـيـةـ مـعـيـ مـمـكـنـةـ.

الجزء السادس

الفصل الأول

بدأ عندئذ عهد جديد غريب في حياة راسكولنيكوف. لكان ضباباً قد سقط أمامه فجأة، فحبسه في عزلة ثقيلة كثيفة. حين تذكر راسكولنيكوف هذه الفترة، بعد زمن، بعد زمن طويل، قدر أن صحو ذهنه كان يغور في الظلام أحياناً، وأنه استمر على هذه الحال إلى أن نزلت النازلة النهاية، إلا في لحظات قليلة. وقد اقتنع اقتناعاً تاماً بأنه قد ضل حينذاك في أمور كثيرة، ولا سيما في مواقف بعض الأحداث وفي مدتها. على أنه حين استحضر هذه الذكريات وحاول أن يجمع شتاها وأن يوضحها، استعان بشهادة أشخاص آخرين، فعلم بذلك أموراً كثيرة عن نفسه. علم مثلاً أنه كان يخلط بين حادث وآخر، أو كان يظن هذا الحادث نتيجة لحادث ثالث لا وجود له في الواقع، وإنما هو من صنع خياله. وكان يتباه في بعض الأحيان قلقاً أو خوف سرعان ما يستحيل إلى رعب هائل. ولكن راسكولنيكوف تذكر أيضاً أنه كانت تمر به دقائق بل ساعات وربما أيام يعيش خلالها حالات نفسية تناقض مخاوفه السابقة، فهو غارق في خدر يشبه عدم الاتكاث الذي يعانيه بعض المحتضرين. ويمكن أن نقول على وجه العموم أنه يكون في مثل تلك الأيام كمن يحاول أن يتحاشى هو نفسه أن يشعر بوضعه وأن يدرك موقفه وأن يعي حاليه. وهناك وقائع أساسية معينة كانت تقل على نفسه خاصة مع أنها تتطلب توضيحاً مباشراً. ولكن ما كان أعظم سعادته بأن ينسى بعض الظروف، رغم أن هذا النسيان قد استطاع أن يؤدي في حالته إلى نازلة رهيبة لم يمكن تحاشيها.

وكان يقلقه سفدريجايلوف خاصة، حتى لم يكن القول إن انتباهه كله قد تركز على سفدريجايلوف. فمنذ اليوم الذي نطق فيه سفدريجايلوف بتلك الكلمات الصريحة الرهيبة التي لا بد أن ترعب راسكولنيكوف، وذلك في غرفة صونيا، لحظة وفاة كاترينا ايفانوفنا، منذ ذلك اليوم انقطع الجريان الطبيعي لأفكار راسكولنيكوف. ولكن راسكولنيكوف لم يسارع إلى توضيح الأمور لنفسه، رغم القلق الشديد الذي

أخذ يعانيه. كان يتفق له في بعض الأحيان، إذ يجد نفسه فجأة في حي ناءٍ مفترٍ من أحياء المدينة، جالساً وحده إلى مائدة منعزلة في أعماق حانة حقيرة، غارقاً في أفكاره، لا يكاد يتذكر ما الذي قاد خطاه إلى هذا المكان، كان يتفق له على حين بغتة أن يخطر بباله سفدريجايلوف، فإذا هو تتجلّى له حقيقة واضحة صارخة، هي أن عليه أن يجري حديثاً مع هذا الرجل بأقصى سرعة ممكنة، وأن يفرغ من هذا الأمر، مرة واحدة. حتى لقد خيل إليه ذات يوم، في مكان وراء أسوار المدينة، أنه يتظر سفدريجايلوف، وأنه قد ضرب له موعداً للقاء في هذا المكان. وفي يوم آخر، استيقظ عند الفجر فرأى نفسه راقداً على الأرض لا يدرى أين، فلم يفهم ما الذي جاء به إلى هنا، ولا عرف كيف وصل إلى هذا الموضع. ثم إنه خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي أعقبت وفاة كاترينا ايفانوفنا قد أتيح له أن يلقى سفدريجايلوف مرتين، وذلك كالعادة في غرفة صونيا التي ذهب إليها لا هدف إلا أن يراها لحظة. وقد تبادل الرجالان بضع كلمات مقتضبة جداً، ولكن تجنبوا أن يمسا النقطة الأساسية، فكأن بينهما اتفاقاً مضمراً على أن يلزما الصمت في هذا الموضوع إلى حين. كان تابوت كاترينا ايفانوفنا عندئذ ما يزال في غرفة صونيا. وكان سفدريجايلوف ينشط في سبيل إتمام الدفن. وكانت صونيا منشغلة هي أيضاً. وفي اللقاء الأخير الذي تم بين الرجلين شرح سفدريجايلوف لراسكولنيكوف أن المساعي التي شرع في القيام بها من أجل أولاد المتوفاة قد أثمرت، ففضل بعض العلاقات، استطاع أن يدخل الأيتام الثلاثة في مؤسسات مناسبة، وكان للهال الذي أودعه لهم فضل كبير في ذلك، لأن الأولاد الذين يملكون مالاً يسهل قوفهم في هذه المؤسسات أكثر من الأولاد الذين لا يملكون شيئاً. وتكلم سفدريجايلوف قليلاً عن صونيا كذلك، ووعد بان يزور راسكولنيكوف في بيته قريباً، وأسمعه أنه يتمنى لو يطلب منه النصح « فهو في حاجة ملحة إلى أن يكلمه في بعض الأمور...»؛ وقد جرى هذا الحديث بين الرجلين في حجرة المدخل، فكان سفدريجايلوف يحدق إلى راسكولنيكوف بنظرة ثابتة ثم خفض صوته فجأة بعد فترة من صمت يسأله:

– ولكن مالك يا روديون رومانوفتش؟ يبدولي أنك لست في حالة طبيعية. صحيح أنك تصغي وتنظر، ولكن لا يلوح عليك أنك تفهم! هيا ينبغي أن نتحادث معاً بعض الشيء! يؤسفني أنني مشغول إلى هذا الحد!

ثم أضاف يقول فجأة:

– هيه! جميع البشر محتاجون إلى هواء، إلى هواء، إلى هواء قبل كل شيء!
وتنحى بعثة حتى يفسح مجال الممر للكاهن والقندلفت اللذين كانا يصعدان السلم. إنها آتيا لإقامة صلاة الميت. لقد اتخذ سفديجاييف الاستعدادات الالزمة لإقامة صلاة الميت هذه مرتين في اليوم بغير انقطاع.

تردد راسكولنيكوف لحظةً ثم تبع الكاهن إلى عند صونيا. وكان سفديجاييف قد ذهب في حال سبيله. وقف راسكولنيكوف على العتبة. وابتداً قداساً هادئاً مهيباً حزيناً. منذ نعومة أظفاره كان شعوره بالموت وإحساسه بحضور الموت يصطبغ عنده دائمًا نوع من رعب صوفي. كما أنه منذ مدة طويلة لم يشهد قداس جنازة. وإلى هذا كله يُضاف الآن إحساس بالاضطراب والرعب أشد إيلاً.

نظر إلى الأولاد. كانوا جميعاً راكعين قرب التابوت. وكانت بوليتشكا تبكي. ووراءهم كانت صونيا تصلي وتبكي برفق. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «إنها لم تنظر إلى مرة واحدة في هذه الأيام الأخيرة. ولم تخاطبني بكلمة واحدة». كانت الشمس تغمر الغرفة بضياء قوي، ودخان البخور يتصاعد إلى السقف، والkahن يرثّل أدعيته. بقي راسكولنيكوف إلى آخر قداس فلما بارك الكاهن وودع منصرفًا، ألقى على ما حوله نظرة غريبة. واقترب راسكولنيكوف من صونيا بعد انتهاء قداس. فإذا هي تتناول يديه فجأة وتليل برأسها على كتفه. دُهش راسكولنيكوف من بادرة الصداقة واللودة هذه. بدت له هذه

البادرة غريبة. تساءل: كيف لا تنفر منه صونيا أقل نفور، كيف لا تشمئز منه أي اشمئزاز؟ وكيف لا ترتعش يدها أقل ارتعاش! يا للتضخيم! هكذا فهم راسكولنيكوف الأمر على الأقل. لم تقل صونيا كلمة واحدة. صافحها راسكولنيكوف وخرج. كان يشعر بإرهاق فظيع يجتاحه. فلو كان يستطيع في تلك اللحظة أن يذهب إلى مكان ما، إلى أي مكان يشعر فيه بوحدة مطلقة، بعزلة مطلقة، ولو دامت مدى الحياة، إذن لعد نفسه سعيداً. ولكن راسكولنيكوف كان في هذه الآونة الأخيرة، رغم بقاءه وحيداً في جميع الأحيان تقرباً، لا يفلح في الوصول إلى الشعور بالوحدة. كان يتافق له أن يخرج من المدينة، وأن يسيراً في الطريق الكبير. حتى لقد توغل ذات مرة في غابة. ولكن كلما كانت الأماكن أشد عزلة وأكثر خلواً شعر راسكولنيكوف بحضور عميق مقلق لا يرعبه فقط، وإنما يضايقه ويزعجه خاصة. فكان يسرع عندئذ عائداً إلى المدينة فيختلط بالجمهور، ويذهب إلى «سوق المواد المستعملة» و«سوق العلف»، فيشعر هنالك بشيء من الارتياح.

وكان ذات مساء في مطعم حقير فيه غناء، فبقي يصغي إلى الغناء ساعة كاملة، وقال لنفسه إنه مبتهج به، ولكن قلقه عاد يجتاحه آخر الأمر، فإن شيئاً يشبه عذاب الضمير قد أخذ ينهاش قلبه، وقال لنفسه فجأة: «هأنا ذا جالس أستمع لغناء، فهل هذا هو ما يليق بي أن أفعله؟». على أنه لم يلبث أن أدرك أن مدار قلقه ليس على هذا، وأن هناك مسألة يجب حلُّها بغير إبطاء، لكنه لا يستطيع أن يعبر عن هذه المسألة بكلام، أو أن يترجمها بأقوال. كان كل شيء تتشابك خيوطه: «لا... الصراع أولى! بورفيري... أو سفديجاييف... لأن أقوم بتحدى آخر وهجوم جديد فذلك خير من هذا... نعم، نعم!» قال راسكولنيكوف ذلك لنفسه ثم خرج من المطعم وهو يكاد يركض ركضاً. وخطرت بباله دونيا وأمه، فإذا هو يشعر برعبراءة هائل، لا يدرى لماذا! وفي تلك الليلة بالذات استيقظ قبل الفجر في غابة بجزيرة

كريستوفسكي^{٢٢} مرتعداً من الحمى. فعاد إلى بيته قبل طلوع الشمس. وزايلته الحمى بعد نوم بضع ساعات، ولكنه استيقظ متأخراً. كانت الساعة حين استيقظ الثانية والنصف بعد الظهر.

فتذكر عندئذ أن دفن كاترينا ايفانوفنا كان موعده ذلك اليوم، فسرّه أنه لم يشهد الدفن. وجاءته ناستاسيا بعده، فأكل وشرب بشهوة كبيرة توشك أن تكون شراهة. وكان ذهنه أنضر، وكان يحس أنه أهدأ مما كان في الأيام السابقة، وأدهشه أنه عانى ما عانى من رعب شديد مستمر.

وفتح الباب في تلك اللحظة، ودخل رازوميixin.

قال رازوميixin وهو يتناول كرسيّاً ويجلس عليه قبالة راسكولنيكوف:

ـ هه! إنه يأكل. ما هو إذن بالمريض!

كان رازوميixin في حالة اهتياج شديد لا يحاول أن يخفيه. كان يتكلم بلهجة فيها غيظ واضح، ولكنه لا يتجلّ ولا يرفع صوته. لكانه يبيّت نية لها بصفة استثنائية جداً. وبدأ يتكلم بلهجة جازمة فقال:

ـ اسمع! لقد أسامتموني فاذهروا جميعاً إلى جهنم! ذلك أني أرى الآن رؤية واضحة وضوح النهار أني لا أفهم من الأمر شيئاً البتة! ولا يذهبن بك الخيال إلى أني سأحاصرك بالأسئلة. فلقد أصبحت لا أعبأ بهذه الأمور كلها!.. ولست أريد قط أن... قد تكشف لي بنفسك عن جميع أسرارك، فإذا أنا لا أصغي إليها. نعم، لسوف أبصق استخفافاً ثم أمضي لشأني! وإنما جئت الآن لهذا واحد هو أن أعرف أولاً بنفسي، معرفة حاسمة، أأنت مجنون أم لا. ذلك أن هناك أناساً - ليس أمراً هاماً أن نسميهم - مقتنعون بأنك مجنون أو على الأقل بأنك مؤهل لأن تصبح مجنوناً. وإنني لا أُعترف لك بأنني كنت أنا نفسي مستعداً أتم الاستعداد لأن أرى هذا الرأي، أولاً بسبب أفعالك السخيفة بل الخسيسة (لا سيما وأنها لا تعليل

^{٢٢} جزيرة كريستوفسكي: جزيرة من أنواع جزر نهر نيفا.

لها)، وثانياً بسبب سلوكك الأخير مع أمك وأختك، فهو سلوك لا يمكن أن يسلكه إلا إنسان شاذ أو دنيء أو مجنون. فأنت إذن مجنون.

– هل رأيتما منذ مدة طويلة؟

– منذ لحظة. وأنت؟ أنت لم ترها مرة أخرى منذ ذلك اليوم، أليس كذلك؟ فأين كنت تتسلك طوال هذا الوقت؟ هلا قلت لي، أرجوك! لقد جئت إلى بيتك ثلاث مرات. وأمك مريضة منذ الأمس مرضًا شديداً، قررت أن تجبيه إليك، فحاولت آفدوتيا رومانوفنا أن تمنعها من ذلك، لكنها لم تفلح. قالت: «إذا كان مريضاً، إذا كان قد أصاب عقله احتلال، فمن ذا ينجده إذا لم تتجده أمه؟» عندئذ جتنا إليك معاً، لأننا لم ننشأ أن نتركها وحدها. وفي الطريق، فعلنا كل شيء في سبيل أن نهدئها. ولكننا دخلنا فلم نجده! جلست هناك، ولبست جالسة عشر دقائق، وكنا نحن أثناء ذلك الوقت نقف إلى جانبها لا ننطق بكلمة واحدة. بعدئذ نهضت وقالت: «ما دام يخرج فمعنى ذلك أن صحته حسنة، وأنه نسي أمه. يترتب على هذا أنه لا يليق بأمه بل عارٌ عليها أن تقف في عتبة بابه تستجدي ملطفاته استجداه الصدقات». وعادت إلى بيتها، ثم لم تلبث أن اضطرت إلى ملازمة الفراش. وهي الآن تعاني من الحمى، وتقول: «فهمت! إن وقته لا يتسع لغير حبيته...» إنها تعتقد أن صونيا سيميونوفنا حبيتك أو خطيبتك أو خليلتك، لا أدرى! فسرعان ما ذهبت إلى بيت صونيا سيميونوفنا، لأنني كنت أريد أن أقف على حقيقة الحال يا صديقي. دخلت على صونيا سيميونوفنا، فهذا رأيت؟ تابوتاً وأولاداً يبكون، وصونيا تجرب على الأولاد ملابس الحداد. أما أنت فلا وجود لك! عندئذ نظرت، واعتذررت، وخرجت، ومضيت إلى آفدوتيا رومانوفنا أروي لها ما شاهدت! القصة إذن باطلة: لا حبيبة هنالك ولا شيء من ذلك، ولعل كل ما في الأمر أنك مجنون! ولكن هانا ذا أراك تلتهم لحم بقر مسلوقاً فكأنك لم تذق طعاماً منذ يومين! صحيح أن المجانين يأكلون هم أيضاً... ولكن لا... ما أنت بمجنون... رغم أنك لم تقل لي كلمة واحدة!

ما أنت بمعجنون قط! أنتي لمستعد أن أقسم لك على ذلك! إذن... شيطان يأخذكم جميعاً... فلا بد أن في الأمر سراً، لا بد أن في الأمر سراً... وأنا لا أريد أن أصدع رأسي بأسراركم! إنني لم أجئ إلا لأزعجك تخفيفاً عن نفسي. وأنا أعلم ماذا بقي عليّ أن أفعل!

بهذا ختم رازوميixin كلامه وهو ينهض.

سؤال راسكولنيكوف:

– ماذا تنوي أن تفعل؟

– أصبح يهمك الآن أن تعرف ما الذي سأفعله؟

– حذار! إنك تريد أن تقبل على شرب الخمر!

– كيف... كيف حزرت هذا؟

– لا يحتاج الأمر إلى كبير ذكاء!

بقي رازوميixin صامتاً بعض الوقت، ثم قال فجأة بحماسة:

– لقد كنت فتى ذكياً حصيف العقل على الدوام. لم تكن مجعوناً في يوم من الأيام! نعم، كلامك صحيح.
سأقبل على شرب الخمر! أستودعك الله!

قال رازوميixin ذلك واتجه نحو الباب. فقال له راسكولنيكوف:

– كلمت أخي عنك يا رازوميixin، أمس الأول، فيما ذكر.

فتوقف رازوميixin فجأة، حتى لقد اصفر وجهه قليلاً وهو يسأل:

– عني أنا؟.. ولكن أين عساك رأيتها، أمس الأول؟ يستطيع المرء أن يدرك أن قلبه قد أخذ يخفق خفاناً قوياً.

قال راسكولنيكوف:

– جاءت إلى هنا! وجلست في هذا المكان! وتكلمنا!

– هي؟!

– نعم، هي؟

– ماذا قلت لها؟ أقصد... ماذا قلت لها عنِي؟

– قلت لها إنك شاب ممتاز، شريف، مجتهد.. لم أذكر لها أنك تحبها، فذلك أمر تعرفه هي.

– تعرفه... هي؟

– طبعاً... وعليك أن تكون لها سندأ وحامياً ونصيراً، أينما حطّت رحالِي وكيفما كان حالِي! أقول لك هذا لأنني أعرف مدى ما تحمله لها من حب، ولأنني مقتنع بظهور عواطفك ونقاء مشاعرك. وإنني لأعلم أيضاً أنها، من جهتها، يمكن أن تحبك، هذا إذا لم تكن قد أحببتك وانتهى الأمر! والآن قرر: هل عليك أن تقبل على شرب الخمر!

– روديا... اسمع.. طيب... آه... أنت، إلى أين ت يريد أن تذهب؟ إذا كان ذلك سراً، فاكتمه إن شئت. ولكنني سأطلع على السر آخر الأمر! آ... إنِّي لعلى يقين من أن المسألة لا تعود أن تكون سخافة من السخافات لا تُصدق! وأنك قد اخترعت هذا كلها مهما يكن من أمر، فانت فتى رائع، أنت أروع الفتىان!

قال راسكولنيكوف:

— ولقد أردت أن أقول لك أيضاً — لو لا أنك قاطعني — إنك كنت على حق تماماً حين ذهبت إلى أنه لا داعي إلى محاولة اكتشاف تلك الأسرار. دع هذا الأمر الآن ولا تقلق. سوف تعرف كل شيء في أوانه، حينها سيكون هذا ضرورياً. بالأمس قال لي أحدهم: إن المرء في حاجة إلى هواء، إلى هواء! وأريد الآن أن أذهب إلى ذلك الرجل لأعرف ما الذي كان يعنيه بذلك الكلام!

كان رازوميixin واقفاً يفكر، وقد عاد يستولي عليه القلق. ثم قال يحذّث نفسه فجأة: «هو متآمر سياسي. لا شك في ذلك وهو يوشك أن يقوم بعمل حاسم. نعم، هذا هو الأمر. لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا. ودونيا تعلم ذلك».

وقال وهو يقطع كلماته:

— إذن تجئ إليك آفدوتيا رومانوفنا، وأنت تري أن ترى ذلك الرجل الذي قال لك إن المرء في حاجة إلى هواء، إلى مزيد من الهواء دائماً... والرسالة... معنى ذلك أن لتلك الرسالة علاقة بهذا الأمر..

بهذه الجملة الأخيرة ختم رازوميixin كلامه وكأنه يكلّم نفسه.

سأله راسكولنيكوف:

— أي رسالة؟

— لقد تلقتالي يوم رسالة أقلقتها كثيراً، كثيراً جداً. أخذت أتكلّم عنك، فرجتني أن أسكّت. ثم... ثم قالت إن من الجائز أن نفترق قريباً جداً... ثم شكرتني بكثير من الحرارة على أنني... لا أدرّي ماذا، وأخيراً مضت إلى غرفتها فحبست نفسها فيها.

سأله راسكولنيكوف شارد الذهن:

– تلقت رسالة؟

– نعم، رسالة. ألم تكن تعرف ذلك؟

وصمت الشابان كلاهما.

– أستودعك الله يا روبيون. أنا يا صاحبي... في وقت من الأوقات... ثم... أستودعك الله! نعم، في وقت من الأوقات.. دعنا من هذا... أستودعك الله! آن لي أنا أيضاً أن... لن أشرب. ما الداعي الآن؟

كان متعجلاً، لكنه ما كاد يترك الغرفة وينغلق وراءه الباب حتى فتحه فجأة من جديد، وقال وهو يلقي نظرة متهرّبة إلى جانب:

– بالمناسبة... فيها يتعلق بتلك الجريمة... أنت تعلم حكاية بورفيري... ومقتل المرأة العجوز... ألا تتذكر؟.. لقد اكتشفوا القاتل... اعترف القاتل وقدّم جميع الأدلة. تصور أنه واحد من أولئك الدهانين الذين انبريت أنا من تلقاء نفسي أدفع عنهم... هل تتذكر؟ وهناك شيء تفصيلي آخر: إن مشهد المشاجرة مع الرفيق، والقهقات على السّلم بينما كان الآخرون يصعدون، ذلك كله إنما ابتكره القاتل ابتكاراً ليدفع عنه الشّبهة! يا للمركي! يا للبدويّة الحاضرة والخيالة البارعة! لا يكاد المرء يصدق، ولكن الرجل أوضح هو نفسه كل شيء! لقد خدعني في أول الأمر عن نفسي! إنه يملك عقريّة المكر والخيال، عبقرية التمويه القضائي. على كل حال، هذه أشياء موجودة، فلا داعي إلى الإسراف في الدّهشة! هل مستحيل أن يوجد أفراد من هذا النوع؟ وأما أنه لم يطق صبراً فاعترف أخيراً، فذلك أمر أصدقه مزيداً من التصديق. لقد خدعني على كل حال! تصوركم تحمست لهم ودافعت عنهم!

سأله راسكولنيكوف وقد ظهر عليه اضطراب واضح:

– كيف علمت بذلك؟ ولماذا يهمك هذا الأمر إلى هذا الحد؟

– لماذا يهمني هذا الأمر؟ ياله من سؤال!..

إن بورفيري هو الذي أمندي بهذه المعلومات! ثم إنه هو الذي أطلعني على كل شيء تقريباً.

– بورفيري؟

– نعم، بورفيري.

سؤال راسكولنيكوف مرتاباً:

– ماذا.. ماذا قال لك؟

– شرح لي الأمر شرحاً رائعاً، شرحاً «سيكولوجياً»، على نهجه في الشرح.

– هو نفسه... شرح لك؟

– نعم.. هو نفسه. أستودعك الله! سأقصّ عليك شيئاً فيما بعد، أما الآن فشمرة عمل يجب أن أقوم به، هناك. جاء وقت تصورت فيه أن... ولكن ما الداعي إلى هذا الكلام؟ سأقول لك فيما بعد!.. ما حاجتي إلى السكر الآن؟ لقد أسكرتني أنت بغير حمر! نعم، أنا سكران يا روديا، سكران من غير أن أشرب حمراً. هيا، أستودعك الله. سأعود إليك بعد مدة قصيرة.

قال رازوميixin ذلك وخرج. وفيما كان يهبط السلم بخطى بطئية كان يحدث نفسه بقوله: «هو متآمر سياسي، حتماً. ولقد أقحم أخته في الأمر. ذلك جائز، بل جائز جداً، إذا نحن نظرنا بعين الاعتبار إلى طبع آفدوتيا رومانوفنا.. هما الآن يلتقيان في مواعيد يضربانها! ألم تفهمني هي نفسها شيئاً من ذلك تلميحاً بكثير من الكلمات الغامضة والإشارات واللاحظات. نعم هذا كله يدل على أن تقديرني

صحيح. وإنما فكيف نعمل هذا التعقيد كله؟ هه... وأنا ظنت أن... آه... يا رب! ما أكثر ما تخيلت أيضاً! نعم، كان ذلك ضلالاً، ولقد أثمت في حقه! غير أن ذلك خطأ هو أيضاً. لماذا شوّش فكري، ذلك المساء، في الدهلiz، تحت المصباح؟ ها... يا لها من فكرة دنيئة، خسيسة، تلك الفكرة التي راودتني! وما أعظم شهامة ذلك الفتى نيكولاي حين اعترف بكل شيء! هكذا يتضح الماضي كله دفعة واحدة: مرض روديا، وأطواره الغريبة، وحتى ما سبق هذه الفترة، حين كان روديا ما يزال في الجامعة فكان مظلوم النفس، مكتئب المزاج. ولكن ماذا تعني الآن هذه الرسالة؟ لا بد أن وراءها شيئاً! من هو مرسلها؟ أظن أنها... هم.. سأخرج هذا كله إلى النور!»

ثم تذكر كل ما يتعلق بدونيا، فوجف قلبه حين تذكر ذلك. وتخلاص من جموده، وأخذ يمشي مشياً سريعاً يوشك أن يكون ركضاً.

ما إن خرج رازوميixin حتى نهض راسكولنيكوف، فاقترب من النافذة، ومشى في الغرفة متقدلاً من ركن إلى ركن، كأنها هو قد نسي أبعادها... ثم عاد يجلس على السرير. لكانه قد تبدل تبدلاً تاماً: عاد الصراخ... ما يزال هناك إذن مخرج. «نعم، هذا مخرج يظهر أخيراً!». حقاً لقد كان راسكولنيكوف حتى ذلك الحين محصوراً، مخنوقاً، لأن قدرأ قد جثم عليه منذ المشهد الأخير مع نيكولاي عند بورفيري، حتى أن مشهداً آخر قد وقع غداة ذلك المشهد الأول نفسه، وقع عند صونيا ولم ينته، كما لعله تخيل. ولقد ظهر ضعف راسكولنيكوف فانهار انهياراً تاماً، دفعة واحدة. ألم يعترف عندئذ، مع صونيا، من أعماق قلبه، أنه أصبح لا يستطيع أن يحيا حاملاً وحده عبئاً كهذا العبء؟.. سفديجايروف؟ إن سفديجايروف لغز. إن سفديجايروف يقلقه أيضاً، رغم أنه يقلقه من وجهة نظر أخرى تماماً. لعل هناك صراعاً لا بد من خوضه مع سفديجايروف يمكن أن يكون مخرجاً كذلك؟ ولكن بورفيري؟ ذلك شيء آخر!..

«ها... هكذا إذن... بورفيري نفسه هو الذي شرح لرازو ميixin إذن كل شيء! شرح له كل شيء شرحاً «سيكولوجياً». إنه لا يتخلى عن هذه السيكولوجيا اللعينة التي يتسلح بها!.. ولكن كيف أمكنه، هو بورفيري، أن يصدق، ولو دقيقة واحدة، أن نيكولاي هو الجاني، بعد المشهد الذي قام بيمنا قبل وصول نيكولاي هذا نفسه، وهو مشهد لا يمكن أن يكون له إلا تفسير واحد؟» كانت ذكرى هذا المشهد الذي وقع بيته وبين بورفيري قد عاودته مراراً كثيرة في هذه الأيام الأخيرة، ولكنها كانت تعاوده تفتاً صغيرة، فلو رأها كاملة في جملتها لما استطاع أن يحتملها.

«إن ما قام بيمنا من أحاديث، وما جرى من حركات وإشارات، وما تبادلناه من نظرات، وما قلناه من أشياء بلهجة معينة، قد تم على نحو لا يمكن معه أن يكون نيكولاي (الذي كشف بورفيري عن حقيقته منذ تصريحاته الأولى على كل حال) هو الذي استطاع أن يرده عن اقتناعه. أضعف إلى ذلك أن رازو ميixin قد أخذت تراوده الشكوك والشبهات.. معنى ذلك أن مشهد الدهلiz تحت المصباح لم يفته تماماً! وها هو ذا يهرب عندئذ إلى منزل بورفيري! ولكن لماذا ضللته بورفيري على ذلك النحو؟ ماذا كانت غايته من ذلك؟ ماذا كان هدفه؟ لا شك في أنه كان له هدف، ولكن ماذا كان ذلك الهدف؟ أية مصلحة له في أن يحول شبهات رازو ميixin نحو نيكولاي؟ لا شك في أنه كانت له مصلحة، ولكن ماذا كانت تلك المصلحة؟ إن زماناً طويلاً قد انقضى بعد ذلك الصباح، زماناً طويلاً مسراً في الطول، لم نعرف خلاله أي أنباء عن بورفيري. إن ذلك لا ينبئ بخير...»

تناول راسكولنيكوف قبعته، وخرج من غرفته غارقاً في أفكاره. هذه أول مرة يشعر فيها بأنه في حالة طبيعية، طوال ذلك الوقت.

وقال يحدّث نفسه: «يجب الانتهاء من سفتريجايروف، مهما كلف الأمر، وبأقصى سرعة ممكنة. أظن أنه، هو أيضاً، يتوقع أن أذهب إليه بنفسي». وفي تلك اللحظة، انجس في قلبه المذنب كره بلغ من القوة أن

راسكولنيكوف كان يمكن في تلك اللحظة أن يقتل أحد اثنين: سفديجاييف أو بورفيري. ولقد شعر على كل حال بأنه قادر على أن يفعل ذلك، إن لم يكن فوراً فبعد حين. فكان يردد قائلاً لنفسه: «سوف نرى، سوف نرى».

ولكن ما إن اجتاز الباب المفهي إلى فسحة السلم حتى اصطدم ببورفيري نفسه. كان بورفيري يهم أن يدخل عليه. دهش دهشة شديدة، ولكن دهشته لم تدم إلا لحظة قصيرة. أمر غريب: إنه سرعان مارأى أن مجيء بورفيري إليه أمر طبيعي لا غرابة فيه، فلم تشر فيه رؤيته إلى خوف تقربياً. أرتعش في البداية رعشة خفيفة، لكنه لم يلبث أن عاد يسيطر على نفسه. «لعل هذه هي الخاتمة؟ ولكن لماذا كان يسير بخطى محاذرة كهرة، ولماذا لم أسمع وقع أقدامه؟ هل يمكن أن يكون قد تنصت على الباب؟»

صاحب بورفيري يقول له ضاحكاً:

– لم تكن تتوقع زيارتي يا روديون رومانوفتش! لقد كنت أتمنى أن أجيء إليك منذ مدة طويلة. فلما مررت الآن عرضاً قلت لنفسي: لماذا لا أصعد إليه، فأزوره زيارة قصيرة، مدة خمس دقائق؟ هل كنت خارجاً، لا أريد أن أؤخرك عن الخروج. إذا سمحت فسأدخن سيجارة واحدة، لا أكثر...

قال راسكولنيكوف وهو يقدم لزائره كرسياً ويظهر له من المودة والبشاشة والارتياح ما لوراه هو نفسه لاستغربه حقاً:

– تفضل بالجلوس يا بورفيري بتروفتش!

انمحت مشاعره السابقة دون أن تخلف وراءها أي ظل. إنه ليحدث أن يظل أحد الناس فريسة ذعر رهيب ورعب قاتل أمام مجرم من المجرمين قطاع الطرق، خلال نصف ساعة، حتى إذا وضع المجرم سكينه على عنقه تبدد خوفه كله دفعة واحدة.

جلس راسكولنيكوف قبالة بورفيري تماماً، ونظر إليه مدققاً، فظرفت عين بورفيري، وأشعل سيجارة. ود راسكولنيكوف لو تقفز الكلمات من أعماق قلبه: «هيا، تكلم، تكلم! ما بالك لا تتكلم؟».

الفصل الثاني

أخيراً بدأ بورفيري كلامه بعد أن أشعل سيجارة ونفخ من دخانها نفسها، فقال:

– تباً للسجائر، إنها سم، سم حقيقي، ولكنني لا أستطيع تركها. إنني أسلع، وأشعر بحراكك في حلقي، وأهثث، وأختنق. وإذا إنني جبان فقد ذهبت منذ أيام أستشير الدكتور ب...^{٣٣} الذي يظل يفحص المريض مدة نصف ساعة *minimum*. فإذا قال الطبيب؟ سخر مني في أول الأمر ثم أخذ يمعن في جسماً وتسمعاً وتنصتاً، ثم قال: «أنت يؤذيك التدخين. رئتان متوضعتان». كلام جميل! ولكن كيف يمكنني أن أستغني عن التدخين؟ وبماذا أستعيض عنه؟ إنني لا أشرب خمراً، وذلك مصدر البلاء كله. إن مصدر البلاء كله هو أنني لا أشرب خمراً. كل شيء نسيبي كما ترى يا روديون رومانوفتش. كل شيء نسيبي!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه مشمسراً: «أتراه يريد أن يستأنف شطارته؟» وعادت إلى خياله ذكرى لقائهما الأخير فجأة، فازدحمت في قلبه العواطف التي كان قد شعر بها أثناء ذلك اللقاء.

وتابع بورفيري بتروفتش حديثه وهو ما يزال يقتضي بنظراته الغرفة:

– ثم إنني قد سبق أن جئت إليك مساء أمس الأول. كيف؟ أكنت لا تعرف ذلك؟ نعم، جئت إلى غرفتك، إلى هنا. فكما حدث لي اليوم، كنت ماراً أمام المنزل، فقلت لنفسي: «ماذا لو زرته زيارة قصيرة؟» ثم صعدت، فرأيت الباب مفتوحاً على سعته. ونظرت، وانتظرت برهةً، ثم انصرفت دون أن أترك للخادمة اسمي. ألسنت تغلق بابك بالمفتاح أبداً؟

^{٣٣} «الدكتور ب...»: أغلبظن أنه الدكتور سرجي بتروفتش بوتكين (١٨٣٢-١٨٨٩)، وهو طبيب شهير في ذلك الأوان.

اكفهار وجه راسكولنيكوف مزيداً من الاكفهار. وبذا على بورفيري أنه حذر ما يحول في فكره. وتابع

کلامہ فقال:

—أنا إنما جئت لأبرر لك سلوكي يا عزيزي روبيون رومانوفتش، لأبرر لك سلوكي! نعم، ينبغي لي أن

أبرّ لك سلوكى وأن اعتذر عنه!

وابتسامة خفيفة: وهو يبتسم ويقول تقول وتابع

– ذلك واجب يقع على عاتقى، ولا بد إلى من الوفاء به.

قال ذلك وهو يضرب ركبة راسكولنيكوف بيده ضربة خفيفة تعبّر عن الألفة والمودة. ولكنّه اتّخذ هيئّة الجد والهم في تلك اللحظة نفسها تقريباً، وحالط نظرته شيء من الحزن، وذلك أمر استغراه راسكولنيكوف كثيراً، فإنه لم يسبق له في يوم من الأيام أن لاحظ أو تصور أن يكون لبورفيري بتروفتش وجه كهذا الوجه.

وتابع بورفيري کلامہ:

لقد وقع بيننا في المرة الأخيرة مشهد غريب يا رواديون رومانوفتش! صحيح أن مشهداً غريباً قد وقع بيننا في المرة الأولى أيضاً، ولكن في ذلك الوقت... على كل حال، لا ضير!.. اللهم أنك تعدني في أغلب الظن آثماً جانياً في حرك. هل تتذكر كيف افترقنا؟ كانت أعصابك ثائرة جداً وكانت ساقاك تصطكان... وأنا أيضاً كانت أعصابي ثائرة جداً وكانت ساقاي تصطكان. الخلاصة أن الأمور جرت بيننا على نحو يكاد يوصف بقلة الأدب، وكانت تعوزه اللباقه والكياسة على الأقل. ونحن مع ذلك من الناس المهذبين (الجحتمان)، حتى ليتمكن أن أقول إننا من هؤلاء الناس قبل كل شيء، وذلك أمر ما ينبغي أن ننساه!

تساءل راسكولنيكوف مدهوشًا وهو يرفع رأسه وينظر إلى بورفيري محملًا: «ماذا يريد مني؟ ماذا يظنني؟»

وتتابع بورفيري كلامه فقال وهو يحول رأسه ويغضّ بصره، كأنه لا يريد أن يدخل الأضطراب إلى نفس صحيته القديمة، وكأنه يكره أن يستعمل أساليبه العتيقة وشباكه المألوفة:

— أرى أن الأصلح لنا بعد الآن أن نعمد إلى الصراحة. نعم، إن أمثال تلك الشبهات وتلك المشاهد لن يمكن أن تتكرر. لقد جاء نيكولاي منذ أيام فاتضح كل شيء، ولو لا ذلك لمضت الأمور إلى حدود لا أدرى مداها! وما قوله في ذلك البائع الحقير اللعين الذي قبع وراء الحاجز يتتصّت؟ هل تتصور ذلك؟ لا شك أنك تعرف هذا الأمر التفصيلي، فأنا أعلم أن الرجل قد جاء بعدئذ إليك أيضًا. غير أن الشبهات والشكوك التي قامت في نفسك كانت خطأ في الواقع. فأنا لم أستدعي أحدًا، ولا اتخذت أي إجراء بعد. تسألني لماذا لم أتخذ أي إجراء؟ فهذا أقول لك؟ إن الأمر كله كان قد قلب عقلي رأساً على عقب. كل ما فعلته هو أنني استدعيت البوابين (لا شك أنك رأيتم عابراً). إن فكرة سريعة كالبرق كانت قد ومضت في ذهني. ذلك أن اقتناعي يا روديون رومانوفتش كان قد تم. و كنت أقول لنفسي: «إذا فاتني أمر فمن الممكن في مقابل ذلك أن أقبض على أمر آخر قبضاً كاملاً». أنت يا روديون رومانوفتش شديد الاهتمام، بل أنت مفرط في شدة الاهتمام. تلك سمة من سمات خلقك وقلبك، أعتز بأنني (حسب تصوري) أعرفها بعض المعرفة على الأقل. ولقد كنت أدرك طبعاً، حتى في ذلك الوقت، أن المرء لا يرى في كل يوم شخصاً يأتي فيفضي إليه بما في نفسه دفعه واحدة. صحيح أن هذا يحدث، ولا سيما حين يكون ذلك الشخص مرهقاً مهدود القوى، ولكن هذه الحالة نادرة. لا، لم تفتني هذه الحقيقة. لكنني كنت أقول لنفسي: «السوق يكفيوني مع ذلك أن أعرف واقعة صغيرة، صغيرة إلى أبعد حدود الصغر، على شرط أن تكون واقعة محسوسة ملموسة تختلف عن تلك الاستنتاجات السيكولوجية! ذلك أنه إذا كان هذا

الرجل جانياً فلا شك أن في إمكاننا أن ننتظر منه شيئاً محسوساً ملمساً. فمن حقنا إذاً أن نأمل في الحصول على نتائج هي أبعد ما تكون عن التنبؤ!. كنت أعوّل على طبعك يا روديون رومانوفتش، على طبعك خاصة. و كنت أعقد على ذلك آمالاً كبيرة!

تمتم راسكولنيكوف أخيراً يسأله حتى دون أن يدرك أنه يلقي سؤالاً:

— لماذا... لماذا تقول لي هذا الكلام كله الآن؟

ثم تساءل تائهاً في ظنون وتخمينات: «عم يتكلّم؟ هل يمكن أن يقع في اعتقاده حقاً أنني بريء؟»

قال بورفيري يجبيه عن سؤاله:

— لماذا أقول لك هذا الكلام؟ أنا إنما جئت لأبرر لك سلوكِي، لأقوم بواجب مقدس. سوف أبسط لك جميع تفاصيل ما حدت، أي كل قصة الخلاف بيننا جملة. إنك قد قاسيت بسببي أشياء كثيرة يا روديون رومانوفتش. ولكنني لست شيطاناً رجيناً، وإنني لأدرك حق الإدراك مدى الألم الذي لا بد أن يكون قد أحدثه هذا كله في نفس إنسان مثلك، إنسان ترهقه الحياة ولكنه شديد الكبرياء، محظوظ لقوته الشكيمة، نافذ الصبر... نعم... لا سيما نافذ الصبر! مهما يكن من أمر، فأنا أعدك أعظم إنسان شرفاً، رغم أنني لا أشاطرك جميع آرائك، وهذا ما أحرض على أن أقوله لك بصرامة تامة، دون لف أو دوران، لأنني يهمني كثيراً أن لا أخدعك وأن لا أغشك. إنني ما أن عرفتك حتى شغفت بك. لعلك ستضحك مما أقوله لك، ومن حluck أن تضحك. أنا أعلم أنك كرهتني منذ أول نظرة ألقيتها عليّ، فلماذا يجب عليك أن تحبني؟ مهما يكن من أمر، فإني أريد الآن بجميع الوسائل أن أمحو الأثر الأول الذي تركته في نفسك، وأن أبرهن لك على أنني، أنا أيضاً، إنسان يفيض وجداً وعاطفة. أقول لك هذا بصرامة تامة.

توقف بورفيري عن الكلام ببرهة في وقار. وشعر راسكولنيكوف بموجة جديدة من الخوف تجتاح نفسه. فهو حين يتصور أن بورفيري يظنه الآن بريئاً، يحس فجأة ببرعب.

وتابع بورفيري كلامه يقول:

– ربما لم يكن ثمة داع إلى أن أحكي لك كيف بدأ كل ما جرى، بالترتيب؛ حتى أنتي أعتقد أن هذا غير مفيد، وأنا أعتقد على الأقل أنني لن أفلح في ذلك. فكيف أشرح لك الأمور شرعاً يبرر ظروف المسألة؟ في الأصل سرت شائعات. من أين جاءت تلك الشائعات؟ ماذا كانت تلك الشائعات؟ من أي ناحية كانت تعنيك؟ إبني أعتقد أنه لا داعي أيضاً إلى أن أذكر لك ذلك. أما أنا شخصياً فإن صدفة هي التي نبهتني، صدفة طارئة عارضة كان يمكن أن لا تحدث. ما هي تلك الصدفة؟ أظن أن الأفضل، هنا أيضاً، أن ألزم الصمت. إن ذلك كله (أعني تلك الشائعات، وتلك المصادفات) قد ساهمت في تكوين فكرة في رأسي. أعترف لك صراحة – وعلى الإنسان أن يكون صريحاً كل الصراحة متى كان يعترف، أليس كذلك؟ – أعترف لك صراحة بأنني كنت أنا أول من وضعك موضع الاتهام. إن كتابات العجوز عن الأشياء المرهونة وسائر تلك الأمور التي من هذا النوع، لا قيمة لها البتة وليس تدل على شيء! بإمكانى إيجاد الكثير من مثل هذه الأمور، فهي لا تعدد ولا تُحصى.

وقد أتيح لي أيضاً أن أسمع تفاصيل المشهد الذي وقع في قسم الشرطة، وكان هذا أيضاً بفضل مصادفة من المصادفات. والشخص الذي روى لي ذلك المشهد لم يكن أيّ شخص، وإنما كان شاهداً رئيسياً فهم المشهد كله فهماً ممتازاً. وكان ذلك كله يشبه بعضاً و يؤيد بعضاً يا عزيزي روديون رومانوفتش. فكيف لا تقوم في ذهني فكرة ما، وكيف لا أسيء في اتجاه ما؟ يقول مثل إنجليزي: مائة أرنب لا تصنع حصاناً، ومائة شبهة لا تصنع برهاناً. هذه هي الحكمة بعينها طبعاً! ولكن آنني للمرء أن يقاوم الأهواء! ذلك أن قاضي التحقيق ليس إلا إنساناً!.. وقد تذكرت أيضاً مقالتك الصغيرة تلك التي

كنت قد نشرتها في مجلة، والتي حدثني عنها تفصيلاً حين زرتهني أول مرة. لقد سخرت منك عندئذ، لكنني فعلت ذلك لأحثك على الإدلاء بمزيد من الاعترافات. أعود فأقول إنك قليل الصبر ومرهض جداً، يا روديون رومانوفتش. وأنت عدا ذلك كبير الجرأة جامح الاندفاع كثير الجد. لقد شعرت أنت بأشياء كثيرة، نعم شعرت بأشياء كثيرة... وكانت أنا أقدر ذلك منذ مدة طويلة. إنني أعرف جيداً مثل هذه الإحساسات، فحين قرأت مقالتك خيل إلىّي أنني سبق لي أن قرأتها. لا شك عندي في أنك في ليالي أرق وحسي، في ليالٍ كان قلبك فيها يخفق خفقاناً قوياً عنيفاً ويزخر بحمسة كان ينبغي لك مع ذلك أن تلجمها، إنما تصورت تلك المقالة، أليس كذلك؟ ولكن من الصعب على المرء أن يلجم حماسة الشباب في نفسه... ولئن سخرت من مقالتك عندئذ، فإنني أستطيع أن أقول لك الآن إنني أحببت كثيراً، (حب هوائية والحق يقال) تلك المقالة الأولى النصرة المتأججة التي جرى بها قلم شاب. صحيح أنها كانت ملأى بدخان، بضباب، غير أن وترأً كان يهتز في ذلك الضباب وفي ذلك الدخان. وصحيح أن مقالتك كانت ملأى بنزوات خيال وتناقضات منطق، ولكن المرء يحس فيها نبرة الصدق! صحيح أن فيها شيئاً من كبراء شاب نزيه ونوعاً من صلف لا مسوغ له، ومن تهور يائس مستميت، وصحيح أنها قاتمة، قاتمة جداً، ولكن ذلك كله حسن... كنت قد قرأت إذن مقالتك، ثم وضعتها جانباً، لكنني حين وضعتها جانباً قلت لنفسي: «إن رجلاً كهذا الرجل لن يكتفي بهذا». فقل لي من فضلك: كيف كان يمكنني بعد تلك المقدمات أن لا أندفع إلى تلك التتائج؟ أتراني في هذه اللحظة أقول شيئاً يمكن أن...؟... أتراني أؤكّد شيئاً؟.. إنني لم أزد حينذاك على أن سجّلت ملاحظات. ما الذي كان يضمّه ذلك كله؟ لا شيء، لا شيء البتة، ربما لا شيء قطعاً! على أنني لا أستطيع، وأنا قاضي التحقيق، أن أتباهي باندفاعاتي وحماساتي تلك! وهذا نيكولاي على ذراعي، وهذه وقائع ملموسة تتناوله... إنها وقائع رغم كل شيء، هي وقائع شئت أم أبيت! وعندي كان لا بدّ من العودة إلى السينكولوجيا. ذلك أنني لا بدّ لي من الاهتمام

بالأمر، إن القضية بالنسبة إليه قضية حياة أو موت، أليس كذلك؟ ربما سألتني لماذا أشرح لك هذا كله؟ فاعلم إذاً أنني إنما أشرحه لك من أجل أن تعرف حقيقة الأمر، ومن أجل أن تبرئني في قرارة نفسك وضميرك فما تحكم عليّ أو تدينني إذ تتذكر ما بدر مني في ذلك اليوم من خبث وشر. هذا عدا أن ما بدر مني لم يكن خبئاً أو شرّاً، أؤكد لك ذلك. هي هي هي!.. وأنت تقول لنفسك: «لماذا لم يجيء إلى مسكنى يفتشه حينذاك؟» فاعلم أنني جئت! هي هي!.. جئت بينما كنت أنت مريضاً راقداً. ولم أجيء بصفة رسمية، ولكنني جئت. وفتش بيتك تفتيشاً دقيقاً لم تنج منه أخفى زواياه وأركانه. حدث هذا منذ أولى الشبهات.. ولكن «دون جدوى»^{٤٤}، عندئذ قلت لنفسي: «الآن، سيجيء هذا الرجل، سيجيء من تلقاء نفسه، وسيجيء في وقت قريب جداً. إذا كان هو الجاني فلا بد أن يجيء. لو كان الجاني شخصاً آخر غيره، فإن ذلك الشخص الآخر قد لا يجيء، أما هو فلا بد أن يجيء إذا كان جانياً». هل تتذكر كيف أخذ السيد رازوميخين يطلعك على الأمر؟ نحن الذين دبرنا هذا لنبث في نفسك الاضطراب، ونحن الذين رتبنا الأمور ترتيباً يجعل رازوميخين عاجزاً عن كظم غضبه وكتب استيائه. ذلك أن السيد رازوميخين واحد من أولئك الناس الذي لا يستطيعون أن يكتموا غيظهم. أما زاميتوف فإن الشيء الذي أدهشه فجأة إنما هو غضبك وتهورك الصريح. عجيب أمرك: كيف يستطيع إنسان أن يعول قائلاً في حانة على حين فجأة: «لقد قتلت»! حقاً إن في ذلك لإسراها. هذا تهور غريب!.. وعندئذ قلت لنفسي: «إذا كان مثل هذا الرجل جانياً فلا بد أن يكون خصماً صعب المراس على كل حال». نعم، ذلك ما قلته لنفسي حينذاك. وانتظرت. انتظرتك بكل ما أملك من قوى، بينما أنت قد جندلت ذلك المسكين زاميتوف... والمصيبة كلها إنما هي السيكولوجيا اللعينة ذات الحدين. كنت إذاً أنتظرك، فأرسلك الله إلى في ذات يوم!

^{٤٤} دون جدوى. (بالألمانية في الأصل).

لقد جئت! لشد ما خفق قلبي في ذلك اليوم! ما كانت حاجتك إلى المجيء؟ وذلك الضحك، ضحكت
المجلجل الذي كنت تطلقه حين دخلت، هل تتذكرة؟

ذلك كله كان في نظري واضحًا وضوح الماء النابع من الصخر. لقد حزرت كل شيء! ولكن لو لا أنني
انتظرتاك وأنا في حالة نفسية خاصة، لما كان لضحكك في نظري عندئذ أي دلالة. فانظر إلى قيمة أن
يتوقع المرء شيئاً! والسيد رازوميixin، في ذلك اليوم... آ... والصخرة التي ^{خُبِّئَتْ} تحتها الأشياء؛ يخيل
إليّ أنني أرى تلك الصخرة، أراها في مكان ما، في بستان من البساتين... أليس عن بستان إنما تحدثت إلى
زاميتوف أولاً، وعندي بعد ذلك؟ وحين أخذنا نحلل مقالتك، حين قمت أنت بعرض ما تضمنته
تلك المقالة من آراء، فإن كل قول من أقوالك كان له معنى مزدوج: فوراء كل قول من تلك الأقوال كان
يختبئ في نظري معنى مضمر. نعم، يا روديون رومانوفتش، بهذه الطريقة إنما وصلت إلى تلك النقطة
القصوى، ولكنني حين وصلت إلى تلك النقطة القصوى فاصطدم بها رأسي، كان لا بد أن أثوب إلى
رشدي. قلت لنفسي: «إلى أين أنا ذاهب؟» ذلك أننا نستطيع، إذا نحن شئنا، أن نفسر جميع تلك الأشياء
تفسيرًا مخالفًا لهذا التفسير كل المخالفة، بل مناقصاً له تمام المناقضة، ولعل التفسير الجديد أن يكون أقرب
إلى الاحتمال. نعم، قد يكون أقرب إلى الاحتمال، إنني أعترف بذلك. لشد ما تعذبت! قلت لنفسي: «لا،
لا، إن أية واقعة تفصيلية صغيرة تنفعني أكثر مما تنفعني هذه الاستنتاجات كلها!» لذلك حين سمعت
عن تلك القصة، قصة جرس الباب، رأيتني أوشك أن أسقط، وسرت في جسمي رعشة. وأقول في
سريره نفسي: «آ... هاؤنذا أقع أخيراً على الواقعية التفصيلية المنشودة! هي بذاتها!» ولم أحاول عندئذ أن
أعمل عقلي وأن أفك. كنت لا أرغب في ذلك أية رغبة. وكنت مستعداً لأن أدفع في تلك اللحظة ألف
روبل في سبيل أن أراك بعيني تسير مائة خطوة، جنباً إلى جنب، مع ذلك البائع الصغير الذي قذف
 وجهك بذلك اللقب، لقب القاتل، فلم تجرؤ طوال تلك الخطوات المائة أن تسأله عن أي شيء! وتلك

الرعدات التي كانت تسرى في ظهرك، وذلك الجرس الذي كنت تتكلم عنه أثناء هذيانك؟ فلماذا تستغرب مني بعد هذا، يا روديون رومانوفتش، أني لجأت إلى تلك الطريقة التي تعرفها؟ ثم لماذا جئت إلى في ذلك الأوّان نفسه؟ يميناً أن هناك شيئاً كان يدفعك للمجيء إلى دفعاً... ولو لا أن نيكولاى قد تدخل في أمرنا... ف... هل تتذكر وصول نيكولاى؟ هل تتذكره جيداً؟ آه... كان ذلك أشبه برعد مفاجئ! نعم، لأن الصاعقة قد نزلت عند قدمي. ولكن كيف استقبلت أنا ذلك؟ لم يهزني الرعد... لم يهزني الصاعقة... ولم أصدق أقواله، ولا كلمة واحدة! لا بد أنك لاحظت ذلك. وبعد انصرافك، حين أخذ يجيب عن أسئلتي حول عدد من النقاط إجابات محكمة متوافقة تبلغ من الإحكام والتوافق أنها أدهشتني حقاً، لم أشاً أن أصدق أقواله حينذاك. انظر إلى مدى تأثير الفكرة التي تقوم في الذهن وتستقر فيه راسخة! قلت لنفسي: «لا، لا، مورغن فري! إلى صباح الغد!»^{٦٠} إن نيكولاى لا شأن له في هذا الأمر كله!».

قال راسكولنيكوف:

– قال لي رازوميixin منذ قليل إن اتهامك ينصب الآن على نيكولاى، وأنك أقنعت رازوميixin بأن... ولكن راسكولنيكوف لم يستطع أن يتم كلامه، فإن أسفاسه قد اختفت. كان يشعر بانفعال شديد واضطراب لا يغائب، أثناء إصغائه إلى حديث هذا الرجل الذي ينفذ إلى سريرته بمثل هذا النفاذ العميق وفي نفس الوقت يرفض استنتاجاته رفضاً قاطعاً. وكان يخاف أن يصدق ما كان ي قوله له هذا الرجل، بل كان يرفض أن يصدقه، ويحاول بشرابة قوية ونهم شديد أن يدرك في كلماته معانٍ محددة دقيقة.

^{٦٠} «إلى صباح غد»: (بالألمانية في الأصل). وهو تعبير ألماني يستعمل بمعنى قوله: «دعك من هذا الكلام! لا أصدقك»!.

وكانها أفرح بورفيري بتروفتتش أن يرى راسكولنيكوف يلقي عليه سؤالاً بعد أن ظل صامتاً طوال ذلك الوقت، فصاح يقول:

– السيد رازوميixin! هى هى!.. ذلك أن المسألة كانت هي التخلص من رازوميixin: حيثما يتسع المكان لاثنين، يكن الثالث زائداً! رازوميixin شيء آخر، هو غريب عن هذا كله! ثم إنه جاء إلى شاحب الوجه شحوباً... ولكن دع السيد رازوميixin جانباً الآن، كان الله معه! أما عن نيكولاي فهل يهمك أن تعرف أي نوع من الناس هو، أو كيف أتصوره أنا على الأقل؟ هو قبل كل شيء طفل. إنه لما يبلغ سن الرشد. ولست أدعى أنه خواص جبان على وجه الدقة، ولكن في وسعه أن أشبهه... بفنان! نعم! ولكن لا تسخر مني ومن تصوري هذه! هو ساذج. أي شيء يؤثر فيه. له قلب رقيق، وله خيال أيضاً. ولقد تعلم في المدرسة. وهو يحسن الغناء والرقص. ويظهر أنه يجيد رواية الحكايات الشعبية يسعى الناس إليه من بعيد ليسمعوها. وهو يضحك من صميم قلبه في كل مناسبة، ويظل يشرب حتى يسقط كالميت من فرط السكر. ولكنه لا يشرب لأنه ميال إلى السكر، وإنما هو يشرب ليفعل كما يفعل الآخرون الذين يغرون به كما يغرون بطفلي، فهم لا يبرحون يصيرون له خمراً! لقد سرق منذ مدة، ولكنه لم يدرك أنه سرق. قال في تفسير فعله: «تناولت ما كان ملقى على الأرض، فأنا إذن لم أسرق». هل تعرف أنه من فئة: «راسكولنيكي»، بل ومن الطائفين^{٦٦}؟ على كل حال، كان عدد من أفراد أسرته قد انتما إلى ملة «الجوالين»^{٦٧}؛ وهو نفسه كان منذ زمن قصير خاضعاً لسلطان شيخ من المشايخ الساكن في الأقاليم مدة ستين. ذلك كله قد عرفته من نيكولاي نفسه ومن أهل بلدته زارايسك. أكثر من ذلك أنه كان يريد أن

^{٦٦} «هل تعرف أنه من فئة راسكولنيكي» كان عدد من أفراد أسرته قد انتما إلى ملة «الجوالين»: «الراسكولنيكي» (أصحاب العقيدة القديمة) هم المشاركون في حركة مناهضة الكنيسة الرسمية في روسيا، تلك الحركة التي ظهرت في القرن السابع عشر بسبب إدخال تعديلات على الطقوس الدينية بواسطة رأس الكنيسة المسيحية الروسية البطريرك نيكون. وتعني كلمة «راسكولنيك»: المنشق.

^{٦٧} ملة «الجوالين»، والجوالون هم إحدى طوائف المنشقين والتي ظهرت كاحتجاج على الرق والاستعباد وانتشرت في أوساط الفلاحين وفقراء المدن والجنود الهاريين من الجنديين. وكان من أهم معتقداتهم القبول الطوعي للألام والعقاب.

يفرّ إلى الصحراء مصرًا إصرارًا شديداً. لقد كان متھمساً للتقي حماسة لا تصدق، فكان يقضي لياليه مصلياً متهجّداً، ويقرأ الكتب المقدسة ويعيد قراءتها... الكتب القديمة... الكتب «الحقيقة»!^{١٨}... ثم أحدثت فيه بطرسبرج تأثيراً رهيباً. أصبح يحب الجنس الضعيف، بل وأصبح يحب الخمرة بعض الحب أيضاً. وإذا إنه شديد التأثر بالبيئة التي تحيط به، فسرعان ما نسي شيخه. وأنا أعلم أن فناناً رساماً قد أخذ يهتم به، وكان يزوره ويعطيه دروساً من حين لآخر. ولكن في تلك الأونة، وقع ذلك الحادث المؤسف. استولى الخوف على الفتى في أول الأمر، فأراد أن يشنق نفسه أو أن يهرب. ما حيلتنا إذا كان الشعب قد كون لنفسه مثل هذه الأفكار عن قضائنا؟ إن كلمة «المحكمة» وحدها ترعب وتلقي الذعر في النفوس. ذنب من هذا؟ من يدرى هل تستطيع المحاكم الجديدة رد الأمور إلى نصابها؟^{١٩} نعم، أسأل الله أن... على كل حال، فقد وضع نيكولاي في السجن. ولا شك أن ذكرى شيخه المحترم المقدس قد عادت إلى خياله هناك، ولا شك أن الكتاب المقدس رجع يفعل فعله في نفسه! هل تعرف يا روديون رومانوفتش مدى ما لفكرة «الألم» من تأثير في بعض الناس؟ إن هناك أنساً يحبون أن يتأنوا لا في سبيل شخص من الأشخاص فحسب، وإنما هم يحبون أن يتأنوا وكفى، لأن على المرء أن يتأنم، وأن يقبل الألم ويرتضيه، لا سيما حين تفرض هذا الألم سلطات ما. لقد عرفتُ في الماضي سجينًا موادعاً مسالماً إلى أبعد الحدود، لبث في السجن سنة بكمالها يتربع فوق المدفأة ليقرأ الكتاب المقدس في كل ليلة من الليالي، حتى بلغ من ذلك أنه في ذات يوم من الأيام خلع آجرة على حين فجأة بغير سبب فرمى بها مدير السجن دون أن يكون مدير السجن قد استفزه أي استفزاز. ولكن كيف رمى السجين آجرته؟ لقد رماها عمداً بحيث تسقط بعيدة عن هدفها مسافة متر على الأقل، فلا تستطيع أن تخرج الشخص الذي كان يجب أن تتجه إليه.

^{١٨} «ويقرأ الكتب القديمة... الكتب الحقيقة»: أي الكتب الدينية للمنشقين أنصار العقيدة القديمة والتي كانت توضع في مواجهة الكتب الدينية للكنيسة الرسمية.

^{١٩} «هل تستطيع المحاكم الجديدة رد الأمور إلى نصابها»: انظر الحاشية رقم ٢٤.

وأنت تخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدير السجن!^{٧٠} لقد ارتضى الرجل أن «يتحمل الألم»! ذلك أراني أميل إلى الاعتقاد بأن نيكولاي يستهدف شيئاً من هذا النوع! بل إنني من ذلك لعلى يقين. يكفي أن ندقق في الواقع! ولكن نيكولاي لا يعرف أنني أعرف. ماذا؟ أتراء لا تصدق أن من الممكن أن يخرج من شعب كشعبنا أفراد خارقون إلى هذه الدرجة؟ أؤكد لك مع ذلك أن أمثال هؤلاء الأفراد كثيرون. إن تأثير الشيخ في نيكولاي قد عاد يظهر الآن من جديد، لا سيما في اللحظات التي يتذكر فيها أنه أراد أن يشنق نفسه. على كل حال، سيجيء فيقص على كل شيء هو نفسه! هل تظن أنه سيصر على أقواله؟ لترى أنه متراجعاً عنها! نعم، إنني انتظر، من لحظة إلى أخرى، أن يتراجع عن اعترافاته الأولى. لقد أخذتني بنيولاي هذا عاطفة، فعكفت على التعمق في دراسته. هل تتصور، لقد استطاع في بعض النقاط أن يضفي على أقواله مظهر المعقولة. واضح أنه كان قد فكر في الأمر وحصل، كما يبدو، على المعلومات الالزامية. ولكنه في نقاط أخرى كان يتناقض. إنه لا يعرف شيئاً عنها، بل ولا يدرك أنه لا يعرف!.. لا يا روديون رومانوفتش، ليس نيكولاي هو الجاني! نحن إزاء قضية غامضة عجيبة كالخيال. إن هذه الجريمة تحمل طابع الزمان الذي نعيش فيه، إنها تحمل طابع عصر اضطراب فيه القلب الإنساني، عصر يقول فيه بعضهم، مستشهدًا بأقوال كتاب ومؤلفين، إن الدم «يظهر»، عصر لا شأن فيه ولا وزن فيه لغير البحث عن الدعة والسعى إلى الرخاء. نحن إزاء حلم يطوف برأس شاب أسكنه الأوهام والأخيلة، وسمّمت قلبه الآراء والنظريات! إن الجاني قد استجمعت للقيام بتجربته قدرًا كبيرًا من الجسارة، ولكن جسارتة هذه ذات طابع خاص، حتى لكانه جاء يرتكب الجريمة لا سائراً على ساقيه. لقد نسي أن يغلق الباب وراءه، ولكنه قتل، قتل شخصين، انقياداً لنظريته. وقد قتل، ولكنه لم يعرف كيف يستولي على المال؛ وما استطاع أن يحمله معه، إنما مضى بعد ذلك يدفنه تحت صخرة. ولم يكتف بأنواع

^{٧٠} «وأنت تخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدير السجن»: كانت عقوبة الإعدام تهدد الشخص الذي يهاجم الحراس أو رجال الشرطة في روسيا القيصرية.

القلق والخوف التي كان قد عانها في حجرة المدخل بينما كان يسمع قرعاً قوياً على الباب، وبينما كان الجرس يرن بل تذكر ذلك الجرس بعد ذلك وهو في حالة تشبه المذيان، فرجع إلى البيت الخالي ليشعر مرة أخرى بتلك الرعدة الباردة نفسها التي سرت بين كتفيه أول مرة... لنسِّلْمَ بأن ذلك نتيجة من نتائج المرض، غير أن هناك شيئاً آخر: لقد قتل، ولكنه يعتقد أنه إنسان شريف، وهو يحتقر الناس، ويصطفع دور ملاك من الملائكة! لا يا روديون رومانوفتش، ليس نيكولاي هو الجاني، لا يا عزيزي، ليس هو نيكولاي أبداً!

تتم راسكولنيكوف يسأل بصوت مختنق وقد نفدت قدرته على الاحتمال:

— من... الذي... قتل... إذن؟

فارتَّدَ بيوتر بتروفتش إلى وراء مستندًا على ظهر كرسيه كأن هذا السؤال قد أذهله، وقال متظاهراً بأنه لا يصدق أذنيه:

— من قتل؟ سؤال عجيب.... الذي قتل هو أنت يا روديون رومانوفتش...

ثم كرر يقول بما يشبه الهمس، ولكن لهجته لهجة المقتنع كل الاقتناع:

— أنت الذي قتلت!

نهض راسكولنيكوف عن الديوان واثباً، ولبث واقفاً بضع ثوانٍ، ثم عاد يجلس دون أن يقول كلمة واحدة. وطافت بوجهه حركات تشنجية.

دمدم بورفيري بتروفتش يقول بنوع من العطف:

— ها هي ذي شفتك ترتجف كما ارتجفت في المرة السابقة.

ثم أضاف بعد صمت قصير:

– أحسب أنك لم تفهمني جيداً يا روديون رومانوفتش، وذلك هو السبب في أنك مدھوش إلى هذه الدرجة من الدهشة. أنا إنما جئت إليك لأقول لك كل شيء، ولأوضح الأمور توضيحاً كاملاً.

ثأثأ راسكولنيكوف يقول كطفل ضبط متلبساً بالجرائم:

– ما أنا الذي قتل!

فأجابه بورفيري بهمس وبلهجة رصينة فيها اقتناع:

– بل أنت الذي قتلت ولا أحد غيرك!

وسكك الاثنان. وأعقب ذلك صمت، صمت غريب طويل، دام عشر دقائق على الأقل. كان راسكولنيكوف قد وضع كوعيه على المائدة، وأخذ يبعثر شعره بأسابعه. وقد ظل بورفيري بتروفتش جالساً، هادئاً، يتضرر. وفجأة نظر إليه راسكولنيكوف باحتقار وقال:

– تستأنف أسلاليك يا بورفيري بتروفتش؟ أتظل تستعمل أسلاليك الأبدية هذه؟ ألا تشعر بملل وسأم من هذا آخر الأمر؟

أجابه بورفيري:

– أوه! لا داعي الآن للأساليب! لو كان هنا شهود، لاختطف الأمر طبعاً، ولكننا نتحادث على انفراد في خلوة! أنت نفسك ترى أنني لا أجيء إليك لأنصب لك شيئاً وأصطادك كأرنب! إنه ليس توي عندي الآن أن تعرف وأن لا تعرف! فاقتناعي قائم على كل حال!

سؤاله راسكولنيكوف غاضباً:

– فلماذا جئت إذا كان الأمر كذلك؟ إنني أطرح عليك هذا السؤال من جديد: إذا كنت ترى أنني أنا الجاني، فلماذا لا تسجنني؟

– هذا سؤال معقول فعلاً، وسوف أجيبك عنه نقطةً نقطةً، فأقول أولاً: إنه ليس من مصلحتي أن اعتقلك منذ الآن...

– كيف لا يكون هذا في مصلحتك؟ إذا كنت مقتنعاً فيجب عليك أن..

– ما قيمة اقتناعي؟ إنه لا يقوم حتى الآن إلا على افتراضي. ثم فيم أضعك هنالك فترتاح؟ لو سجنتك لأرحتك. إنك تعرف الجواب ما دمت قد أقيمت السؤال. ولنفترض مثلاً أنني واجهتك بالبائع الحقير فقلت له: «أترأك ما تزال سكران؟ من ذا الذي رأني معك؟ أنا لم أزد على أن عدتك سكيراً لأنك كنت سكران!»، فبماذا يمكنني عندئذ أن أعرض؟ لا سيما وأن روايتك ستكون أقرب إلى العقل من روایته هو، لأن أقواله لن تكون قائمة إلا على السيكولوجيا وستكون أنت قد ضربت على وتر حساس لأن هذا الأبله سكير مدمن حقاً، فما من أحد يجهل ذلك. ومن جهة أخرى، ألم أتعرف لك أنا نفسي، مراراً، بأن هذه السيكولوجيا ذات حدين، وبأن الحد الثاني أهم من الحد الأول شأنًا وأبلغ خطاً. هذا عدا أنني لا أملك حتى الآن أي دليل وضعفي عليك. طبعاً، سأمر باعتقالك؛ ورغم أنني، على خلاف السنن والأصول، جئت إليك لأعلن لك ذلك، فإني على خلاف السنن والأصول أيضاً، أصرّ لك بأن اعتقالك ليس في مصلحتي. ذلك أولاً، وأما ثانياً، فإني قد جئت من أجل أن...

– من أجل ماذا، ثانياً؟

كان راسكولنيكوف يلهم. فأجابه بورفيري:

– سبق أن قلت لك! لقد جئت إليك من أجل أن أبرر سلوكك وأعتذر عنه! ذلك حق لك علىّ. لا أريد أن تدعني شيطاناً رجيناً، لا سيما وأنني أضمر لك عاطفة طيبة صادقة، صدقت أم لم تصدق! يتوج عن ذلك – وهذه هي النقطة الثالثة – أنني جئت إليك لأقترح عليك اقتراحاً صريحاً بدون أية فكرة ميتة: إنني أشجعك على أن تتفقاً هذه الدمل، فتتمضي تعرف بأنك أنت الجاني. ذلك أنفع لك، وأجدى عليك، وهو أنفع لي أنا أيضاً، لأنه يخلصني من هذا العبء! ما قولك؟ أليس هذا الاقتراح صراحة مني؟

فأجاب راسكولنيكوف دقيقاً، ثم قال:

– اسمع يا بورفيري بتروفتش، لقد قلت أنت نفسك إن كل ما تملكه من قرائن ضدي لا يعدو أن يكون استنتاجاً سيكولوجياً، وأنت مع ذلك تتوق إلى دليل رياضي. فما الذي يضمن لك أنك لست على خطأ؟
– لا، يا روديون رومانوفتش، لست على خطأ. أنا أملك الآن دليلاً، دليلاً اهتديت إليه منذ مدة. إن الله هو الذي أرسل إلى هذا الدليل.

– أي دليل؟

– لن أقوله لك يا روديون رومانوفتش. ثن إنني أصبحت لا أملك حق التأجيل، فسوف أعتقلك، ولكن أحكم على الأمر بنفسك: أنا الآن لا يهمني القرار الذي قد تتخذه، ومعنى هذا أنني إنما أكلمك في سبيل مصلحتك وحدها. شهد الله يا روديون رومانوفتش أن ذهابك إلى السلطات للاعتراف بفعلتك خير لك.

ضحك راسكولنيكوف ساخراً، ثم قال:

– كلامك ليس مضحكاً فحسب، بل هو أحق أيضاً. هبني أنا الجاني (وذلك ما لا أعلنه قط) ففيه أمضي أشي بمنسي لكم وقد قلت لي أنت نفسك أنك ستسجنني حتى «للراحة»؟

— يا روديون رومانوفتش، لا تسرف في فهم ما أقوله لك فهماً حرفياً. من الجائز جداً أن لا تكون هي «الراحة» تماماً! وما هذا إلا نظرية خاصة بي، وهل أنا في نظرك حجة؟.. ولعلني أنا نفسي أخفي عنك في هذه اللحظة شيئاً ما. إنك لا تستطيع أن تطمع في أن تتلقى مني جميع مساراتي وأن تستعملها على هواك! أما النقطة الثانية، أعني الفوائد التي ستتجنيها من الاعتراف، فهي واضحة وضوحاً تماماً فيما أظن. فكر في تخفيف العقوبة التي يمكن أن تناهَا، فكر في هذا التخفيف وحده! في لحظة قد نسب فيها شخص آخر إلى نفسه جريمة القتل، وببلبل القضية كلها... على كل حال، فإن لك عليّ عهداً أمام الله أنني سوف أعرف كيف أُلْف وأدور وأحتال على الأمر بحيث تخرج منه على خير وجه، حتى يكون مجئك كأنه مفاجأة تامة. سوف نخرب كل ذلك الصرح السيكولوجي، سوف أبدد جميع الشبهات التي قامت ضدك بحيث تبدو جريمتك نوعاً من الانقياد والغواية، وهي في الحق كذلك. أنا رجل شريف يا روديون رومانوفتش، وسأحقق وعدِي وأفي بعهدي.

خض راسكولنيكوف رأسه. وبعد صمت طويل، ابتسם من جديد، ولكن ابتسامته كانت في هذه المرة رقيقة أسيانة.

قال كمن أصبح لا يحاول أن يخفي شيئاً أمام بورفيري:

— لست في حاجة إلى تسامحكم !

– ذلك بعينه هو ما كنت أخشى! نعم، أنا إنما كنت أخشى أن لا تكون في حاجة إلى تسأحنا!

فالقى عليه راسكولنيكوف نظرة حزينة نافذة مؤثرة؛ وتابع بورفيري كلامه فقال:

– لا تختقر الحياة هذا الاحتقار! إن الحياة ما تزال طويلة أمامك. كيف لا تحتاج إلى التسامح؟ كيف لا تحتاج إليه؟ ألا إنك لصعب المراسل حقا!

– ما عسى يكون أمامي بعد الآن؟

– أمامك الحياة! أنتنبي؟ ما أدرك؟ ابحث تجد^{٧٧}! لعل الله يجربك بهذا... ولن تكون القيود أبدية!

قال راسكولنيكوف هو يبتسم ابتسامة ساخرة:

– سوف يخففون عقوبتي!

– لعل خجلاً بورجوازيًّا هو الذي يمنعك، على غير علم منك، من أن تعرف بأنك أنت الفاعل؛ لأنك شاب غرّ! ولكن عليك أن ترتفع فوق هذا.

دمدم الفتى يقول بلهجة احتقار وفيها شيء من الاشمئزاز أيضاً، كأنه لا يريد أن يتكلّم:

– لست أبالي بهذا كله!

ثم بدا عليه أنه يهم أن ينهض كمن يريد أن يخرج إلى مكان ما، ولكنه عاد يجلس، وهو ينوه تحت عباء يأسٍ كبير لا يستطيع إخفاءه! قال بورفيري:

– لست تبالي؟ إنك إنسان كثير الشك والارتياح، فأنت تظن أنني أحارو أن أقلّفك ملقاً فظاً؟ ولكن هل أنت خبرت الحياة هذه الخبرة الواسعة العميقه كلها؟ أنت تفهم هذا القدر كله من شؤون الحياة؟ لقد تخيل نظرية وهو يستحي أن يراها تتحقق وتسقط، أو أن يلاحظ على الأقل أن ما خرج منها وترتب عليها ليس فيه كثير من جدة وأصاله؟ ألا إن ما خرج من نظريتك هو أقرب إلى السوء فعلاً! ولكنك

^{٧٧}إنجيل متى. (الإصحاح السابع).

لست سافلاً ضاع إلى الأبد! أنت لست ذلك السافل، لا! ولكنك على كل حال، لم تُعن التفكير في الأمر كثيراً، بل تطرفت فمضيت إلى الحد الأقصى على كل حال! هل تعرف ماذا أعدك؟ أنا أعدك واحداً من أولئك الناس الذين لو كانوا مخوزقين لنظروا إلى جلاديهم مبتسمين إذا كانوا قد اهتدوا إلى إيمان أو إله! فاهتد إلى إيمان وإله فتحيا! أنت أولًا في حاجة إلى تبديل الهواء منذ زمن طويل. أن الألم شيء حسن هو أيضاً. فعليك بالألم! تألم! من يدرينا أن نقول أي ليس على حق إذ هو ينشد الألم ويبحث عنه ويصيغ إلية؟ لعلك لا تصدقني – أنا أعرف ذلك – ولكن لا تحاول أن تصرف في التحليل، بل استسلم لتيار الحياة دون تفكير، ودع عنك القلق، فإذا بتيار الحياة يضرك على الشاطئ، فتفقد على قدميك. لا أدرى ما هو الشاطئ الذي سيوصلك إليه التيار، ولكنني مقتنع بأن أمامك حياة طويلة ستتحياها. أنا أعرف أنك تعد أقوالي هذه خطبة محفوظة ومكرورة، ولكن لعل هذه الأقوال ستتفعلك حين ستتذكرها في المستقبل، وذلك أيضاً سبب من الأسباب التي تحضني على مخاطبتك. من حسن الحظ على كل حال أنك لم تقتل إلا عجوزاً شمطاء شريرة. فلو أنك وضعت نظرية أخرى لكان يمكن أن ترتكب عملاً أسوأ من هذا مائة مليون مرة. لذلك ربما كان عليك أن تحمد الله وأن تشكره! وربما كان الله، على كل حال، يدّحرك لشيء ما، من يدرريك! فارتفع بقلبك، وارتق بعواطفك، ولا تكن صغيراً جباناً! هل العمل العظيم الذي يجب القيام به هو الذي يخيفك حقاً؟ لا، لا! عازٌ أن تخاف من هذا! لقد خطوت، فخذار أن تتراجع! لا تعود المسألة هنا أن تكون مسألة عدل. فافعل ما يوجهه العدل. أنا أعلم أنك لا تصدقني، ولكن أنا على ثقة أن الحياة هي التي ستنتصر، وأنك سوف تعود تحب الحياة أنت نفسك بعد ذلك. أما الآن فأنت لست في حاجة إلا إلى هواء، إلا إلى هواء!.

سرت في جسم راسكولنيكوف رعدة. وهتف يقول:

– ولكن من أنت، من أنت حتى تتخذ هذه الأوضاع التي هي أوضاع نبي؟ من عليه أية ذري هادئة تلقي إلى بهذه المواقع والحكم وال عبر المزعومة؟

– من أنا؟ أنا إنسان محدود، لا أكثر من ذلك. إنسان لعله حساس ولعله قادر على أن يتعاطف مع الآخرين، ولعله يعرف بعض الأشياء، ولكن ذلك كله لا يمنع أنه محدود. أما أنت فشأنك شأن آخر: إن الله قد هيأك لحياة حقة (ولكن من يدري؟ لعل ذلك أن لا يكون إلا ناراً كنار الهشيم ما تلبث أن تنطفئ) فما خوفك من التغير الذي سيطرأ على حياتك؟ هل يأسف على حياة الدعوة والرخاء إنسان له قلب كقلبك؟ ماذا؟ هل يضجرك كثيراً أن تظل مدة طويلة لا يراك أحد؟ إن الأمر ليس مرهوناً بالزمان، بل هو مرهون بك. كن شمساً فيراك جميع الناس. ليس على الشمس إلا أن توجد، إلا أن تكون عين ذاتها! ما الذي يجعلك تبتسم؟ هل الذي يحملك على الابتسام أنك تجذبني شاعراً؟ يميناً أنك لتظن أنني أمكر وأراوغ وأنني أريد أن أمتلكك! وربما كنت على حق وأنا أمتلك، هي هي! أنا لا أسألك أن تصدق كلامي يا روديون رومانوفتش! ولعلك تحسن صنعاً إذا أنت لم تصدق كلامي تصديقاً كاملاً في يوم من الأيام. إن من عادي أن لا أكون صادقاً صدقاً تماماً، أعترف بهذا! ومع ذلك، إليك ما أريد أن أضيفه: سوف تُريك الأحداث أأنا إنسان شرير أم أنا إنسان مستقيم شريف.

– في نيتك أن تعتقلني متى؟

– أستطيع أن أدعك طليقاً مدة يوم آخر أو يومين. ففكّر يا صديقي، وادع الله. هذا من مصلحتك. أقسم لك على أنه من مصلحتك...

سأله راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة غريبة:

– فماذا لو هربت؟

– لن تهرب! قد يهرب فلاح، وقد يهرب واحد من أشياخ النظريات الرائجة في هذا الزمان، لأنّه أمرؤ يمكن أن يغرسوا فيه عقیدتهم إلى الأبد؛ أما أنت فلا، لأنك أصبحت لا تؤمن بنظريةك. فعلام عساك تهرب؟ ما هي الفائدة التي يمكن أن تجنيها من المهرّب؟ ما أفعّع وما آلام الحياة التي يحيّها هارب! فالمرء إذا أراد أن يحيّا، لا بد له من وضع مستقر، ومركز محدّد، ولا بد له من هواء يستطيع أن يستنشقه! لتعودن ثانية إذا أنت هربت! إنك لا تستطيع أن تستغّني عنا. إذا أودعتك في السجن مدة شهر أو شهرين مثلاً، فلسوف تجيء في ذات يوم فجأة فتعترف. لسوف تندفع إلى هذا على غير علم منك تقريباً. تذكر هذا الكلام الذي أقوله لك. بل إنني لعلّي يقين من أنك سوف تعزم أمرك على التكفير. أنت لا تصدقني الآن. ولكنك سوف تجيء، لأنّ الألم شيء عظيم يا روديون رومانوفتش. لا يُدّهشّنّك أن تسمعني أتكلّم هذه اللغة أنا الرجل الذي أسمنته دعة العيش. إنني أقول الحق فلا تسخر! في الألم فكرة عظيمة! إننيقولا ي على حق.. لا، لن تهرب يا روديون رومانوفتش!

نهض راسكولنيكوف وتناول قبّعته. ففعل بورفيري بتروفتش الأمر نفسه.

– هل تريّد أن تقوم بجولة؟ إنّ المساء يبشر بليلة جميلة، إذا لم تهرب عاصفة... على كل حال ربما كان ذلك أفضل، فإنّ الهواء سيزداد بهذا طرأة...

قال راسكولنيكوف بلهجة جافة حازمة:

– لا يذهبنّ بك الظن إلى أنني أدليت لكاليوم باعترافات. أنت إنسان غريب، وأنا لم أصحّ إليك إلا من باب الفضول، لكنني لم أعترف لك بشيء... تذكر هذا!

– طيب طيب... دعك من هذا الكلام... هذه أمور معروفة.. لا، لن أنسى! انظرواكم يرتعش! لا تقلق يا عزيزي. سلنترم رغبتك. تنزه قليلاً، ولكن دون أن تتخطّى بعض الحدود.

قال بورفيري ذلك ثم أضاف خافضاً صوته:

– بالمناسبة: هناك رجاء آخر أود أن أتوّجه به إليك. هو رجاء حرج بعض الشيء، ولكن لا بأس: إذا اتفق (وهذا احتمال ضعيف، لأنني لا أصدق أنك قد تعمد إلى ذلك المخرج)، أقول إذا اتفق في غضون الساعات الثماني والأربعين أو الخمسين أن تختتم الأمر على نحو آخر، أقصد على نحو خارق، أقصد أن تحاول الانتحار (لا تؤاخذني على هذا الافتراض السخيف) فأرجوك أن تترك لنا الكلمة موجزة، لكنها واضحة: سطرين، لا أكثر من سطرين، تقول لنا فيها أين توجد الصخرة. ذلك أنيبل... هيا... إلى اللقاء... أسأل الله أن يلهمك الصواب!

قال بورفيري ذلك وانسحب حانياً رأسه، متحاشياً أن ينظر إلى الفتى. فاقترب راسكولنيكوف من النافذة وانتظر، بصبر نافذ، اللحظة التي يقدر أن قاضي التحقيق يكون قد ابتعد فيها عن المنزل ابتعاداً كافياً. ثم غادر الغرفة مسرعاً.

الفصل الثالث

ذهب يبحث عن سفدريجايلوف متعجلاً. إنه يجهل هو نفسه ماذا كان يتظاهر من هذا الرجل. غير أن هذا الرجل كان له عليه نوع من سلطان. ومنذ أدرك راسكولنيكوف ذلك أصبح لا يجد إلى المدوء سبيلاً، وقد آن له أن يخرج كل شيء إلى الضوء!

وفيما كان يسير، كان يعذبه خاصة هذا السؤال: هل ذهب سفدريجايلوف إلى بورفيري؟

ولكن راسكولنيكوف كان يحيط عن هذا السؤال بقوله: إذا صدق ظني، فإن سفدريجايلوف لم يذهب إلى بورفيري بل إنني لم استعد أن أقطع يدي إذا كان سفدريجايلوف قد ذهب إلى بورفيري. وفكراً راسكولنيكوف مزيداً من التفكير، واستعرض بخياله زيارة بورفيري من جديد، فانتهى إلى هذه النتيجة: لا، لم يذهب إليه، لم يذهب إليه قطعاً!

ولكن إذا كان سفدريجايلوف لم يذهب إلى بورفيري حتى الآن، فهل سيذهب إليه، أم هو لن يذهب؟ وبذا لراسكولنيكوف أن سفدريجايلوف لن يقوم بهذه الزيارة، في هذه الفترة على الأقل. لماذا؟ ما كان لراسكولنيكوف أن يستطيع معرفة الأسباب التي تحمله على هذا الظن، وبه استطاع معرفتها، به قادرًا على تفسير كل شيء، فما كان له أن يصدّع رأسه منقباً عنها. صحيح أن ذلك كان يعذبه، ولكن ذلك كان في الوقت نفسه أيسير همومه. شيء غريب، لا يكاد يصدق: إن مصيره الراهن، المباشر، كان لا يهمه إلا قليلاً، وكان هو لا يفكر فيه إلا ذهلاً. أما ما كان يعذبه حقاً فهو شيء آخر، شيء أخطر شأنًا، شيء خارق، يخصه هو لا يخص أحداً سواه لكنه شيء آخر ومهم جدًا. وكان إلى ذلك يحس بتعب روحي لا نهاية له، رغم أن دماغه كان في ذلك الصباح يعمل خيراً مما كان يعمل في الأيام السابقة.

ثم هل يستحق الأمر، بعد كل ما حدث، عناء السعي إلى التغلب على المصاعب السخيفة وتذليل العقبات الكثيرة التي لن تثبت أن ظهر في طريقه من جديد؟ هل من اللازم مثلاً أن يحتال في سبيل أن لا يذهب سفديجايروف إلى بورفيري؟ هل من الضروري أخيراً أن يضيع وقته في دراسة رجل اسمه سفديجايروف والمداورة والمخاتلة معه؟

آه... ما كان أشد سأمه وضجره وملله من هذا كله!..

ومع ذلك كان بحث الخطى سعياً إلى سفديجايروف. أليس معنى هذا أنه كان يتضرر منه شيئاً جديداً، كان يتضرر منه توجيهات، أو مخرجاً؟ إن الغريق يتثبت أحياناً بقشة! ألم يكن القدر هو الذي يجمع بينهما؟ ألم أن غريزة خفية هي التي تقرب أحدهما من الآخر؟ أم أن الأمر كله لا يعود أن يكون إعفاء وساماً ويأساً؟ أم لعله كان في حاجة لا إلى سفديجايروف، بل إلى شخص آخر؟ أما سفديجايروف فقد عثر عليه راسكولنيكوف بمحض الصدفة؟ إلى صونيا؟ ولكن لماذا عساه يذهب في هذه اللحظة إلى صونيا؟ ليستدر دموعها؟ ثم إن صونيا ترعبه: إن صونيا تمثل الحكم المبرم الذي لا رادّ له، والقرار الحاسم الذي لا رجعة عنه. لقد كان على راسكولنيكوف أن يختار: فاما أن يتبع طريقه هو وإما أن يتبع الطريق الذي دلته عليه صونيا. لا، لا، إنه في هذه اللحظة خاصة لا يحس أنه قادر على أن يرى صونيا. أفاليس الأفضل أن يجرب حظه مع سفديجايروف؟ ولم لا؟ ثم إنه لا يستطيع أن يمتنع عن الاعتراف، في قرارة نفسه، أن سفديجايروف قد أصبح، منذ مدة طويلة، ضرورة له، بمعنى من المعاني.

ولكن الأمر غريب حقاً: ماذا يجمع بين الرجلين؟ ماذا فيهما من شبه؟ حتى دناءتهما ليست من طبيعة واحدة. ثم إن في ذلك الرجل شيئاً كريهاً منفراً إلى أبعد الحدود: لا شك أبداً في أنه فاجر عاهر فاسق، ولا شك أبداً في أنه مراوغ مخاتل ماكر، بل ربما كان كذلك شريراً إلى أبعد حدود الشر!.. صحيح أنه

يعتني الآن اعتناء نشيطاً بأولاد كاترينا ايفانوفنا، ولكن من ذا الذي يعرف الأغراض التي يهدف إليها من وراء ذلك؟ إن لهذا الرجل دائمًا نياتٍ خفية!

هناك فكرة أخرى كانت ما تنفك تعذب راسكولنيكوف وتحاصره منذ بضعة أيام، رغم أنه حاول أن يطردتها من شدة ما كانت تؤلمه. كان يقول لنفسه: «إن سفدريجايلوف لا يبرح يدور حولي، وهو يدور حولي حتى في هذه اللحظة. لقد اكتشف سفدريجايلوف سري. وأنه يبيت نيات لدونيا. ألا يزال يبيت لها هذه النيات؟ إن المرء ليكاد يحيب عن هذا السؤال بكلمة نعم على وجه اليقين. فماذا لو أراد سفدريجايلوف، بعد أن عرف سري وأصبح له سلطان علىّ، ماذا لو أراد أن يستعمل هذا سلاحا ضد دونيا؟»

كانت هذه الفكرة تعذبه حتى في نومه، ولكنها لم تعرض له بهذا الوضوح الصارخ في يوم من الأيام مثلما تعرض له الآن أثناء ذهابه إلى سفدريجايلوف، فتشير فيه غضباً شديداً قاتماً. هي أولًا تغير كل شيء، حتى وضعه هو: إن عليه الآن أن يكشف عن سرّه لدونيا؛ وربما كان عليه أن يبادر إلى تسليم نفسه ليمعن دونيا من القيام بأي خطوة ليس فيها تعقل! الرسالة! إن دونيا قد تلقت رسالة في هذا الصباح نفسه. فمن ذا الذي يمكن أن يكتب إليها من بطرسبرج؟ (أهو لوجين حقاً؟). صحيح أن رازوميخين يحرسها، ولكن رازوميخين لا يعرف من الأمر شيئاً. فهل يجب عليه أن يفضي بالحقيقة إلى رازوميخين أيضاً؟ ربما كان يجب عليه أن يفعل! وشعر راسكولنيكوف باشمئزاز حين خطرت بباله هذه الفكرة.

وقال يحدث نفسه جازماً: «على كل حال، يجب أن أرى سفدريجايلوف بأقصى سرعة ممكنة. الحمد لله على أن التفاصيل هنا أقل شأنًا وأهون خطراً من جوهر القضية. ولكن ماذا لو كان في وسع سفدريجايلوف أن يفعل شيئاً، أن يتآمر على دونيا؟ في هذه الحالة...».

كان راسكولنيكوف قد بلغ من التعب في أعقاب ذلك الشهر الطويل من المعارك والانفعالات إلى حدّ أنه أصبح لا يشعر بالقدرة على حل مثل هذه المشكلات، والإجابة عن مثل هذه الأسئلة، اللهم إلا بكلمات باردة يائسة كهذه: «في هذه الحالة، سأقتله!»

إن شعوراً ثقيلاً كان يجثم على صدره ويرهقه من أمره. وقف في وسط الشارع، وأجال بصره في ما حوله. أي طريق سلك؟ أين هو الآن؟ كان في شارع س... على مسافة ثلاثين أو أربعين خطوة من «سوق العلف» التي تجاوزها منذ قليل. إن الطابق الأول من مبنى يقع على يساره، هو حانة. جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها. ومن كثرة الوجوه التي تُرى عند النوافذ، يقدّر المرء أن الحانة ملأى بالناس. وهذه أصوات أغان تصل من القاعة، وأصوات زماره وكمان وطلب، وصرخات حادة تنطلق من حناجر النساء.

هم راسكولنيكوف أن يعود أدراجه وهو يتساءل ما الذي جاء به إلى هذا المكان، ما الذي أوصله إلى شارع س...! ولكنه ما إن هم أن يقفل راجعاً حتى لمح سفدريجايلوف عند إحدى نوافذ الحانة، جالساً إلى مائدة صغيرة وغليونه بين أسنانه. إن الدهشة التي أحسها راسكولنيكوف عندئذ لا تخلو من نوع من الرعب. كان سفدريجايلوف يراقبه ويتفحصه صامتاً، وكان يبدو عليه أنه يريد أن ينهض، كأنه يحاول أن يتوارى قبل أن يُرى، وذلك أمر فاجأ راسكولنيكوف أيضاً. وسرعان ما تظاهر راسكولنيكوف بأنه لا يراه، وأخذ ينظر إلى الجهة الأخرى واجماً مفكراً، مع استمراره في النظر إليه، بطرف عينه طبعاً. كان قلبه يخفق قلقاً واضطرباً. الأمر كذلك حقاً: واضح أن سفدريجايلوف لا يريد أن يُرى. لقد نزع غليونه من فمه، وحاول أن يختبئ، ولكنه حين أبعد كرسيه لينهض قد أدرك ولا شك أن راسكولنيكوف رآه، وأنه يرقبه ويرصد़ه. عندئذ جرى بين الرجلين مشهد يشبه كثيراً المشهد الذي جرى بينهما عند أول لقاء

لهم في بيت راسكولنيكوف، حين تظاهر راسكولنيكوف بأنه نائم. هذه ابتسامة ماكرة تظهر على شفتي سفدريجاييلوف وما تنفك تتضح.

إن كلاً منها يعرف أن الآخر يتتجسس عليه. وانطلق سفدريجاييلوف يضحك ضحكة صاحبة آخر الأمر، ثم يقول له من على نافذته:

– هيادخل، ادخل إذا شئت! أنا هنا!

صعد راسكولنيكوف إلى الحانة. فوجد سفدريجاييلوف في حجرة ضيقة جداً، ذات نافذة واحدة، قرب قاعة كبرى يتحلق فيها حول ما يقرب من عشرين مائدة صغيرة، باعةٌ وموظفو وأناس من كل نوع يحتسون الشاي وسط صخب رهيب يحدثه المعنون الزاعقون بصوت واحد. وعلى مائدة سفدريجاييلوف كانت توجد زجاجة شمبانيا مفتوحة وكأس نصف ملأى. وكان في هذه الحجرة الصغيرة صبي يحمل آلة موسيقية هي أرغن يدوبي، وفتاة سمينة في نحو الثامنة عشرة من عمرها حمراء الخدين ربطة الوجنتين ترتدي تنورة خططة مشمورة، وتضع على رأسها قبعة تيرولية (نسبة إلى جبال التيرول) مزданة بأشرطة، ويصبح صوتها الأبح بأغنية عامة مبتذلة، رغم صخب غناء الجوقة في القاعة المجاورة. وكان الصبي يرافق غناءها بالعزف على الأرغن...

قال سفدريجاييلوف يقاطع العزف والغناء منذ دخل راسكولنيكوف:

– هيا... كفى! ..

فتوقفت الفتاة عن الغناء فوراً، واتخذت وضع الاحترام، وكان وجهها، منذ قليل، حين كانت تغنى سخافتها المسجوعة، يعبر عن هذا الاحترام نفسه على كل حال.

نادى سفدريجاييلوف:

– هي! فيليب! هات كأساً!

فقال راسكولنيكوف:

– لن أشرب خمراً.

– كما تشاء. ولست أنا الذي فيليب من أجلك أنت. اشربي يا كاتيا. لم أعد في حاجة إليك اليوم. تستطعين أن تصرفي.

قال لها ذلك وقد صب لها كأساً من خمر ووضع على المائدة ورقة نقدية بروبل. فأفرغت كاتيا الكأس بجرعات صغيرة متتالية دون أن تفصل شفتيها عن الكأس، كما تشرب النساء. ثم تناولت الورقة النقدية، وقبلت يد سفديجاييف الذي سمح لها أن تقبل يده وهو يُظهر أكبر الجد، وخرجت يتبعها الصبي جاراً أرغنه. كان الصبي الفتاة قد جيء بها كلّيّها من الشارع. إن سفديجاييف ما كاد يقضي في بطرسبرج هذه الأيام الثانية حتى كان قد أحاط نفسه بهذا الجو من الصحبة والألفة والسيطرة. إن فيليب خادم القاعة هو أيضاً (صديق) حميم، يُظهر لصاحبه أكبر الطاعة وأعظم المذلة. وباب الحجرة يُغلق بالمفتاح، فإذا كان سفديجاييف فيها فكأنه في بيته. ولعله كان يقضي في هذه الحجرة أياماً بكمالها. أما الحانة القدرة الرثة فلا يمكن أن توصف حتى بأنها حانة من الدرجة الثانية.

بدأ راسكولنيكوف فقال:

– كانت ذاهباً إليك، كنت أبحث عنك. ولكنني لا أدرى ما الذي جعلني أدور فجأة إلى شارع س... قادماً من «سوق العلف». إنني لا أمرّ أبداً من هنا. وإنما أنا أنعطف دائمًا إلى يمين «السوق». فما إن درت إلى هذه الجهة حتى لاحتك! شيء غريب!

– لماذا لا تقول إنها معجزة؟

– لأن من الجائز أن لا تكون إلا مصادفة!

قال سفدريجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

– غريب تفكير هؤلاء الناس! مهما كانوا مقتنين بوجود العجازات فإنهم لا يعترفون بذلك! أنت نفسك تقول إن «من الجائز» أن لا تكون إلا مصادفة! آه... ما أجبنهم جميعاً إزاء اعتقاداتهم نفسها! لا تستطيع أن تخيل يا روبيون رومانوفتش... لست أقصدك أنت... فأنت لك آراؤك الشخصية، وأنت لا تهاب أن يكون لك آراء شخصية. حتى إنك بهذا نفسه إنما أثرت اهتمامي وأيقظت فضولي.

– بهذا وحده؟

هو كافٍ جداً.

كان واضحاً أن سفدريجايلوف مهتاج بعض الاتهياج، ولكن اهتياجه لم يكن شديداً جداً: إنه لم يشرب إلا نصف كأس من خمر.

قال راسكولنيكوف:

– يخيل إليّ أنك جئت تزورني حتى قبل أن تعرف هل يمكن أن يكون لي ما تسميه رأياً شخصياً.
– آه... نعم... حينذاك كان الأمر غير هذا تماماً! لكل امرئ طريقته في التصرف. أما عن المعجزة فأقول لك: لا بد أنك كنت نائماً في هذين اليومين أو في هذه الأيام الثلاثة! لقد حددت لك أنا نفسي هذه الحانة فإذا جئت إليها الآن رأساً فليس في الأمر إذاً أية معجزة. لقد وصفت لك الطريق الذي يجب أن تسلكه، وذكرت لك الساعات التي تستطيع أن تجده فيها. ألا تذكر؟

أجاب راسكولنيكوف مدهوشًا:

– نسيت!

– أصدقك. ولكنني ذكرت لك ذلك مرتين. فلا بد أن العنوان قد انطبع في ذاكرتك على نحو آلي، فإذا أنت تدور سالكاً هذا الطريق على نحو إلى أيضاً، دون علم منك. مهما يكن من أمر، فإنني حين كنت أكلمك في ذلك اليوم، لم أعتقد أبداً أنك كنت تفهمعني. إنك لا تراقب نفسك مراقبة كافية يا روديون رومانوفتش. على أنني أعرف أن كثيراً من الناس في بطرسبرج يكلمون أنفسهم بصوت عالي أثناء سيرهم. هذه مدينة سكانها أنصاف مجانين. لو كان عندنا معارف علمية لاستطاع الأطباء ورجال القضاء وال فلاسفة أن يجمعوا عن بطرسبرج ملاحظات ثمينة، كل في ميدان اختصاصه. يصعب أن يجد المرء مدينة أخرى تضاهيها فيما نلاحظ فيها من تأثر النفس الإنسانية بمؤثرات غامضة مظلمة حادة غريبة إلى هذا الحد. أ يكون مرد هذا إلى مناخها؟ ولكن لما كانت هي المركز الإداري لروسيا كلها فلا بد أن ينعكس طابعها على مجموع البلاد. على أن هذا ليس ما يهمني الآن. وإنما أردت أن أقول لك إنني قد سبق أن راقبتك أكثر من مرة. فأنت حين تخرج من بيتك تخرج عالي الرأس فما أن تسر عشرين خطوة حتى تخفض رأسك وتعقد ذراعيك وراء ظهرك؛ وأنت حينئذ تنظر، لكنك لا ترى ما أمامك ولا ما حولك، ثم تأخذ تحرّك شفتيك وتكلّم نفسك؛ بل يتفق لك أحياناً أن تحرّك يديك بإشارات شتى أثناء حديثك مع نفسك؛ ثم إذا أنت تقف فجأة في وسط الشارع وترفع إحدى يديك وتكلّم بصوت عالٍ، ثم تلبيت وسط الطريق مدة طويلة. هذا غير مستحسن أبداً. فربما كان هنالك أناس غيري يلاحظونك ويراقبونك، وأنت بهذا تسيء إلى نفسك وتتعرض للخطر. أقول لك ذلك بصرامة. صحيح أن الأمر لا يهمني، وأنني لست من سيسيفيك، ولكن لعلك تفهم...

سؤاله راسكولنيكوف وهو ينظر إليه مستطلعاً:

– أتعرف إنهم يلاحقونني؟

قال سفديجايروف مدهوشًا:

— لا، لم أكن أعرف ذلك!

دمدم راسكولنيكوف مقطبًا حاجبيه:

— فلا نتحدثن بعد الآن عنك!

— طيب! لا نتحدثن بعد الآن عنك!

— قال لي: إذا كنت تجيء إلى هنا لشرب، وإذا كنت قد حددت لي هذا المكان مرتين لأوافيك فيه، فلماذا اختبأتعني منذ قليل حين نظرت إليك من الشارع حتى لقد أردت أن تنصرف؟ لقد لاحظت ذلك وكان واضحًا كل الوضوح.

— هئ هئ! بل قل لي أنت: لماذا، في ذلك اليوم، بينما كنت أنا واقفًا على عتبة الباب، ظللت أنت راقدًا على سريرك، مغمضًا عينيك، متظاهراً بالنوم، مع أنك لم تكن نائماً البتة؟ لقد لاحظت ذلك وكان واضحًا كل الوضوح!

— لعل هناك أسباباً... تدعوني إلى ذلك، وأنت نفسك تعرف هذا.

— ولعل هناك أسباباً تدعوني أنا أيضاً، رغم أنك لن تعرف ما هي تلك الأسباب.

وضع راسكولنيكوف كوعه الأيمن على المائدة، وأسند ذقنه إلى يده اليمنى، وحدق إلى سفديجايروف، وظل دقيقة طويلة يتأمل هذا الوجه الذي ما انفك يحيره. إنه وجه غريب يشبه أن يكون قناعاً: هو وجه أحمر الخدين، له شفتان قرمزيتان ولحية شقراء وشعر أشقر غزير، والعينان زرقاوان جداً، وأبيض، والنظره ثقيلة مسرفة في الثقل، ثابتة مسرفة في الثبات. إن في هذا الوجه الوسيم الذي ظل شاباً نضراً

رغم السنين، شيئاً منفراً إلى أبعد الحدود. وكان سفدريجايلوف يرتدي بدلة صيفية أنيقة من نسيج خفيف، ويتميز خاصة بقميصه الناصع البياض. وكانت إحدى أصابعه يتلألأ فيها خاتم كبير مرصّع بحجر ثمين.

قال راسكولنيكوف فجأة يمضي إلى هدفه رأساً وقد نفذ صبره:

– هل عليّ حقاً أن أتحملك أنت أيضاً؟ لعلك أنت أخطر البشر حين تقرر أن تلحق بأحد ضرراً أو أذى، ولكنني مع ذلك لا أريد أن أحاول إكراه نفسي. سوف أظهر لك على الفور أنني لا أقيم وزناً لشخصي إلى الحد الذي تتصوره. أعلم أولاً أنني إنما جئت لأقول لك بوضوح كامل وصراحة قاطعة أنك إذا كنت ماتزال تضمر لأختي تلك النيات نفسها، و كنت تعول في سبيلها على استخدام السر الذي اكتشفته مؤخراً، فسوف أقتلك قبل أن يتسع وقتك لأن تودعني في السجن. إنني إذا قلت فعلت. هذا وإذا كان هناك شيء تريده أن تفضي به إلى – وأنا أحسّ منذ مدة أنك تريدين أن تقول لي شيئاً ما – فأشرع إذ قد يفوت الأوان بعد قليل!

سؤال سفدريجايلوف وهو يتفرس فيه مستطلاً مستغرباً:

– ولكن ما الذي يحملك على هذا الإسراع كله؟

فأجاب راسكولنيكوف نافذ الصبر مظلم الوجه:

– كل امرئ له طريقته.

قال سفدريجايلوف مبتسماً:

– أنت نفسك تدعوني إلى الصراحة، ثم إذا بك ترفض أن تجنيني منذ أول سؤال ألقى عليهم إني ما تزال تصور أني أبكيت مشاريع، وأضمر نيات، وهذا هو السبب في أنك تنظر إلى نظرة ريبة واشتباه على أن هذا أمر يفهمه المرء فهمًا تاماً في مَنْ كانت حالته كحالتك. ولكن مهما تكن رغبتي في أن أحيا على تفاهم وفاق معك، فإنني لن أكلف نفسي عناء إزالة الغشاوة عن بصرك وتبديد أوهامك. ذلك أن هذه اللعبة لا تستحق هذا العناء. ثم إنني لا أتمنى البتة أن أتحدث معك في أمور خاصة جداً.

– فلماذا تحتاج إلى هذا الاحتياج كله إذا كان الأمر كما تقول؟ ذلك أنك ما تنفك تحوم حولي...

– لا شيء إلا لأنك أمرت تشوق ملاحظته، وتحلو مراقبته. لقد فتستني بوضعك الغريب وحالتك الشاذة وأمرك العجيب. هذا كل شيء! ثم إنك أخو إنسانة اهتممت بها كثيراً؛ وطالما حدثتني عنك تلك الإنسانية مراراً وتكراراً، فاستتراجت من ذلك أن لك عليها نفوذاً كبيراً وسلطاناً عظيماً، فهل هذا قليل؟ هي هي هي! على أنني أعترف لك بأن سؤالك يبدولي معقداً تعقيداً شديداً، فيصعب عليّ أن أجيب عنه. إليك هذا المثال: ألم تأت أنت إلى هنا من أجل أن تعلم شيئاً جديداً لا من أجل أن تتكلّم في أعمال؟ أليس هذا صحيحاً؟ أليس هذا صحيحاً؟

كذلك ألح سفديجايروف وهو يبتسم ابتسامة ماكروة خبيثة. ثم تابع كلامه:

– ألا فاعلم إذاً أني، أنا أيضاً، منذ كنت في القطار الذي أفلني إلى بطرسبرج، كنت أعول عليك أنت نفسك، وأأمل أن تقول لي شيئاً جديداً... الخلاصة: كنت أأمل أن أفترض منك شيئاً. نعم! انظر إلى أي حد نحن أثرياء!

– أن تفترض مني ماذا؟

— ماذا أقول لك؟ أنا أعلم؟ إنك لترى في آية حانة حقيرة موبوءة أقضى وقتى. إنني أجد في هذا لذة لذة؟ لا... هذه مبالغة. ولكن لا بد للمرء من أن يقضى وقته في مكان ما... حتى تلك المسكينة كاتيا... هل رأيتها؟ ويا ليتني كنت على الأقل رجلاً شديد النهم والشراهة أو رجلاً محباً لأطاييف الطعام! ولكن انظر قليلاً... هذا كل ما أستطيع أن أتهمه...

قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى ركن المائدة حيث يوجد طبق من معدن فيه بقايا شريحة كريهة من لحم البقر مع البطاطس. وتتابع كلامه يسأل:

— بالمناسبة، هل تغدّيت؟ أما أنا فأنني ما كدت أكل قطعة حتى اكتفيت. وأنا لا أشرب الخمر أيضاً. لست أشرب إلا شمبانيا، ولست أشرب من الشمبانيا إلا كأساً واحداً تكفيه السهرة كلها، عدا أن هذه الكأس تصدّع رأسياً. ولكن طلبت اليوم شمبانيا، فلكي أتعش قليلاً لأن عليّ أن أذهب إلى مكان ما بعد برهة؛ وهذا هو السبب في أنك تجذبني على حالة نفسية خاصة جداً. منذ لحظة، اختبأت كتلميذ صغير، لأنني تخيلت أنك سوف تزعلني، ولكن أعتقد أن في وسعي (هنا أخرج ساعته) أن أبقى معك قرابة ساعة. الساعة الآن هي الرابعة والنصف. هل يمكنك أن تصدق؟ يا ليتني كنت شيئاً ما على الأقل... ليتني كنت مالك أرض مثلاً أو رب أسرة أو حتى جندياً، أو مصوراً، أو صحفياً، ولكن لا... لست شيئاً... لست شيئاً البتة... ليس لي أي اختصاص! حتى أنني أضجر بعض الأحيان. حقاً لقد كنت أتصور أنك ستقول لي شيئاً جديداً.

— ولكن من أنت، ولماذا جئت إلى هنا؟

— من أنا؟ إنك تعلم من أنا: أنا نبيل، قضيت سنتين في سلاح الفرسان، ثم تسكعت هنا ببطرسبرج، ثم تزوجت مارفا بتروفنا وعشت في الريف. تلك سيرة حياتي!

– أنت، فيما أظن، مقامر. أليس كذلك؟

– مقامر؟ لا ... أنا غشاش لا مقامر.

– كيف؟ هل غششت؟

– نعم، فعلت هذا أيضاً.

– فلا بد أنهم ضربوك عندئذ ضرباً مبرحاً، أليس كذلك؟

– حدث هذا. وبعد؟

– كان في إمكانك على الأقل أن تقتل في مبارزة... ذلك أمر يفور له الدم.

– لن أعارضك، لا سيما وأن الفلسفة ليست ما أتميز به وأجلّ فيه. أعرف لك بأنني إنما جئت إلى هنا من أجل النساء خاصة.

– وبعد دفن مارفا بتروفنا فوراً؟

– نعم. ثم ماذا؟ أي ضير تراه في أن أتكلم عن النساء هكذا؟

بذلك أجاب سفدريجايلوف وهو يتسم بابتسامة صراحة مفحمة.

فقال راسكولنيكوف:

– تسألني أي ضير أراه في أن يعيش المرء حياة دعارة؟

– حياة دعارة! آ... ذلك هو ما يحقنك. ولكن فلنمض في مناقشة الأمر على منهج سليم: سأجيبك أولاً عن موضوع النساء عامة. أني أميل اليوم إلى الشرارة كما ترى. قل لي: لماذا يجب عليّ أن أجّم اندفاعاتي وأكبت رغباتي؟ لماذا أعدل عن النساء وأنا أهواهن؟ إنّهن شاغل على الأقل...

– فليست آمالك كلها إِذَا إِلَّا آمَالاً قائمة على الدعارة أو الفسق؟

– لنسلّم بأنّها الدعارة أو الفسق، ما دمتَ حريصاً على ذلك. إني أحب الأسئلة المباشرة على كل حال. إن للفسق شيئاً ثابتاً يقوم على الطبيعة الإنسانية ولا يخضع لنزوات الخيال، شيئاً باقياً مستمراً في الدم، كجذوة متوجّحة، مستعدة في كل لحظة لأن تلتهب، لا تنطفئ في وقت مبكر، بل لا تقتفي عليها السنون. ثم إن عليك أن تعرّف أن الفسق شاغل من الشواغل...

– ليس في هذا ما يستحق أن تغبط نفسك عليه أو أن تهين نفسك به. هذا مرض، بل هو مرض خطير.

– آ... هذا ما ت يريد أن تتهيّإ إليه! إني أواقفك على أنه مرض، كسائر الأشياء التي تتجاوز حدود الاعتدال. وحدود الاعتدال يتتجاوزها الناس، فبعضهم يتتجاوزها بطريقة، وببعضهم يتتجاوزها بطريقة أخرى. وينبغي للمرء طبعاً أن يعتدل، رغم أن هذا حساب دني. ولكن ما العمل؟ ما الحيلة؟ ذلك أن الإنسان إذا لم يتهيأ له هذا الشاغل فقد يكون عليه أن يتتحرّر. إني أعرف أن الرجل الشريف لا بد أن يشعر بالسأم والضجر حتّى، هذا عدا أن...

– هل أنت قادر على أن تتحرّر؟

أجاب سفديجايروف متأففاً:

– يا له من سؤال!

ثم أضاف يقول متعجلاً، دون أن يصطنع مظهر التفاخر والادعاء ذاك الذي كان قد اصطنعه إلى ذلك الحين، حتى أن وجهه قد تغير:

– أرجوك لا تكلمني في هذا الموضوع!.. إنني أعترف بأن هذا ضعف لا يغتفر، ولكن ما حيلتي؟ إنني أخاف من الموت، ولا أحب أن يتكلم عن الموت أحد. هل تعلم أنني أؤمن قليلاً بالغيبيات؟

– آه... هو شبح مارفا بتروفنا! أما يزال يظهر لك إذا؟

قال سفدر يجايروف:

– لندع هذا الأمر! في بطرسبرج، لم يحدث هذا حتى الآن!

ثم هاتف يقول حانقاً:

– على كل حال، شيطان يأخذه... لا، لا، فلندع هذا الأمر، ولنتكلّم في... هم... نعم... لم يبق لي إلا قليل من الوقت... لا أستطيع أن أمكث معك مدة أطول من ذلك كثيراً. خسارة! ذلك أن هناك أموراً كثيرة كان يمكنني أن أنقلها إليك.

– أهي أمور تتعلق بامرأة أيضاً؟

– نعم، بامرأة!.. حالة لا يتوقعها المرء أبداً... حالة ليست ما تظن...

– أنت لا تشعر إذاً بدناءة هذا الجو الذي تعيش فيه؟ أليس يؤثر فيك؟ هل فقدت القوة على... على أن تتوقف؟

– ماذا؟ أنت تكلمني عن القوة؟ هه... أنك تذهلني دهشة الآن يا روديون رومانوفتش، رغم أنني كنت أعرف سلفاً أن الأمر سيكون هكذا! أنت من يكلمني عن الفسق وعن جمال الفضيلة؟ إنك إنسان

شاعر من نوع «شيلر»، إنسان مثالي! صحيح أن هذا كله طبيعي، حتى أن نقضيه هو ما يمكن أن يثير الدهشة... ولكنه مع ذلك يبعث على الاستغراب... آه... خسارة أني لا أملك إلا وقتاً قصيراً! ذلك أنك من أكثر الناس إيقاظاً للاهتمام، وإثارة لحب الاطلاع. بالمناسبة: أنت تحب شيلر، أليس كذلك؟ أما أنا فأحبه حباً عظيماً.

قال راسكولنيكوف بشيء من الاشمئاز:

— يا لك من مدّع متفاخر!

فأجاب سفدريجايلوف وهو يضحك مقهقاً:

— لا، أقسم لك!.. على أني لا أنفي أقوالك. صحيح... أنا مدّع متفاخر!.. لماذا لا أدعى وأتفاخر ما دام هذا لا يؤذى أحداً؟ لقد قضيت سبع سنين في الريف، عند مارفا بتروفنا. لذلك فأني ما أن التقى برجل ذكي مثلك حتى أرتعي عليه. نعم... برجل ذكي، بل برجل يثير الاهتمام كثيراً كذلك. نعم، إنني أسعد أكبر السعادة بالتحدث معك قليلاً، ناهيك عن أن نصف الكأس الذي شربته من الخمرة قد صعد إلى رأسي بعض الشيء، غير أن هناك أمراً كان له كثير من... ولكنني أؤثر أن اسكت عن ذلك الأمر فلا أتحدث عنه. إلى أين أنت ذاهب؟

هي كذلك قال سفدريجايلوف يسأل راسكولنيكوف على حين فجأة مرتاعا.

كان راسكولنيكوف قد نهض. لقد أزعجه أنه جاء إلى هذا المكان، وأحسن باختناق في صدره. إنه مقتنع الآن أتم الاقتناع بأنه أمام أحقر وأدناً وغد حملته الأرض على ظهرها في يوم من الأيام.

قال سفدريجايلوف ملحاً:

– ابق قليلاً! لا تصرف هكذا! انتظر! أطلب لنفسك ولو فنجان شاي! هيا اجلس! أعدك بأن لا أكلمك في ترهات، أقصد في ترهات عني أنا! أسمع، هل تريد أن أروي لك كيف «أنقذتني» امرأة، كما تقولون أنتم بلغتكم؟ وسوف يكون هذا جواباً عن سؤالك الأول، ذلك لأن تلك المرأة هي أختك. هل أستطيع أن أروي لك... ثم إن هذا سيتيح لنا أن نزجي الوقت..

– قل ما تشاء، ولكن آمل أن...

– لا تقلق... اطمئن... ثم إن آفدوتيا رومانوفنا لا يمكن أن توحى إلا بأعمق الاحترام حتى لرجل يبلغ ما أبلغه أنا من الحطة والدناءة والتفاهة!

الفصل الرابع

بدأ سفديجايروف كلامه فقال:

– لعلك تعلم (ولقد ذكرت لك ذلك أنا نفسي على كل حال) أنني قد أودعت في السجن لديون كانت عليّ. وكان المبلغ ضخماً لم يكن في وسعي أن أحاول سداده إطلاقاً. لا داعي إلى الإفاضة الآن في الكلام على الطريقة التي اشترب بها مارفا بتروفنا حريري. هل تعرف مدى الجنون الذي يمكن أن تستسلم له امرأة تحب؟.. لقد كانت مارفا بتروفنا امرأة شريفة مستقيمة، ولم تكن بالغبية الحمقاء، رغم أنها محرومة من أية ثقافة. فتصور أن هذه المرأة، الشريفة الغيور، قد ارتضت أخيراً، بعد مشاجرات وملامات كثيرة كريهة، أن تعقد معه نوعاً من ميثاق ظلت متقيدة به طوال مدة حياتنا المشتركة. يحسن أن أذكر أنها كانت أكبر سنناً مني بكثير وبالإضافة إلى ذلك كانت تفوح منها رائحة قرنفل، وقد بلغت أنها من الخسنة ومن الصدق في الوقت نفسه أنني أعلنت لها بوضوح قاطع أنه سيستحيل عليّ أن أظل وفياً لها وفاء مطلقاً. فأغضبها هذا الاعتراف وأخرجها عن طورها، رغم أن صراحتي قد أعجبتها بمعنى من المعاني فيما أعتقد. لقد قالت لنفسها: «معنى هذا أنه لا ينوي أن يخونني ما دام ينذرني سلفاً»، وذلك هو الأمر الأساسي في نظر امرأة غيور. وبعد دموع كثيرة قام بيننا ما يشبه التعاقد الشفهي: أولاً على أنني لن أترك مارفا بتروفنا قط، بل أظل زوجها؛ وثانياً على أنني لن أتغير أبداً إلا بإذنها؛ وثالثاً على أنني لن أخذ خليلة ثابتة لها صفة الخليلة؛ ورابعاً على أن تسمح مارفا بتروفنا، مكافأة لي على ذلك، بأن أغازل الخادمات، ولكن بشرط الحصول على موافقتها المضمرة، وخامساً أن أتحاشى، بمعونة الله، أن أتعلق بحب امرأة من مستوى امرأة مارفا بتروفنا بالحقيقة إذا حدث، لا سمح الله، أن استولى عليّ حب صادق وقوى. على أن مارفا بتروفنا سرعان ما اطمأنت في ما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة. إنها امرأة ذكية، فلم تستطع أن ترى في إلا رجلاً فاسقاً ماجناً، عاجزاً عن أي حب صادق وهو قوي. لكن

الذكاء والغيرة شيئاً ثالثاً لا يتعارضان، ومن هنا يأتي البلاء. ثم إنك من أجل أن تحكم على أحد الناس حكماً حيادياً، يحسن بك أن تتخالص من بعض الآراء السابقة والعادات اليومية إزاء البشر والأشياء التي تحيط بك. إنني أعتمد على حسسك السليم أكثر مما أعتمد على أي ملكة أخرى. لعلك سمعت عن مارفا بتروفنا سخافات كثيرة. والحق أنها كانت تتصف بكثير من العيوب الصغيرة المضحكة جداً. ومع ذلك لا أهاب أن أعترف لك بأنني آسف أسفًا صادقاً على الأحزان الكثيرة التي سببتها لها، ولكن يكفي هذا، فيما أعتقد، «تأييناً»^{٧٢} للزوجة الرقيقة جداً من زوج هو أرق الأزواج طرًا. لقد كنت أثناء مشاجراتنا أصمت في أغلب الأحيان وأكظم كل غضب، وكان هذا الوضع المذهب يبلغ هدفه ويحقق الغاية منه في جميع الأحيان تقريباً. كان هذا الوضع يفرض مهابته على مارفا بتروفنا، بل لقد كان يحظى برضاهما وإعجابها، حتى إنها شعرت أحياناً باعتزاز بي. لكنها لم تستطع مع ذلك أن تحتمل تلك القصة التي جرت لي مع أختك. والله وحده يعلم كيف رضيت أن تجاذف فتدخل إلى منزلها فتاة جميلة هذا الجمال الرائع لتكون معلمة؟ إنني لا أفسر هذا النفي إلا بأن مارفا بتروفنا كانت امرأة سريعة التأثر والانفعال، وأنها افتننت بأختك.. نعم، لقد افتننت بها حقاً. ولقد أدركت أنا منذ النظرة الأولى أن الأمور ستجري مجرى شيئاً بالنسبة إلى، حتى إنني قررت - هل تصدق ذلك؟ - أن لا أرفع عيني نحو أختك. ولكن أختك، آفدوتيا رومانوفنا، قامت هي نفسها بالخطوة الأولى، هل تصدق هذا؟ وهل تصدقني أيضاً إذا قلت لك إن مارفا بتروفنا قد مضت إلى حد الغضب حين لاحظت أنني لا أكلمها عن أختك أبداً، وأنني أستقبل بغير اكتراث أو اهتمام الأحاديث المشبوبة التي كانت تسوقها لي عنها بغير انقطاع. لم أستطع أن أفهم حتى الآن ما الذي كانت تريده أن تصل إليه. وقد قصّت على أختك، طبعاً، كل ما أمكنها أن تعرفه عني. لقد كانت لها هذه العادة السيئة، وهي أن تروي أسرارنا العائلية لجميع الناس وأن تشكوني للملأ كافة،

^{٧٢} تأييناً. (بالفرنسية في الأصل).

فكيف يمكن أن لا تفعل ذلك مع صديقة جديدة فتاتة كأختك؟ أغلب ظني أنها كانت لا تتحدى إلا
عني؛ ولا شك في أن آفدوتيا رومانوفنا قد اطلعت على جميع الحكايات القدرة السرية التي كان الناس
يتناقلونها عني... بل إنني لأراهن على أن شيئاً من هذا قد بلغ مسامعك أنت!

– فعلاً! حتى أن لوجين اتهمك بأنك كنت السبب في موت طفل. هل هذا صحيح؟

أسرع سفدريجايلوف يجيب متعضاً:

– لا تحرّك هذا الوحل كله، أرجوك!.. إذا كنت حريصاً حرصاً شديداً على أن تعرف كل هذه الحقارات،
ف ساعداً عليك خبرها يوماً في الوقت المناسب، أما الآن...

– وقد حدثوني أيضاً عن خادم لا أدرى ما هو، كان عندك في الريف، وقالوا إنك كنت أنت السبب
أيضاً...

قاطعه سفدريجايلوف وقد فقد صبره فقداناً واضحاً:

– أرجوك! كفى! ..

وتتابع راسكولنيكوف كلامه يقول بحق متزايد:

– أتراه هو بعينه ذلك الخادم الذي كان بعد موته يعود يملاً غليونك؟ لقد قصصت على أنت نفسك..

نظر إليه سفدريجايلوف بانتباه، وخیل إلى راسكولنيكوف أنه يرى ابتسامة خبيثة تلم بتلك النظرة
السريعة كالبرق. ولكن سفدريجايلوف سيطر على نفسه وأجاب بلهجة فيها أكبر التهذيب:

– نعم، هو بعينه. أرى أنك أيضاً تهتم أشد الاهتمام بهذا كله؛ فلنك على، عند أول فرصة، أن أرضي
فضولك وأشبع حب الاطلاع لديك في جميع النقاط. شيطان يأخذني! أرى أنني سأنتهي إلى أن يعذني

٧٣ «كما يدل على ذلك اسمه...»: كانت تطلق أسماء جديدة على أبناء رجال الدين حين دخولهم مدارس اللاهوت، وكانت هذه الأسماء تستمد أحياناً من مزايا روحية، فاسم دوبل ولوبوف يعني «حب الخير»، واسم زدرافو سمسلاف يعني «السديد الـأي»، وأسم رازو وبخين مشتقة من كلمة رازوم و معناها العقل.

الخلاصة: أحسب أنني فهمت آفدوتيا رومانوفنا، وأنني بذلك الفخور. ولكن الماء، عند تعرّفه إلى شخص من الأشخاص، يكون طائشاً بعض الطيش، غبياً بعض الغباوة، كما تعلم... فهو يرى الأشياء في ضوء... شخصي، ولا يراها كما هي. ولكن لماذا هي جميلة ذلك الجمال كلها؟ ليس الذنب في هذا ذنبي!

الخلاصة... إنني سرعان ما افتننت بها افتاناً شهوانياً لم يكن لي حيلة في دفعه. إن آفدوتيا رومانوفنا ذات خفر رهيب، خفر لا عهد للمرء بمثله، خفر لا يكاد يصدق العقل وجوده (لئن كنت أقول لك هذا عن أختك فلأنه «واقع». نعم، إنها رغم ذكائها، ورغم فكرها المنفتح جداً، فتاة ذات خفر شديد... وهذا أمر يسّع إليها ويلحق بها أذى. كان عندنا حينذاك خادمة فتاة اسمها باراشا^{٧٤}، هي باراشا السمراء ذات العينين السوداويين الجميلتين التي جيء بها من قرية أخرى منذ برهة قصيرة، والتي لم يسبق لي أن رأيتها في يوم من الأيام قبل ذلك. كانت حلوة جذابة حقاً، ولكنها كانت على جانب من الغباء لا يصدق. فما أقبلت عليها حتى أجهشت باكية وملأت فناء المترّل بصرخات حادة فسرعان ما كان ذلك فضيحة. وفي ذات مساء، بعد العشاء، دبرت آفدوتيا رومانوفنا الأمور بحيث تلقاني وحيدة في ممر بين الأشجار بالحدائق فإذا هي تطالبني جازمة، وعينها تسطعان غضباً بأن أدع الفتاة المسكينة مرتاحه وأن لا أضايقها. ولعل ذلك كان أول حديث يجري بيني وبينها في خلوة. وقد أسرعت أقطع على نفسي عهد الشرف بان ألبى رغباتها وأنفذ إرادتها، وحاولت أن أظهر بمظهر المضطرب. المستحي الخجل، أي عرفت كيف أمثل الدور أحسن التمثيل. ومنذ تلك اللحظة تمت بيننا لقاءات كثيرة في السر، وحدثت مشاهد متكررة كانت في أثنائها تمطّري بالمواعظ والنصائح واللامات، وتصرّع إلى أن أغير حياتي، باكية، نعم باكية... تصور! هل تصدق هذا؟ انظر إلى أي مدى يمكن أن يمضي حب الوعظ والنصائح عند بعض الفتيات! وطبعي أنني حملت القدر تبعه جميع أخطائي، وصوّرت نفسي في صورة رجل ظامئ إلى

^{٧٤} «باراشا»: تصغير اسم براسكوفيا.

الضياء، ثم بحثت أخيراً إلى الوسيلة القصوى التي لا تخطئ هدفها من قلب المرأة قط، ولا تخيب الظن فيها أبداً، بل تحقق غايتها وتوثر في جميع النساء دون استثناء، أعني التملق بالمديح. لئن لم يكن في العالم شيء أصعب من الصدق والصراحة، فلا شيء في العالم أسهل من التملق. فالصدق إذا اندس فيه عشرة معاشر من كذب، سرعان ما يخالطه نشاز فتفع فضيحة. أما التملق فإنه إذا كان كذباً من أوله إلى آخره، يظل ساراً وممتعاً، فالشخص يصغي إليه شاعراً بلذة إن لم تكن لذة سامية فهبي لذة على كل حال. ومهما يكن التملق مفضواً فإن نصف المديح على الأقل ينطلي على المدوح. يصدق هذا على جميع طبقات الناس في المجتمع وجميع المستويات العقلية. إن في وسعتك أن تغوي بالمديح أطهر فتاة فما بالك بغيرها! لا أستطيع أن أتذكر إلا ويفغلبني الضحك كيف أغويت في ذات يوم من الأيام امرأة مخلصة كل الإخلاص لزوجها وأولادها وفضائلها... لكم كان ذلك مسلياً، ولكم كان سهلاً! ومع ذلك كانت المرأة من أكثر النساء تمسكاً بالفضيلة على طريقتها. وكان كل الأسلوب الذي اتبعته معها هو أنني أظهرت لها دائمًا انبهاري بفضائلها وعبادتي لعفتها! كنت أتملقها بالمديح دون تحفظ، وكنت إذا اتفق لي أن أحصل منها على مصافحة باليد أو نظرة من العين، ألوم نفسي أمامها على أنني انتزعت ذلك منها انتزاعاً بالقوة، حتى لأنظاهر بأنني أعتقد أنها عارضت في ذلك، وأنني ما كنت لأحصل منها على شيء إطلاقاً لو لا أنني فاسد الأخلاق، ولو لا أنها في براءتها وعفتها لم تستطع أن تكتشف فساد خلقي فانقادت ببساطة وسذاجة دون أن تتشبه أو ترتتاب، الخ الخ. الخلاصة إنني وصلت إلى تحقيق غايتي وتنفيذ مآربني، وظلت السيدة مقتنة ب أنها عفيفة طاهرة، وأنها تقوم بجميع واجباتها والتزاماتها وأنها لم تخطئ إلا عرضاً: لذلك غضبت غضباً شديداً حين أعلنت لها بعد ذلك و كنت على اقتناع تام بها أقول أنها كانت تنشد اللذة مثلما كنت أنشدها أنا سواء بسواء. ولقد كانت المسكينة مارفا بتروفنا شديدة التأثر بالمديح، عاجزة عن مقاومة سلطانه عليها، ولو قد شئت لجعلتها تورثني جميع أموالها وأملاكها، حتى أثناء حياتها

(إنني أشرب كما تشرب بالوعة وأتيه في ثرثرات). آمل أن لا تؤاخذني أو أن تحقد عليّ إذا قلت لك الآن أن تلك الآثار نفسها قد بدأت تظهر على آفدوتيا رومانوفنا. ولكنني أفسدت الأمر كله بحمّاقي وقلة صبري. لقد اتفق عدة مرات، أثناء أحاديثي مع آفدوتيا رومانوفنا (واتفق هذا في إحدى المرات خاصة) أن نفرت نفوراً رهيباً من تعبير عيني، واشمأزت اشمئزازاً شديداً. هل تصدق هذا! الخلاصة أن لهيب الشهوة الذي كان يتقد في عيني بمزيد من القوة يوماً بعد يوم، مع مزيد من الوقاحة في الوقت ذاته، قد أربعها وأصبح كريهاً في نفسها آخر الأمر. لا داعي إلى أن أقص عليك الأمر تفصيلاً. فالمهم أننا كفنا عن اللقاء. وارتكتببت عندئذ غلطة جديدة. فقد طفت أسرخ أغاظ السخر من جميع تصرفاتها ومواعظها، وعادت باراشا تناول الحظوة، ولم تكن باراشا في هذه المرة وحيدة. الخلاصة أن المنزل أصبح أشبه بمدينة سدوم. آ... لو أنك رأيت، مرة واحدة، يا روديون رومانوفتش، كيف كانت تسطع علينا أختك حينذاك لعرفت مدى قدرتها على الاشتعال والالتهاب! صحيح أنني الآن سكران، وأنني قد أفرغت منذ لحظة كأساً أخرى من الخمر، ولكن ما أقوله لك إنما هو الحقيقة. أؤكد لك أن تلك النظارات كانت تلاحقني في نومي. وأخيراً أصبحت لا أطيق حتى سماع حفيظ ثوبها، وصرت أتوقع حقاً أن توافيوني نوبة صرع من لحظة إلى أخرى. ما كان لي أن أصدق في يوم من الأيام، نعم ما كان لي أن أصدق في يوم من الأيام فقط أن من الممكن أن أصير إلى مثل تلك الحالة من الخروج عن طوري. وأصبحت المصالحة أمراً لا بد منه غير أن هذا الأمر لم يعد ممكناً. فهل تتصور ماذا فعلت حينذاك؟ هل تخيلت السخف الذي يمكن أن يقود إليه الحنق! إياك أن تتسرع في عمل شيء حين تكون حانقاً يا روديون رومانوفتش! أنني وقد لاحظت أن آفدوتيا رومانوفنا فتاة فقيرة معدمة (لا تؤاخذني إذا أنا استعملت هذا التعبير... أي فرق بين التعبير إذا كان معناها واحداً؟)، قصارى القول، أنها تعيش من عرق جينها وكد يمينها، وأنها تقوم بـأعماله وأعمالتك أنت (ما بالك تقطب حاجيك من جديد؟)، قررت أن

أقدم إليها كل ما أملك من مال، وكان في وسعي عندئذ أن أجمع ثلاثين ألف روبل، على شرط أن تقبل الهروب معي، ولو إلى هنا، إلى بطرسبرج. فلو قد رضيت أن تهرب لعاهدتها على أن أحبها ما حييت، متى وصلنا، ولو عدتها بالسعادة والهباء وهلم جراً أبد الدهر، فلقد بلغت من التحمس صدقني إن شئت! إنني لو أمرتني أن أذبح أو أن أسمم مارفا بتروفنا من أجل أن أصبح زوجها هي، لفعلت ذلك على الفور. ولكن الأمر كله قد انتهى بالكارثة التي تعرف. ففي وسعك أن تفهم الغضب الشديد الذي شعرت به حين علمت أن مارفا بتروفنا قد جاءت بذلك الدعي الحقير لوجين يريد أن تزوجه أختك، وذلك مشروع لا يختلف كثيراً عن مشروعني أنا في الواقع. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أنت توافقني على هذا الرأي؟ أليس كذلك؟ إنني ألاحظ على كل حال أنك أصبحت تصغي إلى بانتباه شديد... أيتها الشاب المشوق...

قال سفديجايروف هذا ثم ضرب المائدة بقبضته يده وقد نفذ صبره. فأدرك راسكولنيكوف أن كأس الشمبانيا (أو الكأس ونصف الكأس) التي شربها جرعات صغيرة قد أحدثت فيه أثراً سيئاً، لذلك قرر أن يتنهز هذه الفرصة وأن يستفيد من هذا الظرف. لقد كان شديد الريب في سفديجايروف، كثير الخدر منه.

قال فجأة ليحنته مزيداً من الإحناق:

– فأستطيع أن أستتتج مما أفضيت به إلى أنك بمجيئك إلى بطرسبرج إنما كنت تطمع في أختي وتبيت لها شيئاً.

أجابه سفديجايروف وكأنه يتذكر شيئاً ما:

– دعنا من هذا، أرجوك... قلت لك... ثم إن أختك لا تستطيع أن تطيقني، فهي تكرهني كرهاً شديداً.

– أما إنها تكرهك فأنا واثق بهذا. ولكن من الممكن أن لا تكون هذه هي المسألة.

– أنت واثق بهذا؟

قال سفدريجايلوف ذلك وهو يغمز بعينيه ويتسامه سخرية. ثم تابع كلامه:

– إنك على حق. إنها لا تحبني، ولكنك لا تستطيع أن تضمن ما يجري بين رجل وامرأته، أو بين خليل وخليلته. هناك دائمًا ركن صغير يغيب عن جميع الناس ولا يعرفه أحد غير الشخصين المعنيين. هل في وسعك أن تحلف أن آفدوتيا رومانوفنا كانت تنظر إلى نظرة اشمئاز؟

– أستنتاج من بعض كلمات حديثك وتلميحاتك أنك ما زلت تضمر، إزاء دونيا، نياتٍ ملحة وأهدافاً
لست أصفها إلا بأنها دنيئة!

– كيف؟ أأنا أفلتت مني كلمات وتلميحات من هذا النوع؟

كذلك سأله سفدريجايلوف وقد ارتىاعاً ساذجاً جداً، ولكن دون أن يهتم أقل اهتمام بالنعت الذي
نعت به راسكولنيكوف أهدافه.

قال راسكولنيكوف:

– بل إنها ما تزال تفلت منك! فلماذا أرتعت هذا الارتىاع كله مثلاً؟ نعم، ما الذي ينحيفك إلى هذا الحد؟

– أنا مرتع؟ أنا خائف؟ خائف منك أنت؟ ألا إن الأولى أن تخاف أنت مني cher ami ^{٧٠} ما هذا
الكلام الصبياني؟ على أني سكران... أنا أدرك ذلك. إنني أسرف في الكلام، أسرف في الكلام كثيراً
حتى أكاد... لعن الله الخمرة! هيه! أنت! أعطني ماء!

^{٧٠} أيها الصديق العزيز. (بالفرنسية في الأصل).

قال سفديجاييف هذا، وتناول الزجاجة فرماها من النافذة بغير تحرج. وجاءه فيليب بإبريق ماء، ثم

استأنف سفديجاييف كلامه فقال وهو يبُلُّ منشفة ويضعها على رأسه:

— وهذه سخافات على كل حال... إنني أستطيع أن أسقط شوكوك كلها بكلمة واحدة. هل تعلم مثلاً

أني سأتزوج؟

— سبق أن قلت لي هذا.

— سبق أن قلت لك هذا؟ حقاً؟ لست أتذكرة. على كل حال، لا شك أنني لم أقله جازماً، لأنني لم أكن قد رأيت خطيبتي. وما كان الأمر حتى ذلك الحين إلا فكرة أو مشروع. أما الآن فإن لي خطيبة وقد أصبح الأمر واقعاً. ولو لا شؤون مستعجلة لدعوتك أن تصحبني إليها، لأنني أريد أن أطلب منك بعض النصائح. آ... لم يبق لي إلا عشر دقائق! خذ... انظر في ساعتي. ولكن يجب أن أحكي لك... ذلك أن زوجي حادثة مشوقة فريدة في نوعها. إلى أين تمضي؟ أما تزال تريد الانصراف؟

— لا... الآن لن أنصرف.

— لن تصرف؟ سوف نرى! نعم، سأصطحبك إلى هناك لأعرفك بخطيبتي، ولكن ليس الآن، فالآن لا بد أن نفترق، تمضي أنت يمنة وأمضي أنا يسراً. إن تلك المرأة التي تسمى رسيلينغ والتي أقيم عندها في هذه الفترة، لا شك أنك سمعت عنها، أليس كذلك؟ عجيب.. ألم تسمع عنها؟ تلك المرأة التي يقال إنها هي السبب في أن فتاة صغيرة انتحرت غرقاً في وسط الشتاء. آ... إن تلك المرأة هي التي دبرت الأمر كله. قالت لي: «لا شك أنك تضجر وتسأم وأنت وحيد على هذه الحال، فيجب أن تسرى عن نفسك قليلاً». والحق أنني أمرؤ قاتم المزاج مكتئب الطبع حزين النفس. هل تظنني مرحًا؟ أبداً... أنا سوداوي. لست أؤذي أحداً، وأظل قابعاً في ركني، ولكن يتفق إلى أن أبقى ثلاثة أيام صامتاً لا أفتح فمي بكلمة.

ولقد كانت تلك القوادة رسيليخ تحفي خطة وتبثّت فكره: كانت تقول لنفسها أن امرأتي القادمة سوف تُضجرني آخر الأمر، وأنني سوف أهجرها، فتقع عندئذ بين يديها هي رسيليخ، «فتدخلها في التداول» في بيئتنا أو في بيئه أرفع. قالت لي إن للفتاة أباً عجوزاًخرفاً هو موظف محال على التقاعد أصبح لا ييارح مقعده منذ ثلاث سنين لأنه لا يستطيع أن يحرك ساقيه. وأضافت إلى ذلك أن أمها امرأة راجحة العقل متسامحة، وأن أخاها يشغل وظيفة من الوظائف في الأقاليم ولكنه لا يساعد ذويه؛ وأن لها اختاً متزوجة لا توافيهم بشيء من أخبارها، وكأن الأسرة ليس عندها عدد كافي من الأفواه تطعمه، فكفلت طفلين صغارين من أقربائها؛ وعلى أثر ذلك أخرجت ابنتها الصغرى من الكوليج قبل أن تتم دراستها. وستبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد شهر، فيمكن عندئذ تزويجها، أي يمكن أن أتزوجها أنا. وقد ذهنا أنا ورسيليخ إلى أهل الفتاة. مشهد مضحك. عرفتهم ببني: ملاك، أرمل، أسرة نبيلة، علاقات عالية، ثروة طائلة. فما قيمة أن يكون عمري خمسين عاماً، وأن يكون عمر الفتاة ست عشرة سنة؟ من ذا الذي يمكن أن يتوقف عند أمر تفصيلي هو هذا الفرق في السن؟ أليس هذا أمراً مغرياً، أليس ظريفاً جذاباً؟ ها ها ها!.... ليتك رأيتني وأنا أتحدث مع أيها وأمها! إن المرأة ليدفع مالاً كثيراً ثمن رؤيتها لهذا المشهد! وظهرت الطفلة فجأة، فانحنت تحبّي الضيوف كما يفعل الأطفال... تصور أنها ما تزال ترتدي الثوب القصير! إنها برمع ورد حقا، يصطبغ خداها بحمرة قانية كلون الشفق عند الفجر (كانت قد أطلعت على الأمر طبعاً). لا أدرى ما رأيك في الفتيات الصغيرات. أما أنا فرأيي أن هذه السنين الست عشرة، وتلك العيون الصغيرة التي ما تزال عيون أطفال، وذلك الخجل، وهذه الدموع التي تنسكب حياء وخفراً، أن هذا كله آية من آيات الجمال. ناهيك عن أن الفتاة كانت جميلة كجمال صورة. شعر أشقر خفيف متموج، شفتان مكتنرزتان قرمزيتان، قدمان صغيرتان. عجيبة من العجائب!... ولقد تعارفنا. ثم أعلنتُ أنني في عجلة من أمري، لأسباب عائلية. لذلك قمت الخطبة في غداة ذلك اليوم، أي أمس

الأول. ومنذئذ أصبحت أجلسها على ركبتي متى وصلت إليهم، ثم لا أتركها... فيحمر خداها من جديد حتى لتصبح بلون الشفق عند الفجر، وآخذ أتهمها بالقبل التهاماً! وأمها تقنعها طبعاً بأن الأمور يجب أن تجري على هذا النحو، لأنني سأصبح زوجها. الخلاصة: لذة ما بعدها لذة! ربما كانت حالة الخطيب هذه أحلى وأمتع من الحالة التي ستتلوها، أعني حالة الزوج. فها هنا نجد *la nature et la Verite*!^{٧٦} كما يقال! ها ها!... لقد تحدثت معها مرة أو مرتين. إن الصبية ليست بالغبية البتة، وأنها في بعض الأحيان لتنظر إلى نظرة تشعل حريقاً في كياني كله. هل تعلم؟ أن لها وجهًا من نوع وجه «المادونا» التي صورها رافائيل. إن «مادونا سكستين» لها وجه عجيب تمامًا، وجه يعبر عن حزن يلم به جنون غيبي، ألم يخطف هذا بصرك؟ فاعلم إذن أن وجه خطيبتي فيه شيء من هذا النوع. وما أن تمت خطبتنا حتى حملت إليها هدايا بألف وخمسين روبل: حلية من الماس، وحلية أخرى من لؤلؤ، وعلبة فضية لأدوات الزينة، كبيرة بهذا الحجم، مع جميع لوازمها... فإذا بوجه «المادونا» الصغير يُشرق ويزدهر. ثم أجلستها بالأمس على ركبتي، ولعلني بلغت في ذلك من قلة التحرج أنها احمرت أحمراراً شديداً وطفرت الدموع من عينيها. ولكنها لم تشاء أن تفصح نفسها رغم أن نفسها كانت مشتعلة كل الاشتعال. وخرج الجميع لحظةً، فأصبحنا وحيدين، أنا وهي، فإذا هي تبادر فجأة فتحيط عنقي بذراعيها الصغيرتين وتقبلني (من تلقاء نفسها هذه المرة). وتحلف لتكويني زوجة مطيبة وفية، ولتسعدني، ولتقفين على هذا حياتها كلها، كل لحظة من حياتها ولتضحي بكل شيء، بكل شيء، ولن تطالبني في مقابل ذلك إلا شيء واحد: «هو أن أحترمها، أن أحترمها فقط، فهي لا تريد إلا هذا، ولا تريد هدايا!» لا شك في أنك توافقني على أن سماع اعتراف كهذا الاعتراف، في خلوة، من ملاك صغيرة في السادسة عشرة من عمرها، وقد احمرت وجنتها من حياء العذارى وخفههن، وأخذت دموع الحماسة تتلاألأً في عينيها،

^{٧٦} الطبيعة والحقيقة. (بالفرنسية في الأصل).

أقول لا شك في أنك توافقني على أن ذلك كله جذاب مغري! جذاب مغر، هذا هو الوصف الصحيح،
الليس كذلك؟ شيء يستحق أن يدفع المرء ثمنه، هه؟... اسمع... سندhib إلى خططيتي... ولكن ليس
الآن!

– الخلاصة أن هذا الفرق الرهيب في السن وفي الثقافة يثير رغبتك الشهوانية مزيداً من الإثارة! هل من
الممكن أن تُفكِّر فعلاً في الإقدام على زواج كهذا الزواج؟

– لم لا؟ طبعاً أفكِّر في ذلك! لكل امرئ أن يفكِّر لنفسه، وأقدر الناس على خداع نفسه أنجحهم في قضاء
أيام سعيدة! ها ها! ولكن ما بالك قد أصبحت رجلاً فاضلاً حميداً على حين فجأة؟ رأفة بي يا عزيزي،
لأنني امرأ خاطئ مذنب! هى هى هى!

– ولكنك عنيت بأولاد كاترينا ايفانوفنا على كل حال... كانت هناك بواعث تدفعك إلى ذلك... الآن
فهمت كل شيء!

قال سفدريجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

– أنا أحب الأطفال كثيراً، أحبهم كثيراً جداً، ويمكنني بالمناسبة أن أروي لك حادثة غريبة ما تزال تجري
حتى هذه الساعة. لقد طفت بمختلف الملاهي الموبوءة في العاصمة منذ وصولي أول يوم... أسرعت
أطوف بها بعد فراق سبع سنين! لعلك لاحظت قلة حرصي على إعادة الصلة بيني وبين أصحابي
وأصدقائي القدماء. حتى ليمكنني أن أقول إنني أفرّ منهم فراراً من الطاعون. يجب أن أقول لك أنني
حين كنت أعيش في الريف عند مارفا بتروفنا كان يترباني ضيق شديد كلما تذكرت هذه الأماكن السرية
التي يستطيع الإنسان الخبير أن يجد فيها أشياء كثيرة! تبألي! الشعب هنا يسترسل في السكر، والشبيبة
المثقفة تذوب وتضييع في أحلام خيالية ونظريات عجيبة بسبب عدم النشاط، واليهود يهرون من كل

مكان ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم من مال، وسائر الناس يستسلمون في أثناء ذلك للفسق والمجون.

إذاً لقد أرسلت إلى هذه المدينة منذ الساعات الأولى رائحة مألوفة جداً. وسرعان ما وقعت فيما يسمى سهرة راقصة: هو ملهمي موبوء فظيع (ولكنني أحب هذه الأماكن حين تكون باعثة على الاشمئاز).

كان الراقصون مندفعين في رقص «الكانكان» اندفاعاً محموماً مسحوراً قليلاً يرى المرء مثله في هذه الأيام، ولم نكن نرى مثله في أيامنا أبداً. لقد تحقق تقدم في هذا المجال أيضاً. وفجأة لمحت صبية لعلها في الثالثة عشرة من عمرها، ترتدي ثياباً لطيفة وترافق سيداً جميلاً، وأمامهما شاب آخر. وكانت أمها جالسة قرب الحائط تنظر إليها. هل تخيل كيف كان الرقص؟ لقد كانت الفتاة تشعر بخجل شديد.وها هي ذي تحرر، ثم يزداد حرجها وانزعاجها أخيراً فتأخذ تبكي. فيمسكها الراقص الجميل، ويأخذ يدور بها، ويقوم بألف حركة وحركة بدئية، والناس من حوله تضج بضحك صاحب. إنني في مثل هذه اللحظات إنما أحب جمهورنا خاصة، حتى جمهور هذا النوع من ملاهي الليل. كان الحضور يضحكون ويصيحون قائلين: «مرحى! مرحى! لم يكن عليها إلا أن ترفض المجيء إلى هنا! ليس هذا مكاناً للأطفال!» أما أنا فلم أكتثر طبعاً. وسرعان ما حددت المكان الذي يناسبني، ومضيت أجلس قرب الأم. وبدأت أكلمها فقلت لها إنني أنا أيضاً مارً بطرسبرج مروراً. وأضفت إلى ذلك أن هؤلاء الناس جفاة غلاظ ليس لهم فراسة تعرفهم بمن يستحقون الرعاية والمداراة. وبعد أن أسمعتها أنني أملك مالاً كثيراً عرضت عليها أن أوصلها هي وابنتها بعربة، فقبلت وأوصلتها، فرأيت مسكنها (إنه غرفة مؤثثة حقيرة كانتا قد نزلتا فيها منذ وقت قصير حين وفدت من الأقاليم). وقالت لي إنها تعداد زيارتي لها شرفاً عظيماً. وعلمت بعد ذلك أنها لا تملكان قرشاً، وأنها جاءتا إلى بطرسبرج للقيام بمساع لدى إدارة من الإدارات. فعرضت عليهما خدماتي، وقدمت إليهما مالاً. وعلمت عدا ذلك إنها بالصدفة إنما وقعتا في ذلك الملهمي تلك الليلة، فقد ظننا أنه مكان لتعليم الرقص. وعرضت أن أسهم في إتمام ثقافة الفتاة بتعليمها اللغة

الفرنسية، وبتعليمها الرقص خاصة. فسرعان ما قبل هذا العرض بفرح شديد، وسرعان ما قيل لي إن هذا شرف كبير... وما تزال علاقتنا قائمة، وما تزال زيارتي متالية... سذهب إليها معاً لتراها أن شئت... ولكن ليس الآن!

– كفاك! كفاك حكايات حقيرة دنيئة تبعث على الاشمئاز، أيها الإنسان الفاسق، المنحلة المنحط!

– يا لك من شاعر! يا لك من شيلر انظروا أين تختبئ الفضيلة؟^{٧٧}، هل تعلم أن صرخاتك هذه تغريني بأن أقصّ عليك المزيد من أمثال هذه الحكايات لأسمعك تطلق المزيد من هذه الصرخات؟ هذه لذة حقيقة!

دمدم راسكولنيكوف يقول مبعضاً حاقداً:

– نعم، لا شك أنني أبدو سخيفاً مضحكاً، فأنا كذلك في نظر نفسي.

ضحك سفدريجايلوف ملء حلقه، ثم نادى فيليب، فدفع الحساب، ونهض لينصرف وهو يقول:

– نعم... أنا سكران، سكران جداً... كفى حديثاً!... إنها لذة حقيقة!...

صاح راسكولنيكوف يقول وهو ينهض أيضاً:

– كيف لا تشعر بذلك... كيف لا تكون لذةً لرجل فاسق داعر من طيتك أن يقص مغامرات كهذه المغامرات وهو يحمل بمشاريع شيطانية أخرى من هذا النوع، وأن يقص ذلك على إنسان مثلي وفي مثل هذه الظروف؟... هذا يؤجج رغبتك، ويبيح نفسك، أليس كذلك؟

قال سفدريجايلوف بشيء من الدهشة وهو يتفرس في راسكولنيكوف:

^{٧٧} انظروا أين تختبئ الفضيلة! (بالفرنسية في الأصل).

— إذا كنت ترى هذا الرأي، فإنك إذاً لست هر عظيم... أو أن فيك لاستعداداً لهذا. إنك تستطيع أن تدرك كثيراً من الأشياء... وأن تصنع بها كذلك كثيراً من... ولكن كفى! يؤسفني حقاً أن حديثنا كان قصيراً هذا القصر كله، ولكنك لن تفلت مني هكذا... اصبر قليلاً....

خرج سفديجايروف من الحانة، وتبعه راسكولنيكوف.

الحق أن سفديجايروف لم ينل منه السكر كثيراً. إن الشراب لم يصعد إلى رأسه إلا لحظة قصيرة، وكان ثمله يتبدّد شيئاً بعد شيء. كان هناك أمر هام جداً يشغل باله، يشغل باله كثيراً، فكان يقطب حاجبيه، وكان انتظار شيء ما يقلقه إقلاقاً واضحاً، ويثير أعصابه. ولم يفتأ راسكولنيكوف أن يلاحظ أن سفديجايروف قد غير لهجته في مخاطبته منذ لحظات، وأنه أصبح يكلمه بمزيد من الفظاظة والسخرية. وكان هذا الأمر يقلق راسكولنيكوف أيضاً.

واشتبه راسكولنيكوف في أمر سفديجايروف، فقرر أن يتبعه.

وصلا إلى الرصيف.

— أنت تذهب يمنة وأنا أذهب يسراً، اللهم إلا أن يكون العكس! المهم أن نفترق Adieu, mon plaisir...^{٧٨} سيسرني أن أراك مرة أخرى.

قال سفديجايروف ذلك وسار يمنة في اتجاه سوق العلف.

^{٧٨} إلى اللقاء، يا عزيزي. (بالفرنسية في الأصل).

الفصل الخامس

سار راسكولنيكوف وراءه، فصاحب سفديجاييف يقول ملتفتاً إليه:

— ما معنى هذا؟ أظن أنني قلت لك...

— معنى هذا أنني لن أركك قيد أنملة...

— ماذا؟ ماذا؟

وتوقف الاثنان، وأخذ كل منهما يرور صاحبه بنظرة خلال دقيقة.

وقال راسكولنيكوف باهجة قاطعة:

— بعد جميع الحكايات التي رويتها لي وأنت في شبه سكر، يحق لي أن أتصور تصوراً تاماً أنك لم تهجر مشاريعك الدينية فيما يتعلق بأختي، بل إن هذه المشاريع تشغلك الآن أكثر مما كانت تشغلك في أي وقت مضى. أنا أعلم أن أختي تلقت في هذا الصباح رسالة. ولقد كنت أنت قلقاً لا تستقر على حال. ومن الجائز جداً أن تكون قد عثرت على خطيبة جديدة، ولكن هذا لا يبرهن على شيء، فأنا أريد أن أتحقق من الأمر بنفسي.

لو سئل راسكولنيكوف أن يقول ما هو الأمر الذي يريد أن يتحقق منه بنفسه لارتباك أشد الارتباك.

قال سفديجاييف:

— ها... هكذا؟ أتريد أن أنادي الشرطة؟

— نادها!

ووقفا من جديد، ومن جديد أخذ كل منها يتفرّس في الآخر. وأخيراً تغير تعبير وجه سفديجايلوف، فإنه حين رأى أن راسكولنيكوف لم يخف من تهديده، أسرع يصطنع هيئة تنم عن مرح ومودة وصداقة، وقال:

– ما أغرب أمرك! لقد تعمدت أن لا أكلمك في قضيتك، رغم أن الفضول ينهاش قلبي نهشاً... إنها قضية خيالية! لقد آثرت أن أرجئ الكلام فيها إلى مرة أخرى... ولكنك قادر على أن تجعل الميت نفسه يفقد صبره وتشور أعصابه. تعال معي إن شئت، ولكنني أتبهك: إن عليّ أن أرجع إلى البيت لحظة لأخذ شيئاً من المال، ثم أغلق الباب بالمفتاح، ثم أقفز راكباً عربة من العربات لأمضي إلى قضاء السهرة في الجزر. فكيف تستطيع أن تتبعني والحالة هذه؟

– إن عليّ أن أذهب إلى عمارتك أنا أيضاً، لا إلى بيتك أنت، بل إلى بيت صونيا سيميونوفنا، لأعتذر لها عن تخلفي عن حضور الجنازة.

– لك ما تشاء. ولكن صونيا سيميونوفنا ليست في بيتها. فقد ذهبت بالأولاد إلى بيت سيدة عجوز محترمة هي صديقة قديمة لي تدير ملجاً للأيتام. لقد فتنت تلك السيدة بأن دفعتُ لها مبلغاً من المال لصغار كاترينا يفانوفنا الثلاثة، كما وهبت مبلغاً آخر للملجاً الذي تديره. وقد قصصت عليها كذلك قصة صونيا سيميونوفنا بنصها الكامل دون أن أخفي شيئاً. فكان الأثر الذي أحدثته في نفسها هذه القصة أثراً عميقاً لا يوصف. وذلك هو السبب في أن صونيا سيميونوفنا قد دُعيت إلى أن تذهب في هذا اليوم نفسه إلى الفندق الذي نزلته تلك السيدة مؤقتاً حين عادت من إجازتها.

– سأذهب مع ذلك إلى صونيا سيميونوفنا.

– افعل ما تشاء، لكنني لن أصحابك. ما ذهابي إلى هناك؟ ثم هنا نحن قد أوشكنا أن نصل. قل لي: يخيل إلى أنك إنما تنظر إلى نظرة الريبة هذه لأنني كنت مؤدبًا مهذبًا فلم أزعجك بأسئلة كان يمكن أن... أنت تفهمعني! لقد بدا لك ذلك أمراً خارقاً، أليس كذلك؟ فهلا أظهرت أنت أيضاً شيء من الأدب والتهذيب؟!

– وهل كان أدباً وتهذيباً أن تتنصت على الأبواب؟

قال سفدريجايلوف وهو يضحك:

– ها... إذاً ما زلت تتذكر هذا وتفكر فيه! على كل حال، كان سيدهشني أن لا تثير هذا الموضوع حتى الآن! ها ها! ولكن الواقع أنني لم أسمع إلا بضع شذرات من جميع تلك المهازل التي كنت تقصها على صونيا سيميونوفنا... وقد فاتتني خاتمة ذلك كله. قد أكون شخصاً متخلفاً الذكاء محدود العقل عاجزاً عن فهم أي شيء. ولهذا نفسه إنما أناشدك الله يا صديقي أن تشرح لي... أرجوك أن تثير عقلي على هدي مبادئ العصر...

– أنت تكذب! لا يمكن أن تكون قد سمعت شيئاً!

– عجيب! أنا لا أتكلم عن هذا (رغم أنني سمعت بعض الأشياء). لا، إن كل ما أريد أن أقوله هو أنك لا تنفك تشن وتتوزع. إن شيلر الذي يثوي في نفسك يسبب لك اضطراباً في كل لحظة. ثم أنت تريد الآن أن لا يتنصت أحد على الأبواب! فإذا كنت قاسياً إلى هذا الحد، فهلم اعترف للسلطات وقل لها: «لقد ألمت بي مصيبة، لقد وقع خطأ صغير في نظرياتي الفلسفية». أما إذا كنت مقتنعاً بأنه لا يجوز للمرء أن يتنصت على الأبواب، وأنه يجوز له أن يهشم رؤوس العجائز التافهات اللواثي تقع عليهم يده، فما عليك في هذه الحالة إلا أن تبادر فتهاجر إلى مكان ما، إلى أمريكا مثلاً... لا أدرى... وإنما يجب أن تفعل

ذلك بأكبر سرعة. اهرب أيها الفتى ! لعله لم يفت الأوان بعد. إنني أكلمك صادقاً وأخلص لك النصيحة.
ماذا؟ هل يعوزك المال اللازم للسفر؟ سأعطيك ما أنت في حاجة إليه.

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً باشمئزاز:

– لا يخطر هذا بيالي على الإطلاق.

– أفهم ذلك. (بالمناسبة، لا تكلف نفسك عناء الكلام، فآن لك أن لا تقول شيئاً البتة كما تشاء...). إنني
أفهم المسائل التي تدور في رأسك... هي مسائل... من نوع أخلاقي، أليس كذلك؟ أنت تتساءل هل
تصرفت التصرف الذي يليق بإنسان، بمواطن؟ ولكن دع هذه المسائل، انبذها! فيم يمكن أن تفيدك
الآن؟ هي هي لأنك تبقى إنساناً ومواطناً بعد ذلك كله؟... وإلا، ما كان عليك أن ترجم نفسك في
هذا الأمر وأن تشرع في عمل لست قادرًا على المضي فيه إلى النهاية. هيا هشام دماغك! لا تحب ذلك؟

– لكأنك تحاول إحناقي عاماً لأنصرف.

– غريب أمرك! لقد وصلنا، فما عليك إلا أن تكُلّ نفسك عناء صعود السلم! ها هو ذا باب صونيا
سيميونوفنا. انظر. ليس في بيتها أحد. ألا تصدقني؟ أسائل إذن آل كابرناوموف. إنها تركت لهم المفتاح
دائماً. وهذه هي madame كابرناوموفا بنفسها على كل حال. ماذا؟ (إنها صماء قليلاً). هل خرجت
صونيا سيميونوفنا؟ فإلى أين ذهبت؟ ها قد سمعت أنها ليست في بيتها وأنها لن ترجع إلا في ساعة
متاخرة من الليل. تعال إذن معي، إلى بيتي. كنت تريد أن تجبيء إلى فعلاً، أليس كذلك؟ فها نحن في
بيتي! ليست السيدة رسيليخ هنا. إنها لا تنقطع عن الحركة، لكنها امرأة طيبة، أؤكد لك، وفي وسعها أن
تفيدك كثيراً إذا أنت أظهرت شيئاً من التعقل. انظر: ها إنذا آخذ من مكتبي سندًا مالياً (وأنت ترى أنني
أملك سندات كثيرة أخرى)، غير أن السند سيبدل عند هذا المساء نقوداً رنانة. هل رأيت؟ لم يبق لدى

وقت أضيعه. ها أنذا أغلق مكتبي، وأغلق باب الشقة، وها نحن نهبط السلم. هل تريـد أن نركـب عربـة؟ إـنـي ذـاهـب إـلـى الجـزـر كـمـا تـعـلـمـ. هل يـسـرـكـ أنـتـقـومـ بـجـوـلـةـ صـغـيرـةـ بـالـعـرـبـةـ؟ـ انـظـرـ:ـ هـاـنـذـاـ آـخـذـ هـذـهـ العـرـبـةـ،ـ وـأـطـلـبـ مـنـ الـحـوـذـيـ أـنـ يـقـوـدـنـيـ إـلـى جـزـيرـةـ إـيـلـاجـينـ.ـ ماـذـاـ؟ـ أـتـرـفـضـ؟ـ أـنـتـ مـنـهـوـكـ القـوـىـ؟ـ هـيـاـ...ـ لـنـقـمـ بـجـوـلـةـ صـغـيرـةـ مـعـاًـ!ـ أـحـسـبـ أـنـ المـطـرـ سـيـهـطـلـ،ـ وـلـكـنـ لـاـ ضـيـرـ،ـ سـنـرـفـ غـطـاءـ العـرـبـةـ.

كان سفديجايروف قد استقر في العربية. واعتقد راسكولنيكوف، في تلك اللحظة على الأقل، أن شبهاته ليس لها ما يسـوـغـهاـ.ـ فـاستـدارـ دونـ أـنـ يـحـيـبـ بـشـيـءـ،ـ وـسـارـ فيـ اـتـجـاهـ سـوقـ العـلـفـ.ـ وـلـوـ قدـ التـفـتـ إـلـى وـرـاءـ لـرـأـيـ سـفـدـرـيـجـايـلـوـفـ يـنـقـدـ الـحـوـذـيـ أـجـرـهـ بـعـدـ مـائـةـ خـطـوـةـ،ـ وـيـعـودـ يـمـشـيـ عـلـىـ الرـصـيفـ.ـ وـلـكـنـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ لـمـ يـكـنـ قـادـرـاـ عـلـىـ أـنـ يـرـىـ شـيـئـاـ،ـ وـكـانـ قـدـ اـنـعـطـفـ يـقـطـعـ نـاـصـيـةـ الشـارـعـ.ـ إـنـ اـشـمـئـزاـًـ شـدـيـداـًـ كـانـ يـدـفـعـهـ بـعـيـداـًـ عـنـ سـفـدـرـيـجـايـلـوـفـ.ـ هـاتـفـ يـتـسـأـلـ رـغـمـ إـرـادـتـهـ:ـ «ـكـيـفـ أـمـكـنـتـيـ،ـ وـلـوـ خـلـالـ لـحظـةـ قـصـيـرـةـ،ـ أـنـ اـنـتـظـرـ شـيـئـاـ مـنـ هـذـاـ إـلـيـانـ الدـنـيـءـ الـحـقـيرـ!ـ مـنـ هـذـاـ الـوـغـدـ السـافـلـ الـمـنـحـطـ!ـ»ـ.ـ وـلـكـنـ الـحـقـيـقـةـ هـيـ أـنـ حـكـمـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ عـلـىـ سـفـدـرـيـجـايـلـوـفـ كـانـ فـيـهـ شـيـءـ مـنـ تـشـعـ وـتـعـجـلـ.ـ وـمـهـمـاـ يـكـنـ مـنـ أـمـرـ فـإـنـ الـجـوـ الـذـيـ خـلـقـهـ سـفـدـرـيـجـايـلـوـفـ كـانـ يـضـفـيـ عـلـىـ سـفـدـرـيـجـايـلـوـفـ شـيـئـاـ مـنـ شـذـوـذـ،ـ بـلـ وـيـحـيـطـهـ بـشـيـءـ مـنـ السـرـ.ـ أـمـاـ أـخـتـهـ فـظـلـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ مـقـنـعـاـ بـأـنـ سـفـدـرـيـجـايـلـوـفـ لـنـ يـدـعـهـاـ فـيـ سـلـامـ.ـ وـلـكـنـ التـفـكـيرـ وـإـعـادـةـ التـفـكـيرـ فـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ كـانـاـ قـدـ أـصـبـحـاـ يـشـقـانـ كـثـيـراـًـ عـلـىـ نـفـسـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ.

فـلـمـاـ أـصـبـحـ وـحـيـداـًـ لـمـ يـلـبـثـ بـعـدـ عـشـرـينـ خـطـوـةـ أـنـ اـسـتـرـسـلـ فـيـ أـحـلـامـ عـمـيقـةـ عـلـىـ عـادـتـهـ.ـ حـتـىـ إـذـاـ وـصـلـ إـلـىـ جـسـرـ تـوـقـفـ قـرـبـ إـلـفـرـيـزـ وـأـخـذـ يـتـأـمـلـ الـمـاءـ،ـ بـيـنـماـ كـانـتـ آـفـدـوـتـيـاـ رـوـمـانـوـفـنـاـ تـتـأـمـلـهـ هـوـ.ـ كـانـ قـدـ مـرـ بـهـاـ عـنـ أـوـلـ جـسـرـ تـمـامـاـًـ،ـ وـلـكـنـ دـوـنـ أـنـ يـلـاحـظـهـاـ.ـ وـهـذـهـ أـوـلـ مـرـةـ تـلـتـقـيـ فـيـهـاـ دـوـنـيـاـ بـأـخـيـهـاـ فـيـ الشـارـعـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ،ـ وـقـدـ اـنـقـبـضـ صـدـرـهـاـ رـعـباـًـ وـذـعـراـًـ حـيـنـ رـأـتـهـ،ـ وـتـوـقـفـتـ لـاـ تـدـرـيـ أـتـنـادـيـهـ أـمـ لـاـ.ـ ثـمـ لـمـ تـلـبـثـ أـنـ لـمـحـتـ سـفـدـرـيـجـايـلـوـفـ عـلـىـ حـيـنـ فـجـأـةـ،ـ مـتـجـهـاـ نـحـوـ سـوقـ العـلـفـ بـخـطـىـ سـرـيـعـةـ،ـ وـكـانـهـ يـسـيرـ مـحـاذـرـاـ

متخفياً؛ ولم يدخل الجسر، بل توقف على الرصيف، متنحياً بعض التنجي، حتى لا يراه راسكولنيكوف. كان قد لاحظ دونيا منذ برهة طويلة، وهو يحرك لها يديه بإشارات، فهمت دونيا منها أنه يحضرها على أن لا تنادي أخاها، وأن تتركه وشأنه، وأن تلحق به هو.

وذلك ما فعلته دونيا: فها هي ذا تتجاوز أخاها، دون أن تقول كلمة، وها هي تقترب من سفديجاييف.

دمدم سفديجاييف قائلاً لها:

– تعالى بسرعة! لا أريد أن يعلم رواديون رومانوفتش بموعدنا. اعلمي أنني خارج من حانة قرية وافاني فيها ثم لم أعرف كيف أتخلص منه إلا بكثير من المشقة والعناء! لا أدرى كيف سمع بأمر الرسالة التي بعثت بها إليك، وهو الآن يشتبه في أن هناك شيئاً ما. أرجو أن لا تكوني أنت التي بحث له ببعض الأسرار. ولكن إذا لم تكوني أنت، فمن عسى يكون؟..

قاطعته دونيا تقول:

– لقد انعطفنا وقطعنا ناصية الشارع، فأصبح أخي لا يستطيع أن يرانا. لن أتبعك إلى أبعد من هذا المكان. فقل لي كل شيء هنا. إننا نستطيع أن نتكلّم في الشارع.

– أولاً: لا يمكن أن يقال هذا في عرض الشارع. ثانياً: ينبغي أن تسمعي أيضاً صونيا سيميونوفنا. ثالثاً: هناك وثائق يجب أن أظهرك عليها. أخيراً: إذا كنت ترفضين أن تجيئي إلى بيتي فسوف أمتنع عن كل شرح، وسوف أنصرف فوراً. هذا وأرجوك أن لا تنسى أن سراً شاقاً جداً، متعلقاً بأخيك الحبيب، يوجد بين يدي.

توقفت دونيا متربدة، ورشرقت سفديجاييف بنظرة نافذة، فسألها سفديجاييف هادئاً:

– مم تخافين؟ ليست المدينة كالريف. ثم إنك في الريف قد أساءت إلى أكثر مما أساءت إليك. لذلك...

– هل أطلعت صونيا سيميونوفنا؟

– لا، لم أقل لها كلمة واحدة، حتى إنني لست واثقاً كل الثقة بأنها الآن في بيتها. ولكن أغلب الظن أنها هناك. لقد دفنت اليوم قريبتها، فما هذا يوم زيارات تقوم بها. على كل حال، لن أحدث أحداً في هذا الأمر الآن، حتى ليؤسفني أنني أطلعتك عليه، فإن أقل طيش يساوي هنا وشایة. انظري: هذا هو المنزل الذي أقطن فيه، أمامنا. والباب يعرفني جيداً. ها هو يحييني كما ترين. إنه يلاحظ أن معه سيدة. وطبعي أن صورة وجهك قد نقشت الآن في ذاكرته. وينبغي لهذا أن يطمئنك إذا كنت تخافين مني وتشكين فيّ. أغفر لي هذه الفظاظة في مخاطبتك. أنا هنا مستأجر عن مستأجرين، وليس يفصلني عن صونيا سيميونوفنا إلا حائط، فهي أيضاً مستأجرة عند مستأجرين. الطابق كله مسكون، فممّ خوفك؟

ألا إن هذا الخوف خوف طفلة صغيرة! أنا مخيف إلى هذه الدرجة؟

قال سفديجايروف ذلك وهو يصطمع ابتسامة أراد لها أن تعبّر عن الطيبة والسماحة، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب حداً لا يستطيع معه أن يحسن التمثيل. كان قلبه يخفق خفاناً قوياً، وكانت أنفاسه مختنقة. وكان يتعمد أن يتكلّم بصوت قوي ليخفّي اضطرابه المتزايد، ولكن دونيا لم تلاحظ هذا الاضطراب. لقد ساءها كثيراً ما قاله عن خوفها الذي يشبه خوف الأطفال وعن هيئته المخيفة في نظرها.

قالت بلهجة ظاهرها هادئ، وكان وجهها شاحباً شحوباً شديداً:

– رغم أنني أعدك رجالاً لا شرف له... فإني لا أخاف منك البتة. تقدّمني!

توقف سفديجايروف أمام باب صونيا.

– اسمحي لي أن أسأل هل هي في بيتها. لا، ليست في بيتها، يا لسوء الحظ! لكتني أعلم أنها قد تعود بين لحظة ولحظة. لئن تغيبت، فما ذلك إلا لأنها ذهبت تزور سيدة لتبث معها أمر الأيتام الذين ماتوا منهم. وكنت أنا أساعدهم أيضاً. فإذا لم ترجع خلال عشر دقائق فسوف أرسلها إليك في هذا اليوم إن رغبت في ذلك. هذا مسكنى، وهاتان الحجرتان اللتان أحتلهم. وراء هذا الحاجز تسكن صاحبة البيت السيدة ريسليخ. والآن أنظري هنا، سوف أظهرك على وثائقى الأساسية. من غرفة نومي يفضي هنا الباب الذي ترين إلى غرفتين خاليتين كل الخلو، معدّتين للتأجير. انظري... يجب أن تنتبهي إليهما أكثر الانتباه.

كان سفديجاييف يشغل غرفتين مؤثثتين واسعتين. أجالت دونيا بصرها فيما حولها مرتبة، لكنها لم تلاحظ شيئاً يلفت النظر، لا في أثاث الغرفتين ولا في ترتيبهما، رغم أنها كان يمكن أن تنتبه إلى أن شقة سفديجاييف تقع بين بيتين غير مسكونين تقريرياً، يصل الماء إليها لا من الممر رأساً، بل باجتياز غرفتين خاليتين تقريرياً لصاحبة البيت. وفتح سفديجاييف باباً مقفلأً بالفتح، يقع في آخر غرفة نومه، فأرى دونيا المسكن الخالي المعد للتأجير.

وقفت دونيا عند العتبة لا تدرى لماذا يدعوها سفديجاييف إلى أن تنظر، ولكن سفديجاييف أسرع يمدّها بالشرح فقال لها:

– انظري هنا، إلى هذه الغرفة الكبيرة الثانية. لاحظي هذا الباب. إنه مغلق بالفتح. وقرب هذا الباب يوجد كرسي. إنه الكرسي الوحيد الذي يمكن العثور عليه في هاتين الغرفتين. أنا الذي جئت به إلى هنا لأحسن التنصت بغير عناء ولا تعب. ووراء هذا الباب مباشرة، توجد مائدة صونيا سيميونوفنا. لقد كانت جالسة إلى هذه المائدة تتحدث مع روديون رومانوفتش. فمن موضع جلوسي على هذا الكرسي،

في هذا المكان نفسه، ظللت أنا أتنصّت إلى حديثهما مساعين متتاليين، خلال ساعتين في كل مرة. فعرفت بعض الأمور طبعاً. ما رأيك؟

– تتنصّت على الباب؟

– نعم، أتنصّت على الباب. والآن فلنذهب إلى غرفتي. هنا لا نستطيع أن نجلس.

قال سفدريجايلوف هذا وقاد آفدوتيا رومانوفنا إلى الغرفة الأولى التي يتخذها صالوناً، ودعاهما إلى الجلوس. وجلس هو إلى الطرف الآخر من المائدة، ولكن عينيه كانتا تستطعان بذلك اللهيب نفسه الذي كان قد رُوع دونيا تروعياً شديداً في ذات يوم. ارتعشت دونيا؛ ومرة أخرى نظرت فيها حولها مرتابة. كانت لا ت يريد أن تظهر ارتياها، غير أن حالة العزلة في شقة سفدريجايلوف أثارت دهشتها وقلقها أخيراً، فأرادت أن تسؤاله هل صاحبة الدار موجودة في الدار على الأقل، ولكن كبراءتها صدّتها عن هذا السؤال. وكان قلبها على كل حال يعاني ألمًا أشد كثيراً من كل ألم يمكن أن تعانيه في سبيل نفسها. وكان هذا الألم يعذبها عذاباً شديداً.

بدأت تتكلم فقالت وهي تضع رسالتها على المائدة:

– هذه رسالتك. هل ما أوردته فيها ممكن؟ إنك تلمح إلى جريمة ارتكبها أخي. لا تحاول أن تتهرب وأن تتملص الآن. إن إلماحك أوضح من أن تنكره. واعلم أنني حتى قبل أن ألتلقى رسالتك كنت سمعت عن هذه الحكاية الدنئية التي لا أصدق منها حرفاً واحداً. إن افتراضاً كهذا الافتراض منحط وسخيف في آن واحد. إنني أعلم كيف ولماذا الفقت هذه الخرافة. لا تستطيع أن تقدم أي برهان على... لقد وعدتني أن تبرهن: فتكلّم إذن! ولكن عليك أن تعلم سلفاً أنني لن أصدقك. لا، لن أصدقك!

قالت دونيا هذه الكلمات متدافعه، واحمر وجهها أحمراراً شديداً من فرط الانفعال في لحظة.

قال سفدر يجايروف:

– ولكن إذا كنت لا تصدقيني فلماذا جئت إلى بيتي وحيدة؟ نعم، لماذا جئت إلى بيتي؟ هل بداع
الفضول وحده؟

– لا تعذبني! تكلم! تكلم!

– لا شك في أنك فتاة شجاعة. لقد ظننت أنك ستطلين من السيد رازوميixin أن يصحبك إلى هنا.
لكنه لم يظهر لا معك، ولا حولك. لقد نظرت مليأً فلم أره. هذه شجاعة منك. أنت تريدين إذن أن
تنقذني أخاك روبيون رومانوفتش! على كل حال، فإن كل ما فيك عظيم، رائع!... أما أخوك، فهذا أقول
لنك عنه؟ لقد رأيته بنفسك، فما رأيك في حالته؟

– أرجو أن لا تكون حالته هذه هي الأساس الذي بنيت عليك اتهامك إياه!

– لا، لا، لم أبن اتهامي على حالته فحسب، بل على أقواله أيضاً. على كل حال، لقد جاء إلى صونيا
سيميونوفنا مساعين متاليين، فجلسا في المكان الذي أريتك إياه. وهناك اعترف لها بكل شيء، اعترافاً
تاماً. إنه قاتل. قتل العجوز المراية التي كان قد رهن عندها أشياء، وقتل أختها المتاجرة التي تسمى
الإيزافيتا والتي دخلت مصادفة بينما كان يقتل العجوز. قتلها كلتيهما بفأس جاء بها لإنفاذ جريمته. قتلها
ليسرق، وقد سرق. أخذ مالاً، وأخذ أشياء!... أنا إنما أروي لك ما رواه هو نفسه، كلمة كلمة، لصونيا
سيميونوفنا التي تعرف وحدها السر والتي لم تشارك في جريمة القتل أية مشاركة، لا بالقول ولا بالفعل،
حتى لقد روتها هذه القصة كما تروعك أنت الآن. لا تخافي! لن تشي به!

تمت دونيا تقول وقد ابكيت شفاتها، واحتنق صدرها:

– هذا مستحيل! مستحيل! ليس هناك أى سبب يدفعه إلى ذلك! ليس هناك أى باعث يحشه على ذلك!... هذا كذب! كذب فظيع!...

– لقد سرق. هذا هو الدافع الوحيد. أخذ مالاً وأشياء. صحيح أنه، كما قال، لم ينتفع بذلك المال ولا بتلك الأشياء، بل مضى يخبيء كل شيء تحت صخرة ما تزال تدفن تحتها المال والأشياء جميعاً. ولكن السبب في ذلك هو أنه لم يجرؤ...

صاحت دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها واثبة:

– ولكن هل يعقل أن يكون قد سرق؟ هل يمكن أن يكون قد راودته هذه الفكرة حقاً؟ إنك تعرفه، إنك رأيته، فهل يمكن أن يكون لصاً سارقاً؟

لأنها كانت تتضرع إلى سفديجايروف. كان يبدو أنها نسيت خوفها وذعرها.

– هناك يا آفدوبيا رومانوفنا ألف و ملائين من أصناف السارقين: ربّ رجل يسرق وهو يدرك في قراره نفسه أنه يرتكب عملاً سيئاً. وقد سمعت مرة عن رجل نبيل المحتد كريم النفس أنه سلب عربة بريد، فمن يدرى؟ لعله حين فعل ذلك كان يظن أنه يقوم بعمل محمود؟ لو كنت في مكانك لدهشت دهشتك هذه نفسها، ولو روى لي هذه القصة شخص آخر لما صدقته. ولكنني لا أستطيع أن أكذب أذني. إن أخالك قد بسط لصونيا سيميونوفنا كافة الدوافع الذي حضرته على ارتكاب فعلته، فأبانت هي نفسها أول الأمر أن تصدق، ولكنها ما تملك أخيراً إلا أن تصدق، حين رأت هيئته... فهناك الآذان، وهناك الأعين أيضاً. روى لها هذه القصة، هو نفسه.

– وما هي تلك الدوافع؟

– تلك حكاية طويلة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا. كيف أشرح لك؟ لقد اعتمد على نظريته تلك المعروفة، كما أعتمد عليها أنا أيضاً، التي تجيز الجريمة على شرط أن تكون تلك الجريمة ذات هدف عادل نبيل...

فعلة شر واحدة في مقابل مائة فعل من أفعال الخير! فعلة شر واحدة ووحيدة... وبعدها مئة فعل من أفعال الخير! ثم... أليس يشق على نفس فتى موهوب جداً، زاخر بكبراء لا حدود لها، أن يحس أنه لو ملك ثلاثة آلاف روبل فقط لتغير مستقبله كله، وأن لا يستطيع الحصول على ذلك المبلغ؟ أضيفي إلى ذلك حالة الحنق المرضي الناشئ عن جوعه المزمن، وعن سكتاه في حجرة ضيق مسافة في الضيق، وعن ارتدائه أسماءً بالية وخرقاً ممزقة، وعن شعوره بكل ما في وضعه الاجتماعي من بؤس وشقاء، بالإضافة إلى وضع أمه وأخته. وهناك، فوق ذلك كله، الطموح، والأنفة، والغرور، ولكن ربما كانت له عواطف طيبة أيضاً... الله أعلم! صدقني أني لا أتهمه. ثم إن اتهامه ليس شأني أنا. وهناك أيضاً نظرية الصغيرة تلك – هي نظرية كأية نظرية أخرى – تلك التي تذهب إلى أن الإنسانية تنقسم إلى فتتین، فئة الأفراد الموات وفئة الأفراد الأفذاذ الخارجين أي الأفراد الذين يجيز لهم مستواهم العقلي أن لا يصدّهم أي قانون من القوانين، فهم الذين يفرضون القوانين على غيرهم، أي على أولئك الذين تتألف منهم فئة الأفراد الموات، الذين يتتألف منهم القطيع، الذين هم الغبار! نظرية لطيفة une theorie comme une autre،^{٧٩} أليس كذلك؟ لقد فتنه نابليون كثيراً، أو قولي إنه انقاد لإغراء ذلك الرأي الذي يرى أن العاقرة لا يكترون لحالات الظلم الفردية، بل يتخطونها فلا يربكون بأمور هينة يسيرة. ولقد تخيل، فيما يبدو، أنه هو نفسه عبقرى؛ أو قولي على الأقل إنه كان مقتنعاً بهذا خلال مدة من الزمن. وقد تعذب كثيراً كذلك، وما يزال يتعذب، فهو يدرك الآن أنه إن أستطاع أن يضع نظرية، فلقد عجز عن التخطي،

^{٧٩} كأية نظرية أخرى. (بالفرنسية في الأصل).

عن المضي قدماً بلا تردد؛ أي لقد أدرك أنه ليس عقريًّا. وهذا الإدراك أمر يشعر منه الفتى، إذ كانت نفسه زاخرة بالكبرياء، يشعر منه بمنزلة كبيرة وإهانة عظيمة، ولا سيما في عصرنا هذا...

– وعذاب الضمير؟ أأنت تنكر عليه إذاً أي حسٌ أخلاقي؟ أهو... حقًا... كما تصف؟

– آه يا آفدوتيا رومانوفنا! إن كل شيء قد اضطرب الآن واحتل... ناهيك عن أن النظام الكامل لم يوجد في هذا العالم يومًا. ثم إن الروس على وجه العموم أصحاب نفوس واسعة رحيبة كأراضيهم، وهم ميالون كثيراً إلى الخيال والنزوة والفووضى. ولكن النفس الواسعة الرحيبة تكون خطرة إذا لم يوهد لها شيء من عقرية. تذكرى مناقشاتنا القديمة في هذا الموضوع، بعد العشاء، هناك، في الشرفة المطلة على الحديقة.. لقد كنت تعيبين عليّ سعة النظر هذه منذ ذلك الأوان. من يدرى مع هذا؟ لعله، حينما كنا نحن نتكلّم، كان هو مستلقيا على فراشه يجتر مشروعه. إن مجتمعنا المثقف لا يلمع بتقاليده يا آفدوتيا رومانوفنا. بعض الناس يصنعون لأنفسهم تقليداً من التقاليد كيما اتفق، من كتب قرؤوها، وبعضهم يستمدون أصياغ تقليل من بعض حكايات الماضي. ولكن هذا إنما يصدق على العلماء، وأكثرهم يبلغ من الحقيقة أن رجالاً من رجال المجتمع الراقي ينجذل من افتقاء أثراً لهم واتخاذهم قدوة له. على أنك تعرفين آرائي: أنا لا ألوم أحداً. كل ما هنالك أنني أتحاشى أن أقحم نفسي في شيء. لقد سبق أن تحدثنا في هذا مراراً. حتى أن آرائي قد شرفها أن حظيت باهتمامك... إنك شاحبة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا.

– أنا أعرف نظرية أخي هذه. قرأت في مجلة من المجالات مقالته عن الرجال الذين يباح لهم كل شيء. إن رازوميixin هو الذي جاءني بتلك المجلة.

– السيد رازوميixin؟ مقالة أخيك؟ ولكنني كنت أجهل وجود كهذه المقالة. لا بد أنها شائقة جداً!... إلى أين أنت ذاهبة يا آفدوتيا رومانوفنا؟

– أريد أن أرى صونيا سيميونوفنا. من أين يجب المرور للذهاب إليها؟ لعلها عادت! أريد أن أراها على الفور حتماً. يجب أن...

لم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تتم كلامها، فقد انقطع تنفسها فعلاً.

– لن تعود صونيا سيميونوفنا قبل هبوط الليل. هذا ما افترضه على الأقل. كان يجب أن تعود في وقت مبكر جداً، وإذا لم تعد، فستأتي في وقت متأخر جداً...

– آه... الآن أرى أنك تكذب! أنت لم تزد على أن كذبت! إنني لا أصدق كلمة واحدة مما ذكرت... لا أصدق، لا أصدق!

بهذا صاحت دونيا وقد خرجت عن طورها وفقدت صوابها.

ثم تهالكت على كرسي أسرع يقدمه إليها سفديجاييف و قد أوشكت أن تسقط مغشياً عليها.

– ماذا بك يا آفدوتيا رومانوفنا؟ عودي إلى نفسك! إليك ماء! اشربي جرعة!

قال سفديجاييف لها ذلك، ورثّ وجهها بالماء، فارتعدت وأفاقت.

فدمدم يقول بينه وبين نفسه مقطّب الوجه:

– ما أبلغ تأثير هذا الأمر في نفسها.

ثم قال لها:

– هدئي روحك يا آفدوتيا رومانوفنا! أعلمي أن له أصدقاء. سوف نخرجه من المأزق! هل تريدين أن أساعده على أن يجتاز الحدود؟ إنني أملك مالاً. وبعد ثلاثة أيام سأكون قد استخرجت

له جواز سفر. لقد قتل، نعم، ولكن هدئي نفسك. ما يزال في وقته متسع لأن يقوم بأعمال خيرّة كثيرة.
ما يزال يستطيع أن يصبح رجلاً عظيماً. ما بك؟ ألا تشعرين الآن بتحسن؟

– رجل شرير... ما يزال يستطيع أن يسخر ويستهزئ! دعني...

– إلى أين أنت ذاهبة؟ إلى أين؟

– إليه! أين هو؟ هل تعلم أين هو؟ لماذا هذا الباب مغلق؟ من هذا الباب دخلنا، فما لي أراه الآن مغلقاً
بالملتح؟ متى أتيح لك أن تقوله؟

– لم يكن في الإمكان أن نسمع جميع الغرف ما قلناه هنا! وأنا لا أسخر ولا أستهزئ البتة، غير أنني
سئمت من الحديث بمثل هذه اللهجة. غريب! إلى أين تريدين أن تذهبين وأنت مهتاجة مضطربة؟ أتراءك
تريدين أن تزجي في السجن؟ لو ذهبت إليه لاشتعل غضباً وحنقاً، ولضي يشي بنفسه! أعلمي أنه مراقب
منذ الآن، وأنهم يتبعونه. لسوف تكشفين أمره مزيداً من الكشف! انتظري... لقد رأيته منذ قليل
وكلمته. ما يزال في الإمكان إنقاذه. انتظري. اجليسي. ستفكر معاً. من أجل هذا إنما دعوتك، من أجل
أن نتحدث في خلوة وأن نتعمق في درس المشكلة. ولكن هلا جلست!

– بأي طريقة تستطيع أن تنقذه؟ وهل يمكن إنقاذه؟

قالت دونيا ذلك وجلست، فجلس سفدريجايلوف إلى جانبها، وبدأ يتكلّم فحال وقد اشتعلت عيناه،
قال بما يشبه الدمدمه وهو لا يكاد يستطيع أن ينطق بالكلمات بسبب الانفعال:

– كل شيء متوقف عليك... عليك وحدك...

فتراجعت دونيا ب几步 خطوات، مذعورة مرتخفة. وكان سفديجاييف يرتجف هو أيضاً من قمة الرأس إلى أخمص القدمين.

– أنت... كلمة منك أنت وينقذ! أنا... أنا سوف أنقذه! عندي مال، ولي أصدقاء! سأرحله فوراً، وسأحصل أنا نفسي على جواز سفر... سأحصل على جواز سفر، واحد له واحد لي. لي أصدقاء... رجال قانون... هل تريدين؟ وسأحصل أيضاً على جواز سفر لك أنت، ولا مك... ما حاجتك إلى رازوميixin؟ أني أحبك مثلما يحبك. أحبك حباً لا نهاية له. دعيني أقبل حافة ثوبك! دعيني أفعل هذا، دعيني!... أصبحت لا أطيق سماع حفيظ ثوبك! مريني بما يجب أن أفعل فأفعل. سأفعل كل شيء، سأفعل المستحيل! سوف أؤمن بكل ما تؤمنين به أنت! أفعل كل شيء، كل شيء! لا تنظري إلى هكذا، لا تنظري إلى هكذا! هل تعلمين أنك تقتليني...

أخذ سفديجاييف يهدي. إن شيئاً ما قد مسّه فجأة، كأنه تلقى ضربة على رأسه. ونهضت دونيا بوثبة. واندفعت نحو الباب، وصاحت تقول وهي تهز الباب بكلتا يديها:

– افتحوا! افتحوا! ألا فتحتم الباب؟ هل يمكن أن لا يكون ثمة أحد؟

كان سفديجاييف قد جلس، وها هو ذا يثوب إلى رشده، وقد أملت ابتسامة خبيثة ساخرة بشفتيه اللتين كانتا ما تزالان ترتعشان.

قال بصوت خافت متقطع:

– ليس ثمة أحد. صاحبة الدار خرجت. تضيعين وقتك سدى بهذا الصراخ. تشيرين أعصابك في غير طائل.

– أين المفتاح؟ افتح الباب! افتح الباب فوراً! فوراً! يا لك من نذل حقير!

– أضعت المفتاح، ولا أثر عليه!

صاحت دونيا تقول وقد اصفر وجهها حتى لكانها ميّة:

– آآ... هذا اغتصاب إِذَا!

وهرعت إلى ركن من الغرفة، وأسرعت تتحصن فيه وراء منضدة صغيرة كانت في متناولها.

أصبحت الآن لا تصيح، لكنها كانت مثبتة بصرها في عدوها ترصد بنظرة يقطة أيس حركة من حركاته. وقد أصبح سفديريجاييلوف لا يتحرك هو أيضاً، ولبث واقفاً أمامها في الطرف الآخر من الغرفة. كان قد استطاع أن يسيطر على نفسه، في الظاهر على الأقل. لكن وجهه ظل أصفر كما كان قبل ذلك، وما تزال ابتسامته الساخرة مرسمة على شفتيه. وقال أخيراً:

– لقد نطقت أنت بكلمة «الاغتصاب» يا آفدوتيا رومانوفنا. ولكن إذا كان في نيتني أن أغتصبك، فلا بد أنني اخترت احتياطاتي كما تقدرين. إن صونيا سيميونوفنا ليست في بيتها. ولكي تصلي إلى أسرة كابرناوموف، يجب أن تجتازي خمس غرف، هي الآن جميعاً مغلقة بالمفتاح. ثم إنني أقوى منك مرتين على الأقل، هذا عدا أنني لست أخشى على شيء البتة، فلن يكون في وسعك أن تذهبني لتشتكيني. لن تريدي أن تفضحي أخاك، أليس هذا صحيحاً؟ ثم إن أحداً لن يصدقك على كل حال، فلماذا تذهب فتاة منفردة إلى بيت رجل وحيد؟ فحتى لو ارتضيت أن تضحي بأخيك، فلن تستطعي أن تبرهنني على شيء. نعم، إنه لمن الصعب جداً أن تثبتني أن «اغتصاباً» قد حدث يا آفدوتيا رومانوفنا.

دمدمت دونيا تقول حانقة:

– وغدا

– قولي ما تشاءين، ولكن لاحظي أنني لم أقدم إلا افتراضات. وأنا شخصياً أواافقك في رأيك كل المواقف: إن الاعتصاب دناءة وحطة. لكنني أردت أن أفهمك أن ضميرك لن يعذبك أى تعذيب إذا... إذا أنت ارتضيت، بمحض إرادتك، أن تنقذني أخاك، كما أقترح عليك. فإنما أنت تخضعين عندئذ للظروف، أو تخضعين للقوة إذا لم يكن بد من استعمال هذه الكلمة. فكري: إن مصير أخيك ومصير أمك بين يديك. أما أنا فسأظل عبده المطيع... ما حييت... وسأظل أنتظرك هنا..

جلس سفديجاييف على الأريكة، على مسافة ثماني خطوات من دونيا. لكن دونيا أصبحت لا يساورها أي شك في أن ما عقد العزم عليه ثابت لا يتزعزع. لقد كانت تعرفه حق المعرفة.

فها هي ذي تسل من جيبيها مسدساً على حين فجأة، فتشد الزناد بسرعة، وتضع يدها على المنضدة دون أن ترخي المسدس، فيتنفس سفديجاييف وينهض عن مجلسه، ويصبح مدھوشًا، وهو يضحك مع ذلك ضحكاً ساخراً شريراً:

– آ... هكذا إذا؟ لا، لا، إن هذا يغير الموقف تغييرًا تاماً، ويقلبه رأساً على عقب. أنت بهذا تيسرين على الأمور كثيراً يا آفدوتيا رومانوفنا! ولكن أين وجدت هذا المسدس؟ هل السيد رازوميixin هو الذي... ولكن... عجيب... هذا مسدسي أنا! لطالما بحثت عنه! إن دروس الرماية التي تشرفت بإعطائك إياها في الريف لم تذهب إذن سدى!

– ليس هذا مسدسك أنت أيها الوغد، بل مسدس مارفا بتروفنا التي قتلتها! لا شيء في منزلاها كان ملكك أنت! لقد أخذت المسدس حين أخذت أشتبه في نياتك وأدرك سفالتك. يميناً لو تجرأت فتقدمت خطوة واحدة لقتلتاك فوراً!

كانت دونيا خارجة عن طورها فاقدةً صوابها، وهي ممسكة بالمسدس متأهبة لإطلاق الرصاص.

قال سفدريجايلوف وهو ما يزال واقفاً في مكانه:

– وأخوك؟ إنما ألقى عليك هذا السؤال من باب الفضول لا أكثر!

– أخي؟ أبلغ عنه السلطات إن شئت! لا تتحرك، وإلا أطلقت الرصاص. لقد دسست لزوجتك السم في الطعام، أنا أعرف ذلك، أنت نفسك قاتل!

– هل أنت على يقين من أنني دسست السم لمارفا بتروفنا؟

– نعم، أنت! حتى لقد ألمحت إلى هذا السم أمامي. وإنني لأعلم أنك إنما سافرت لتجيء به... هيأت كل شيء... أنت القاتل!... لا يمكن أن يكون القاتل أحداً غيرك أخيها الشقي!

– حتى إذا صح هذا، فإنك تكونين أنت السبب.

– كاذب! أنا أبغضتك دائمًا، دائمًا!

– مهلاً مهلاً يا آفدوتيا رومانوفنا... أرى أنك نسيت كيف كنت، أثناء تمثيلك دور الواعظ، تمثيلين على متلهمة النظرات. لقد قرأت شيئاً في عينيك... هل نسيت؟... ذلك المساء... والقمر... وأغنية العندليب؟...

– كاذب! كاذب! مفترٍ نهام!

قال سفدريجايلوف:

– كاذب... لنسلم بأنني كاذب! على كل حال، ما ينبغي للمرء أن يذكر النساء بمثل هذه التفاصيل الصغيرة...

وابتسما، ثم أردف قائلاً:

– أنا أعلم أنك ستطلقين النار أيتها المتوحشة الصغيرة... فهذا تنتظرين؟ أطلقني!

شهرت دونيا مسدسها على سفدريجايلوف وقد اصفر لون وجهها حتى لكانه وجه ميت، وايضاً شفتها السفلية وأخذت تخلج اختلاجاً قوياً. كانت تنظر إليه بعينيها السوداويتين الواسعتين اللتين ترشقان شرراً، وقد عزمت أمرها فهي ترصد أيسير حركات الرجل.

لم يرها جميلة هذا الجمال كله في يوم من الأيام. إن اللهب الذي كان ينبع من عيني الفتاة حين شهرت عليه المسدس قد أحرقه إحرقاً. وتشنج قلبه أملأ.

وتقديم سفدريجايلوف خطوة، فانطلقت الرصاصة، فلامست شعره ومضت تضرب الحائط وراءه. فتوقف، وأخذ يضحك في رفق وهدوء.

– وخزتني النحلة! إنها تسدد إلى الرأس... ما هذا؟ دم؟

وأخرج منديله ليمسح خيطاً دقيقاً من دم كان يسيل على صدغه الأيسر: لعل الرصاصة قد خدشت جلد رأسه.

خفضت دونيا المسدس ونظرت إلى سفدريجايلوف. إن نظرتها لا تعبّر عن الذعر بقدر ما تعبّر عن الانشداد. لكانها لم تدرك ماذا فعلت ولا ماذا حدث!

قال سفدريجايلوف بصوت خافت، مع ابتسامة عابسة:

– طاشت الضربة. هلاً أطلقت مرة أخرى! إني انتظر! وإلا كان في وقتي متسع لأن أقبض عليك قبل أن تشدي الزناد مرة أخرى.

ارتعشت دونيا، وأسرعت تحشو المسدس برصاصة ثانية، وشهرته على سفدريجايلوف من جديد. وقالت

يائسة:

– دعني ! يميناً لأطلقن مرة أخرى إذا لم تتركني ! يميناً...

– وبعد ذلك؟ صحيح أنه يستحيل أن تطيش الضربة من على بعد ثلاث خطوات... ولكن ماذا لو أخطأتني مرة ثانية، ما عساك فاعلة حينذاك؟....

قال ذلك وسطعت عيناه، وتقدم خطوتين أخرين فضغطت دونيا على الزناد، ولكن الطلقة لم تخرج

– لم تحسني حشو المسدس! لا بأس! ما يزال عندك رصاصة. أحكمي وضعها! سوف انتظر.

كان واقفاً أمامها على بعد خطوتين منها يتظاهر، وينظر إليها بعينين يتوجه فيها هيب ثقيل شهوانى، وتعبران عن عزيمة وحشية وتصميم جنونى.

أدركت دونيا أنه يؤثر أن يموت على أن يدعها تصرف. «طيب، طيب، في هذه المرة، وهو منها على بعد خطوتين فقط، ستقتله فعلاً». بهذا حدثت دونيا نفسها، ولكنها هي ذي ترمي المسدس فجأة.

قال سفدريجايلوف مدهوشًا وقد استرد أنفاسه:

– رميته؟

وأحس كأن قلبه قد تخلص فجأة من حمل كبير ثقيل، حمل ليس مردّه إلى ما عاناه من قلق الشعور بخطر الموت فحسب، فضلاً عن أن ذلك الشعور كان قد زايله منذ برهة، وإنما هو أحس أنه تخلص من شيء آخر، من شعور أشد إيلاماً وأحلك ظلاماً، شعور لا يستطيع هو نفسه أن يحدد.

واقترب من دونيا، وضم إليه قامتها في رفق وهدوء، فلم تقاوم، ولكنها نظرت إليه بعيني ضارعتين وهي ترتعش كورقة في مهب الريح. ودّ لو يقول شيئاً ولكن شفتيه تقلصتا، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة.

قالت له متولدة بصيغة المخاطب المفرد:

– اتركني!

فاختلط سفدريجايلوف. إن استعمالها لصيغة المخاطب المفرد تختلف لجتها الآن عن لجة استعمالها لهذه الصيغة منذ قليل.

سألهما بصوت خافت:

– أأنت لا تحببني إذاً؟

فحرّكت دونيا رأسها بإشارة النفي. فهمس يسألهما يائساً:

– ولن... تستطعي... أن تحببني في يوم من الأيام؟

فأجابته هامسة:

– لا، لن أستطيع ذلك في يوم من الأيام!

نشبت في نفس سفدريجايلوف، خلال لحظة من الزمن، معركة خرساء رهيبة. كان يتأمل دونيا بنظرة لا سبييل إلى وصفها. وفجأة سحب يده، واستدار، وأسرع يبتعد نحو النافذة، ولبث هنالك جاماً لا يتحرك.

انقضت برهة أخرى.

وها هو ذا يخرج مفتاح الباب من جيب معطفه الأيسر، فيضنه على المنضدة وراءه دون أن يلتفت نحو دونيا، بل ودون أن يلقي عليها نظرة واحدة، قائلاً لها:

– إليك المفتاح! خذيه وانصرفي بسرعة!

كان ينظر إلى النافذة في عناد، لا يحول بصره عنها يمنة ولا يسرا.

اقربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح. فقال سفدريجايلوف مكرراً، دون أن يتحرك أو أن يلتفت:

– بسرعة! بسرعة!

ولكن كلمة «سرعة» هذه كان لها جرس رهيب!

لاحظت دونيا ذلك. وتناولت المفتاح، واندفعت نحو الباب ففتحته، وهرعت تخرج من الغرفة. فما هي إلا دقيقة واحدة حتى كانت تجري كالجنونة على طول القناة في اتجاه جسر س...

لبث سفدريجايلوف أمام النافذة حوالي ثلث دقائق. ثم التفت ببطء، ونظر حواليه، ومرّ بيده على جبينه في رفق. إن ابتسامة غريبة تعقف الآن شفتيه، ابتسامة أسيانة حزينة ضعيفة، ابتسامة هي ابتسامة ألم كبير ويسأس شديد. وكان الدم قد جف على يده، فنظر إليه نظرة تفيس بغضباً، ثم بلل خرقه بالماء فمسح بها صدغه. ووقع بصره على المسدس الذي كانت قد رمته دونيا فتدحرج على الأرض. إنه مسدس صغير للجيب، من طراز قديم ذي ثلث طلقات. إن فيه الآن طلقتين وكبسولة. ما يزال يمكن استعماله مرة. فگر سفدريجايلوف لحظة، ودس المسدس في جيبيه، ثم تناول قبعته وخرج.

الفصل السادس

قضى السهرة حتى الساعة العاشرة في الحانات وال محلات المشبوهة متنقلاً بينها. وعثر في مكان ما على كاتيا. كانت كاتيا ما تزال تغنى أغنتها المألفة التي تتحدث عن «الطاغية الحقير»: الذي أخذ يقبل كاتيا.

فسقاها سفديجايروف وسقى صاحبها الصغير، العازف على الأرغن اليدوي، وسقى الخدم والمعنين، واثنين من صغار الموظفين جذبه إليهما أنفيهما معوجّين، فأحد الرجلين كان أنفه منحرفاً إلى اليمين، وثانيهما كان أنفه منحرفاً إلى الشمال، فلفت هذا الأمر انتباه سفديجايروف وخطف بصره. وقاده الموظفان أخيراً إلى حديقة ملاهٍ، فدفع عنهما رسم الدخول وثمن الشراب.

كان في الحديقة شجرة نحيلة من أشجار الصنوبر عمرها ثلاثة أعوام، وثلاث شجيرات صغيرة، وكان في الحديقة كذلك مبني أطلق عليه اسم «فوكسهول»^{٨٠} من باب التفخيم وما هو في حقيقته إلا خماره صغيرة يُشرب فيها الشاي أيضاً. إن في الخمار عدة موائد صغيرة، وكراسي خضراء؛ وفيها جوقة هزيلة من المعنين، وألماني بلغ السكر منه كل مبلغ (هو نوع من ممثل مهرّج أحمر الأنف، لكن وجهه يظل كالحاء إلى أقصى حد، لا يدري المرء كثيراً لماذا)، وكانت مهمّة الجوقة والألماني تسلية الزبائن.

تشاجر الموظفان الصغيران مع موظفين آخرين كانوا هناك، حتى أوشك التشاجر أن يصير إلى تماسك بالأيدي. واحتكم المتشاجرون إلى سفديجايروف، فلبث يحكم بينهم مدة ربع ساعة محاولاً أن يفهم موضوع التشاجر، ولكنه لم يفلح في ذلك من شدة صرخ هؤلاء وأولئك. أغلب الظن فيما أشارت إليه

^{٨٠} «فوكسهول»: كانت هذه الكلمة الإنجليزية في أول الأمر اسمًا لضاحية من ضواحي لندن أصبحت حديقة ملاه شعبية في القرن الثامن عشر. وقد أنشئت حدائق مشابهة لها في القارة الأوروبية أطلق عليها هذا الاسم نفسه؛ ومنها حديقة في روسيا قرية جداً من محطة بافلوفسك؛ وقد أصبحت الكلمة في نطقها الروسي الآن «فوكرزال» تعني كل محطة من محطات السكة الحديدية.

الدلائل أن واحداً منهم كان قد سرق شيئاً واستطاع أن يجد يهودياً اشتراه منه فوراً، ولكن السارق بعد أن باع الشيء المسروق رفض أن يقاسم رفيقه ثمنه. واتضح أخيراً أن الشيء المسروق كان ملعقة شاي من محل «فوكسهول»، وقد تم تعرفها، وبدأت القضية تتخذ أبعاداً مقلقة. فما كان من سفدريجايلوف إلا أن دفع ثمن الملعقة، ونهض، وغادر حديقة الملاهي.

كانت الساعة تقترب من العاشرة. لم يشرب سفدريجايلوف خمرة طوال تلك السهرة، وإنما كان يكتفي بطلب كأس من الشاي؛ وحتى هذا إنما كان يفعله من باب التقيد بالشكل. وكان الحر أثناء ذلك ثقيلاً والسماء مكفهرة. وفي نحو الساعة العاشرة تقدمت غيوم كبيرة من جميع أطراف الأفق، وأرعدت السماء وأخذ المطر يهطل غزيراً كأنه السيول. كان الماء لا يتتساقط قطرات، وإنما هو شلالات تضرب الأرض. وكان ومض البرق يتتعاقب سريعاً، فلا يكاد يستطيع المرء أن يعد أكثر من خمسة بين كل ومضة وومضة. وابتل سفدريجايلوف بالماء حتى العظام، ووصل أخيراً إلى بيته، فأغلق على نفسه الباب، ثم فتح درج مكتبه فأخرج منه أمواله وسنداته، ومزق بعض الأوراق، حتى إذا فرغ من دسّ أمواله كلها في جيده، بدا له أن يبدّل ملابسه، لكنه بعد أن ألقى نظرة إلى النافذة وأصاخ بسمعه إلى هزيم الرعد وتساقط المطر، حرك يده بإشارة تنم على عدم الالكتراش، وتناول قبعته، وخرج دون أن يغلق الباب وراءه، ومضى إلى صونيا رأساً، فوجدها في غرفتها.

لم تكن صونيا وحدها، وإنما كان يحيط بها أولاد كابرناوموف الأربع. كانت صونيا سيميونوفنا تسقيهم شاياً. واستقبلت سفدريجايلوف بصمت واحترام، ونظرت مدھوشة إلى ثيابه المبتلة، لكنها لم تقل كلمة واحدة. أما الأولاد فسرعان ما هربوا وقد استولى عليهم ذعر لا يغالي.

جلس سفدريجايلوف إلى المائدة، ورجا صونيا أن تجلس قربه ففعلت، وتهيات لأن تصغى إليه خجلة وجلة.

قال سفدر بجاليوف:

– صونيا سيميونوفنا، ربما سافرتُ إلى أمريكا، وربما كان هذا آخر لقاء بيننا، لذلك جئت أخذ بعض الإجراءات. لقد رأيت اليوم تلك السيدة، أليس كذلك؟ أنا أعرف ما قالته لك، فلا حاجة إلى أن ترويه لي (هنا حركت صونيا يدها بإشارة واحمر وجهها). إن هؤلاء الناس تفكيراً خاصاً معروفاً. على كل حال، فيما يتعلق بأختيك الصغيرتين وأخيك الصغير، فإن مستقبلهم مؤمن، لقد توليت بنفسي دفع المال الذي يجب أن يؤول إليهم، وأخذت به إيصالات. خذني، إليك هذه الإيصالات. بهذا تسوى المسألة. وإليك ثلاثة سندات قيمتها ثلاثة آلاف روبل. هذه لك أنت. أرجو أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا لا يعلم به أحد، منها تسمع من كلام. سوف تحتاجين إلى هذا المال يا صونيا سيميونوفنا، فإن الحياة التي عشتها حتى الآن سيئة، ولن تضطري إليها بعد اليوم.

تمتت صونيا تقول:

– غمرتني بنعم كثيرة... أنا... والآيتام... والمرحومة أيضاً... وإذا لم أشكر لك جميلاً شكرأً كافياً حتى الآن فلا يذهبن بك الظن خاصة إلى أن...

– رحماك! رحماك!

وتابعت صونيا كلامها فقالت:

– أما هذا المال يا أركادي إيفانوفتش، فإنيأشكره لك أجزل الشكر... لكنني لست في حاجة إليه. إنني وقد أصبحت وحدني أستطيع أن أني رزقي. لا تحسين هذا عقوقاً. وما دمت إنساناً محسناً إلى هذا الحد، فإن هذا المال يمكن دائماً أن...

– بل هذا المال لك أنت يا صونيا سيميونوفنا، وكفى كلاماً، أرجوك! ليس في وقتي متسع. لك أنت، سيكون هذا المال مفيداً. لا يملك روذيون رومانوفتش إلا أن يختار أحد أمررين: فإما رصاصة في رأسه، وإما طريق فلاديمير.^{٨١}.

نظرت إليه صونيا مروعة وأخذت ترتجف. وتابع هو كلامه يقول:

– لا تقلقي! لئن كنت أعرف كل شيء، فلأنه هو الذي روى لي كل شيء!... وإن كنت امرأة قليل الشرارة، فلن أذكر لأحد شيئاً. أنت أسديت له في ذلك اليوم نصيحة طيبة جداً، هي أن يشي بنفسه ويعترف بجريمته. وذلك هو خير ما يمكن أن يفعله. وإذا كان مصيره هو الرحيل إلى سiberيا، فسيرحل إليها، وستتبعينه أنت، أليس كذلك؟ فأنت إذا في حاجة إلى مال. سوف تحتاجين إلى هذا المال من أجله هو، هل تفهمين؟ وأنا حين أعطيك هذا المال فكأنني أعطيه له. ثم إنك قد تعهدت لآماليا إيفانوفنا بأن تدفعي الديون التي لها على أسرتك. هذا سمعته بنفسك. ولكن لماذا يا صونيا سيميونوفنا تقطعين على نفسك مثل هذه العهود بمثل هذا التسرع والطيش دون تأمين أو تروري؟ إن كاترينا إيفانوفنا هي المدينة للألمانية، لا أنت. فكان ينبغي لك أن لا تحفلي بهذه الألمانية وأن لا تكرثي لها. ما هذا أسلوب سليم في الحياة! على كل حال، إذا استجوبوك في يوم من الأيام غداً أو بعد غد مثلاً إذا استجوبوك عنني، أقصد عن أمري (وسيستجوبونك عن أمري حتماً)، فإياك أن تذكري شيئاً عن زيارتي هذه خاصة، وإياك أن تتيحي لأحد أن يفترض أنني أعطيتك مالاً. والآن، إلى اللقاء!

قال سفديجاييف ذلك ونهض وهو يتابع كلامه قائلاً:

^{٨١} «فلاديمير»: العاصمة القديمة لروسيا في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر، وهي تقع شمال شرق موسكو. وقد أصبحت الطريق الذي تسلكه قوافل السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، للوصول إلى سiberيا؛ وهكذا فإن «طريق فلاديمير» تعني الذهاب إلى السجن.

– تحياتي لروديون رومانوفتش... بالنسبة: اخزني المال عند السيد رازوميixin إلى حين الحاجة إليه.
تعرفين السيد رازوميixin، أليس كذلك؟ تعرفينه حتى! إنه فتى طيب شهم! فاحملي إليه المال غداً، أو...
حين يأذن الوقت! وإلى أن يأذن الوقت، خبيئه عن الأنظار.

كانت صونيا قد نهضت هي أيضاً وشخصت بصرها إليه مذعورة. ودّت لو تقول شيئاً ما، ودّت لو
تطرح سؤالاً، لكنها لم تجرؤ في البداية، وكانت عدا ذلك لا تعرف كيف تدبّر أمر إلقاء السؤال. وقالت
أخيراً

– لكن... لكن... هكذا... هكذا... تخرج... تحت هذا المطر؟

– هه! هل يخشى المرء المطر إذا كان يتهيأ للسفر إلى أمريكا؟ استودعك الله يا صونيا سيميونوفنا العزيزة.
أتمنى لك أن تعيش طويلاً، فلسوف تكونين مفيدة نافعة لآخرين. بالنسبة: أبلغي السيد رازوميixin
تقديرني. قولي له بالنص: إن أركادي إيفانوفتش سفديجاييف يبلغك تقديره. لا تنسي.

قال ذلك وخرج تاركاً صونيا في جمود وذعر، وقد استولى عليها شعور غامض ثقيل بأن شيئاً سيحدث.
وقد عُرف فيما بعد أن سفديجاييف، في ذلك المساء نفسه، بعد الساعة الحادية عشرة، قام بزيارة أخرى،
زيارة بعيدة جداً، غير متوقعة أبداً. كان المطر ما يزال يهطل غزيراً. وها هو ذا، في الساعة الحادية عشرة
والدقيقة العشرين، يدخل البيت الصغير الذي يقطنه أهل خطيبته في الخط الثالث من فاسيليفسكي
أوستروف في شارع مالبيي^{٨٢}. كان مبتلاً بالماء ابتلالاً شديداً. لقد طرق الباب مدة طويلة، ففتحوا له آخر
الأمر، فأحدث ظهوره في البداية اضطراباً كبيراً؛ لكن أركادي إيفانوفتش قد أوقى موهبة حُسن الحيلة

^{٨٢} «في الخط الثالث من فاسيليفسكي أوستروف...»: فاسيليفسكي أوستروف (جزيرة فاسيل) تقطعها شوارع كبيرة وصغيرة. والشوارع المتعمدة على هذه الشوارع تسمى خطوطاً.

ولياقة السلوك وجمال التصرف متى شاء، لذلك فإن الظن الأول الذي قام في وهم أهل خطيبته (وهو ظن لطيف، فقد اعتقدوا أنه سكر في مكان ما فأصبح لا يدرى ماذا يفعل)، لم يلبث أن سقط من تلقاء نفسه. وبادرت أم الخطيبة، المرأة الحنون الشفوق العاقلة، فجرّت مقدّع الأب الهرم الخرف العاجز وسرعان ما أخذت تتحدث على عادتها بـاللقاء أسئلة ملتوية غير مباشرة (إن هذه المرأة لا تلقي في يوم من الأيام أسئلة مباشرة: إنها تبدأ بأن تبتسم وتأخذ تفرّك يديها، فإذا رغبت مثلاً في أن تعرف ما ينتويه أركادي ايفانوفتش فيما يتعلق بالتاريخ الذي ينوي تحديده للاحتفال بزواجه، طفت تساؤله بكثير من الشوق والشراهة عن باريس، وعن حياة المجتمع الراقي هناك، ثم لا تصل إلى فاسيليفسكي أوستروف وإلى ما يجب أن يحدث فيها إلا رويداً رويداً). ولقد كان يمكن، في ظروف غير هذه الظروف، أن يصغي سفديجايروف إلى كلامها باحترام شديد واهتمام عظيم، لكنه بدا في هذه المرة نافذ الصبر جداً، وأسرع يقاطعها بأن طلب رؤية خطيبته فوراً (رغم أنه كان قد أعلم، منذ أولى الكلمات التي جرى بها الحديث، أنها قد نامت). فقال لها أركادي ايفانوفتش بدون لف أو دوران أن عليه، بسبب ظروف طارئة استثنائية، أن يغادر بطرسبرج إلى حين، وإنه إذ يغادر بطرسبرج قد جاءها بخمسة عشر ألف روبل، أوراقاً مالية وسندات، راجياً أن تقبلها هدية منه إليها، وإنه على كل حال كان ينوي منذ مدة طويلة أن يقدم إليها هذه الهدية التافهة قبل الزواج.

صحيح أن هذه الشروح لم تظهر الصلة المنطقية بين الهدية والسفر المباشر، لا ولا أوضحت ضرورة المجيء في منتصف الليل تحت وابل المطر. ومع ذلك لم يعترض أحد أى اعتراض. وحتى الأسئلة وصيغات التعجب المعهودة كانت في هذه المرة معتدلة جداً، على خلاف العادة. وتدفق الشكر في مقابل ذلك حاراً عنيفاً، حتى أن الأم العاقلة ذرفت في سبيل الشكر دموعاً. ونهض أركادي ايفانوفتش، وابتسم وقبل خطيبته، وربت على خدّها في رفق ولين، وأكّد مرة أخرى أن غيابه لن يطول؛ وإن لاحظ

في عيني الخطيبة الصغيرة استطلاعاً طفلياً جدياً في آن واحد، وتساؤلاً لأبكم، فـّكر لحظة، وقبلها مرة أخرى، وشعر في الوقت نفسه بحسرة حقيقة لأنّه قـّدر أن الأم العاقلة ستتخبي الهدية في الحال مقلة عليها بالمفتاح. وخرج آخر الأمر، تاركاً جميع من في البيت في حالة اهتياج شديد خارق. وسرعان ما أخذت الأم العاقلة الواسعة الأفق تقرر بوشو شات صغيرة وكلمات قليلة سريعة عدداً من الحقائق الخطيرة جداً، مؤكدة على وجه التخصيص أن سفدريجايلوف رجل ذو سلطان، رجل له أعمال وصلات، وأنه على جانب عظيم من الثراء الطائل، والله يعلم ما الذي خطر بياله لكنه قد عنّ له أن يسافر فسافر، ثم عنّ له أن يهب مالاً فوّهباً، فلا داعي إلى التعجب والدهشة والحالة هذه. صحيح أن وصوله مبتلاً على هذه الحال أمر غريب، ولكن الإنجليز، مثلاً، أكثر شذوذًا من الآخرين وأغلب الظن أن هذه خصلة من خصاهم وعادة من عاداتهم. إنها الشذوذ والتفرد، أليس كذلك؟ ثم إن أبناء المجتمع الراقي لا يهفلون كثيراً بما قد يقال عنهم، فهم لذلك لا يتحرجون. حتى أن من الممكن أن يكون أركادي ايفانوفتش قد تعمد المجيء تحت وابل المطر ليظهر أنه لا يخاف من أحد ولا يهاب أحداً. ولكن ينبغي خاصة أن لا تقال كلمة واحدة لأي إنسان عن هذه «المغامرة»، فالله وحده يعلم ما هو المجرى الذي قد تنقلب إليه هذه الأمور كلها. ويجب إخفاء المال والإفقال عليه بالمفتاح بأقصى سرعة، والحمد لله على أن فيديوسيا قد بقى في مطبخ ولم تر وتسمع شيئاً... نعم، يجب خاصة أن لا يقال لأحد شيئاً... هست... هست!... ما من كلمة إذا، لا لتلك الذبابة الحقيرة رسليخ، ولا لآخرين، وهلم جرا، وهلم جرا... وظلوا يثثرون ويتهامسون على هذا النحو حتى الساعة الثانية من الصباح. لكن الخطيبة مضت تنام قبل ذلك بكثير، وهي تشعر بشيء من الدهشة وكثير من الحزن.

وفي أثناء ذلك، عندما دقت الساعة متتصف الليل، كان سفدريجايلوف يجتاز جسر «... كوف» في اتجاه «حي بطرسبرجسكي». كان المطر قد انقطع عن المطول، لكن الريح ما تزال تزمر. أخذ سفدريجايلوف

يرتعد من البرد، ونظر خلال دقيقة من الزمن، بنوع من الاستطلاع الخاص، بنوع من الاستطلاع السائل المستفهم، نظر إلى المياه السوداء، مياه نهر «نيفا الصغير». لكنه سرعان ما وجد أن البرد أشد من أن يستطيع المكث فوق الماء على هذا النحو. فاستدار، واتجه نحو شارع «س....».

ظل سفديجايروف يسير مدة طويلة لعلها بلغت نصف ساعة، في ذلك الشارع الذي لا نهاية له، وتعثرت قدماه بالرصيف الخشبي مراراً في الظلام، ولكنه ظل مصراً على أن يبحث عن شيء ما كان يجب أن يوجد في الجهة اليمنى من الشارع. إنه حين مرّ هنا منذ مدة بالعربة قد لمح في مكان ما، على اليمين، فندقاً لا بد أن اسمه «فندق أندر يهندول» إذا صدقت ذاكرته. إن هذا الفندق هو في هذا الحي التائه علامة بارزة يستحيل أن يخطئها المرء حتى في الظلام الدامس. هو مبني طويلاً من خشب، أسود من كثرة السنين التي تعاقبت عليه، كانت تسقط فيه أصوات رغم تقدم الليل، وكانت تُلاحظ فيه حركة وجبلة.

دخل سفديجايروف الفندق، فالتقى في الدهليز بخادم بائس المظهر رث الثياب، فطلب منه غرفة. بعد أن ألقى عليه الخادم نظرة، عدل قامته، وقاده فوراً إلى حجرة نائية لا هواء فيها تقع في ركن تحت السلم عند آخر الممر. لم يكن بالفندق غرفة أخرى خالية، فجميع الغرف مشغولة.

نظر الخادم إلى سفديجايروف بهيئة مستطلعة مستفهمة. فسأله سفديجايروف:

– هل عندكم شاي؟

– عندنا.

– ماذا عندكم أيضاً؟

– لحم عجل، فودكا، مقبلات.

– جئني بلحم عجل وشاي.

سؤال الخادم متعددًا بعض التردد:

– ولست في حاجة إلى أي شيء آخر؟

– لست في حاجة إلى أي شيء آخر.

فانصرف الخادم وقد خاب أمله:

حدّث سفدريجايلوف نفسه قائلاً: «لا بد أنه محل مريب. كيف لم يخطر هذا ببالي؟ آ... لا شك أن هيئتي أنا أيضًا هيئه رجل عاد من قصف وحدثت له مغامرة في الطريق. ليتني أعرف نوع الناس الذين يتلبثون هنا لقضاء الليل!»

وأشعل سفدريجايلوف شمعة وفتح الغرفة تفتيشاً دقيقاً. هي حجرة صغيرة تضيئها نافذة واحدة، وتبلغ من الضيق أن رجلاً له قامة سفدريجايلوف لا يكاد يستطيع أن يقف فيها، وقد امتلأت مساحتها كلها بسرير قدر ومنضدة مدهونة وكرسي عتيق. أما الجدران فكأنها من ألواح خشبية انفكّت فيها المسامير التي تربط بعضها بعض؟ وهي مغطاة بورق ملطخ مهترئ ممزق يملؤه الغبار فلا يكاد يستطيع البصر أن يميز فيه أي رسم، ولا يكاد يرى منه إلا لون أرضيته الصفراء. وكان جزء من الجدار يؤلف مع السقف زاوية مقطوعة، شأن جميع الحجرات التي تقع تحت الأسطح، غير أن السلم يمر هنا فوق الزاوية المقطوعة.

وضع سفدريجايلوف الشمعة، وجلس على السرير، وغرق في أفكاره وخواطره. غير أن دمدمه غريبة متصلة كانت تعلو في الغرفة المجاورة وتصل إلى حد الصراخ أحياناً، فما لبثت أن استرعت انتباهه. إن هذه الأصوات لم تنقطع في الواقع منذ دخل. أصاخ سفدريجايلوف بسمعه: كان هناك شخص يقرّع

شخصاً آخر ويصب عليه أنواع اللوم، ولكنه يفعل ذلك وهو يكاد يبكي. ليس يمّيز المرء إلا صوّتاً واحداً.

نهض سفدريجايلوف، ووضع يده حاجزاً أمام هب الشمعة، فسرعان ما أضاء شق صغير في الجدار، فاقترب سفدريجايلوف منه ونظر. الغرفة أوسع قليلاً من غرفته، وفيها رجلان أحدهما أجددهما الشعر محمر الوجه، بدون سترة، قد وقف متخدّاً وضع الخطيب، مباعداً ساقيه للمحافظة على توازنه، وأخذ يلطم صدره لأنّا صاحبه بلهجة عاطفية مؤثرة على أنه رجل شقي تافه ليس له أي رتبة، وليس له أي كرامة اجتماعية، مذكراً إياه بأنه هو الذي أخرجه من الماء، ففي وسعه أن يعود فيغضسه في الماء متى شاء، وأن عين الله وحدها ترى حقيقة الأمر كله. وكان الرجل الثاني الذي ينضب عليه هذا التقرير وهذا التأنيب جالساً على كرسي، وهيئته هيئه رجل يودّ لو يعطس لكنه لا يفلح في ذلك على أي نحو من الأنباء، وهو يلقي على الخطيب من حين إلى حين نظرة مضطربة بلهاء. كان واضحًا أنه لا يفهم من الأمر كله شيئاً على الإطلاق، بل لا يسمع، كما يبدو، من الأمر شيئاً.

وعلى المائدة، حيث كانت توجد شمعة ذاتية توشك أن تنطفئ، كان يوجد أيضاً إبريق فودكا يكاد يكون فارغاً، وأقداح كبيرة وأقداح صغيرة، وخبز، وخيار مخلل؛ ورغم أن الشاي قد شُرب منذ مدة طويلة حتى، فإن الفناجين والأطباق والملاعق ما تزال ملقة كذلك على المائدة.

تأمل سفدريجايلوف هذه اللوحة بانتباه، ثم ابتعد عن الجدار بدون اكتراش، وعاد يجلس على السرير. وحين عاد الخادم يحمل لحم العجل والشاي، لم يستطع أن يمتنع عن سؤال سفدريجايلوف مرة أخرى أليس في حاجة إلى شيء آخر، فلما سمع جواب النفي من جديد انصرف أخيراً إلى غير رجعة. وانقضّ

سفردريجايروف على الشاي التماساً للدفء، فاحتسى منه كأساً، لكنه لم يستطع أن يذوق اللحم، فقد كان لا يشتهي أن يتناول أي طعام.

واضح أن الحمى كانت قد ألمت به. وخلع معطفه وسترته، واضطجع على السرير، وتدثر بالبطانية. كان مستاء متعضاً. «إن من الأفضل على كل حال أن أكون سليم العافية لهذا الظرف»، كذلك قال يحدث نفسه، وضحك ساخراً.

كان جو الغرفة خانقاً، وكانت الشمعة ترسل ضياء مضطرباً، وكانت الريح في الخارج تز مجر، وكانت فارة تخدش شيئاً من الأشياء في مكان بأحد أركان الغرفة، وكانت الغرفة كلها تشيع فيها رائحة فثran وجلد.

لبث مضطجعاً غارقاً في أحلامه. كانت الخواطر تتعاقب في خياله، يطرد بعضها بعضاً. كان كمن يريد أن يتثبت بشيء ما في الخيال بكل ما أوتي من قوة. قال يحدث نفسه: «لا شك أن تحت النافذة حديقة تهز الريح أشجارها فتهممهم! آه... لشد ما أكره همهمة الأشجار أثناء العاصفة في الظلام! يا له من إحساس كريه!». وفي هذه المناسبة تذكر مروره بحديقة بتروفسكي، مشمئزاً. وتذكر عندئذ مروره بجسر «... كوف» على نهر «نيفا الصغير» أيضاً، فأحس بتلك البرودة نفسها التي أحسها منذ قليل حين توقف فوق النهر. «أنا لم أحب الماء يوماً، ولا مناظر الطبيعة»، بهذا حدث نفسه، ثم إذا بفكرة غريبة توافيه فتجعله يضحك ضحكة سخالية. قال يخاطب نفسه: «يخيل إليّ مع ذلك أن قضايا الجمال والارتياح هذه كان ينبغي أن لا تثير اهتمامي اليوم وأن تدعوني غير مكترث بها أي اكتراث، فما بالي أعني بها أشد العناية؟ ألا أني لأشبه الحيوان الذي يهمه أشد الاهتمام أن يختار لنفسه مكاناً مناسباً... في حالة كهذه الحالة! لقد كان الأفضل أن أعود إلى جزيرة بتروفسكي! لكنني وجدت الليل حالك الظلمة والجو شديد البرودة! هى هى هى! إنني لأكاد أشد الأحساس اللذيدة والمشاعر الممتعة! بالمناسبة: لماذا لا أطفى الشمعة؟»

قال لنفسه ذلك ونفخ على الشمعة فأطفأها، وإذا لم ير ضوءاً في شق الجدار تابع حديثه لنفسه فقال: «نام جيراني! هلمي يا مارفا بتروفنا! الآن، إنما ينبعي لك أن تجئي، تفضلي، فالظللام دامس، والمكان مناسب، واللحظة فريدة. ومع ذلك لا تجئيناليوم!»

وتذكر فجأة، دون سبب ظاهر، أنه قبل وضع خططه المتعلقة بدونيا موضع التنفيذ، تذكر أنه قبل ذلك بساعة قد نصح لراسكولنيكوف أن يجعل دونيا في حماية رازوميixin. قال يحدث نفسه: لاحقا... لا بد أنني قلت ذلك من باب التبجح، كما أدرك راسكولنيكوف ذلك فعلاً! إنه لماكرا، هذا الفتى راسكولنيكوف! لكنه لعب لعبة كبيرة فوق طاقته. ولكي يصبح المرء ماكراً كبيراً لا بد له من وقت، لا بد له من أن يتضمن انتقاماً عهداً السخافات. وهو الآن مسرف في حب الحياة. من هذه الناحية يتصرف جميع هؤلاء الناس بأئمهم جبناء. ولكن ما بالي أهتم به! ليذهب إلى الشيطان! ألا فليفعل ما يشاء، فذلك لا يعنيني!»

وظل سفديجاييف عاجزاً عن النوم. وشيئاً فشيئاً انبجست أمامه صورة دونيا كما رأها منذ قليل، فسرت في جسمه كله رعدة قوية على حين فجأة. قال يخاطب نفسه وقد ثاب إلى صوابه: «لا، يجب على الآن أن أتخلص من هذا كله. يجب أن أفك في شيء آخر. مضحك أمري... مضحك: إنني لم أكره أحداً كرهها شديداً في يوم من الأيام، بل إنني لم تراودني رغبة قوية في الانتقام قط. هذه علامة سيئة! لا ولا أحببت يوماً أن أتشاجر، وأن أندفع وأتحمس! هذه أيضاً علامة سيئة... ولكن ما أكثر الوعود التي بذلتها لها منذ قليل! مع ذلك، كان يمكنها أن تصنع مني رجلاً آخر، من يدري...»

وصمت سفديجاييف وكز أسنانه. وعرضت له صورة دونيا من جديد، تماماً كما رأها حين أطلقت طلقة أولى فاستولى عليها رعب رهيب فأرخت المسدس وهي تنظر إليه بعينيها الواسعتين... حتى لكان يمكنه أن يمسكها مرتين لا مرة واحدة دون أن تستطيع إظهار أية مقاومة. لقد قصد هو نفسه أن يردها

إلى إدراك الواقع ! وتذكر أيضاً أنه شعر في تلك اللحظة بنوع من الشفقة عليها والرأفة بها، وأن قلبه قد انقباض انقباضاً شديداً. «سحقاً لهذه الخواطر ! ... يجب التخلص من هذا كله ! يجب التخلص !»

وأخذ النعاس يدب إلى جفنيه، وأخذت رعدة الحمى تهدأ. وتراءى له فجأة أن تحت البطانية شيئاً يركض على طول ذراعه وساقه. فارتعد، وقال: «آ... لكتها فأرة ! طبعاً... لأنني تركت اللحم على المائدة !» كره كرهً فظيعاً أن يكون عليه أن يكشف البطانية عن جسمه، وأن ينهض، وأن يتعرض للبرد. لكن شيئاً لامس قدمه مرة أخرى ملامسة كريهة مزعجة، فرمى عنه البطانية وأشعل شمعة. ثم مال يتفحص السرير وهو يرتجف من الحمى، فلم يجد شيئاً. حتى إذا نفض البطانية قفزت إلى السرير فأرة على حين بعثة، فأسرع يريد القبض عليها، ولكن الفأرة أخذت، دون أن تغادر السرير، ترسم خطوطاً متعرجة في كل اتجاه، وتملص من بين أصابعه، وتركض على ذراعه، ثم اندس تحت المخدة. فرمى المخدة على الأرض، ولكنه شعر في تلك اللحظة نفسها بشيء يشب عليه، ويتنطط على طول قامته، ويصبح فوق ظهره، تحت قميصه. فارتعد سفديجاييف ارتعاشة عصبية واستيقظ من نومه.

كان الظلام دامساً وهو لا يزال راقداً على السرير، متكوناً تحت البطانية. وكانت الريح ما تزال تصفر تحت النافذة.

قال لنفسه غاضباً: «يا له من حلم وسخ !»

ونهض فجلس على حافة السرير مديراً ظهره إلى النافذة. «الأفضل أن لا أنام البتة». على هذا حزم أمره. وكان يهب من النافذة هواء رطب بارد، فشد سفديجاييف البطانية وتدثر بها دون أن ييارح مكانه. ولم يشعل الشمعة. كان لا يفكر في شيء، ولا يريد أن يفكر في شيء على كل حال. لكن الصور كانت تلاحق الصور في خياله، وكانت شذرات أفكار تمر في ذهنه بفوضى، لا تحكمها رابطة ولا ينظمها تسلسل. لقد

أصبح في ما يشبه النوم. هل يرجع هذا إلى البرد والظلمات والرطوبة والريح التي تزمر تحت النافذة وتهز الأشجار؟ المهم أن أحلامه أخذت تتخذ أشكالاً غريبة، وأخذت توقظ في نفسه رغبة، وكانت أزهار تراءى له بغير انقطاع. هذا منظر رائع يفتح أمام بصره. نهار مضيء، دافئ، يكاد يكون حاراً. هو يوم عيد العنصرة. منزل ريفي أنيق ثري، على الطراز الإنجليزي، يتتصب في وسط مروج مزهرة، وتحيط به أحواض موقوفة على زراعة الأزهار. نباتات متسلقة تتلفف فوق درجات مدخل المنزل غارقة تحت الورود. وعلى طول سلم كبير، مضيء نضير، مغطى بسجادة فخمة، تترتب أوانى خزف صيني تضم أزهاراً نادرة. ولا حظ سفدريجايلوف بوجه خاص، على حواف النوافذ، في أوان ملأى بالماء، باقات نرجسات بيض نضرة تميل على سيقانها الخضر الطويلة القوية وتنشر عبقة نافذاً. كان سفدريجايلوف يود أن لا يبتعد عن هذه الأزهار، ولكنه صعد السلم ودخل قاعة كبيرة عالية السقف. هناك أيضاً كانت الأزهار منتشرة في كل مكان: على النوافذ، قرب الباب الكبير الذي يطل على الشرفة، وفي الشرفة نفسها. أرض القاعة مفروشة بعشب فوّاح أخضر نضر. مصاريع النوافذ مفتوحة تدخل منها إلى القاعة أنسام لطيفة. العصافير تغُرّد تحت النوافذ. ولكن في وسط الغرفة، فوق منضدة فرشت بقطاء من قماش الساتان الأبيض الذي يُستعمل للموتى، كان هناك تابوت. إن التابوت منجد بنسيج من ساتان نابولي السميك، ومحفوف بابزيم سميك، أبيض اللون أيضاً. إن حبلاً من أزهار تطوق التابوت من جميع الجهات. وبين الأزهار يرقد جثمان صبية ترثي ثوباً من نسيج التول الأبيض، قد عقدت ذراعيها على صدرها وشدت إحداها إلى الأخرى حتى لكانها منحوتان في المرمر. غير أن شعرها المبعثر، الأشقر، رطب خضل. وعلى جبينها إكليل من الزهر يطوقه. إن وجهها الذي يظهر من جانب، ويعبر عن صرامة، وبيدو متجمداً منذ الآن يشبه أن يكون مقدوداً من مرمر أيضاً، ولكن ابتسامة شفتيها الشاحبتين مصطبقة بحزن لا نهاية له، حزن ليس من الطفولة، وشجن كبير. إن سفدريجايلوف يعرف هذه البنية.

لم يكن إلى جانب التابوت لا صورة من صور العذراء، ولا شموع مشتعلة، وليس تُلَى عليها صلوات. إن هذه البنية قد انتحرت غرقاً. عمرها لا يتجاوز أربعة عشر عاماً، لكن قلبها قد تحطم وهي في تلك السن: لقد سعت إلى الموت، لأنها وقعت ضحية إهانة رُوّعت ضميرها إلى الأبد، وملأت نفسها بعار لا يستحقه وجدان الطفلة، تلك النفس الملائكة الطاهرة، وانتزعت منها صرخة يأس هائلة، صرخة لم تُسمع، اختنقت بوقاحة في الظلمات والبرد والجليد الذائب وز مجرات الريح...

استيقظ سفدريجايروف من نومه، فترك سريره واتجه نحو النافذة، وتلمس المزلاج ففتحها، فاندفعت إلى الحجرة الصغيرة هبةً ريح صفت خده وصدره الذي لا يغطيه إلا القميص، صفقهما بما يشبه رذاذ ثلج. وكان تحت النافذة شيء يشبه أن يكون حديقة لعل رواد الفندق يقضون فيها أوقات مبهجة ومسرة أحياناً، فتغنى فيها الأغاني ويُقدّم فيها الشاي على موائد صغيرة نهاراً. أما الآن فإن قطرات ماء تسيل على النافذة آتية من الشجيرات المحيطة، وإن الظلام يبلغ من الحلكة أن الماء لا يميز إلا بقعاً سوداء غامضة تدل على الأشياء دلالة مبهمة.

لبيت سفدريجايروف خمس دقائق، مائلاً إلى أمام، متکئاً بکوعيه على حافة النافذة، محدقاً إلى الظلام لا يستطيع أن يحول عنه بصره. وفجأة، في وسط الظلمات، دوت طلقة مدفع أولى، فثانية.

قال سفدريجايروف يحدّث نفسه: «هذا هو الإنذار! المياه تعلو^{٨٣}، فما أن يطلع الصبح حتى تتدفق في الشوارع فيضانات تغرق الأقبية. الفئران ستطفو على سطح الماء ميتة. وتحت المطر والريح سيأخذ الناس ينقلون متاعهم إلى الطوابق العليا، وقد تبللت أجسامهم وانهارت قواهم وأخذوا يشتمون ويلعنون... لكن كم الساعة الآن؟»

^{٨٣} ... هذا هو الإنذار! المياه تعلو...»: نظراً للكثرة وقوع الفيضانات في بطرسبرج كان السكان ينبهون على الفيضانات الخطيرة بإطلاق المدافع...

وفيما كان سفديجايروف يفكر في هذا، إذا بساعة جدار في مكان بعيد تدق الثالثة بصوت عميق.

قال سفديجايروف لنفسه: «آ... بعد ساعة يطلع الصبح. فلماذا انتظر مزيداً من الانتظار؟ سأنصرف حالاً. سأمضي قدماً إلى جزيرة بتروفسكي، فأختار هناك، في مكان ما دغلاً يبلغ من التبلل بالماء أنه يكفيك أن تلمسه بكتفك حتى تهطل عليك ملايين قطرات...» وابعد عن النافذة قليلاً، فأغلقها، ثم أشعل شمعة، فارتدى صدرته ومعطفه ووضع على رأسه قبعة، ومضى إلى الممر حاملاً شمعته، محاولاً أن يبحث عن الخادم الذي لا بد أنه نائم في ركن من الأركان التي تودع فيها الأشياء البالية وبقايا الشموع. كان سفديجايروف يريد أن يدفع الحساب وأن يغادر الفندق. وقال يحدّث نفسه: «هذه خير لحظة. لا يمكن اختيار لحظة أفضل!»

لبث يطوف في الدهلiz الضيق الطويل مدة طويلة دون أن يلتقي بأحد. فلما همّ أن ينادي اكتشف على حين فجأة، في ركن مظلم، بين خزانة قديمة وباب، شيئاً غريباً، شيئاً بدا له حيّاً. فما على الشيء والشمعة بيده، فرأى طفلة عمرها خمس سنين في أكثر تقدير، ترتدي ثوباً خلقاً مبتلاً بالماء كابتلال خرقة من الخرق التي تغسل بها الأرض، وهي ترتجف من البرد وتبكي. لم يظهر عليها ذعر حين رأت سفديجايروف، ولكنها حدقـت إليه بعينيها السوداويـن الكبيرـتين مبهوتـة. وكانت تشهـق من حين إلى حين، كما يشهـق طفل لـبـث يـبـكي مـدة طـوـيـلة ثم انـقـطـع عنـ البـكـاء وـهـدـأ آخرـ الـأـمـر، لـكـنـه ماـ يـزالـ يـشهـقـ بـيـنـ الـفـيـنـةـ وـالـفـيـنـةـ. كانت الطـفلـةـ شـاحـبـةـ الـوـجـهـ مـرـهـقـةـ الـهـيـةـ، وـكـانـ وـاـضـحـاـ أـنـ الـبـرـدـ قدـ بـلـغـ مـنـهـ الـعـظـامـ. «ولـكـنـ كـيـفـ أـمـكـنـ أـنـ تـقـعـ فـيـ هـذـاـ الـمـاـكـانـ؟ أـغـلـبـ الـظـنـ أـنـهـاـ قـدـ اـخـبـأـتـ فـيـ رـكـنـ وـلـمـ تـنـمـ طـوـالـ الـلـيـلـ»!

أخذ سفديجايروف يستجوبـهاـ. فـانتـعـشـتـ الطـفـلـةـ فـجـأـةـ، وـأـسـرـعـتـ تـتـدـقـ فـيـ الـكـلـامـ فـتـرـوـيـ بـلـغـتـهـاـ الطـفـولـيـةـ قـصـةـ فـحـواـهـاـ أـنـهـاـ كـانـتـ سـتـضـرـبـهـاـ لـأـنـهـاـ كـسـرـتـ فـنـجـانـاـ.

كانت الطفلة تتكلم بغير توقف؛ وفي وسع المرأة أن يحضر ما روته وقصّتها أنها ليست محبوبة، وأن أمها (وهي طباحة تظل دائمًا سكري)، ولعلها طباحة هذا المحل) تروّعها وتضرّ بها، وأنّ البنت حين كسرت الفنجان قد بلغ خوفها من الشدة أنها هربت منذ الليلة البارحة؛ وأنّها اضطرّت أن تختبئ مدة طويلة في مكان ما من الحوش، تحت المطر، ثم استطاعت أن تتسلل إلى هذا المكان خلسة، فاختبأت وراء الخزانة، وقضت الليلة هنالك مرتعنة من البرد والظلام مرتّجة باكية، خائفة من ضربات أمها.

أخذ سفديجاييف الطفلة بين ذراعيه، وعاد إلى غرفته فوضعها على سريره وأخذ يخلع لها ملابسها. كان حذاءها مقطّعين، مبتلين بالماء ابتلاً شديداً لكونها قد نُقعا في غدير ليلة كاملة. ولم يكن لها جوربان.

فلما فرغ سفديجاييف من خلع ملابسها عنها، أرقدّها ودثّرها بالبطانية حتى العنق، فما لبثت أن نامت فوراً. وما أن انتهى من هذا حتى عاد يغرق في أحلامه المظلمة وخواطره القاتمة.

قال يحّدث نفسه في غضب وحنق: «هذا ما كنت في حاجة إليه أيضاً! أن أفحّم نفسي في مثل هذه القصة! يا للحّاقة!». وتناول الشمعة مغناطساً ليمضي باحثاً عن الخادم من أجل أن ينصرف بأقصى سرعة. فلما همّ أن يفتح الباب أفلتت من لسانه شتيمة للطفلة الصغيرة، ومع ذلك عاد يلقي عليها نظرة ليرى هل نامت وكيف كان نومها. رفع البطانية محاذراً. كانت البنية تنام نوماً عميقاً هادئاً سعيداً. لقد دفأتها البطانية، حتى أن خديها قد استردا لونهما منذ الآن. ولكن الشيء الغريب أن هذا اللون كان أسطع اتقاداً مما يُلاحظ في الأطفال الآخرين. فقال سفديجاييف لنفسه: «إن بها حمّى». لكونها قد شربت، لكونها قد سُقِيت من الخمر كأساً كبيرة مترعة. إن شفتيها الحمراء تبدوان كالمحترقين. «لكن ماذا؟ ما هذا؟».

لقد رأى سفديجاييف فجأة أن أهداب الصبيّة، الطويلة السوداء، تختلّج وترتعش كأنّها تنفتح، ورأى من تحت الأهداب نظرة ماكرة حادة ليست نظرة أطفال، تتسلل إليه، فكأنّ الطفلة غير نائمة لكنها

تتظاهر بالنوم. نعم، ذلك ما كان... وانفرجت شفتها الصبيحة عن ابتسامة، وكانت أطراف الشفتين تختلي كأنها تحاولان كظم ضحكة. ولكن محاولة الكظم تنتهي، فتنطلق الضحكة. إنها ضحكة صريحة، وقحة، فيها تحد واستفزاز، تتفجر في وجه لم يبق فيه الآن شيء من طفولة. هو الآن وجه العهر والانحلال، وجه وقح زايله الحياء، وجه امرأة مثل «كاميليا»^{٨٤}، وجه مومس تتعاطى البغاء في سبيل المال، مومس فرنسية.وها هي ذي البنت، بعد أن لم يبق لها ما تخفيه، ها هي ذي تفتح عينيها، وتلفه بنظرة عنيفة محرقة، في غير تحفظ أو احتشام. إن عينيها تناديانه، وتضيكان... وإن هناك شيئاً دنساً مسيئاً مهيناً في هذه الضحكة، وفي هاتين العينين، وفي كل هذا الوجه الذي أصبح لا يعبر إلا عن الرجس والعار. «وكيف؟ أفي هذه السن؟ أفي الخامسة من العمر؟»، بهذا تتم سفدريجايلوف مذعوراً.

ولكنها هي ذي تدبر نحوه وجهها المتقد، وتمد إليه ذراعيها، فيقول مروعاً: «آه... يا للملعونة!»، ويشهر عليها ذراعه... ولكنه استيقظ من نومه في تلك اللحظة.

كان لا يزال راقداً على سريره متذمراً بالبطانية. ولم تكن الشمعة مشتعلة، غير أن بياض الفجر كان يلوح من وراء النوافذ.

«كوابيس طوال الليل!». كذلك قال سفدريجايلوف، ثم نهض متتصباً على سريره في غيظ وحنق. كان يحس بأنه مُحَطَّم. إنه يشعر بوجع في جميع عظامه. وفي الخارج كان ينتشر ضباب كثيف يحجب الرؤية. لا بد أن الساعة قريبة من الخامسة. لقد تأخر في النوم!

وقام سفدريجايلوف، فارتدى سترته ومعطفه اللذين ما يزالان مبتلين؛ وبعد أن تلمّس مسدسه في جيده، أخرجه فتثبت من الكبسولة، ثم جلس، وتناول دفتراً صغيراً فكتب على الورقة الأولى منه بضعة أسطر

^{٨٤} إن رواية ألكسندر دوما «غادة الكاميليا» (١٨٤٨) والمسرحية التي تحمل هذا الاسم نفسه قد راجتا رواجاً كبيراً جداً في روسيا. وأصبح اسم «كاميليا» يعني البغي الرافقية.

بأحرف كبيرة. حتى إذا أعاد قراءة الأسطر التي كتبها، رجع يترسل في أحلامه من جديد، متكتئاً بكتوبيه على المائدة. المسدس والدفتر ما يزالان على المائدة قرب كوعه. وقد استيقظ الذباب فهو يتهاf على قطعة لحم العجل التي لم يمسسها. ظل سفدريجايلوف ينظر إلى الذباب برهة طويلة، وحاول أخيراً أن يلقط ذبابة من الذبابات بيده اليمنى التي كانت طلقة. ولكنه لم يفلح في ذلك رغم الجهد الكثيرة التي بذلها. وفاجأ نفسه آخر الأمر مستغرقاً في هذا العمل الشيق فشاب إليه صوابه، وارتجمf، ونهض فخرج من الغرفة بخطى حازمة ثابتة. فما هي إلا لحظة حتى كان في الشارع.

إن ضباباً بلون اللبن كان يغمر المدينة. وسار سفدريجايلوف على أرض الشارع الخشبية الموحلة الزلقة في اتجاه نهر «نيفا الصغير». كان لا يكف عن تخيل مياه النهر التي ارتفعت أثناء الليل، وعن تخيل جزيرة بتروفسكي، والطرق المنقوعة والعشب الغارق والأشجار والأدغال التي يتقططر منها الماء، ثم الدغل المقصود!... واغتاظ من ذلك فأخذ يتفحّص المنازل من حوله ليصرف تفكيره إلى شيء آخر. لم يكن في الشارع أحد من المارة، ولم يكن فيه أي عربة. والمنازل الخشبية الصغيرة، الصفراء الفاقع لونها، كانت بناوافذها المغلقة ومصاريعها الموصدة، قدرة المظهر كالحة الهيئة.

أخذ سفدريجايلوف يرتجف من البرد والرطوبة اللذين نفذا فيه. فإذا وقع بصره على لافته دكان من دكاكين البضائع والخضروات بين الحين والحين، أخذ يقرأ الكلمات مدققاً متفحضاً.

/ ها قد انتهى الشارع المبلطة أرضه بالخشب. لقد وصل سفدريجايلوف إلى مبني كبير من حجر. وهذا كلب صغير بشع يمر أمامه قاطعاً الشارع، واضعاً ذيله بين قائمتيه. وهذا رجل سكران حتى لكانه ميت من فرط السكر، قد رقد على الرصيف عرضاً، لابساً معطفاً سميكاً، واضعاً وجهه على الأرض. نظر سفدريجايلوف إليه ثم تابع طريقه.

وظهر له برج كبير على شماليه فجأة. فهتف يقول لنفسه: «آ... وجدت المكان المناسب. علام الذهاب إلى جزيرة بتروفسكي؟ في هذا المكان يمكن على الأقل أن يوجد شاهد رسمي». وكاد يبتسم حين خطرت بباله هذه الفكرة، ثم انعطف يدخل شارع «س...». هناك كان يتتصب المبني الذي يعلوه برج^{٨٠}. وعلى باب الفناء من هذا المبني كان يستند بظهره رجل قصير القامة متذر بمعطف رمادي اللون من معاطف الجنود، وعلى رأسه خوذة من نحاس كخوذة آخيل^{٨١}. رشق الرجل سفدريجايلوف بنظرة باردة تعبّر عن النعاس. إن في وجهه تلك الكآبة الساخطة التي عمرها مئات السنين، تلك الكآبة التي تطبع في كثير من المرارة قسمات وجوه جميع الناس الذين ينتمون إلى ملة اليهود دون استثناء. وتفحص كل من سفدريجايلوف وآخيل صاحبه مدة من الوقت في صمت. ورأى آخيل أخيراً أن من غير الطبيعي أن يقف رجل ليس بالسكران حتى، وأن يقف على بعد ثلاث خطوات منه، ويأخذ يحدق إليه ويتفرّس فيه دون أن ينطق بكلمة. فقال يسأله، وهو ما يزال جاماً لا يتحرك:

– هيء! عم تبحث؟

فأجابه سفدريجايلوف:

– لا أبحث عن شيء فيها الأخ. صباح الخير.

– امض في طريقك!

– هل تعرف فيها الأخ؟ أنا مسافر إلى الخارج.

^{٨٠} «المبني الذي يعلوه برج»: هو ثكنة لرجال الإطفاء.

^{٨١} «... وعلى رأسه خوذة من نحاس كخوذة آخيل...»: كان بطل الملاحم الإغريقية القديمة آخيل يصور وعلى رأسه خوذة يكلّلها عرف متهدل من الأمام. وقد التقى سفدريجايلوف بأحد رجال الإطفاء الذي كان يرتدي خوذة نحاسية أثناء نوبته.

– إلى الخارج؟

– إلى أمريكا.

– إلى أمريكا؟

تناول سفدريجايلوف مسدسه وحشاه. فرفع آخيل حاجبه. وصاح يقول:

– ما هذا المزاح؟ ليس هذا هو المكان...

– لأنه ليس هو المكان...

– دعك يا صاحبي، لا ضير... هذا المكان مناسب مع ذلك. فإذا سئلت فقل إني سافرت إلى أمريكا.

قال سفدريجايلوف ذلك ووضع المسدس على صدغه الأيمن. فانبرى آخيل يقول له مندفعاً محملاً مزيداً

من الحملقة:

– منوع هنا. ليس هذا هو المكان!

وضغط سفدريجايلوف على الزناد.

الفصل السابع

في ذلك اليوم نفسه، عند المساء، بين الساعة السادسة والساعة السابعة، كان راسكولنيكوف يقترب من مسكن أمه وأخته، ذلك المسكن الذي أسكنهما فيه رازوميixin في عمارة باكلايف. إن مدخل السلم يطل على الشارع. كان راسكولنيكوف يتقدم متراجعاً، متباطئاً الخطو وكأنه يسأل في دخلة نفسه «أدخل أم لا؟». ولكن ما كان له أن يقفل راجعاً بحال من الأحوال، فقد اتخذ قراره وعزم أمره. كان يقول لنفسه: «إنها، على كل حال، لا تعرفان شيئاً حتى الآن، وقد ألفتا أن تدعاني شاداً...» كانت ثيابه في حالة رهيبة، فإنه بعد ليلة كاملة من المطر قد تبللت ملابسه وتلطخت بالوحول. وكان منقلب الوجه من التعب والقلق والطقس الرديء والإجهاد الجسمي والصراع الروحي الذي ظل ناشباً في نفسه منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة. كان قد قضى الليل وحيداً لا يعلم إلا الله أين، ولكنه كان قد عقد العزم على إنفاذ الأمر.

طرق الباب، ففتحت له أمه. كانت دونيا قد خرجمت. وحتى الخادمة كانت غائبة في هذه الساعة. خرست بولخيريا الكسندروفنا من الدهشة والفرح في أول الأمر، ثم أمسكت يده وقادته إلى الغرفة.

وبدأت تتكلم متلعثمة من فرط السعادة فقالت:

ـ آه... ها أنت ذا أخيراً! لا تزعل يا روديا إذا أنا استقبلتك هذا الاستقبال الأبله باكية. أني أضحك. أني لا أبكي. أظن أني أبكي؟ لا، أنا سعيدة. ولكن هذه عادة سخيفة من عاداتي. دموعي تنسكب لم لغير سبب... منذ مات أبوك أصبحت أبكي لأتفه أمر من الأمر. اجلس يا حبيبي، لا بد أنك متعب، أنا أرى هذا واضحاً! آه... ثيابك متتسخة جداً!...

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال:

ـ كنت أمس خارج البيت تحت المطر يا أماه!

فاندفعت بولخيريا السكندرو فنا تقول والبكاء والفرح يختلطان في كلامها:

– لا، لا، لا يذهبنّ بك الظن إلى أنني استجوبك، على عادتي القديمة المتبعة. أهداً بالاً، فإنني أفهم الآن كل شيء. لقد تعلمت عادات الناس هنا، وأدركت أنها خير من عاداتنا نحن هناك. وأيقنت أنه ليس من حقي أن أحاول معرفة أفكارك، وأن أحاسبك.. الله يعلم ما هي الخطط والشؤون التي تملأ رأسك، وما هي الخواطر التي ترهقك، فهل يجوز لي أن أشدك من ذراعك وأسائلك: «هيا، هيا قل لي، قل لي فيم تفكّر؟» يا رباه! ما حاجتي إلى هذه الشرارة أخبط فيها خطط عشواء! هل تعلم يا روديا؟ أنا الآن أقرأ، للمرة الثالثة، المقالة التي نشرتها في... في تلك المجلة. لقد جاعني بها دمترى بروكوفتش. فما إن رأيتها صحت أقول: آه... من فرط دهشتي! قلت لنفسي: «ما كان أغرباني وأشد حماقتي. هذا هو إذاً ما يشغل باله. هذا يفسر كل شيء. إنه يدير في رأسه أفكاراً يتأملها وينضجها، وأجيء أنا فاز عجه وأعذبه...». أني أقرأ مقالتك يابني، فيها أشياء لا أفهمها طبعاً. ولكن لا غرابة في ذلك، فما أنا إلا امرأة بسيطة.

– أريني تلك المقالة يا أمي.

تناول راسكولنيكوف المجلة، وألقى على مقالته نظرة عجل. فشعر، رغم أن هذه الصفحات متعارضة أشد التعارض مع وضعه القائم وحالته النفسية الراهنة، شعر بتلك العاطفة الغريبة، بتلك العذوبة الحادة، بتلك الحلاوة الكاوية التي يشعر بها الكتاب حين يرون إنتاجهم مطبوعاً لأول مرة (ولا سيما حين لا يكون عمرهم قد تجاوز الثالثة والعشرين). ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة قصيرة. فبعد أن قرأ الأسطر الأولى، تقطب حاجبه، وانقبض صدره، واحتنق قلبه بحزن رهيب. إن جميع أنواع الصراع والكفاح التي خاضها في هذه الأشهر الأخيرة قد عادت الآن إلى ذاكرته دفعة واحدة. فها هو ذا يرمي المجلة على المائدة بحركة اشمئزاز ولوعة.

– مهما أكن غبية يا روديا فإنني أستطيع أن أدرك أنك ستصبح في المستقبل القريب واحداً من أعظم رجال عالمنا المثقف، إن لم تصبح أعظمهم جميعاً بغير استثناء!... هه!... ومع ذلك تجاسروا فزعموا أنك مجنون! ها ها ها!... لعلك لا تعرف هذا، ولكنهم زعموا، ودار في خلدهم! ما أحقرهم دوداً من دود الأرض! مساكين! آنٌ لهم أن يفهموا ما هو الذكاء! ولكن ما بال دونيا، نعم ما بال دونيا قد أوشكت أن تصدق ذلك هي أيضاً؟... أهذا ممكن؟ إن المرحوم أباك قد أرسل... إنتاجه مرتين إلى إحدى المجالات، مرةً شعراً (ما زلت احتفظ بالدفتر، وسأريك إياه يوماً) ومرةً قصة (وقد رجوته أن يسمح لي بنسخها)، وما أكثر ما دعونا الله أن ينشروا إنتاجه ذاك ولكنهم لم ينشروه! هل تعلم يا روديا؟ إنني منذ ستة أيام أو سبعة قد حزنت حين رأيت كيف تعيش وماذا تأكل وماذا تلبس وأين تسكن؛ ولكنني أدرك الآن أنني كنت غبية في هذه المرة أيضاً، فلو قد شئت لنلت كل شيء دفعة واحدة بفضل ذكائك وموهبتك. ولكنك في أغلب الظن لا تشاء ذلك الآن، لأنك مشغول عنه بأمور أهم شأنًا.

– أليست دونيا في البيت يا أمي؟

– لا يا روديا، إنها تخرج في أكثر الأحيان وتدعني وحدي. لقد تلطف دمترى بروكوفتش فجاء يزورني ويقضي بعض الوقت في صحبتي. إنه يكلمني دائمًا عنك. إنه يحبك، ويقدرك حق قدرك يا بني. لا أزعم بهذا أن أختك لا تحفل بأمرى وأنها مقصورة في حقي، فلست ألوهها، ولكن لها طبعها ولها طبعها. وهي تخفي أسراراً صغيرة لا حصر لها، تخفيها عنى ولا تطلعني عليها. أما أنا فلست أخفي عنكما أي سر. أنا أعرف طبعاً أن دونيا ذكية جداً، وأنها كذلك تضمر لي، وتضمر لك أنت أيضاً، كثيراً من العاطفة والحنان. ولكنني لا أدرى كيف ستكون خاتمة هذه الأمور كلها. لقد أسعدتني بمجيئك كثيراً يا روديا، ولكنها هي ذي قد خرجمت في الوقت الذي جئت أنت فيه! سأقول لها حين تعود: « جاء أخوك في غيابك، فأين كنت خلال ذلك الوقت؟ ». ولكن لا تدللني كثيراً يا روديا: تعال إلى إن استطعت، فإن لم

تستطيع أن تجيء فلا ضير، وسأنتظرك على كل حال، وسأعرف دائمًا أنك تحبني، وهذا يكفيوني. سوف أقرأ مؤلفاتك، وسوف أسمع الناس جميعًا يتحدثون عنك، وسوف تجيء أنت إلى من حين إلى حين. ما عساي أتنى أكثر من ذلك؟ ها أنت ذا قد جئت ليالي اليوم لتواسي أمك، إنني أرى هذا واضحًا، فهل يمكن أن أطلب المزيد؟

هنا أخذت بولخيريا الكسندروفنا تبكي فجأة.

— آه... ها أنا أعود إلى البكاء! لا تنظر إلى يا بني! ما أنا إلا حمقاء!

ثم هفت تقول وهي تنهض واثبة:

— آه... ما بالي أظل جالسة هذا الجلوس! عندنا قهوة ولا أقدم لك منها... هذه أنانية المسنين! حالاً! حالاً!...

— أماه! دعي هذا! أنا ذاهب بعد لحظة! ما من أجل ذلك جئت. أرجوك، أصغي إلى!

اقربت منه بولخيريا الكسندروفنا وجلة. فقال يسألها طافح القلب، دون أن يفكر دون أن يزن كلامه:

— أتطلبين تحبني، يا أماه، كما تحبني الآن، مهما تسمعي عنِّي، ومهما تعلمي من أمري؟

فأجابت الأم:

— روديا، روديا، ماذا بك؟ كيف يمكنك أن تلقي سؤالاً كهذا السؤال؟ من ذا الذي يجرؤ أن يقول فيك سوءاً؟ وهب أحداً قال فيك سوءاً، فإني لن أصدقه؛ لن أصدق أحداً يجرؤ أن... سوف أطرد من يجرؤ... سوف أطردك...

تابع راسكولنيكوف كلامه يقول بحماس:

—جئت لأؤكد لك أني أحبيتك دائمًا، وإنه ليسرنى أن نكون الآن وحيدين، وأن لا تكون دونيا هنا. لقد
جئت لأقول لك بصراحة إن عليك، منها يصيبك من شقاء، أن تعلمي أن ابنك يحبك أكثر مما يحب نفسه،
وأن كل ما يمكن أن يخطر بال لك من ظنون عن قسوتي وقلة عاطفتى إنها هو باطل. وإنني لن أكف عن
حبك يوماً... كفى هذا الآن، وإنما أنا قدرت أن عليّ أن أقول هذا الكلام وأبدأ به..

ضمت بولخيريا الكسندر وفنا ابنها صامته، وشدته إلى صدرها، وبكت في رفق. وقالت أخيراً: لا أدرى ماذا بك يا روديا. كنت أقدر حتى هذه اللحظة أن كل ما في الأمر هو أنك قد ضقت بنا. ولكنني أدرك الآن إدراكاً واضحاً أن آلاماً كبيرة تنتظرك، وأن هذا هو السبب في حزنك. لقد أحسست بشيء من هذا إحساساً غامضاً منذ مدة يا روديا. سأمحني إذا أنا حدثتك في ذلك، ولكنني دائمة التفكير فيه، حتى أنه يؤرقني ويحرمني من النوم. كانت أختك في هذه الليلة تهذى، وتكلمت أثناء هذينها عنك. ميزت بعض الكلمات، لكنني لم أفهم شيئاً. وظللت طوال الصباح كمن يتضرر تنفيذ حكم الإعدام فيه؛ نعم، أصبحت أتوقع شيئاً ما سيحدث،وها هو ذا شيء الذي توقعته يحدث فعلاً! روديا! روديا! إلى أين أنت ذاهب؟ ستسافر؟ ستسافر، أليس كذلك؟

نعم، سأسافر.

—ذلك ما كنت أقدرّه! ولكن في وسعي أن أسافر معك، إذا كان ذلك ينفعك. ودونيا أيضاً تحبك، تحبك
كثيراً، ولنأت معنا صونيا سيميونوفنا أيضاً إذا وجب ذلك! أنني مستعدة لأن أقبلها بتالي. وسيساعدنا
دمني بروكوفتش في الاستعداد للسفر. ولكن إلى أين تريد أن تسافر؟

— استو دعك الله يا أماه !

هتفت الأم تقول وكأنها تفقد ابنها إلى الأبد:

– كيف؟ أفي هذا اليوم نفسه؟

– لا أستطيع التأخّر... آن الأوان... يجب حتّماً أن...

– وأنا؟ ألا أستطيع أن.. أذهب معك؟

– لا. ولكن اركعي وصلي لي، فلعل الله يستجيب لصلاتك!

– دعني أرسم عليك إشارة الصليب، دعني أباركك. نعم، هكذا، هكذا! رياه... ماذا نفعل؟

نعم، لقد كان راسكولنيكوف سعيداً، سعيداً جداً بأنّ البيت خالٍ ليس فيه أحد، كان سعيداً بأن يخلو إلى أمّه، حتّى لكانه بعد جميع العذابات الرهيبة التي عانها قد ذاب قلبه حناناً على حين فجأة دفعة واحدة؛ فها هو يرتمي على قدمي أمّه فيقبلها، وها هما يبكيان كلاهما ويتعانقان. والأم في هذه المرة لا تشعر بدهشة ولا تلقي سؤالاً. لقد أدركت أنّ ابنتها يعاني أموراً فظيعة، وأنّ لحظة رهيبة سوف تأذف بعد قليل، فتحدد مصيره تحديداً حاسماً.

قالت ناشجة:

– روديا، يا بني الحبيب، يا أول ولدي، هأنا ذي أراك الآن كما كنت في صغرك تماماً. كنت تحيء إلى على هذا النحو نفسه، فتطوّقني، وتقبلني، بهذه الطريقة نفسها. وحين كان أبوك ما يزال معنا، وحين كانت حياتنا قاسية قسوة شديدة، كنت أنت تعزينا كلّينا بوجودك. وبعد أن دفنت أبوك، كم من مرّة بكينا على قبره، أنا وأنت، متعانقين كتعانقنا الآن! لئن كنت أبكي منذ مدة، فلأنّ قلبي قلب الأم قد أوجس أن شرّاً سيقع، أن مصيبة ستنزل. حين رأيتكم أول مرّة ذلك المساء، هل تذكرة؟ – يوم وصلنا إلى هنا حزرت كل شيء من رؤية نظرتك وحدها، فسرعان ما ارتعش قلبي؛ واليوم، حين فتحت لك الباب، نظرت

إليك فلم ألبث أن قلت لنفسي: لا شك أن الساعة المسؤومة قد حانت. روديا، روديا، أنت مسافر فوراً؟

ـ لا.

ـ هل ستعود؟

ـ نعم... سأعود.

ـ روديا، لا تزعل، أنا لا أجرب أن أسألك، أنا أعرف أنني لن أجرب، ولكن قل لي كلمة واحدة فقط: هل المكان الذي ستssافر إليه بعيد؟

ـ بعيد جداً.

ـ ما الذي يدعوك إلى هناك؟ وظيفة، عمل؟

ـ ما يرسله إلى الله... ولكن صلي من أجلي!

واتجه راسكولنيكوف نحو الباب، غير أنه أمه تشبثت به، ونظرت إليه محدقة في عينيه وقد عَبر وجهها عن يأس شديد، وانقلبت ساحتها خوفاً وذعراً.

قال راسكولنيكوف نادماً أعمق الندم على أنه جاء:

ـ كفى يا أماه!

ـ لست تسافر إلى الأبد، أليس كذلك؟ لست تسافر إلى الأبد بعد، أليس كذلك؟ وسترجع غداً، ألن ترجع غداً؟

– سأرجع، سأرجع، استودعك الله!

وانتزع نفسه منها أخيراً.

كان المساء ناعماً طرياً صافياً. لقد صحا الجو منذ الصباح. وعاد راسكولنيكوف إلى بيته. كان مسرعاً. كان يريد أن يفرغ من الأمر قبل غياب الشمس. وكان حتى هذه اللحظة يتمنى أن لا يصادف أحداً. فلما كان صاعداً إلى غرفته لاحظ أن ناستاسيا تركت سماورها وأخذت تحدق فيه وتتابعه بنظراتها. قال يسأل نفسه: «أيكون أحد عندي؟». وتذكر بورفيري مشمئزاً متعضاً. لكنه حين وصل إلى غرفته وفتح الباب، رأى دونيا. كانت جالسة بمفردها على الديوان، غارقة في تأمل عميق. وكان واضحاً أنها قد انتظرته مدة طويلة. وقف على العتبة. نهضت خائفة وانتصبت أمامه. إن نظرتها المحدقة إليه الثابتة عليه تعبر عن ذعر هائل وحزن لا نهاية له. أدرك من هذه النظرة وحدها أنها تعرف كل شيء.

سأله حائراً:

– أدخل أن أصرف؟

قالت:

– قضيت النهار كله عند صونيا سيميونوفنا. كنا ننتظرك كلتانا. وكنا نظن أنك لا بد أن تأتي.

دخل راسكولنيكوف، وتهاوى على كرسي، مهدود القوى، وقال:

– أشعر بضعف ووهن يا دونيا، أني متعب جداً، وأنا في هذه اللحظة خاصة إنما احتاج إلى قواي كلها.

ونظر إليها نظرة ارتياخ.

– أين كنت طوال الليل؟

– لا أتذكر جيداً. لقد أردت يا أختي أن أخذ قراراً حاسماً، ومضيت عدة مرات إلى قرب نهر نيفا. هذا أتذكره. أردت أن أنهي الأمر هنالك...

وأضاف راسكولنيكوف يقول متتماً وهو يلقي على دونيا تلك النظرة المرتابة نفسها:

– ولكنني... لم أعزّم أمري...

– الحمد لله!... ليتك تعلم كم كنا خائفتين، أنا وصونيا سيميونوفنا، من أن تفعل ذلك! إذًا ما زلت تؤمن بالحياة! الحمد لله! الحمد لله!

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة مرة. وقال:

– كنت لا أؤمن بها، ولكنني آمنت منذ قليل، حين تعاوننا أنا وأمي، وبكينا. أنا لست مؤمناً، ومع ذلك طلبت من أمي أن تصلي من أجلي وأن تدعوا الله لي. الله يعلم كيف يحدث هذا يا دونيتشكا! على كل حال، لست أفهم من الأمر شيئاً!...

هتفت دونيا تقول مذعورة:

– كنت عند أمنا؟ وقلت لها؟... هل جرئت حقاً أن تقول لها...

– لا، لم أقل شيئاً... لكنها فهمت الكثير. لقد سمعتكم تهذين في الليل. وإني لواثق أنها تعرف الحقيقة منذ الآن. لا أدرى لماذا ذهبت إليها. أنا إنسان سيء دنيء يا دونيا!

– أنت إنسان سيء، أنت الذي ترضى أن تقبل الألم؟ ذلك أنك تقبل الألم، أليس كذلك؟

– نعم، الآن أقبله. إنني من أجل أن أتحاشى هذا العار، أردت أن أغرق نفسي يا دونيا. ولكنني حين ملت فوق مياه النهر، قلت: ما دمت أعد نفسي رجلاً قوياً فما ينبغي أن أتراجع أمام العار. هذه كبراء يا دونيا،
أليس كذلك؟

– نعم، هي كبراء يا روديا!

لكان شعلة قد عادت تتقد في عيني راسكولنيكوف المنظفين: كأنما ما يزال يسره أن يكون ذا كبراء!

وسأل أخته وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ويحدق إلى عينيها بنظرة ثابتة:

– قولي يا أختي، لماذا لا تظنين أن الخوف من الماء وحده هو الذي صدّني عن الانتحار غرقاً؟

فهتفت دونيا تقول بمرارة:

– كفى يا روديا!

وساد الصمت دقيقتين.

كان راسكولنيكوف جالساً خافض العينين. وكانت دونيا واقفة عند الركن الآخر من المائدة تتأمله وقد عَبَّر وجهها عن ألم شديد. ونهض راسكولنيكوف فجأة. وقال:

– تأخرت. حانت الساعة. سأمضي أشي ببني. ولكنني لا أدرى لماذا أشي ببني!

فانحدرت على خدي الفتاة دموع كبيرة.

قال راسكولنيكوف:

– تبكيين يا أختي؟ ولكن هل تقبلين أن تمدي إلى يدك؟

قالت:

– هل يساورك شك في هذا؟

ثم ضمته بين ذراعيها ضمًّا قوياً. وهتفت تقول وهي ما تزال تعانقه وتقبلاه:

– ألسنت تمحو نصف جريمتك حين تقبل الألم؟

فصاح فجأة يسألا في سورة من غضباً شديداً:

– جريمة؟ أية جريمة؟ أ يكون جريمة قتل قملة قدرة ضارة، قتل مراية عجوز لا يحتاج إليها أحد، مراية تتص دماء الفقراء؟ ألا إن قتلها ليمحو أربعين خطيبة! لا أظن أن هذا الفعل جريمة، ولا أريد أن أتظهر منه وأكفر عنه. ما بالكم جمِيعاً تكررون على مسامعي: «جريمة، جريمة»؟ نعم، إنني وقد قررت أن أحمل هذا العار الذي لا طائل تحته، أدرك الآن مدى ما يشتمل عليه جبني من سخف. إن الدناءة وعدم الكفاءة وحدهما هما اللتان تدفعاني إلى أن... وربما أضيفت إليهما المنفعة... كما... كما يقترح علي ذلك... بورفيري!

صاحت دونيا تقول وقد استولى عليها يأس شديد:

– أخي، أخي، ما هذا الذي تقوله؟ لقد سفحت دم إنسان!....

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه يقول خارجاً عن طوره:

– دم يسفحه جميع الناس، يجري وسيظل يجري على الأرض أنهاراً... نعم... يسكنه جميع الناس كالشمبانيا، ومن أجل ذلك يتوج بعضهم في «الكابيتول»^{٨٧}، ويسمى بطلاً من الأبطال الذين أحسنوا إلى الإنسانية! أنعمى النظر قليلاً واحكمي في الأمر! أنا قد أردت أن أصنع للبشر خيراً، و كنت مستعداً لأن أقوم بمئات الحسنات بل بألف الحسنات تعويضاً عن تلك الحماقة البسيطة... بل قولي عن تلك الخرافية البسيطة، لأن الفكرة في ذاتها لم تكن حمقاء إلى الحد الذي يبدو الآن، بعد أن أخفقت (نعم إن كل من يتحقق يبدو غبياً أحمق). الخلاصة أنني رجوت بهذه الحماقة – إذا سلمنا أنها حماقة – أن أخلق لنفسي وضعاً مستقلاً، أن أخطو خطوة أولى، أن أحصل على موارد، فإذا جمّع الأمور تدبر بعد ذلك على نحو أكثر فائدة (بالمقارنة مع القتل)، فائدة لا تقايس... كل ما هنالك إنني منذ الخطوة الأولى قد ترناحت لأنني جبان. تلك هي الحقيقة! غير أنني لن انظر إلى الأمر بعيونكم أنتم: فلو قد نجحت لوضعوا على رأسي أكاليل الغار، أما الآن فإنهما يلقيونني إلى الكلاب..

– ليس هذا صحيحاً، ليس صحيحاً أبداً! ما هذا الذي تقوله يا أخي؟

– صحيح أنني لم أرّاع الأشكال البديةة التي توجّبها قواعد الجمال. ولكن هل تعتقدين حقاً أن قذف القنابل على سكان آمنين، وإنهماكهم بحصار منتظم، أكثر مراعاة للأشكال البديةة وأكثر تقييداً بقواعد الجمال؟ ثم إن الاهتمام بقواعد الجمال أول علائم العجز... إنني لم أحسّ هذه الحقيقة في يوم من الأيام كما أحسّها الآن، ولا عجزت في يوم من الأيام عن أن أفهم ما هي جريمتى كما أعجز عن هذا الآن! لم أكن في يوم من الأيام أشد اقتناعاً وأرسخ يقيناً مني في هذه اللحظة!....

^{٨٧} «... دم يسفحه جميع الناس... ومن أجله يتوج بعضهم في الكابيتول»: المقصود معبد الكابيتول في روما القديمة، حيث كانت تعقد جلسات مجلس الشيوخ. وقد أتعم فيه على القائد العسكري الروماني يوليوس قيصر بلقب الكاهن الأكبر والخطيب العسكري أثر عودته إلى روما بعد أن فتك بلا رحمة بقراصنة البحر.

قال راسكولنيكوف هذا واحمر وجهه الشاحب احمراراً قانياً على حين فجأة. لكنه حين نطق بهذه الصيحة الأخيرة التقت عيناه مصادفة بنظرة دونيا، فقرأ في هذه النظرة أملًا يبلغ من الشدة أن راسكولنيكوف لم يلبث أن ثاب إلى رشده فجأة وسيطر على اندفاعه على الرغم من إرادته. لقد شعر أنه على كل حال قد أشقى امرأتين مسكيتين. إنه هو السبب مهما يكن من أمر!... قال:

— دونيا العزيزة، إذا كنت مذنبًا فاغفر لي (رغم أن الغفران مستحيل إذا كنت مذنبًا). استودعك الله! كفى مناقشة! لقد آن الأوان حتى لقد تأخرت! لا تتعيني، أرجوك! هناك زيارة أخرى يجب أن أقوم بها... انصر في حالاً وابقي إلى جانب أمنا، أرجوك، أصرع إليك! هذا آخر وأكبر رجاء أتوجه به إليك. لا تتركيها لحظة واحدة. لقد ودّعتها وهي على حال من القلق لا تستطيع أن تطيقها... فإذاً أن تموت وإنما أن تُجنب. فابقي إذاً بقربها! وسيكون رازوميixin إلى جانبكما، لقد كلمته في الأمر... لا تبكي علي... سأحاول أن أكون طوال حياتي شريفاً وشجاعاً، رغم أنني قاتل. وقد تسمعين باسمي في يوم من الأيام. لن ألطخ شرفكم بالعار. سوف ترين. سوف أبرهن...

وأسرع راسكولنيكوف يقول وقد لاحظ حين نطق هذه الكلمات الأخيرة وبذل تلك الوعود أن عيني دونيا قد التمع فيها تعير غريب:

— والآن، إلى اللقاء. لماذا تبكين هكذا؟ لا تبكي! لا تبكي! إننا لا نفترق إلى الأبد! ها... نعم... انتظري... نسيت!...

واقترب من المائدة، فتناول كتاباً ضخماً غشاه الغبار، ففتحه، وسحب منه صورة صغيرة لوجه مرسوم بالألوان المائية على عاج، كانت موجودة بين أوراق الكتاب. إنها صورة بنت صاحبة البيت، الفتاة التي

ماتت من الحمى وكانت في الماضي خطيبته وكانت تريد أن تدخل الدير. تأمل راسكولنيكوف هذا الوجه الصغير العابر المتألم، ثم قبل الصورة ومدّها إلى دونيا وهو يدمدم شارد الذهن:

– كثيراً ما كلمتها هي أيضاً عن ذلك الأمر. لقد بحث لقلبها بكثير مما تحقق بعد ذلك تحققاً جهنميّاً!

وأردف يقول لدونيا:

– لا تقلقي يا دونيا؛ كانت لا تؤيد آرائي ولا تحبّذها مثلما لا تؤيدنها ولا تحبّذنها أنت! وإنّي لأحمد الله على أنها بارحت هذا العالم!

ثم هاتف يقول فجأة وقد عاد إليه عذابه:

– المهم، المهم أن كل شيء سيتغير، وأن الانفصال عن الماضي سيكون تاماً. نعم، كل شيء سيتغير! ولكن هل أعددت نفسي لهذا؟ وهل أنا أريده حقاً؟ يقال إن هذه المحنّة لازمة لي، ولكن فيم هذه المحنّة السخيفة كلها؟ ما فائدتها؟ ما جدواها؟ هل سأكون أقدر على الفهم مما أنا عليه الآن، حين أصبح، بعد عشرين سنة من الاعتقال، شيئاً مرهقاً هدّه الألم ودمّره العذاب وصار أبله معتوهاً؟ وما فائدة أن أبقى على قيد الحياة بعد ذلك؟ لماذا قبلت حياة كهذه الحياة؟ آه... لقد أدركت حقاً أنني جبان رعديد حين ملت على مياه نهر نيفا في هذا الصباح عند الفجر!

وخرج الاثنين أخيراً. كانت دونيا تتألم كثيراً. ولكنها كانت تحبّ أخاها. وابتعدت. غير إنّها ما أن سارت خمسين خطوة حتى التفتت إلى وراء لتنظر إليه ولو مرة واحدة. كان راسكولنيكوف ما يزال يُرى. وحين وصل إلى ناصية الشارع التفت هو أيضاً، فاللتقت نظراتهما آخر مرة. لكنه حين لمح أن أخته تنظر إليه حرك يده بإشارة تململ بل بإشارة غضب، ليومئ لها بأن عليها أن تتبع السير في طريقها. وأسرع يغيب هو أيضاً عند منعطف الشارع.

وحدث نفسه يقول آسفاً على حركة التململ أو الغضب التي بدرت منه: «أنا شرير! واضح أنني شرير!... ولكن لماذا يحبونني كل هذا الحب ما دمت لا أستحقه؟ آه... لو كنت وحيداً، لو لم يكن هناك أحد يحبني، ولو لم أحب أحداً أبداً إذاً لما حدث شيء من ذلك كله! والآن أود لو أعرف هل سأصبح بعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة من السجن، هل سأصبح ذليلاً مذعناً صاغراً إلى الحد الكافي الذي يجعلني أمضي إلى جميع الناس أذرف أمامهم الدموع، وأعلن لهم أنني وغد؟ طبعاً، هذا هو السبب الذي يخضعهم على إرسالي إلى السجن؟ ذلك هو ما يريدون... آه... إنني أراهم جميعاً يذهبون ويحيطون في الشوارع. إنهم جميعاً جبناء حقيرون أو غاد، والأنكى من ذلك أنهم جميعاً بلهاء معتوهون! ومع ذلك يكفي أن أحاول تحاشي السجن حتى تثور مشاعرهم النبيلة فإذا هم مستاؤون ساخطون! آه... إنني أكرههم! وأمقتهم جميعاً!».

وغرق راسكولنيكوف في خواطره وتأملاته، فكان يتساءل: «كيف سأنتهي شيئاً فشيئاً إلى الشعور بالذلة أمامهم جميعاً على اقتناع مني بذلك؟ ولكن لم لا؟ لا شك أن الأمر سيجري هذا المجرى. ألا تستطيع عشرون سنة من العبودية المتصلة إلى بلوغ هذا الهدف؟ الماء يأكل الصخر. ولكن إذا صح هذا، فعلام أحياناً، علام أحياناً؟ نعم، علام أذهب إلى هناك مع أنني أعلم منذ الآن أن كل شيء سيجري على نحو ما أتبأ، لا على أي نحو آخر؟».

لعله حين ألقى هذا السؤال على نفسه الآن قد ألقاه للمرة المائة منذ البارحة. لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار في السير.

الفصل الثامن

حين دخل راسكولنيكوف على صونيا كان الغسق قد أخذ يهبط. لقد انتظرته صونيا طوال النهار وهي في حالة قلق رهيب. انتظرته مع دونيا. إن دونيا قد جاءت إلى صونيا في الصباح إذ تذكرت أن سفدريجايلوف قال لها إن صونيا «تعرف». لن نروي تفاصيل الحديث الذي جرى بين دونيا وصونيا، ولن نتحدث عن الدموع التي ذرفتها، وعن التفاهم الذي نشأ بينهما. وحسبنا أن نقول إن دونيا قد خرجت من هذا اللقاء بعزاء كبير: إن أخاها لن يكون وحيداً. فلها، لصونيا، إنما أفضى بسره وباح بجريمته قبل أي شخص آخر؛ وفيها، في صونيا، إنما التماس إنساناً يركن إليه حين أحسّ أنه في حاجة إلى إنسان يركن إليه. فهي التي ستتبعه إذن أيّها ترسله الأقدار. لم تلق دونيا أي سؤال عن هذا الأمر، ولكنها كانت تعلم أن ذلك هو ما سيحدث. حتى لقد كانت تنظر إلى صونيا بنوع من التقديس اضطربت له صونيا في أول الأمر، وخجلت منه، وكاد يبكيها، من فرط قوّة اعتقادها بأنّها أهون شأنًا وأحقر قيمة من أن ترفع عينيها إلى دونيا. إن صورة دونيا الرائعة الفاتنة، حين حيتها بكثير من الاهتمام والاحترام يوم لقائهما في بيت راسكولنيكوف، قد انحفرت في نفسها إلى الأبد صورة من أجمل وأروع ما رأت في حياتها من صور جميلة رائعة.

ونفذ صبر دونيا أخيراً فتركت صونيا لتنتظر أخاها في بيته. لقد بدا لها أنه سيذهب إلى هناك أولاً. فلما خلت صونيا إلى نفسها عاودها الخوف الرهيب من أن راسكولنيكوف قد يتتحر. وكانت دونيا، هي أيضاً، تخشى ذلك. ولكن كلاً منها كانت قد ظلت تقنع الأخرى بأن هذا التصور ليس له ما يسُوّغه وأن الأمر يستحيل أن يقع، مستندتين في ذلك إلى جميع الأدلة والحجج التي يمكن تخيلها. لهذا كانتا هادئتين بعض المهدوء طوال مدة اجتماعهما. ولكن ما إن افترقتا حتى أصبحتا كلتا هما لا تفكران إلا في هذا. تذكرت صونيا أن سفدريجايلوف قال لها أمس أن أمّا راسكولنيكوف مخرجين لا ثالث لهما: فإذا

سيبيريا وإنما... وكانت تعرف من جهة أخرى كبراء الشاب واعتزازه بنفسه وقلة عاطفته الدينية، فكانت تتساءل يائسة أشد اليأس: «هل يمكن أن يكون التخاذل والخوف من الموت كافيين وحدهما لصده عن الانتحار وجعله يتثبت بالحياة؟».

كانت الشمس تميل إلى الغروب في أثناء ذلك. وكانت صونيا واقفة قرب النافذة تحدق إلى الخارج حزينة ملتاعة. ولكن جداراً مسوداً من جدران منزل مجاور كان هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن تراه العين من هناك. وأخيراً، حين أصبحت على مثل اليقين بأن المسكين قد مات، دخل عليها راسكولنيكوف. فانطلقت من صدر صونيا صرخة فرح، ولكنها حين تفرست في وجهه ملياً أصفر وجهها فجأة.

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة ساخرة:

ـ هيئه صونيا! لقد جئت آخذ صليبيك! ألم تأمرني أنت نفسك بأن أمضي أعرف على رؤوس الأشهاد؟
فما بالك تخافين الآن وقد قررت أن أضع ذلك موضع التنفيذ؟

كانت صونيا تنظر إليه مذهولة مبهوته. لقد بدت لها هذه اللهجة غريبة. وسرت في جسمها رعدة باردة، لكنها أدركت بعد دقيقة واحدة أن كل شيء، اللهجة والكلمات لم يكن إلا ظاهراً وتصنعاً. لقد كان يكلمها وهو ينظر إلى ركن، متهرباً من نظراتها. وأردف يقول:

ـ اسمعي يا صونيا، لقد وجدت أن من مصلحتي أن أتصرف هذا التصرف، فإن هناك ظرفاً خاصاً... ولكن الأمر يطول شرحه... ثم لا قيمة لهذا... ولكن هل تعلمين ما الذي يغطيوني ويحقنني؟ إنني أجنّ غضباً حين أتصور جميع أولئك الجفاة الأغياء الوحوش يزدحون حولي ويحيطون بي ويحملقون فيّ، وحين أتصور جميع الأسئلة البلياء التي سيلقونها عليّ والتي سيكون من واجبي أن أجيب عنها؛ حين أتصور جميع هؤلاء الناس الذين سيشيرون إلى بأصابعهم... هه!... هل تعلمين؟ لن أذهب إلى

بورفيرى. لقد أزعجني كثيراً. وإنما سأذهب إلى صديقى «البارود». وبذلك أدهشه أشد دهشة. لا شك أننى سأثير في نفسه دهشة كبيرة! ولكن ينبغي أن أكون أكثر هدوء، وقد أصبحت في الآونة الأخيرة ثائراً الأعصاب! هل تصدقين؟ لقد أوشكت منذ قليل أن ألوح لأختى بيدي مهدداً متوعداً، لا لشيء إلا لأنها التفتت تلقي على نظرة أخيرة! آه... إنه لعار أن أكون في مثل هذه الحالة العصبية! أتراني هبطت إلى مثل هذا الدرك الأسفل؟ والآن، أين الصليبان؟

كان راسكولنيكوف لا يبدو في حالة سوية. كان لا يستطيع حتى أن يستقر في مكانه دقيقة واحدة، ولا أن يركز انتباهه على أي شيء. كانت أفكاره تختلط في أحاديثه وتشابك وتضطرب. وكانت يداه ترتجفان قليلاً.

سلّت صونيا صليبيها من الدرج من دون أن تقول شيئاً: الصليب الخشبي المصنوع من خشب السرو والصلب النحاسي. ورسمت على نفسها إشارة الصليب ثم رسمت إشارة الصليب على راسكولنيكوف، ثم علّقت صليب خشب السرو في عنقه.

– يرمز هذا إجمالاً إلى أنني أحمل صليبي... ها ها ها!... كأنني متألمت ألمًا كافياً حتى الآن! إن الصليب الخشبي هو أبناء الشعب! أما الصليب النحاسي، أي صليب اليزافيتا، فأنت تحتفظين به لنفسك. أرينيه! إذن كانت اليزافيتا تحمله... في ذلك الأوّان! أنا أيضاً أعرف صليبيين من هذا النوع، بل صليبياً من فضة وأيقونة صغيرة. رميتهما في ذلك اليوم على صدر العجوز. فانظري ماذا يجب عليّ أن أضع في عنقي اليوم! على كل حال... أنا أقول سخافات، وأنسى الأمر الأساسي... أنني ذاهل... اسمع يا صونيا: لقد جئت لأبلغك... نعم، يجب أن تعلمي... أنا لم أجيء إلا لهذا (ولقد كنت مع ذلك أقدر أن أقول أكثر مما سأقول)... اسمع: أنت التي حضرتني على أن أفعل ما سأفعل... سوف أنفذ إرادتك فأدخل السجن. ولكن ما بالك تبكيين أنت أيضاً؟ كفى كفى! كفى بكاء! آه... لشد ما يؤلمني هذا كله!

غير أن حناناً ولد في قلبه، وانقبض صدره حين رأى صونيا تبكي. وتساءل: «وهذه، لماذا تتألم هذه؟ ماذا أنا عندها؟ ما بالها تبكي؟ ما الذي يجعلها تهتم بي كأنها أمي أو أختي؟ ما الذي يحملها على أن تصاحبني إلى نهاية الشوط؟ آه... سوف تكون لي بمثابة المربية للطفل».

تضرعت إليه صونيا قائلة بصوت خائف مرتعش:

— ارسم إشارة الصليب! صلّ مرة واحدة على الأقل!

— إذا كان ذلك يرضيك فسأفعله ما شئت من مرات! سأفعله راضياً كل الرضى يا صونيا!

والحق أن راسكولنيكوف كان يتمنى لو يقول شيئاً آخر تماماً.

وها هو ذا يرسم إشارة الصليب عدة مرات. وتناولت صونيا شاحها فغطت به رأسها. هو خمار أحضر من جوخ السيدات، لعله «شال الأسرة» الذي تكلم عنه مارميلاروف. ومضت هذه الفكرة في ذهن راسكولنيكوف خلسة، ولكنه لم يلق أي سؤال. لقد بدأ يلاحظ أنه أصبح ذاهلاً ذهولاً فظيعاً، وأنه أصبح قلقاً قلقاً رهيباً. خاف من شعوره هذا. وسرعان ما أدهشه أشد الدهشة على حين فجأة أن يرى صونيا تتهيأ لصاحبه.

صاحب يقول لها غاضباً:

— ماذا تفعلين؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ ابقي! ابقي! سأذهب وحدي.

واتجه نحو الباب شبه زعلان، وتمتم يقول وهو يخرج:

— أأنا في حاجة إلى خفير؟

بقيت صونيا في وسط الغرفة. لقد أهمل حتى توديعها. نسيها منذ الآن، لأن الارتباط اللاذع المتمرد غمر قلبه. تسأله وهو يهبط السلالم: «هل هذا ما يجب أن أفعله حقاً؟ أليس من الممكن أن أتوقف، أن أنكص على عقبي، أن أدبر الأمور... أن لا أذهب إلى هناك؟»

ومع ذلك واصل سيره. لقد شعر شعوراً حاسماً بأنه لا جدوى من التساؤل ووقت التردد قد مضى. حتى إذا صار في الشارع تذكر أنه لم يودع صونيا، وأنها بقيت في وسط الغرفة مع شاحتها الأخضر لا تجرؤ أن تتحرك مخافة أن تغضبه. فتوقف لحظة. ولكن فكرة واحدة ومتباينة وافته في تلك اللحظة نفسها، كأنها انتظرت هذه اللحظة نفسها لتوافقها. تسأله قائلاً: «لماذا ذهبت إليها؟ لقد قلت لها أني إنما جئت لها تنفيذاً لمهمة يجب عليّ أن أقوم بها؟ ما هي تلك المهمة؟ ليس هناك أية مهمة تدفعني إلى زيارتها! ألا يبلغها أني ذاهب إلى هناك؟ أكان هذا ضرورياً؟ أتراني أحبها؟ لا، لا، غير معقول!... ألم أدفعها عنى منذ لحظة كما يدفع كلب؟ هل صلبيها إذاً هو ما كنت في حاجة إليه؟ آه... إلى أي درك من الدناءة قد هبطت! لا، لا، وإنما أنا كنت في حاجة إلى دموعها. كنت في حاجة إلى أن أرى رعبها وذعرها، كنت في حاجة إلى أن أرى قلبها يتلوى ويتمزق. كنت في حاجة إلى أن أتشبث بشيء ما، إلى أن أكسب وقتاً، إلى أن أتأمل إنساناً! هذا ما كنت في حاجة إليه، ومع ذلك تجرأت في يوم من الأيام فتخيلت أن مصيرًا عظيماً يناديني إليه، واعتمدت على نفسي فأقدمت على أمر كتلك الأمور، أنا الذي لست إلا إنساناً حقيراً تافهاً، وغداً!»

كان يسير على طول رصيف القناة. لم يبق بينه وبين الوصول إلا مسافة قصيرة. لكنه حين وصل إلى الجسر توقف لحظة، ثم لم يلبث أن مضى يعبر الجسر، فنأى بذلك عن طريقه، واتجه نحو سوق العلف.

كان ينظر يمنة ويسرة بشرابة، ويحاول أن يتفحّص كل شيء من الأشياء متمعناً، لكن انتباهه لم يستطع أن يتركز على شيء من هذه الأشياء. فكل شيء يتهرّب منه ويغيب عنه. وخطرت بباله خاطرة، وحدث

نفسه قائلاً: «بعد شهر، بعد أسبوع، سيعبرون بي هذا الجسر ماضين بي إلى مكان ما على عربة سجناء، فأيّ نظرة سألقي على هذه القناة نفسها يومذاك؟ هل سأذكر أنني رأيتها على نحو ما أراها الآن؟ وهذه اللافتة؟ كيف سأقرأ عندئذ أحرفها؟ هذه الكلمة «شركة».

فهل سأذكر هذه «الشين»، هل سأذكر حرف «الشين» هذا؟ وإذا تلبت عيناي بعد شهر على الحرف نفسه فهل سأنظر إليه كما انظر إليه الآن؟ نعم، ما عسى تكون إحساساتي وأفكاري حينذاك، أوه... ما أتته وما أسفخ هذه المشاغل!... لا شك أن هذا أمر غريب... (هأ هأ... ماذا أيضاً؟) إنني أرتد إلى الطفولة، فاصطعن أوضاعاً انظر إليها وأعتز بها. ولكن لا، لماذا أخجل من نفسي؟ أوه... ما أكثر التزاحم والتصادم في هذا المكان! هذا هو، الرجل السمين ذاك... لا شك أنه ألماني... هو الذي صدمني ودفعني. فهل يعلم من هو الذي صدمه؟ وهذه المرأة العجوز التي تجر طفلاً وتستجديني صدقة، من المضحك أنها تظنني أسعد منها. طيب... على كل حال... عليّ أن أنفحها صدقة، هكذا، من باب اللعب، على سبيل العبث... هوه! بقي في جيبي خمسة كوبكات! تُرى من أين وكيف؟»

وقال راسكولنيكوف يخاطب المتسولة:

— خذيه، خذيه، أيتها الأم الطيبة!

فقالت المتسولة بصوت فيه بكاء:

— حماك الله!

ودخل راسكولنيكوف سوق العلف. كان يشعر من ملامسة كوعيه لذلك العدد الكبير من الناس، كان يشعر بإحساس مزعج كريه أليم، ولكن هذا لم يمنعه من الاتجاه إلى حيث يحتشد الناس أكثف احتشاد. كان مستعداً لأن يضحي بكل شيء في سبيل أن يخلو إلى نفسه، ولكنه كان يحس إحساساً واضحاً بأنه لن

يستطيع احتمال العزلة ولو دقيقة واحدة. هذا رجل سكران يصخب ويعربد: إنه يحاول أن يرقص، ولكنه كلما أجرى حركة سقط منبطحاً على بطنه. واجتمعت حوله جمودة من الناس. شق راسكولنيكوف لنفسه طريقاً بين الحشد، ونظر إلى السكران بضع لحظات، فإذا هو ينطلق ضاحكاً ضحكة قصيرة متقطعة. ثم ما إن مضت دقيقة حتى كان قد نسي الرجل، وأصبح لا يراه، رغم أن عينيه كانتا مازالتا مثبتتين عليه. وانصرف أخيراً عن المكان الذي كان فيه، حتى دون أن يشعر بأنه ينصرف. ولكنه حين وصل إلى وسط الميدان حدث في فكره شيء، واستولى عليه إحساس قوي مباغت، فسرى في ذهنه وجسمه.

لقد عاودته أقوال صونيا فجأة: «اذهب إلى ميدان من الميادين، فسلم على الشعب، وقبل الأرض لأنك أثمت في حقها أيضاً، وقل بصوت عالٍ حتى يسمعك جميع الناس: إنني قاتل».

فما إن دارت في ذهنه هذه العبارات حتى أخذ يرتجف من الرأس. إلى القدمين. إن الآلام الرهيبة والتباريع الفظيعة التي عانها في الأيام السابقة، ولا سيما في الساعات الأخيرة، قد بلغت من إرهاقه أنه استسلم استسلاماً كاملاً لهذا الإحساس الجديد الشامل. اعتراه نوع من نوبة عصبية. إن شرارة قد انبعثت في نفسه فأشعلتها دفعة واحدة. ثم استولى عليه حنان واسع كأن كل كيانه قد لان في الحال فسالت دموعه على خديه. وتهالك على الأرض حيث كان...

ركع في وسط الميدان، ثم سجد، فقبل الأرض الموحلة متثنياً ثملاً سعيداً، ونهض ثم سجد مرة أخرى.

قال فتى على مقربة منه:

ـ هيه! كم هو سكران!

وضجّ الناس من حوله بضحك صاحب. وأضاف بائع صغير ثمل بعض الشمل:

– لا شك أنه مسافر إلى القدس يا أصحابي، فهو يوّدع أولاده، ووطنه، ويسلم على الناس جيّعاً، ويهرب قبلة أخيرة للعاصمة الكبرى سان بطرسبرج، ولأرضها.

وقال ثالث:

– ما يزال في ريعان الشباب!

وعقب رابع بصوت جازم:

– وهو ابن أسرة كريمة.

وأضاف خامس:

– أصبح المرء لا يميز بين أبناء الأسر الكريمة وبين من ليسوا أبناء أسر كريمة!

هذه التعليقات المتفكهه كلها أوقفت على شفتي راسكولنيكوف كلمتي «أنا قاتل» اللتين لعلهما كانتا توشكان أن تخرجان من فمه. ومع ذلك تحمل هذا الصخب كله بكثير من المدوء، ومضي يسير في شارع صغير يؤدي إلى قسم الشرطة، دون أن يلتفت إلى وراء. وفيها كان يمشي عرضت لعينيه صورة، ولكنه لم يُدهش، فإنه كان قد تنبأ بأن هذا هو ما سيحدث. إنه حين سجد في سوق العلف سجدة ثانية، قد التفت يسرا فلمح صونيا على مسافة خمسين خطوة. كانت لحرصها على أن لا يراها قد اختبات وراء كوخ خشبي كان قائماً في الميدان، وإذاً فقد تبعته في صعوده على «الراية التي يعلوها صليبيه»!

في تلك اللحظة أحس راسكولنيكوف وأدرك أن صونيا سوف تكون معه إلى الأبد، وأنها ستتبعه ولو إلى آخر العالم، ستتبعه إلى أي مكان يقوده إليه قدره. فاضطراب من ذلك قلبه... ولكنها هو ذا يصل إلى المكان المحظوظ.

دخل فناء المبني بخطى جازمة ثابتة. كان عليه أن يصعد إلى الطابق الثاني. قال لنفسه: «من هنا إلى أن أصير فوق...». وبداله أن هناك زماناً طويلاً سينقضى قبل أن يصل إلى فوق، وأن أفكاراً كثيرة ما يزال يمكن أن توافيه، وأن اللحظة الحاسمة ما تزال بعيدة.

السلم مملوء بالأقدار نفسها والقشور ذاتها؛ والأبواب مفتوحة على مصاريعها كما كانت في المرة الماضية؛ وما تزال المطابخ تفوح منها رائحة العفونة والدخان الخانق. أن راسكولنيكوف لم يرجع إلى هذا المكان بعد زيارته الأولى له.

كانت ساقاه متخدرتين وكانتا تترنحان، ولكنه ظل يتقدم. وتوقف لحظة ليسترد أنفاسه، وليسترجع رباطة جأشه، من أجل أن يظهر بالظهر الذي يجب أن يظهر به إنسان. ولكنه لم يلبث أن أدرك ما يقوم به من جهد فتساءل: «ولكن لماذا؟ ما فائدة هذا؟ ما دام يجب على أن أشرب الكأس حتى آخر قطرة منها فما قيمة أن أشربها بهذه الطريقة أو تلك؟ بالعكس... فكلما كنت منفراً باعثاً على الاشمئاز كان ذلك أفضل!». وفي تلك اللحظة تراءت لعينيه صورة ايليا بتروفتش، الملازم «بارود». فتساءل: هل يجب حقاً أن أذهب إليه هو؟ إلا يمكن أن أتجه إلى شخص آخر؟ ولماذا لا أتجه إلى نيكوديم فومتش؟ وماذا لو عدت أدراجي فذهبت إلى مفوض الشرطة ألقاه في بيته؟ ميزة هذه الطريقة، على الأقل، أن الأمور تجري عندئذ في جو كأنه جو أسرة!... لا، لا، بل اتجه إلى «بارود»، إلى الملازم «بارود»! ما دام يجب على أن أشرب الكأس فالأشربها دفعة واحدة!

فتح باب المكتب متجمداً لا يكاد يعي ما يفعل. في هذه المرة لم يكن هناك إلا قليل جداً من الناس. لا أحد إلا بباب ورجل من الشعب يتضطران. شرطي الحرس وراء شباكه لم يحرك ساكناً بل لم يرفع عينيه. مر راسكولنيكوف إلى الغرفة المجاورة. وحدث نفسه قائلاً: «لعلني ما زلت أستطيع أن لا أقول شيئاً».

هذا كاتب من القسم يرتدي سترة رسمية قد مال على مكتبه يكتب شيئاً ما. وهذا كاتب آخر مستقر في ركن، ليس زاميتوف هناك، ولا نيكوديم فومتش طبعاً.

قال راسكولنيكوف يسأل الشخص المائل على مكتبه:

—أَلَا يَوْجِدُ أَحَدٌ؟

— من ترید؟

هنا انفجر صوت معروف يقول صائحاً:

ـ آ... آ... لا حاجة إلى أذنين، ولا حاجة إلى عينين... غريزتي أأنبأتنى بوجود رجل «روسي»... كما تقول الحكاية. تخيّلي واحترامي.

راسكولنيكوف نفسه قائلًا: «هذه هي الأقدار. لماذا هو هنا؟»

وعاد ايليا بتروفتش يصيح، وكان واضحاً أنه مشرق المزاج بل ومهماج الأعصاب قليلاً:

– أَنْتَ عَنْدَنَا؟ مَا هِيَ الْمُشْكَلَة؟ إِذَا كُنْتَ آتِيًّا لِعَمَلٍ، فَالْوَقْتُ مُبْكَرٌ جَدًّا. أَنَا نَفْسِي إِنْهَا... بِمُصَادَفَةِ مُحْضَةٍ!... عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِذَا كُنْتَ أَسْتَطِعُ... أَعْتَرِفُ لَكِ... نَعَمْ... كَيْفَ... كَيْفَ أَنْتَ... مَعْذِرَةٌ...»

—أنا، اسکو لنکو ف.

يا روديون رودونتش ، ألس كذلك؟

— و دیون و مانه فتش .

– نعم نعم نعم، روديون رومانوفتش! روديون رومانوفتش! ذلك هو الاسم الذي كنت أحاول تذكره!
لقد سألت عن أخبارك مراراً! لقد أسفت حقاً منذ ذلك الزمن، اعترف لك بذلك للطريقة التي تصرفنا
بها معك في ذلك اليوم. وقد ذكروا لي فيما بعد... لقد علمت فيما بعد أنك شاب أديب، بل وعالم...
وأنك تخطو خطواتك الأولى إن صح التعبير. أي أديب وأي عالم لا يقوم بأمور فيها شيء من الشذوذ
والتفرد في بداية حياته الأدبية أو العلمية؟ إننا، أنا وزوجتي، نعشق الأدب، حتى إن امرأة تبلغ في ذلك
حد الوله والتدهُّل!... الأدب والفن! قد يكون المرء نبيل المحتد كريم المبت، ولكن شيء الهمام هو ما
يناله بالموهبة، بالعلم، بالعقل، بالعصرية! ما قيمة قبعة مثلاً؟ القبعة قرص أستطيع أنأشترىه من محل
تسيميرمان، أما ما هو تحت القبعة، أما ما تغطيه القبعة، فذلك لا أستطيع أنأشترىه!... أعترف لك بأنني
قد تمنيت أن أذهب إليك، لأعتذر لك، ولكنني قدّرت أنك قد... بالمناسبة: أنا لم أسألك ما هو الغرض
من زيارتك الآن! وصلت أسرتك، أليس كذلك؟

– نعم، أمي وأختي.

– لقد شرفت وسعدت بلقاء أختك. إنها فتاة مثقفة رائعة. اعترف لك بأنني آسف لأندفافنا أنا وأنت...
كانت قصة مؤسفة! ولكن لئن نظرت إليك نظرة اشتباه عند إغمائك، فإن أسباب هذا الإغماء قد ظهرت
بعد ذلك ظهوراً واضحاً! لقد كان ذلك مني نزقاً وتعصباً لا أكثر! إنني أفهم استياءك! لعلك ستغير
مسكنك بمناسبة وصول أهلك، أليس كذلك؟

– لا... وإنما جئت... لأسألك... لقد كنت أتصور أنني سأجد زاميتووف.

– ها... نعم... أصبحتـا صديقين... سمعت عن هذا! ولكن زاميتووف تركنا، فلن تجده بعد اليوم هنا!
نعم، لقد فقدنا ألكسندر جريجوريفتش... منذ أمس! قـدّم استقالته، حتى إنه عند انصرافه قد بادلنا جمـيعـاً

كلمات خشنة. نعم... مضى في قلة التهذيب إلى ذلك الحد... إنه صبي، إنه صبي، إنه طائش! صحيح أن آمالاً كانت تعقد عليه، ولكن كيف السبيل إلى الاتكال على شبابنا اللامع هذا؟ إنه يريد، فيما يبدو، أن يتقدم إلى امتحان مسابقة، ولكنه لا يحاول أن يزيد على الترثرة واللفاخرة! ذلك هو امتحان المسابقة الذي يريد أن يدخله! ليس هو مثلك، أو مثل صديقك رازوميixin... فإنك أنت قد اعتنقت رسالة العلم، وما من إخفاق يمكن أن يحرفك عنها. جميع مباحث الحياة هي في نظرك أنت باطل nihilest...^{٨٨}، أليس كذلك؟ أنت، أنت رجل زاهد متقدس، أنت راهب، أنت ناسك. المهم في نظرك أنت إنما هو القلم وراء الأذن، وإنما هو البحث العلمي. نعم، ذلك هو في نظرك الشيء... وأنا أيضاً، إلى حد ما... هل قرأت «مذكرات ليفنجستون؟»^{٨٩}

— لا

— أما أنا فقد قرأتها. ثم إن عدد الذين يعتقدون المذهب العدمي قد ازداد في هذه الأيام ازدياداً كبيراً، وذلك أمر يفهمه المرء حقاً. في أي عصر نعيش نحن؟ أني ألقى عليك ذلك السؤال! ولكن ما بالي أحدثك أنت... أنت لست من معتنقي المذهب العدمي، أليس كذلك؟ أجبني بصراحة، بصراحة.

— لا... لا.

— لا؟ ولكن في وسعك أن تعلن رأيك صريحاً كل الصراحة. نعم، لا تخرج، كلامي كما لو كنت تكلم نفسك. العمل شيء وال... شيء آخر. كنت تظن أنني سأقول: الصداقة، أليس كذلك؟ إذًا لقد أخطأتك. ليست الصداقة هي ما أردت أن أشير إليه، وإنما أردت أن أشير إلى عاطفة الإنسان والمواطن، إلى

^{٨٨} عدم. (باللاتينية في الأصل).

^{٨٩} «مذكرات ليفنجستون»: إن كتاب ليفنجستون «استكشافات في داخل أفريقيا الوسطى» قد ظهر بلندن سنة ١٨٦٥. وقد ترجمه إلى الروسية وأصدره سنة ١٨٦٧، نيقولاي ستراخوف صديق دوستويفסקי.

العاطفة الإنسانية، وكذلك إلى الحب الذي يحمله المرء لل العلي القدير. صحيح أنني موظف حكومة، صحيح أنني شخص رسمي، ولكن هذا لا يمنعني من أنأشعر دائمًا بأنني مواطن، بأنني إنسان، وأن أحسب حساب ذلك. إليك هذا المثال: لقد تكلمت أنت عن زاميوتوف. ولكن زاميوتوف شخص يحدث صخباً وجلبة وضوضاء على الطريقة الفرنسية في أسوأ الحال سمعة لا لشيء إلا لأنه شرب كأس شمبانيا أو حتى كأساً من نبيذ الدون... نعم، ذلك هو صاحبك زاميوتوف! أما أنا فإني أحترق نشاطاً وحماسة إن صح التعبير. العواطف الكبيرة تلهبني، ثم أني أملك رتبة وأشغل منصباً. وأنا متزوج، ولدي أولاد! أني أقوم بالواجب الذي يقع على عاتق إنسان ومواطن، أما هو فهلا قلت لي ما الذي يعمله؟ أني أحذثك حديثي إلى رجل صقلته الثقافة وسمت به. إليك هذا المثال أيضًا: لقد تكاثرت القابلات في أيامنا هذه تكاثرًا تجاوز الحدود..

نظر إليه راسكولينيكوف مبهوتًا. إن جميع الكلمات التي قالها أيليا بترورفتش - واضح أنه كان قد نهض عن المائدة منذ قليل - قد رتّت في أذنيه رنين كلمات لا معنى لها. ومع ذلك فهم جزءاً منها على نحو ما استطاع. وألقى على أيليا بترورفتش نظرة مستفهمة وهو لا يدرى كيف سيتهي هذا كله.

تابع أيليا بترورفتش الذي لا ينضب لكلامه معين، تابع كلامه فقال:

– أُنني أطلق هذا اللقب – القابلات – على هاته الفتيات ذوات الشعر المقصوص^٩ لأنه يبدو لي موقفاً جداً... هى هى!... إنهن يدخلن كلية الطب^{١٠}، ويتعلمن التشريح، ولكن قل لي: أتراني إذا مرضت أدعو إحدى هذه الآنسات لمعالجتى؟ هى هى!....

انفجر ايليا بترورفتش ضاحكاً، وقد رضى عن أقواله الحسنة وكلماته الجميلة كل الرضى!

ثم تابع كلامه فقال:

– لنسلم بأن الدافع إلى ذلك ظمأً إلى التعلم والثقف لا يرتوي، ولكن يخيل إلى أن على الإنسان، متى تعلم، أن يتوقف، أن يكف... فلماذا الإسراف والإفراط؟ لماذا تهان شخصيات نبيلة، كما يفعل ذلك الرجل التافه زاميوتوف؟ أشخص مثل زاميوتوف يهيني أنا؟... ثم تلك الانتحارات التي تتکاثر؟ لا تتصور ما أكثر عددها!... يأكل أحدهم آخر قرش ثم ينتحر! بنات، شباب، شيوخ!... إليك هذا المثال: في هذا الصباح نفسه، أبلغنا... أن سيداً كان قد وصل إلى هذه المدينة منذ مدة قصيرة... هيه!... نيل بافلتش... يا نيل بافلتش... ما اسم ذلك السيد الذي أبلغ عنه... أطلق على رأسه رصاصة عند ضفة النهر... أقصد عند الضفة الأخرى من نهر نيفا؟

أجاب صوت أبح غير مكترث، صوت رجل في الغرفة الأخرى، أجاب يقول:

– اسمه سفدريجايروف.

فارتجف راسكولنيكوف، وصاح يسأل:

^٩ «... إنني أطلق هذا اللقب... على الفتيات ذوات الشعر المقصوص...»: يتجلّى هنا موقف الدوائر الرجعية في المجتمع الروسي في السنتينات تجاه أنصار تعليم النساء. ولم يكن في وسع النساء آنذاك أن يعملن سوى في مهنتين فقط: قابلات أو مدرّسات. وكانت الفتيات والنساء الدارسات عادة ما يحملن تسميات بسيطة، أو يقمن بقص الشعر.

^{١٠} لم تكن كلية الطب بمدينة بطرسبرغ إحدى كليات الجامعة، كما في المدن الأخرى، وإنما كانت «أكاديمية للطب والجراحة» مستقلة.

– سفدريجايلوف؟ سفدريجايلوف أطلق على رأسه رصاصة؟

– هل تعرف أنت سفدريجايلوف؟

– نعم... أ... أعرفه... لقد وصل في الآونة الأخيرة فعلاً!

– نعم، في الآونة الأخيرة... كانت زوجته قد ماتت منذ حين... ثم إن هذا الرجل الذي كان ماجناً فاسقاً قد أطلق على رأسه رصاصة من مسدس فجأة... وقد فعل ذلك في ظروف فاضحة يستحي المرء حتى أن... لقد ترك بضع كلمات في دفتره قائلاً إنه يموت مالكاً كل عقله فما ينبغي اتهام أحد بقتله. يقال إنه كان يملك ثروة طائلة. ولكن كيف عرفته؟

– تعرفت... تعرفت عليه... لأن أختي كانت تعمل معلمة لأولاده في متزفهم...

– هه... هه... إِذَاً تستطيع امدادنا بمعلومات عنه. ألمست تفترض شيئاً ما؟

– رأيته أمس... وكان... يشرب خمراً... ولم أطلع على شيء..

كان راسكولنيكوف يحس أن حملاً ثقيلاً قد جثم على صدره يسحقه سحطاً.

– لكأنك تصفر من جديد. لا شك أن الجو هنا خانق...

تم راسكولنيكوف يقول:

– آن لي أن أنصرف. اغفر لي إزعاجك...

– ولكنك لم تزعجني البتة! أنا في خدمتك! ثم إنك قد سررتني، ويسعدني جداً أن أقول لك...

ومد ايليا بتروفتش إليه يده.

جمجم راسكولنيكوف يقول:

– كنت أريد... فقط... أن... أن أرى زاميوف....

– فهمت، فهمت، ولكنك مع ذلك قد سررتني بلقائك....

قال راسكولنيكوف محاولاً أن يتسم:

– أنا سعدت بلقائك... استودعك الله...

وخرج متربحاً. كان يشعر بدوار فلا يكاد يدرى فهو ما يزال منتسباً على ساقيه. وأخذ يهبط السلالم تكتئاً بيده اليمنى على الحائط. تراءى له أن بوابة في يده سجلاً قد صدمه ليدخل إلى قسم الشرطة، وإن كلباً كان ينبع في مكان ما، وأن امرأة كانت تطوحه بشوبق لتسكته. فلما بلغ أسفل السلالم دخل الفناء.

كانت صونيا واقفة في الخارج، غير بعيد عن الباب، صفراء كصفرة الموتى، تنظر إليه مروعة منقلبة السحنة. وقف أمامها، فتشنجد قسمات وجهها على ألم شديد وعذاب فظيع؛ وباعدت بين ذراعيها بحركة تعبّر عن يأس وارتسمت على شفتيه ابتسامة تيه وشروع بشعة.

توقف راسكولنيكوف لحظة، فابتسم بمرارة، ثم قفل راجعاً إلى المكتب الذي بارحه منذ قليل.

كان ايليا بتروفتش جالساً ينقب بين أوراقه، وقد وقف أمامه ذلك الشخص نفسه الذي صدم راسكولنيكوف منذ برهة أثناء صعوده السلالم.

فما أن رأه ايليا بتروفتش حتى صاح يسأله:

– أهذا أنت أيضاً؟ هل نسيت شيئاً ما؟ ولكن ماذا بك؟ ماذا أصابك؟

مضى راسكولنيكوف نحوه بطيئاً، أبيض الشفتين جامد النظرة، واقترب من المائدة فأسند إليها إحدى يديه، وأراد أن يقول شيئاً ما، ولكنه لم يستطع ذلك. لم تُسمع منه إلا جحثات لا تبين عن شيء.

هتف ايليا بتروفتش:

— ماذا بك؟ هل تشعر بدوار؟ هاتوا كرسيّاً، بسرعة! خذ، اجلس، اجلس هنا، هاتوا ماء!

تهالك راسكولنيكوف على الكرسي الذي قدم إليه، ولكنه لم يحول بصره عن وجه ايليا بتروفتش الذي دهش من ذلك أشد الدهشة. وظل الاثنان حلال دقيقة ينظر كل منهما إلى الآخر ويتظاهر. وجيء بهما.

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال:

— أنا الذي

— اشرب جرعة ماء!

أبعد راسكولنيكوف الكأس عنه بإحدى يديه، وقال بصوت خافت لكنه واضح متميز، مع وقفات بين الكلمات:

— أنا الذي قتلت، بضربات فأس، العجوز التي تقرض على رهن، واختها اليزافيتا، وأنا الذي سرقتهما.

لبي ايليا بتروفتش فاغر الفم، وهرع ناس من كل جهة.

وأعاد راسكولنيكوف الإدلاء بإفادته.

الخاتمة

الفصل الأول

سييريا... على الشاطئين المفترين من نهر عريض، تقوم مدينة هي أحد المراكز الحكومية في روسيا. إن في هذه المدينة قلعة، وإن في القلعة سجناً. وفي هذا السجن حبس، منذ تسعه أشهر، السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية^{٤٢}، روديون راسكولنيكوف، الذي انقضت حوالي سنة ونصف سنة على ارتكابه جريمته.

لقد سارت إجراءات المحاكمة بدون مصاعب. كرر المجرم إفادته بثبات ووضوح ودقة، لم تتدخل الظروف في أقواله، ولا حاول أن يخفف من شأن جرمه، ولا هو شوّه الواقع، أو أسقط منها شيئاً. حكى بأدق التفاصيل نشأة وتطور جرمه، وأوضح سر «الرهن» – اللوح الصغير والشريط معدني، الذي كان بيدي العجوز القتيل؛ – وروى بدقة تامة كيف أخذ من العجوز مفاتيحها، ووصف هذه المفاتيح، ووصف الصندوق؛ وعدد بعض الأشياء التي كان يضمها الصندوق؛ وأوضح أيضاً سر مقتل اليزافيتا؛ وروى كيف جاء كوخ فقرع الباب، وكيف جاء بعده الطالب؛ وذكر الأقوال التي تبادلاها كلاهما؛ وقص، كيف أنه، هو القاتل، قد هرب راكضاً على السلم فسمع هنالك صرخات نيكولاي ودمتري، فاختبأ في الشقة الخالية، ثم عاد إلى بيته. وختم ذلك كله بأن حدد صخرة موجودة في فناء أحد المنازل بشارع فوزنيسينسكايا، قرب باب الفناء، حيث عثر على الأشياء والمحفظة المسروقة. الخلاصة أن جميع الأمور قد اتضحت فلم يبق منها في الظل شيء. وقد دهش المحققون والقضاة دهشة خاصة إذ علموا أن الجاني قد أخفى الأشياء والمحفظة تحت صخرة دون أن يحاول الاستفادة منها، وأنه لا يتذكر جميع

^{٤٢} «السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية»: كان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يقسمون إلى ثلاث فئات حسب خطورة الجريمة التي اقترفوها، وكان السجناء من الفئة الثانية يعملون في الحصون وسجون الأشغال الشاقة. وفي العادة كان المحكومون بالأشغال الشاقة يمرون من كافة حقوقهم وينفون إلى سibirيا.

الأشياء التي سرقها تذكرًأ صحيحاً، حتى لقد أخطأ في عددها. أما قوله إنه لم يفتح المحفظة مرة واحدة بل وإنه يجهل المبلغ الذي تحتويه فقد بدا لهم أمراً غير معقول (وقد تبين أن المحفظة كانت تضم ثلاثة وسبعة عشر روبلاً وثلاث قطع من فئة العشرين كوبيناً، كما أن الأوراق المالية التي كانت فوق، وهي أكبرها، قد ساءت حالها من طول بقائهما تحت الصخرة). وقد أنفق المحققون والقضاة وقتاً طويلاً من أجل أن يعرفوا لماذا كان المتهم يكذب في هذه النقطة، مع أنه فيما يتعلق بسائر النقاط قد اعترف بالحقائق بصراحة ومن تلقاء نفسه. ولكن بعضهم (ولا سيما علماء النفس) سلموا بأن من الممكن أن لا يكون قد نظر في المحفظة فعلاً، وأن يكون قد أخفاها تحت الصخرة دون أن يعرف ما تحتويه. غير أن هؤلاء أسرعوا يستنتاجون من ذلك أن الجريمة لا يمكن أن تكون قد ارتكبت إلا في نوبة جنون طارئة، أي في لحظة: «مونومانيا» القتل والسرقة، دون أهداف بعيدة ودون حسابات منفعة؛ واستشهدوا على ذلك بالنظرية الرائجة عن الجنون المؤقت، وهي النظرية التي يحاول بعضهم في كثير من الأحيان أن يطبقها على بعض الجرائم في هذه الأيام. ثم إن حالة الوسواس «الهيبيوكوندرية» المزمن التي كان عليها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة قد شهد بها عدة شهود، جازمين قاطعين؛ فمن هؤلاء: الدكتور زوسيموف صديقه القديم، ورفاقه القدامى، وصاحبة البيت الذي كان يقطنه، والخدم. ذلك كله ساهم كثيراً في تعزيز الفكرة القائلة بأن راسكولنيكوف ليس بينه وبين مجرم عادي، قاتل أو سارق، أي شبه على الإطلاق، وأن شأنه شأن آخر، مختلف عن شأن المجرمين العاديين كل الاختلاف. ولكن الجاني نفسه لم يحاول أن يدافع عن نفسه، وذلك ما أسف له القائلون بتلك النظرية أشد الأسف. حتى إذا أُلقي عليه السؤال الأخير عن السبب الذي دفعه إلى القتل والسرقة، أعلن بوضوح تام ودقة فظة أن فقره، وعجزه عن الخروج منه، ورغبته في تأمين خطواته الأولى في الحياة، بمعونة ثلاثة آلاف روبل كان يأمل أن يجدها عند العجوز، أما القتل فإنه عزم عليه بسبب طبعه الطائش والضعف والذى هي جته، زيادة

على ذلك، بلا ياه وإخفاقاته. ولما سُئل عن الدافع الذي حدا به إلى الوشاية بنفسه والاعتراف بجريمته من تلقاء نفسه أجاب قاطعاً بأن ذلك ندم صادق وتوية مخلصة.

وكان كلامه لا يشتمل على كثير من الرهافة، بل كان فيه غلظة وفظاظة!....

ومع هذا جاء الحكم أرحم مما كان يمكن توقعه في جريمة كهذه الجريمة، وربما كان مرد ذلك إلى أن الجاني لم يحاول أن يسوغ نفسه، حتى لقد أظهر رغبة في اتهام نفسه مزيداً من الاتهام. ولقد بصر بعين الاعتبار إلى جميع الظروف العجيبة الخاصة التي لابست القضية. من ذلك أن حالة المرض والعوز التي كان عليها المتهم قبل إنفاذ جريمته لم تتوسع موضع الشك. كما أن عدم استفادة الجاني من المسرورقات قد نسب إلى الندامة وعذاب الضمير تارة، ونسبة تارة أخرى إلى حالة قواه العقلية التي لم تكن سليمة البة عند ارتكاب الجريمة. وكان مقتل اليزافيتا، دون عمد، مثلاً على هذا الافتراض ودليلًا يدعمه ويعيده: نحن هنا إزاء رجل يرتكب جريمتي قتل، ثم ينسى أن الباب قد ظل مفتوحاً! ذلك كله بالإضافة إلى أن الجاني قد جاء يعترف بجريمته من تلقاء نفسه في اللحظة التي احتللت فيها الأمور اختلاطاً شديداً بسبب الإفادة الكاذبة التي أدل بها شخص مهوس خارت عزيمته (نيقولاي)، بل وفي اللحظة التي لم يكن فيها أي دليل واضح يدين القاتل الحقيقي، بل ولم تبق فيها أية شبهة تحوم حوله. (لقد حافظ بورفيري بتروفتش على وعده وبر بعهده تماماً). ذلك كله قد أُسهم في حمل المحكمة على أن تسلم للجاني بظروف مخففة.

يضاف إلى ذلك أن وقائع في مصلحة راسكولنيكوف قد انفجرت فجأة على نحو لم يكن في الحسبان البة. فإن الطالب السابق رازوميixin قد استطاع أن يعثر لا يدرى أحد من أين على شهادات ثبتَ صدقها، بأن الجاني راسكولنيكوف قد أنفق آخر ما كان يملك من موارد، أثناء دراسته بالجامعة، على رفيق فقير مصاب بداء السل، فقام بأؤده وسد حاجاته وخفف عنه خلال ستة أشهر كاملة. حتى إذا

مات رفيقه ذاك، اهتم راسكولنيكوف بأبيه، وهو شيخ عاجز بقي وحيداً في هذه الحياة (بعد أن كان ابنه منذ السنة الثالثة عشرة من عمره سنه الوحيد)، ثم أدخله مأوى للشيخوخ، حتى إذا مات الشيخ هو أيضاً بعد مدة، تكفل راسكولنيكوف ببنفقات دفنه.

هذه المعلومات كلها كان لها أثر في مصير راسكولنيكوف. وقد شهدت صاحبة البيت الذي كان يقطنه راسكولنيكوف (وهي أم خطيبته المتوفاة)، شهدت من جهتها أن راسكولنيكوف، حين كانوا ما يزالون يسكنون في شارع «الأركان الأربع». قد أنقذ، أثناء حريق، في ذات ليلة، طفلين صغيرين من مسكن شبّت فيه ألسنة النيران واحتفل، حتى أن راسكولنيكوف قد أصيب أثناء ذلك بعنة حروق. وقد جرى تحقيق دقيق في هذه الواقعة، فشهد بصدقها شهود كثيرون. الخلاصة أن كل شيء قد ساهم في حمل المحكمة على أن تصدر حكمها بحبس المتهم ثمانى سنين مع الأشغال الشاقة (من الفئة الثانية) فقط، لأنه اعترف بجريمته من تلقاء نفسه ولأن هناك ظروفاً مخففة.

وقد مرضت أم راسكولنيكوف منذ بدء النظر في الدعوى. واستطاع رازوميixin دونيا مع ذلك أن ينقلها إلى خارج بطرسبرج طوال مدة المحاكمة. لقد اختار رازوميixin مدينة قرب بطرسبرج يصل إليها القطار، فكان يستطيع بهذه الطريقة أن يشهد جميع مراحل الدعوى وأن يرى آفدوتيا رومانوفنا مع ذلك أحياناً كثيرة.

وكان مرض بوخيريا الكسندروفنا إصابة عصبية غريبة بعض الغرابة، يرافقها نوع من الجنون لدرجة ما أن لم يكن كاملاً. إن دونيا، حين عادت إلى البيت بعد لقاء أخيها آخر مرة، قد وجدت أمها في حالة حمى بالغة وذهيان شديد. فاتفقـت مع رازوميixin في ذلك المسـاء نفسه على الأجرـة التي ينبغي أن يجـبيـاـ بها بوخـيرـياـ الكـسـنـدـرـوـفـنـاـ مـتـىـ سـأـلـتـهـاـ عـنـ اـبـنـهـاـ،ـ حـتـىـ لـقـدـ اـخـتـرـعـاـ لـهـذـاـ الغـرـضـ قـصـةـ سـفـرـ،ـ سـفـرـ بـعـيدـ،ـ سـفـرـ إـلـىـ مـكـانـ عـلـىـ حـدـودـ روـسـيـاـ،ـ فـقـدـ كـلـفـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ بـالـقـيـامـ بـمـهـمـةـ خـاصـةـ،ـ وـسـوـفـ تـجـلـبـ لـهـ هـذـهـ

الرحلة مالاً وشهرة. فما كان أشد دهشتها حين لم تطرح عليهما بولخيريا الكسندروفنا أي سؤال، لا في ذلك الحين ولا بعده؛ حتى أنها، على خلاف ذلك، قد تخيلت هي نفسها قصة طويلة لتعلل سفر ابنها هذا على حين بعثة؛ وقد قصّت عليهما، وهي تبكي زيارة ابنها لها مودعاً، وألمحت في هذه المناسبة، ببعض الإشارات والتلميحات، إلى أنها وحدها على علم بظروف كثيرة خطيرة سرية، قائلة: أن لابنها روديا خصوصاً أشداء عناة، فهو لذلك قد اضطر أن يغيب عن الأنظار. أما عن مستقبل ابنها، فإنها لا تشک في أنه سيكون مستقبلاً لاماً متى أمكن التغلب على بعض الظروف المعادية؛ حتى لقد أكدت لرازو ميخين أن روديا سيصبح في المستقبل «رجل دولة»؛ فإن مقالته وموهبته الأدبية دليل كاف وبرهان قوي على ذلك. وكانت الأم تقرأ المقالة وتعيد قراءتها بغير انقطاع، حتى لقد كانت تقرؤها في بعض الأحيان بصوت عال، وتوشك أن تنام معها في الليل. ومع ذلك لم تحاول قط أن تعرف أين يوجد روديا في ذلك الأوان، لا ولم تتساءل لماذا يبدو أن من حولها يتحاشون أي حديث عنه (وكان حرياً بهذا أن يثير شبهاتها طبعاً). وأصبح رازو ميخين دونيا يخشيان هذا الصمت الغريب من جانب بولخيريا الكسندروفنا آخر الأمر وعدم اكتراشها لبعض النقاط. حتى لقد كانت، مثلاً، لا تشکو من أنها لا تتلقى أي رسالة من ابنها، مع أنها كانت قبل ذلك، في مدينتها الصغيرة، لا تحيا إلا على الانتظار والأمل في تلقي أنباء ابنها الحبيب روديا بأسرع وقت ممكن. ولقد قلقت دونيا قلقاً خاصاً من هذا الأمر التفصيلي الأخير، وكان لها بمثابة إنذار، فقد تراءى لها أن أمها كانت توجس منذ الآن البلاء الرهيب الذي حل بابنها، وأنها لا تريد أن تسألهما، لخشيتها من أن تعرف شيئاً أفعى. ومهما يكن من أمر، فقد كانت دونيا ترى رؤية واضحة أن بولخيريا الكسندروفنا لا تملك قواها العقلية كاملة.

وقد حدث للأم مع ذلك مرتين أن وجّهت الحديث توجيههاً ما كان للسابين أن يجيئا معه عن أسئلتها إجابة تامة دون أن يشيرا لها إلى المكان الذي يوجد فيها روديا. حتى إذا جاءت الإجابات متحفظة مشتبهة

وَقَعَتِ الْأَمْ فِي حَالَةِ حَزْنٍ رَهِيبٍ دَامَتْ مَدَةً طَوِيلَةً. وَأَدْرَكَتْ دُونِيَا عِنْدَئِذٍ أَنَّ مِنَ الصُّعُبِ أَنْ يَسْتَمِرَ الْكَذْبُ وَالْتَّلْفِيقُ، وَانْتَهَتْ إِلَى هَذِهِ التَّيْجَةِ، وَهِيَ أَنَّ التَّزَامُ الصَّمِتِ التَّامِ فِي النَّقَاطِ الْحَسَاسَةِ أَفْضَلُ وَأَسْلَمُ. وَلَكِنَّ أَخْذَ يَتَضَعُّحُ مُزِيدًا مِنَ الْإِتَضَاحِ شَيْئًا بَعْدِ شَيْئٍ أَنَّ الْأَمَ الْمُسْكِيَّةَ تَشَتَّبِهِ فِي شَيْئٍ مَا، فِي شَيْئٍ مَرْوِعٍ فَظِيعٍ. وَتَذَكَّرَتْ دُونِيَا، فِيمَا تَذَكَّرَتْ، بَعْضُ أَقْوَالِ أَخْيَهَا. أَلَمْ يَقُلْ لَهَا أَنَّ بُولْخِيرِيَا الْكَسِنْدِرُ وَفَنَا سَمِعْتُهَا تَهْذِي، فِي الْلَّيْلَةِ الَّتِي سَبَقَتِ الْلَّهْظَةِ الْحَاسِمَةِ مِنْ لَقَائِهِمَا الْآخِرِ، بُعْدَ الشَّهَدِ الَّذِي حَدَثَ مَعَ سَفَدْرِيْجَايَا لُوفْ؟ أَلَمْ تَسْمَعْ بُولْخِيرِيَا الْكَسِنْدِرُ وَفَنَا عِنْدَئِذٍ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ، فَفَهَمْتَ شَبَهَهُمْ؟ وَكَثِيرًا مَا أَصْبَحَ يَحْدُثُ، بَعْدَ بَضَعَةِ أَيَّامٍ بَلْ وَبَضَعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ صَمِتِ حَزِينِ عَابِسٍ وَدَمْوَعِ خَرَسَاءٍ، أَنْ يَنْتَابَ الْمَرِيْضَةُ اِنْتَعَاشُ مَرْضِيُّ وَنَشَاطُ هَسْتِيرِيُّ، فَتَأْخُذُ تَكَلُّمُ عَنِ ابْنَاهَا، وَعَنِ آمَاهَا، وَعَنِ الْمُسْتَقْبِلِ، مَتَدَفِّقَةً تَدَفِّقًا سَرِيعًا، بَغْيَرِ تَوْقُفٍ تَقْرِيْبًا!... وَكَانَتْ أَخْيَلَتِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَجِيْبَةً حَقًا! فَكَانَ الشَّابُّانِ يَتَظَاهِرُانِ بِمَشَارِكَتِهَا آرَاءُهَا مَوَاسِيَّهَا، وَتَسْرِيَّهَا عَنْهَا، (وَلَعِلَّ مَوَافِقَتِهَا هَذِهِ عَلَى آرَائِهَا لَمْ تَكُنْ تَنْطَلِي عَلَيْهَا وَلَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ لَا يَمْنَعُهَا مِنْ مَتَابِعَةِ كَلَامِهَا الْمُنْطَلِقِ وَمَوَالِيَّهَا حَدِيثَهَا الشَّرِيُّ الَّذِي لَا يَنْضُبُ لَهُ مَعِينَ)...

وَقَدْ صَدَرَ الْحُكْمُ بَعْدَ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ مِنْ اعْتِرَافِ الْقَاتِلِ بِجُرْيِمَتِهِ. وَأَخْذَ رَازُومِيْخِينَ يَزُورُ رَاسْكُولْنِيْكُوفَ فِي السِّجْنِ كُلَّمَا تَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ كَانَتْ تَفْعُلُ صُونِيَا. وَأَزْفَتْ أَخْيَرًا سَاعَةَ الْفَرَاقِ. فَحَلَّفَتْ دُونِيَا لِأَخْيَهَا عَلَى أَنَّ الْفَرَاقَ لَنْ يَكُونَ أَبْدِيًّا. وَحَلَفَ رَازُومِيْخِينَ أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ تَرَسَّخَتْ فِي دَمَاغِ رَازُومِيْخِينَ، فِي دَمَاغِهِ الْفَتِيِّ الْفَائِرِ الْمُتَحَمِّسِ الْمُنْدَفِعِ، تَرَسَّخَتْ تَرْسِخًا قَوِيًّا، فَكِرَةُ الْمَشْرُوْعِ الَّذِي قَامَ فِي ذَهْنِهِ، وَهُوَ أَنْ يَرْسِي قَوَاعِدَ مَصِيرِهِ الْمُقْبِلِ، خَلَالِ السَّنِينِ الْثَّلَاثِ أَوِ الْأَرْبَعِ التَّالِيَّاتِ، فِي دَخْرِهِ وَلَوْ مَبْلَغاً قَلِيلًا. مِنَ الْمَالِ لِيَمْضِي يَقِيمًا فِي سِيْبِيرِيَا، حِيثُ الْأَرْضُ غَنِيَّةٌ، وَحِيثُ الْأَيْدِيُّ الْعَالَمَةُ وَرَؤُوسُ الْأَمْوَالِ قَلِيلَةٌ. فَهُنَّاكَ سَيِّسْتَقْرُونَ، بِالْمَدِينَةِ نَفْسَهَا الَّتِي سَيَكُونُ فِيهَا رَوْدِيَا، وَهُنَّاكَ... سَيِّدُؤُونَ جَمِيعًا حَيَاةً جَدِيدَةً!

وبكى الجميع في ساعة الفراق. كان راسكولنيكوف، خلال الأيام الأخيرة مغموماً جداً، فكان يلقي أسئلة كثيرة عن أمّه، ويظهر قلقاً شديداً عليها، فكان يتذمّر عذباً قوياً يخيف دونيا وينذرها بأسوأ العواقب. ومنذ عرف راسكولنيكوف حالة بولخيريا الكسندروفنا معرفة دقيقة، أصبح قاتم النفس مظلماً المزاج. ولقد كان قليل الكلام مع صونيا خاصة، فهو لا يبوح لها بها في نفسه. وكانت صونيا، بفضل المال الذي تركه لها سفدريجايلوف، قد تهيأت منذ مدة طويلة لأن تتبع قافلة السجناء التي ستضيّم راسكولنيكوف. إنّهما لم يبحا هذا الأمر معاً في يوم من الأيام، ولكنّهما كلاهما يعرف أنّ الأمر سيكون كذلك. وفي اللحظة الأخيرة، ابتسّم راسكولنيكوف ابتسامة غريبة حين سمع التأكيدات الحارة من أخيه ومن رازوميixin عن المستقبل الجميل الذي يتّظرّهم جميعاً عند خروجه من السجن. لقد كان يوجّس أنّ أمّه ستموت قريباً.

وسلك أخيراً طريق المنفى تصحّبه صونيا.

بعد شهرين تزوجت دونيتشكا من رازوميixin. وكان الاحتفال بالعرس متحفظاً، وكان يرثى عليه جو الحزن. وكان بين المدعّين بورفيرى بتروفتش وزوسيموف. وقد اكتسّى رازوميixin في الآونة الأخيرة مظهراً رجلاً قوياً العزيمة ثابت الرأي. وكانت دونيا تؤمن بإيماناً أعمى بأنه سيحقق جميع مشاريعه. وكان لا يمكنها، على كل حال، إلا أن تؤمن بذلك: فإن إرادة حديدية كانت تتجلّى في هذا الرجل. ولقد استأنف، خاصة، متابعة دروس الجامعة لينهي دراسته. وكانا كلاهما لا ينفكان يبنيان خططاً للمستقبل، وكانا كلاهما ينتويان حقاً أن يرحاля إلى سيبيريا بعد خمس سنين. وإلى أن يحين ذلك الحين، كانوا يتتكلّمان على صونيا.

وقد باركت بولخيريا الكسندروفنا زواج ابنتها ورازوميixin وفرحت به، لكنّها سرعان ما سقطت في حزن أشد وأقسى وأعمق وأكبر. ومن أجل أن يهيء لها رازوميixin بضع لحظات من فرح قصّ عليها قصة

الطالب وأبيه العاجز، وحكي لها حكاية الحريق الذي حدث في السنة الماضية والذي بُرِزَ فيه روديا بطلًا يتزعَّزُ الطفَّلين الصغَّيرَينَ مِنْ بَيْنَ أَلْسِنَةِ الْلَّهَبِ حَتَّى إِنَّهُ مَرَضَ بِسَبَبِ ذَلِكِ. فَكَانَتِ الْقَصَصُ تُلْقَى بِوَلْخِيرِيَا الْكَسِنْدِرُوفِنَا الَّتِي كَانَ عَقْلُهَا قَدْ اهْتَزَّ وَأَصَابَهَا اخْتِلَالٌ، تُلْقِيَهَا فِي نَشْوَةٍ تُشَبِّهُ أَنَّ تَكُونَ وَجْدًا، حَتَّى أَصَبَّتْ لَا تَكَلَّمُ إِلَّا عَنِ هَذَا، وَهَتَّى مَضَتْ فِي ذَلِكَ إِلَى حَدَّ اسْتِيقَافِ النَّاسِ فِي الشَّارِعِ لِتَقْصُّرٍ عَلَيْهِمْ هِيَ أَيْضًا... (هَذَا رَغْمَ أَنْ دُونِيَا تَرَفَّقَهَا حِيشَّا تَذَهَّبَ). أَصَبَّتْ بِوَلْخِيرِيَا الْكَسِنْدِرُوفِنَا تَجْهِيَّةً إِلَى أَوْلَى إِنْسَانٍ تَلْقَاهُ، فِي عَرَبَاتِ الْحَيْلِ، فِي الدَّكَاكِينِ، فِي أَيِّ مَكَانٍ أَخْرَى، فَتَأْخُذُ تَكَلِّمَهُ عَنِ ابْنَاهَا، وَعَنْ مَقَالَتِهِ، وَتَأْخُذُ تَشْرِحَ لَهُ مَسْهَبَةً مَفِيْضَةً كَيْفَ أَنْ ابْنَاهَا بَذَلَ لِأَحَدِ الطَّلَابِ أَكْبَرَ الْعُوْنَ وَكَيْفَ أَنْ افْتَحِمَ أَلْسِنَةُ الْلَّهَبِ أَثْنَاءَ حَرِيقٍ، وَهَلَمْ جَرَا. وَكَانَتْ دُونِيَا لَا تَعْرِفُ مَاذَا يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَعْمَلَ لِتَهْدِئَهَا. كَانَتْ تَخْشِي خَطَرَ مَثْلِ هَذِهِ الْحَمَاسَةِ وَهَذِهِ الْانْدِفَاعَ عَلَى صَحَّةِ أَمْهَا الْمَرِيْضَةِ، وَكَانَتْ تَخْشِي أَيْضًا حِينَ يَسْمَعُ أَحَدُ اسْمَ رَاسِكُولِنِيكُوفَ أَنْ يَتَذَكَّرَ الدَّعَوَى وَأَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْهَا.

وَقَدْ اكْتَشَفَتْ بِوَلْخِيرِيَا الْكَسِنْدِرُوفِنَا عَنْوَانَ أَمِ الطَّفَّلِينَ الَّذِينَ أَنْقَذَهُمَا رُودِيَا، وَأَرَادَتْ أَنْ تَزُورَهُمَا كَلْفُ الْأَمْرِ. وَبَلَغَ قَلْقُهَا أَبْعَادًا خَطِيرَةً فِي النَّهَايَةِ. فَهِيَ تَارَةٌ تَنْفَجِرُ بِاَكِيَّةٍ نَاشِجَةٍ، وَتَارَةٌ أُخْرَى تَكَلَّمُ هَارِفَةٌ هَادِيَّةٌ. وَفِي ذَاتِ صَبَّاحٍ أَعْلَنَتْ فَجَأَةً أَنْ رُودِيَا وَفَقًا لِحَسَابَاتِهَا عَائِدٌ فِي الْقَرِيبِ، فَقَدْ وَعَدَهَا وَهُوَ يُوَدِّعُهَا وَهِيَ تَتَذَكَّرُ وَعَدَهُ أَنَّهُ سِيرَجِعُ بَعْدِ تَسْعَةِ أَشْهُرٍ.

وَسَرَعَانَ مَا شَرَعَتْ تَرْتِيبَ الشَّقَّةِ اسْتِعْدَادًا لِعُودَتِهِ، فَهَيَّأَتْ لَهُ غُرْفَتَهَا هِيَ، وَدَهَنَتِ الْأَثَاثِ، وَغَسَّلَتْ، وَمَسَحَتْ، وَعَلَقَتْ سَتَائِرَ جَدِيدَةَ، الْخَ.. وَلَمْ تَقْلِ دُونِيَا شَيْئًا، رَغْمَ جَرْعَهَا، بَلْ سَاعَدَتْهَا فِي هَذِهِ الْاسْتِعْدَادَاتِ. وَبَعْدَ أَنْ قَضَتْ بِوَلْخِيرِيَا الْكَسِنْدِرُوفِنَا ذَلِكَ النَّهَارَ كَلَهُ فِي تَخْيِيلِ أَشْيَاءٍ تَبَلُّغُ غَايَةَ الْجُنُونِ، وَفِي الْبَكَاءِ وَالْانْقِيَادِ لِلْأَحْلَامِ، مَرَضَتْ فِي تَلْكَ اللَّيْلَةِ نَفْسَهَا، فَمَا طَلَعَ الصَّبَّاحُ حَتَّى كَانَتْ فِي حَالَةِ هَذِيَانِ، فَقَدْ اعْتَرَتْهَا حَمْىٌ حَارَّةٌ، ثُمَّ مَاتَتْ بَعْدِ أَسْبُوعَيْنِ.

وقد أفلتت من لسانها أثناء المذيان أقوال يفهم المرء منها أنها كانت تعلم من أمر المصير الرهيب الذي آل إليها ابنها أكثر كثيراً مما كان يفترض صهرها، وفترض ابتها.

ظل راسكولنيكوف مدة طويلة يجهل أن أمه ماتت رغم أنه استطاع بفضل صونيا أن يتلقى أنباء من بطرسبرج منذ وصوله إلى سيبيريا. كانت صونيا تكتب إلى رازوميixin كل شهر دون تخلف، وكل شهر أيضاً كانت تتلقى رسالة من بطرسبرج. وفي أول الأمر رأت دونيا ورأى رازوميixin أن رسائل صونيا جافة وأنها لا تبعث على كثير من الرضى. ولكنها اعترفا كلاهما أخيراً أن صونيا لا تستطيع أن تفعل خيراً من ذلك؛ وأن من السهل عليهما أن يكونا من خلال هذه الرسائل فكرة دقيقة واضحة عن الظروف التي يعيش فيها أخوها البائس. كانت رسائل صونيا زاخرة بتفاصيل يومية، وكانت تشتمل على أوصاف واضحة بسيطة عن نوع الحياة التي يحياها راسكولنيكوف في المعتقل. كانت لا تذكر شيئاً عن آمالها، وعن أحلامها المتصلة بالمستقبل، لا ولا عن عواطفها الشخصية. كانت صونيا في هذه الرسائل، بدلاً من أن تحاول تصوير حالة راسكولنيكوف النفسية وحياته الروحية، تذكر وقائع جرت له، وتنقل أقوالاً قالها، وتقدم تفاصيل عن صحته، ولا تغفل مع ذلك عن ذكر الرغبات التي عبر عنها أثناء هذا اللقاء أو ذاك، وما كلفها بأن تنقله، الخ. وكانت هذه الأخبار كلها مفصلة، فاستطاعت دونيا أن ترسم صورة واضحة عن أخيها، ولم يكن من الممكن أن يحدث أي خطأ، لأن جميع الواقع كانت صادقة.

غير أن جميع هذه الأنباء، ولا سيما في البداية، لم تحمل إلى دونيا وزوجها كثيراً من العزاء أو الطمأنينة. كانت صونيا تبلغهما أن راسكولنيكوف لا يزال قاتم المزاج مظلوم النفس صموماً قليلاً الكلام؛ وأنه لا يكاد يهتم بالأخبار التي تنقلها إليه كلما تلقت رسالة منهم؛ وأنه يسأل أحياناً عن أمه فلما رأت أنه أوجس الحقيقة فأبلغته النبأ الرهيب عن وفاتها، أدهشها أنه لم يجد عليه أن ذلك أثر في نفسه تأثيراً كبيراً، فيما تدل عليه المظاهر الخارجية على الأقل.

وكانـت صـونـيا تـقول لـهـما أـيـضاً إـنـه رـغـم اـنـطـوـاهـ عـلـى نـفـسـهـ دـائـماً، يـبـدو رـاضـياً بـحـيـاتـهـ الـجـدـيـدةـ بـصـدـقـ وـاسـتـقـامـةـ وـبـسـاطـةـ، وـأـنـه يـدـرـكـ الـوـضـعـ الـذـيـ هوـ فـيـهـ، وـلـا يـتـوـقـعـ أـنـ يـتـحـسـنـ مـصـيـرـهـ فـيـ مـسـتـقـبـلـ قـرـيبـ، وـأـنـهـ لـا يـرـاـوـدـهـ أـيـ أـمـلـ بـاـطـلـ فـيـ غـيرـ مـحـلـهـ (كـمـاـ يـحـدـثـ عـادـةـ لـلـسـجـنـاءـ)، وـأـنـهـ لـا يـدـهـشـ مـنـ شـيـءـ تـقـرـيـاً، رـغـمـ مـاـ هـنـاكـ مـنـ تـعـارـضـ وـتـنـاقـضـ بـيـنـ حـيـاتـهـ الـراـهـنـةـ وـحـيـاتـهـ السـابـقـةـ.

وـكـانـتـ تـقـولـ لـهـماـ إـنـ صـحـتـهـ حـسـنـةـ، وـإـنـ يـمـضـيـ إـلـىـ الشـغـلـ دـوـنـ تـهـرـبـ أـوـ تـلـصـصـ، وـدـوـنـ نـشـاطـ كـاذـبـ أـوـ حـمـاسـةـ زـائـفـةـ. وـأـنـهـ لـا يـكـادـ يـهـتـمـ بـأـمـرـ الطـعـامـ، وـلـكـنـ هـذـاـ الطـعـامـ، فـيـ غـيرـ أـيـامـ الـأـحـادـ وـأـيـامـ الـأـعـيـادـ، يـبـلـغـ مـنـ السـوـءـ أـنـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ أـصـبـحـ أـخـيـراًـ يـقـبـلـ بـعـضـ الـمـالـ مـنـهـاـ هـيـ صـونـياـ، لـيـسـتـطـعـ أـنـ يـحـصـلـ لـنـفـسـهـ عـلـىـ شـيـءـ مـنـ الشـايـ (أـمـاـ فـيـاـ عـدـاـ ذـلـكـ، فـقـدـ رـجـاـهـ أـنـ لـاـ تـقـلـقـ عـلـيـهـ وـأـنـ لـاـ تـهـتـمـ بـهـ، وـقـالـ لـهـاـ إـنـ عـنـيـاتـهـ بـهـ تـتـقـلـ عـلـىـ نـفـسـهـ وـتـضـايـقـهـ).

وـكـتـبـتـ لـهـماـ صـونـياـ كـذـلـكـ أـنـهـ فـيـ السـجـنـ يـسـكـنـ مـعـ السـجـنـاءـ الـأـخـرـينـ فـيـ مـهـجـعـ مـشـتـرـكـ، وـأـنـهـ لـمـ تـدـخـلـ الـمـهـجـعـ، وـلـكـنـ ظـاهـرـ الـمـبـانـيـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـمـكـانـ ضـيـقـ قـدـرـ غـيرـ صـحـيـ؛ وـأـنـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ يـرـقـدـ عـلـىـ لـوـحـ مـنـ الـخـشـبـ مـغـطـىـ بـلـبـادـ، فـهـوـ لـاـ يـرـيدـ أـنـ يـصـنـعـ لـنـفـسـهـ سـرـيرـاًـ آـخـرـ؛ وـأـنـهـ عـلـىـ كـلـ حـالـ، إـذـاـ كـانـ يـعـيـشـ حـيـاتـ خـشـنـةـ قـاسـيـةـ فـقـيـرـةـ إـلـىـ هـذـاـ الـحـدـ، لـاـ يـفـعـلـ ذـلـكـ التـزـامـاًـ بـفـكـرـةـ سـابـقـةـ أـوـ تـقـيـداًـ بـمـبـدـأـ مـعـيـنـ، بـلـ لـأـنـهـ لـاـ يـكـرـتـ لـلـظـرـوفـ الـمـادـيـةـ وـلـاـ يـحـفـلـ بـهـاـ.

وـكـتـبـتـ صـونـياـ بـصـرـاحـةـ أـنـهـ، فـيـ أـوـلـ الـأـمـرـ خـاصـةـ، لـمـ يـكـنـ يـعـبـأـ بـزـيـارـاتـهـ، حـتـىـ لـقـدـ كـانـ يـظـهـرـ لـهـ شـيـئـاـ مـنـ الـإـسـتـيـاءـ، وـلـاـ يـفـتـحـ فـمـهـ بـكـلـمـةـ، وـيـعـاـمـلـهـاـ مـعـاـمـلـةـ أـمـيـلـ إـلـىـ الـفـظـاظـةـ. غـيرـ أـنـ لـقـاءـاتـهـ أـصـبـحـتـ عـادـةـ لـهـ بـعـدـ ذـلـكـ، وـأـوـشـكـتـ أـنـ تـصـيرـ حـاجـةـ، حـتـىـ أـنـ الزـمـنـ بـدـاـلـهـ طـوـيـلـاًـ أـثـنـاءـ الـأـيـامـ الـقـلـيلـةـ التـيـ لـمـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـزـورـهـ خـالـلـهـاـ بـسـبـبـ مـرـضـ أـلـمـ بـهـاـ. إـنـهـاـ فـيـ أـيـامـ الـأـعـيـادـ تـرـاهـ عـنـدـ بـوـاـبـةـ السـجـنـ، مـنـ وـرـاءـ الـقـضـبـانـ الـحـدـيـدـيـةـ، أـوـ تـرـاهـ فـيـ غـرـفـةـ هـيـأـهـ الـحـرـسـ الـتـيـ يـؤـتـىـ بـهـ إـلـيـهـاـ بـضـعـ دـقـائـقـ. وـأـمـاـ فـيـ أـيـامـ الـأـخـرـىـ فـإـنـهـاـ تـرـاهـ أـثـنـاءـ الشـغـلـ،

في ورشات العمل، أو في مصانع الأجر، أو في المستودعات القائمة على ضفاف نهر إيرطيش^{٤٣}. أما عنها هي فلم تزد على أن وأشارت إلى أنها استطاعت أن تخلق لنفسها في المدينة علاقات تسندها وتشد أزرها؛ وأنها تعمل في الخياطة، وأنها لقلة الخياطات في المدينة أصبحت بيوت كثيرة لا تستغنى عنها. ولكن صونيا أسقطت ذكر أن راسكولنيكوف قد أمكنه، بفضلها هي، أن يحظى بشيء من العطف عليه، فكانت سلطات السجن تراعيه بعض المراعاة، وكانت الأشغال التي يُعهد بها إليه غير شاقة كثيراً، الخ....

ثم وصل النبأ الذي يقول (وقد استطاعت دونيا أن تستشعر شيئاً من القلق ومن العصبية في الرسائل الأخيرة التي بعثت بها صونيا) وصل النبأ الذي يقول إن راسكولنيكوف يتحاشى جميع السجناء الآخرين، وأن هؤلاء لا يحبونه كثيراً، وأنه يظل صامتاً ساعات بكمالها، وأن شحوبه يزداد شيئاً بعد شيئاً.

وكتبت صونيا أخيراً في ذات يوم أن راسكولنيكوف مريض جداً، وأنه يعالج الآن في مستشفى المعتقل.

^{٤٣} «على ضفاف نهر إيرطيش»: إن هذا النهر الذي تقع على شاطئه مدينة أومسك، قد سبق أن ذكره دوستويفسكي في كتابه (ذكريات من منزل الأموات).

الفصل الثاني

لقد كان مريضاً منذ مدة طويلة، ولكن لا الأهوال التي تشتمل عليها حياة السجين، ولا الأشغال الإجبارية الشاقة، ولا الطعام الرديء، ولا حلق شعر الرأس، ولا الملابس المصنوعة من القصاصتين المختلفتين اللون^{٤٤}، لا شيء من هذا كله هو الذي حطمها! لا، لا، إن جميع هذه الأنواع من المؤسس والعقاب لا تعنيه في شيء! بالعكس: لقد كان يرضيه أن يكون عليه أن يعمل عملاً مضنياً. إنه حين يرهقه العمل الجسمي يستطيع على الأقل أن يتمتع ببعض ساعات من نوم هادئ مريح. أما الطعام الرديء، أما حسأء الكرنب ذاك المليء بالصراصير، فإنه لا يهمه البتة. لم يتفق له، حين كان طالباً، في أول عهده بالحياة، أن لا ينعم حتى بمثل هذا الطعام؟ وأما ملابسه فقد كانت تكفل له الدفء، وهي تلائم طراز الحياة الجديدة التي يحياها، فما زال يريد أكثر من ذلك؟ وأما الأغلال الحديدية، فقد كان لا يكاد يحس بها... وهل يخجل من أن يكون شعر رأسه مخلوقاً أو من ملابس السجين؟ يخجل أمام من؟ أمام صونيا؟ إن صونيا تخاف منه وتخشاه، فكيف يمكن أن يشعر أمامها بخجل؟

ومع ذلك كان يشعر بخجل حتى أمام صونيا، صونيا التي يتقم منها فيعاملها باحتقار وفظاظة. ولكن هذا الخجل أو هذا الشعور بالخزي والعار لا يرجع لا إلى أن شعر رأسه مخلوق، ولا إلى أنه مكبل بالسلاسل! إن ما كان يشعره بالخزي والعار، وما كان يؤلمه إيلاماً شديداً حتى جعله مريضاً، إنما هو الجراح التي أصبت بها كبرياً! آه... لقد كان يمكن أن يسعد أشد السعادة لو كان في وسعه أن يتهم نفسه وأن يدين نفسه! لو استطاع ذلك إذن لكان يمكن أن يتحمل الخزي وأن يتحمل العار! ولكنه مهما تشتت قسوته في الحكم على نفسه، فإن ضميره المتصلب كان لا يجد في ماضيه أية خطيئة فظيعة، اللهم إلا

^{٤٤} «ولا حلق شعر الرأس، ولا الملابس المصنوعة من قصاصتين مختلفتين الألوان»: كان المحكومون بالأشغال الشاقة تحلق لهم نصف رؤوسهم، والمحكومون من الفتة الثانية يلبسون سترة نصفها رمادي والنصف الآخر أسود. ويحملون على ظهرهم صورة آس أصفر.

أن تكون هذه الخطيئة هي أن ضربته قد أخفقت. صحيح أن هذا يمكن أن يقع لجميع الناس، ولكنه كان يشعر بالخزي من أنه ضاع بمثل هذه العماوة، بمثل هذه الحماقة، بمثل هذا الانهيار، ومن أنه خاصة مضطرب، وهو راسكولنيكوف، أن ينصلح لحكم هذا القدر الأعمى، وأن يخضع أمام «سخافة» هذا الحكم، إذا هو أراد أن يسترد المدوء والسكينة.

إن قلقاً لا موضوع له ولا غاية له في الحاضر، وإن تضحيه متصلة غير منقطعة في المستقبل، ذلك هو كل ما يتظره هنا على هذه الأرض! فائي فائدة إذاً في أن يقول لنفسه أنه بعد ثمانين سنتين لن يكون عمره قد تجاوز اثنين وثلاثين سنة، وأنه ما يزال يستطيع أن يستأنف حياته؟ علام يحيى؟ ما هي الغاية التي ما يزال يستطيع أن يلاحقها؟ ما هو الهدف الذي ما يزال يمكنه أن يسعى إليه؟ ماذا يفيده وماذا يجديه أن يستمر في الصراع والكفاح؟ أيها من أجل أن يوجد؟ ألا أنه كان طوال حياته مستعداً لأن يضحي بوجوده ألف مرة في سبيل فكرة، في سبيل أمل، بل وفي سبيل تحقيق نزوة! إن الوجود في حد ذاته لم يكن كافياً له في يوم من الأيام. وإنما هو كان يطمع دائماً في أكثر من ذلك! ولعل عنف رغباته كان وحده السبب في أنه ظن نفسه إنساناً يجوز له ما لا يجوز لغيره.

ولو أن القدر قد اختار له الندامة، الندامة المحرقة التي تحطم القلب وتطرد النوم. الندامة التي تجعل صاحبها يفكر في الانتحار شنقاً أو غرقاً، إذاً لكان سعيداً كل السعادة! إن الآلام والدموع هي الحياة أيضاً! ولكن راسكولنيكوف لم يكن نادماً على اقترافه جريمته.

لو كان نادماً لاستطاع أن يغضب من حماقته، كما غضب في الماضي من أفعاله الشاذة الغبية التي قادته إلى المعتقل. أما وقد أصبح الآن في المعتقل، وأصبح يستطيع أن يفكر في تلك الأفعال بحرية تامة، فإنه لا يراها شاذة ولا سخيفة إلى الحد الذي تراءى له قبل ذلك في اللحظة المحتومة المسؤومة.

إنه الآن يقول لنفسه: «هل فكري أغبى من تلك الأفكار والنظريات التي تجري في هذا العالم وتتصادم منذ أن وُجد العالم؟ يكفي أن نواجه الأمور بنظرة موضوعية واسعة متحركة من الأحكام السابقة اليومية حتى ندرك أن فكري ليست... غريبة إلى ذلك الحد الذي قد يتوجه بعضهم... أية منها الجاحدون، أيها الفلاسفة التافهون، لماذا توقفون في منتصف الطريق؟ غريب! لماذا تبدو لهم فعلتي شاذة إلى هذا الحد؟ لأنها جريمة؟ ماذا تعني كلمة: جريمة؟ إن ضميري مرتاح. صحيح أن جريمة قد وقعت. صحيح أن نص القانون قد اخترق وأن دمًا قد سفك. فإذا كان الأمر أمر تقييد بنص القانون، فاقطعوا رأسي... ولنسكت! ولكن يجب أن نذكر في هذه الحالة أن كثيراً من العظماء الذين أحسنوا إلى الإنسانية ولم يكونوا قد ورثوا السلطة وراثة وإنما استولوا عليها استيلاء، وبالتالي كان ينبغي أن تقطع رؤوسهم منذ خطوا خطواتهم الأولى. إن الفرق الوحيد بين هؤلاء وبيني هو أنهم قد احتملوا ثقل أفعالهم، فكان ذلك مبرراً لهم، أما أنا فلم أقدر على الاحتمال. إذن كان لا يحق لي أن أجيز لنفسي القيام بذلك الخطوة».

تلك هي الخطية الوحيدة التي كان راسكولنيكوف يؤخذن نفسه عليها: وهي أنه لم يستطع أن يتحمل، بل مضى يشي بنفسه ويعترف بجريمه.

وكان يتأنم أيضاً حين يخطر بباله هذا السؤال: لماذا لم يتتحر حينذاك؟ لماذا، حين مال على ماء النهر، آثر أن يشي بنفسه؟ هل يمكن أن يكون حب البقاء قوياً هذه القوة، يصعب التغلب عليه إلى هذه الدرجة من الصعوبة؟ إن سفدريجايلوف الذي كان يخشى الموت، قد استطاع مع ذلك أن يتصر على حب الحياة هذا!

كان راسكولنيكوف يعاني من إلقاء هذه الأسئلة على نفسه عذاباً شديداً، ولا يستطيع أن يدرك أنه حين مال على ماء النهر فلعله أوجس في نفسه وفي اقتناعاته كذباً. إنه لم يدرك أن هذا التوجس يمكن أن يكون علامة انعطاف مقبل في حياته، وبشارة انبعثت جديد، واستباقاً لتصوره الحياة في المستقبل تصوراً آخر.

وإنما كان يتوهم أن هذا من ثقل الغريرة البليد، وأنه من عجزه وجبنه لم يستطع التغلب على ذلك الثقل. وكان إذ يلاحظ رفاقه في الأسر يدهشه ما يراه من أنهم جميعاً يحبون الحياة حباً قوياً، ويظلون متعلقين بها أكثر مما يمكن أن يحبوها وأن يتعلقوها بها لو كانوا أحراراً طلقاء. ومع ذلك ما أقصى أنواع العذاب، وما أشد ضروب الآلام التي كان يعانيها بعضهم! المتردرون مثلاً... هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشأن الكبير كله وأن تكون تلك القيمة العظيمة كلها، في نظرهم، لشعاع من شمس، لغابة متوحشة، لنبع ماء بارد في قرار الأحراج (نبع رأه أحدهم منذ ثلاث سنين، فأصبحت صورته تلازمه حتى لكونها صورة لقاء خليلته يراها في منامه)، لنبتة عشب خضراء طالعة حول ذلك النبع، لطير يغرس في الأدغال؟

وأمعن راسكولنيكوف في الملاحظة مزيداً من الإمعان، فكانت تفجأ بصره، وتشير دهشته أمثلةً أعسر فهماً من مثال المترددين أيضاً. إن في المعتقل أموراً كثيرة كانت تفوتها، وكان هو لا يريد أن يراها على كل حال. لقد كان يعيش غاضباً بصره خافضاً عينيه إن صح التعبير. كان النظر إلى ما حوله يثير اشمئزازه. غير أن أشياء كثيرة أخذت تفاجئه آخر الأمر، فإذا هو، على غير علم منه تقريباً، قد بدأ يرى ما لم يكن يدور في خلده أو يخطر بباله قبل ذلك. ولعل ما أدهشه أكثر من أي شيء آخر هو الهوة الرهيبة، هذه الهوة التي لا يمكن اجتيازها، أعني الهوة التي تفصله عن هؤلاء الناس. لكونهم يتبعون إلى أجناس مختلفة. إنهم ينظرون بعضهم إلى بعض نظرة شك وعداوة. وكان راسكولنيكوف يعرف ويفهم الأسباب العامة لهذا التناحر، ولكنه لم يتصور في يوم من الأيام أن هذه الأسباب يمكن أن تبلغ هذا المبلغ من العمق والقوة.

وكان في السجن أيضاً سجناء بولنديون نفوا إلى سibiria لجرائم سياسية^{٦٠}. فكان هؤلاء ينظرون إلى الآخرين نظرتهم إلى رعاع وعيid، ويعاملونهم معاملة احتقار، غير أن راسكولنيكوف كان لا يستطيع أن يشارك في هذا الرأي. ذلك أنه كان يدرك بوضوح أن هؤلاء الرعاع كانوا من نواح كثيرة أذكى من أولئك البولنديين أنفسهم. وكان بين الروس أيضاً أناس يزدرون رفاقهم ازدراء زائداً، ولا سيما ضابط سابق، ورجلان مثقفان. وقد أدرك راسكولنيكوف خطأ هؤلاء أيضاً.

ومع ذلك لم يكن يحبه أحد، وكان الجميع يتداشونه ويتجنبون صحبته. حتى لقد انتهى بهم الأمر إلى كرهه. لماذا؟ ليس يدرى؛ كان بعضهم، وهم أشد إجراماً منه، يحتقرونه ويستهذون به، ويجعلون جريمته محل سخرية وتفكه وضحك! كان هؤلاء يقولون له:

– أنت سيد! فهل شأنك أنت أن تقتل بضربات فأس؟ ليس هذا شأن سيد من السادة!

وفي الأسبوع الثاني من الصوم الكبير، جاء دوره للاعتراف والتناول مع سائر أفراد قسمه. فعل كما فعل الآخرون، فذهب إلى الكنيسة وصلى. ولكن مشاجرة شبّت في ذات يوم دون أن يعرف لماذا. لقد هجم عليه الجميع باندفاع شديد، وأخذوا يصيحون قائلين له:

– أنت ملحد! أنت لا تؤمن بالله! يجب قتلك!

إنه لم يكلمهم في يوم من الأيام عن الله، ولا عن الدين؛ ولكنهم يريدون قتله بحجج أنه ملحد لا يؤمن بالله. لم يعرض بشيء، وصمت. ووثب أحد السجناء نحوه مهتاجاً مسحوراً. فانتظره راسكولنيكوف هادئاً صامتاً. لم يحرك ساكناً، لم يتزحزح من مكانه، ولا اختلقت قسمة من قسمات وجهه. واستطاع

^{٦٠} «وكان في السجن أيضاً سجناء بولنديون نفوا إلى سibiria لجرائم سياسية»: المقصود بهؤلاء السجناء: الثوار البولنديون الذين شاركوا في الانتفاضات البولندية في ١٨٣١ و ١٨٦٢ و ١٨٦٤ والتي قمعتها السلطات القيصرية الروسية بشدة.

أحد الحراس أن يبادر فيحول بين المهاجم وبين راسكولنيكوف في اللحظة التي هم فيها الرجل أن يفتئ بالضحية، فلو تأخر الحراس لحظة واحدة لسال الدم.

هناك مسألة أخرى لم يستطع راسكولنيكوف أن يجد لها حلًّا: لماذا عطفوا جميعاً على صونيا وأحبواها؟ كانت صونيا لا تحاول أن تحظى بموتهم. وكانوا لا يلقونها إلا في مناسبات نادرة، أثناء العمل، حين تجيء لتراه دقيقة واحدة. ومع ذلك عرفوها جميعاً، وعرفوا جميعاً أنها تبعته هو، وعرفوا جميعاً كيف تعيش وأين تسكن. وهي لا تهب لهم مالاً، ولا تقدم إليهم خدمات خاصة. مرة واحدة، في عيد الميلاد، حملت هدية إلى السجن كله: فطاير صغيرة وخبزاً أبيض. غير أن علاقات قوية قد انعقدت بينهم وبين صونيا شيئاً بعد شيء: أصبحت تتولى عنهم كتابة رسائل إلى أسرهم، وتضع الرسائل في البريد. وإلى صونيا إنما كان أقرباء السجناء من الرجال والنساء الآتين من المدينة، يعهدون بالأشياء أو حتى بالأموال التي يريدون إرسالها إليهم، بإشارة من السجناء أنفسهم. كانت نساء السجناء وخليلاتهم يعرفن صونيا ويسعنين إليها في بيتها. وكان السجناء، إذا هي ظهرت في ورشات العمل لترى راسكولنيكوف، أو صادفت فريقاً منهم ذاهباً إلى العمل، يرفعون لها طاقياتهم احتراماً ويعيونها جميعاً. كان هؤلاء الجفاة الغلاظ الموسومون^{٦٦} يقولون للفتاة الهزيلة النحيلة الضعيفة: «ماتوشكا»^{٦٧} صونيا سيميونوفنا، أنت أمنا الحنون الرؤوف». وكانت صونيا ترد على تحيةهم، وتبتسم لهم، وكانوا جميعاً يحبون أن يروها تبتسم. كانوا يحبون حتى طريقتها في المشي، فإذا مررت التفتوا يتبعونها بنظراتهم. كانوا لا يقولون فيها إلا مدحًا، كانوا يمدحون حتى ضالتها. أصبحوا لا يعرفون كيف يمدحونها مزيداً من المدح. وإذا مرضوا ذهبوا يلتمسون عندها علاجاً.

^{٦٦} «وكان هؤلاء الجفاة الغلاظ الموسومون»: كان المحكومون بالأشغال الشاقة من الفلاحين والجنود وصغار أهل المدن يوسمونهم في روسيا بأحرف KAT (أي أشغال شاقة) تقع على خدودهم وجبارهم، أما المحكومون بالأشغال الشاقة من البناء فلا يوسمون.

^{٦٧} «ماتوشكا»: اسم التدليل بـ«أم - ماما».

قضى راسكولنيكوف في مستشفى السجن نهاية الصوم الكبير كلها، وعيد الفصح كله. فلما أصبح في دور النقاوه تذكر الأحلام التي رأها حين كان راقداً يعاني سكرات الحمى والهذيان. لقد حلم، طوال مدة مرضه، بأن العالم كله قد كتب عليه أن تلم به مصيبة رهيبة لا عهد بمثله من قبل، مصيبة وفدت من آخر آسيا ونزلت بأوروبا؛ وأن جميع الناس سيهلكون إلا قلة قليلة مختارة. إن طفليات من نوع جديد قد ظهرت، واختارت أجسام البشر مسكنها. غير أن هذه المخلوقات الميكروسكوبية كائنات مزودة بعقل وإرادة، والبشر الذين تدخل أجسامهم يصبحون على الفور مجانيين مسحورين، ولكنهم يعدون أنفسهم على ذكاء عظيم لم يزعمه البشر لأنفسهم في يوم من الأيام قط؛ فهم يعتقدون بأنهم معصومون من الزلل مبرّؤون من الخطأ، في أحکامهم، في نتائجهم العلمية، في مبادئهم الأخلاقية والدينية. إن قری ومدنناً وأماً بكمالها قد سرت إليها هذه العدوى، وفقدت العقل. أصبح أفرادها يعيشون في حالة جنون، لا يفهم بعضهم عن بعض شيئاً، لا يفهم أحد منهم عن أحد شيئاً، كل واحد يؤمن بأنه الإنسان الوحيد الذي يمتلك الحقيقة، فإذا نظر إلى الآخرين تألم وبكى ولطم صدره وعصف يديه لوعة وحسرة. أصبح الناس لا يستطيعون أن يتفاهموا على ما ينبغي أن يُعد شرًّا وما ينبغي أن يُعد خيراً. أصبحوا لا يستطيعون لأن يدينوا ولا لأن يبرّئوا. أصبح البشر يقتل بعضهم بعضاً تحت سيطرة بغض لا معنى له وكره لا يُفهم. هم يجتمعون ليؤلفوا جيوشاً كبيرة، فما أن يدخلوا معركة حتى يندلع الشقاق في جميع الصفوف فتنحل الجيوش، ويأخذ الجنود يهجم بعضهم على بعض، في بعض بعضهم بعضاً، ويذبح بعضهم بعضاً، ويلتهم بعضهم بعضاً. في المدن يدق ناقوس الخطر طوال النهار، ويُستنفر الشعب. ولكن من الذي يستنفره؟ ولماذا يستنفره؟ ذلك أمر لا يعرف أحد عنه شيئاً. الرعب يستبد بجميع الخلق. المهن العادية هجرها أصحابها، لأن كل واحد يعرض آرائه وإصلاحاته، وما من أحد يستطيع أن يتافق مع أحد. الزراعة أهملت إهمالاً تاماً. هنا وهناك يجتمع أناس يشكلون جماعات ويتفاهمون على القيام بعمل مشترك،

متعاهدين بأغلظ الإيمان على أن لا يفترقوا قط، ولكنهم ما يلبثون أن يشرعوا في شيء لا يمت بأي صلة إلى ما عقدوا النية على القيام به، ثم ما يلبثون أن يأخذوا في التراشق بالتهم، ثم ما يلبثون أن يقتتلوا فيذبح بعضهم بعضاً. وتشتعل الحرائق، وتظهر الماجاعة. كل شيء يصييه الدمار، وجميع الناس تقريباً يهلكون. البلاء ما ينفك يشتد قوة ويتسع مدى. ولا ينجو من البلاء إلا عدد قليل من الناس: هم الأنقياء الأطهار، المصطفون الأخيار، الذين كتب عليهم أن ينشئوا جنساً جديداً وأن يقيموا حياة جديدة، أن يجددوا الأرض ويطهروها. غير أن أحداً لم ير أولئك الأفراد في مكان، ولا سمع أقواهم ولا سمع أصواتهم.

إن الشيء الذي كان يعذب راسكولنيكوف هو أن ذلك الهدیان السخيف يترجّع في ذاكرته تراجعاً حزيناً وأليماً. وأن الانطباع الذي خلفته تلك الأحلام المؤلمة لا يمحى إلا ببطء.

وجاء الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح. أصبحت الأيام دافئة مضيئة. هي أيام ربيع حقاً. فُتحت نوافذ المستشفى لأول مرة (هي نوافذ ذات قضبان حديدية يجرسها خفيراً).

طوال مدة مرض راسكولنيكوف لم يُسمح لصونيا أن تزوره إلا مرتين، وقد اضطرت في المرتين كلتيهما أن تطلب إذناً بذلك، فكان يقتضيها هذا أن تقوم بمساعٍ معقدة جداً. لكنها كثيراً ما كانت تأتي إلى فناء المستشفى، ولا سيما عند هبوط الليل لتنظر إلى النوافذ من بعيد، ولتمكث في الفناء بضع دقائق أحياناً.

ففي مساء من الأماسي، وكان راسكولنيكوف قد أبلّ من مرضه تقريباً وكان نائماً، صحا من نومه واقترب من النافذة مصادفة، فإذا هو يلمع صونيا تحت، قرب الباب. كانت واقفة وكأنها تنتظر شيئاً. فشعر راسكولنيكوف بما يشبه أن يكون طعنة نفذت في قلبه. فارتعد وأسرع يبتعد عن النافذة.

ولم تجئ صونيا في غد، ولا جاءت بعد غد. فأدرك راسكولنيكوف عندئذ أنه يتظرها فارغ الصبر. وأخرج أخيراً من المستشفى، فلما عاد إلى السجن علم من السجناء أن صونيا سيميونوفنا مريضة، وأنها ملزمة غرفتها لا تبرحها.

قلق راسكولنيكوف قلقاً شديداً، وأرسل يسأل عنها. فلم يلبث أن عرف أن مرضها ليس خطيراً. وحين علمت صونيا من جهتها أنه يتأمل من غيابها عنه وأنه قلق عليها بعثت إليه برسالة كتبتها بالقلم الرصاص، وفيها تنبئه بأن صحتها تحسنت كثيراً، وأن مرضها لم يكن إلا بردًا بسيطاً، وأنها ستمضي تراه أثناء العمل في أقرب فرصة. فكان قلب راسكولنيكوف يخفق خفاناً موجعاً أثناء قراءته هذه الرسالة.

كان النهار في هذه المرة كذلك مضيئاً دافئاً. ومضى راسكولنيكوف إلى العمل على ضفاف النهر في ساعة مبكرة من الصباح هي الساعة السادسة، وذلك تحت سقيفة فيها فرن لحرق الرخام الشفاف وسحقه. لم يرسل إلى هذا المكان إلا ثلاثة عمال من السجناء. فأما الأول فقد عاد مع المراقب إلى السجن ليجيء بالأدوات، وأما الثاني فكان يهيء الحطب ويضعه في الفرن. وخرج راسكولنيكوف من تحت السقيفة واقترب من الشاطئ وجلس على إحدى عوارض الخشب المصطفة قرب المبني وأخذ يتأمل النهر العريض المقفر. إن المرء يرى، من على هذه الضفة العلية، هضبة واسعة. ووصل من الضفة الأخرى غناء لا تكاد تسمعه الأذن. إن هناك في المرج الذي تغمره الشمس، والذي يمتد على مدى البصر، خيام بدرو رحل تبدو للناظر إليها نقاطاً صغيرة سوداء. هناك الحرية. هناك يعيش بشر آخرون، يختلفون كل الاختلاف عن البشر الذين يعيشون هنا. هناك يبدو الزمان متوقفاً كأن عصر إبراهيم وقطعانه لم ينصرم بعد. كان راسكولنيكوف ينظر إلى ذلك المشهد جالساً في مكانه جامداً على وضعه، لا يستطيع أن يحول عنه بصره. لقد انزلق فكره نحو الاسترسال في الأحلام والاستغراق في التأمل دون أن يحس. أصبح لا يفكر في شيء، واجتاح نفسه حزن كبير.

وفجأة وقفت صونيا أمامه. كانت قد دنت منه دون ضجة، وها هي ذي تجلس إلى جانبه. إن برودة الصباح لم تكن قد خفت بعد. وكانت صونيا ترتدي معطفاً مهترئاً، وتضع الشال الأخضر. وكان وجهها الناحل المصفر ما يزال يحمل آثار مرضها الأخير. ابتسمت له في رقة ولطف، مرحة الهيئة، ولكنها على عادتها لم تعدد إليه يدها إلا خجلة وجلة.

كانت دائماً تمد إليه يدها على خجل ووجل، وكانت في بعض الأحيان لا تمدتها إليه البتة، لأنها هي تخشى أن يدفعها عنه. كان يبدو عليه دائماً أنه يتناول يدها بنفور وامتعاض، وكان يبدو عليه دائماً أنه يستقبل الفتاة باستحياء ومضض. وفي بعض الأحيان كان يصر على الصمت في عناد طوال مدة الزيارة. وكانت صونيا في بعض الأيام ترتعش أمامه خائفة، ثم تصرف وفي نفسها حزن عظيم ولوعة شديدة. أما في هذه المرة فإن يديهما لم تحاولا أن تنفصلا. ألقى راسكولنيكوف عليها نظرة سريعة خاطفة، ولم يقل شيئاً، وخفض عينيه. كانا وحيدين. لم يكن يراهما أحد. كان الحارس قد ابتعد للحظات.

لا يدرى راسكولنيكوف نفسه كيف حدث ما حدث، ولكنه يعرف أنه شعر فجأة بشيء يستبد به ويلقى على قدمي صونيا. لقد اترمى راسكولنيكوف على قدمي صونيا، وبكى، وضم ركبتيها إلى صدره. ذعرت في أول الأمر ذرعاً شديداً، وغشيت وجهها صفرة كصفرة الموتى. ثم نهضت فجأة، ونظرت إليه مرتجفة مرتعشه. ولكنها سرعان ما أدركت كل شيء بنظرة واحدة. أخذت عيناهما تشعاً بسعادة لا حدود لها. لقد فهمت – وليس يخالجها الآن في ذلك أي شك – فهمت أنه يحبها، وأنه يحبها جاً ليس له نهاية، وأن تلك الدقيقة قد آن أوانها أخيراً...

أرادا أن يتكلما، ولكنها لم يستطعوا. امتلأت عيناهما دموعاً. كانا كلاهما أصفرى الوجه هزيل الجسم؛ ولكنها هو ذا فجر مستقبل جديد يسطع في وجهيهما منذ الآن شوقاً كاملاً إلى حياة جديدة. لقد بعثها الحب بعثاً جديداً، إن قلب كل منها يفجر في قلب الآخر ينابيع حياة لا تنضب.

قررا أن يتظروا وأن يذعنوا. ما يزال عليهم أن يقضيا سبع سنين أخرى في سibirيا. صحيح أنها ستحملان أثناء هذه المدة آلاماً لا طاق، ولكنها سيسعدان أيضاً سعادة ليس لها حدود! لقد انبعث راسكولنيكوف بعثاً جديداً. هو يعرف ذلك. هو يحس بذلك بكل كيانه الجديد. وهي، أليست تحيا ب حياته، أليست حياتها من حياته؟

في ذلك المساء، في مبني السجن المغلق، فكر راسكولنيكوف في صونيا وهو راقد على مضجعه. وبداله، في ذلك المساء أيضاً، أن جميع السجناء، جميع أعدائه القدامى، نظروا إليه نظرة جديدة، ورأوه بأعين أخرى. لقد خاطبهم، فأجابوه برقه ونعومة. هو يتذكر ذلك الآن، ولكن أليس هذا هو ما يجب أن يكون: ألا يجب أن يتغير كل شيء بعد اليوم؟

فكر في صونيا. فتذكر أنه قد عذبها دائماً، وأنه كان يمزق قلبها تزيقاً. تذكر وجهها الصغير الشاحب الذي نحل نحوه شديداً، ولكن هذه الذكريات أصبحت لا تكاد تعذبه. فهو يعرف أنه سيكفر الآن عن جميع تلك الآلام بحب لا نهاية له.

ثم، ما قيمة تلك الآلام الماضية كلها الآن؟ إن كل شيء، حتى الجريمة التي ارتكبها، وحتى الحكم الذي صدر عليه، وحتى النفي الذي يقاسي منه، إن كل هذا هو الآن أثناء هذه الاندفاعة الأولى، يبدو له نسيجاً من وقائع خارجية غريبة عنه لا تتعلق بشخصه ولا تتناوله هو. ثم إن راسكولنيكوف كان في ذلك المساء عاجزاً عن أن يفكر تفكيراً طويلاً متصلاً، وعن أن يركز فكره على نقطة بعينها، وعن أن يحل مشكلة من المشكلات على هدى وبصيرة: فإنها هو يشعر بإحساسات، لا شيء غير الإحساسات. لقد حلت الحياة محل الجدل؛ وفي أعماق نفسه أصبح ينضج شيء آخر تماماً.

وكان تحت وسادته إنجيل، فتناوله بحركة آلية. كان هذا الكتاب لصونيا، وهو بعينه الكتاب الذي قرأت له فيه في الماضي قصة انبعاث لعاذر. كان راسكولنيكوف يقدّر في أول عهده بالسجن أن صونيا ستتصدّع رأسه بالكلام على الدين، وأنها ستتحدى عن الإنجيل بغير انقطاع، وأنها ستحاول أن تفرض عليه كتاباً دينية. فما كان أشد دهشته حين لم تطرق هذا الموضوع في يوم من الأيام، لا ولا عرضت عليه أن تجيئه بالإنجيل قط. إنه هو الذي طلب منها ذلك قبل مرضه بقليل، فحملت إليه الكتاب دون أن تقول كلمة واحدة.

وهو لم يفتحه في تلك المرة، لكن فكرة قد اجتازت رأسه الآن بسرعة كوميض البرق: «هل يمكن أن لا يكون إيمانها الآن هو إيماني؟ أو هل يمكن على الأقل أن لا تكون عواطفها وأشواقها هي عواطفني وأشواقي؟...»

وقد اضطررت صونيا اضطراباً شديداً طوال ذلك اليوم هي أيضاً، وألمّ بها المرض مرة أخرى في تلك الليلة. ولكن سعادتها كانت تبلغ من القوة، وكانت تبلغ من المبالغة، أنها تكاد ترعبها! سبع سنين، سبع سنين فقط!

ومرّت بها في البداية ساعات نشوة كانا فيها كمن يعد السنين السبع أياماً سبعة. كان راسكولنيكوف ما يزال يجهل أن هذه الحياة الجديدة لن توهّب له بغير تضحية، وأن عليه أن يدفع ثمنها غالياً، وأن يحصل عليها بجهود شاقة قاسية مضنية...

ولكن هنا تبدأ قصة أخرى، قصة تجدد إنسان شيئاً بعد شيء، قصة انبعاثه رويداً رويداً، قصة انتقاله من عالم إلى عالم آخر متدرجاً، قصة معرفته الواقع الجديد كان يجهله حتى ذلك الحين كل الجهل.

هذا يصلاح أن يكون موضوع قصة جديدة، أما قصتنا التي نرويها الآن فهي تنتهي هنا.